أبو حامد
صخر بن حسين

الإسهام بعلوم الإسلام

غوتنز للنشر والتوزيع

صخر بن حسين

كتاب الإسهام بعلوم الإسلام

باريس 15 شوال 1441 – 6 جوان 2020

غوتنر للنشر والتوزيع – باريز

isbn : 978-2-7053-4053-7

فِهرس الأبحاث

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

عندي من العِلم لُـــبُّه وجَوهرُه

والناسُ أعينُهم تَرنُو إلى الصَّدَفِ

فلو وجدتُ له أهلاً لَـــبُحتُ به

مُستَخرِجًا كنزَه مَحفوفًا بالطُّرَفِ

لكنَّ أهلَه قد عَفَـــوا فلا طالِبَ

نَلقاه يَسمُو إلى العَلياء والشَّرَف

الأمير عبد القادر الجزائري

تنبيه

أعتذِرُ للقارئ الكريم على أمرين: أحدهما آثار 'الكورونا' الذي أصابني، وقد شفاني ربي من هذا الداء الذي أشفا بي على الموت، والحمد لله. لهذا الوباء الوخيم عواقب عديدة، نعلم بعضها ونجهل الكثير؛ من بينها الإخلال بالجهاز العصبي كالنّقص من قوة التركيز والانتباه، فيَكثُر السّهو والخطأ، ومنه السَّقط. فذلك أصل الأخطاء العديدة في هذا السِّفر فبعد جهود ومكابدة لتصحيح ما وقع، وجدت نفسي أُحدِثُ أخطاءً أكثر، ففاتني الكثير مما لست بقادر على تدارُكه. فيا أخي القارئ، جُد عليّ بحلمِك؛ حيثما بدا لك خطأٌ فردَّه أو فراغٌ فسُدَّه أو خلل فعدّله.

الأمر الآخَر أنّي ركبتُ صعبًا، ولم يكن عملي هذا من تلقاء نفسي ولكن إجابةً لطلبٍ ملحٍّ جاءني من مُحسنٍ يريد جمع اليهود والمسيحيين والمسلمين على ما يتقاسمونه من تعاليم ربّانيّة. لم أَردّ طلبَه مع قلَّة بِضاعتي، فأَقدمتُ بجُرأة مستعينًا بالله. وإن لَم آلُ جُهدًا، فسيظلّ جُهدَ مُقِلٍّ، والكرامُ يُقدّمونه على جود الْمُكثِر؛ ولَمّا سُئل نبيُّنا: أيُّ الصدقةِ أَفضَل؟ قل: «جُهدُ الْمُقِلّ!» فلا جَرم أن لا يخلوَ عملي هذا مِن نَقص وسَهو. وما قصدتُ سوى الإفادة والخير؛ فما كان فيه مِن إصابة حقٍّ ففضلٌ من الله ومِنَّة، وما أخطأتُ فيه فمِنّي والله ورسولُه بَراء منه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا إلهَ إلا هو الحيُّ القيّوم، نورِ السماوات والأرض مُنيرِ الفُهوم، حمدًا يكافئُ نِعمَه بأوفَى قدر ولُزوم. وصلِّ اللهم وسلِّم على خاتم النبوّة المختوم، محمّدٍ الذي والَى فنَفع وتولَّى فما كان بِمَلوم، ورَفعتَ له ذِكرَه وجعلتَ الصلاةَ عليه مِن الواجب المَحتوم، لتنجليَ ببركاتها الهموم وتنفرج كُربات كل مَغموم، ثُمَّ ارْضَ اللهمَّ عن أزواجه أمَّهات المؤمنين، وعِترته السِّبطين وفاطمة وزينب ورقيّة وأمِّ كُلثوم، وعن أصحابه أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ دُعاةِ الهُدى النجوم والمهاجرين والأنصار فمَن تبعِهم بإحسان إلى يوم الوقت المَعلوم، ثم ارحَم اللهم ورَبِّه حَفظةَ العلوم العاملين بما علَّمتَهم من خواصِّ مُتَّبع رسولك على مَرِّ السنين في الحواضر والتُّخوم، ثم حرِّك للخير هِمَم علماء الرُّسوم وألْهِمهم الرُّشد ووفِّقهم للنُّصح للرؤوس والعموم وللطالب النشِط والكسول السَؤُوم، آمينَ، آمين، ما هبَّت سَمومٌ وهَطَلت غُيوم.

وبعد: فذاتَ يوم، وأنا أتحدّث مع أحد الفيزيائيِّين، ذكرتُ له كتابَ 'إحياء عُلوم الدين' لأبي حامد الغزالي، فتعجّب قائلا: أَلِلدِّين علوم؟! أليس الدين نقيضَ العلم ومُعارضًا للعقل؟! فأجبتُه بأنَّ نبيَّنا، صلى الله عليه وسلّم قد قال «طَلَبُ العِلم فَريضةٌ على كلِّ مُسلم!»[1] أي واجبٌ شرعًا، وليس هذا في مسائل الدين فقط، بل يشمَل الطبيعة والصنائع واللّغات وما يسمُّونه العلوم الدَّقيقة. عندئذ بان له الحق وأنه لا تعارُضَ بين العقل والدين ألبتّة، وأنّ العلم غير مُقتصِر على الموادّ المدروسة في الْمَعاهد من إنسانيات وطبيعيات ورياضيات؛ وأنّه ما مِن شيء في الوُجود إلا وله علومُه التي تجعلُ منه معلومًا، أي مُدرَكًا لَدا الغير. فالعلمُ إدراكُ الأمور بواسطة العقل، وتكميل للنفس بإدراكِها حقائقَ الأشياء الحِسيَّة والْمَعنويّة. وصدق مَن قال: اُطلبِ العلمَ مِن الْمَهد إلى اللَّحْد! المَهد هو فراش الصبيّ واللَّحد: القبر، فعلى العاقل أن يغتنِمَ أوقاتَه ويقضي حياتَه في طلب العلم النافع إلى آخر رَمَق من عُمره. وقد قلتُ في ذلك:

وَدِدتُ الْمَوتَ بغير وَعْــيٍ مَخافَــةَ الأمرِ العَــسير
فخِفتُ الفَوتَ وغَبنَ نَفسٍ أَمنَــعُها الدّرسَ الأخيــر

فالإسلام، وعلى غِرار غيره من الأمور المعقولة، له علومُه بالضرورة. ومَصدرُها الأوّل القرآنُ، الذي هو وَحيٌ من الله خالقِ كل شيءٍ إلى رسوله محمّد بن عبد الله، ثم السُّــنَّةُ وهي فَهمُ وتطبيقُ رسول الله لنَصّ القرآن ولتعاليم روح القُدُس جبريل.

---

[1] حديث صحيح بطُرقه، فقد بلغَنا عن عدد من الصحابة، منهم أنس بن مالك وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبي سعيد الخدري والحسين بن علي وعن أبيه علي بن أبي طالب وعبدِ الله بن عمر وجابر بن عبد الله.

والقرآن إنما جاء ليحثَّ الناس على طلب العلم الصحيح أينما كان، فمِن ذلك قولُه ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّـيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة 2]. المراد بالحكمة هنا هو التفكُّر الصحيح قصدَ فهم ومعرفة الظواهر الطبيعية، والتي هي في الواقع مظاهرُ لعَظَمَة الله ومداخلُ إلى المعرفة العميقة للحقيقة. فالآيات القرآنية التي تدعو الناس إلى التفكُّر الصحيح كثيرةٌ جدّا، نذكر منها مثلاً ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ: لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَاب﴾ فعدُّ الزمَن اليومي بحركة الشمس والشَّهري بشكل القمَر مُرادٌ من الله. لكنّ الْمقصودَ القُرآنيّ غير العدّ للحَشد والتكاثُر، ووراء الظواهر والْمظاهر حقٌّ وحُقوق ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بالْحَقّ، يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون﴾ [يونس 5] هدفُهم سَبر أغوار الأمور وما وراءَ الظَّواهر من جَواهر.

ومن ذلك ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُها﴾ فالماء واحد والثمرات لا حصرَ لها لونًا وشكلاً ومَذاقا ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَد﴾ طَرُق وطبقات ﴿بِيضٌ وَحُمْر، مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُها، وَغَرَابِيبُ سُود﴾ شديدة السواد كالغُراب ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِك﴾ فألوان الناس والحيوانات والجمادات إنما تباينت لحكمة ربّانيّة لا يعلمها إلا القليل، لذا ختمت الآية هكذا ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ!﴾ [فاطر 27-28] والخشية هي الجمع بين الخوف والعِلم، وقيل "بالخشية ينال الأمن"، فلا يخشى الله إلا مَن غاص فِكرُه فيما وراءَ الخَلق من قَصد. قال التُّستَري: لا يكمُل للعبد شيءٌ حتى يصل عِلمَه بالخشية وفِعلَه بالورَع والإخلاص وإخلاصَه بالمشاهدة والتبرّؤ من الحَول والقوّة في ذلك كلِّه.

نقرأُ في [الأنبياء 30-33] ﴿إِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقا﴾ أي كُتلةً واحد ﴿فَفَتَقْنَاهُما﴾ فصلنا بينهما، يوافق هذا ما يسمّيه علماء الفيزياء (Big Bang)، هو عندهم لَحظةُ ميلاد الكون وظُهور الزمان والمكان اللذان لا يزالا يتوسَّعان لتنتُج عنهما الحرَكة، ثم ﴿جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ﴾ وقد اكتشف علماء الطبيعة أنّه لا حياةَ في الكون بلا ماء، حتى أنّهم إذا شعروا بوجود الماء بأحد الكواكب ظنّوا أن هنالك حياةً أو أنّها مُمكنة ﴿أَفَلا يُؤْمِنُون؟﴾ يخطُر ببالِهم أن ينتقلوا من ظواهر الطبيعة إلى مُظهِرها؟ ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جِبالاً وهِضابا لتُرسيَ الأرض فتستقرَّ ﴿أَن تَمِيدَ بِهِم﴾ فلا تدور بهم فيتناثَروا في الهواء ﴿وَجَعَلْنَا فِيها﴾ في الأرض ﴿فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُون﴾ مسالك طبيعيّة ومن صُنع الإنسان ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظا﴾ مَحفوظة لِيُحفَظ بها سُكان الأرض من خَطر الأشعة الْمُضرّة والأجرام الفضائيّة. هذه آيات أي أدلّة تبرهِن على أن للكون خالقًا يسيِّرُه لفائدة الناس ولا يفتُر أدنى لَحظة، لكنّهم في غفلة ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُون﴾ لا يلتفتون إليها ولا يعتبرونها شيئًا ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ؛ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُون﴾ رجوعا إلى مطلع الآيات، ابتدأت بذكر الفتق بعد الرَّتق ليظهرَ الكونُ وتتيسّرَ الحركةُ فيه، والتي أجملُ مظاهرِها سريانُ النجوم ودوران الكواكب الغيرِ متناهية وفقَ نظام مُتَّسِق بلا تصادُم ولا فوضى. فلكلّ جرمٍ مسارُه الخاصّ، لا يتعدّاه. فإذًا ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ معناه أن العلم الصحيح والتفكر الصائب يورِثان، ولا بدّ، خَشيةَ الله. ما الحياة في الحقيقة سوى تلقّي هذا النّوع من العلم والعمل على تحقيقه، أي إبداؤُه في الظاهر وتحقُّقه في الباطن، وذاك طوال العمر.

إلا أنه لا يكفي النَّظرُ في الطبيعة لِمَعرفَة ما وراءَها، بل لا بدَّ من تعليم يأتي مِن ورائها. وذاك هو الوحي الذي جاد به الله على الناس على لسان رُسله فقام كلٌّ منهم بتَبليغ ما أنزِلَ إليه، وذاك المنبَع الذي اندفَقت منه علومُ الدين. ولما كانت تلك العلوم ضروريَّة لإصلاح الأفراد والمجتمَعات صار تعلُّمها والعملُ بمقتضاها واجبَين، وما كان فعلُه فضيلةً كان تعلُّمُه فضيلة. وبهذا خاطبَ القرآنُ النبيَّ محمّدًا ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِين: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ؛ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون! وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا؛ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُون!﴾ [النّحل 89-91] جاء الوحي لتَحقيق الحقوق، تمييزًا بين الخير والشَّر، ليُربِّيَ الفَرد وليُنشئ مجتمَعًا قائمًا على النّظام، وليجمع الإنسانيّة بلا عُنصريّة ولا تَمايُز، على العدل الذي يكفُل قاعدةً ثابتة، لا تتغيَّر وفقَ الأهواء ولا تتأثَّر بالوُدّ أو البَغضاء، سِيّانَ فيها الضعيفُ والقويّ، الفقيرُ والغنيّ، الدَّاني والقاصي. هذا العدل هو أقلّ ما يجب توفيرُه للناس كافّة. ثم الكريمُ مَن تفضَّل وارتَقى وبلغ مقامَ الإحسان، وتَلطَّف فسَما مِن حِدَّة العَدْل الصارِم إلى رحاب الرَّأفة والرَّحمة للتسامُح فيما لَه من حقّ عَطفًا على الخَلق ومحبَّةً لَهم في البشريّة التي تجمعهم وإيّاه.

فإذًا كلُّ ما جعل له الوَحيُ حُرمةً فإنه لا يجوز انتِهاكُها ألبتّة. فمن ذلك مُراقبة حقوق طبيعيّة يتمتَّع بها الحيوان والبيئة. قال رسول الله منبِّهًا على عدم جواز العَبث بحقوق الحيوانات مثلاً «دَخَلت امْرَأَةٌ النّارَ في هِرَّة: ربطتها فلم تُطْعِمها و لم تَسقِها،

و لم تَدَعْها تأْكُل مِن خَشاشِ الأرض، حتى ماتت»[2] وقال في بيان الأَجر على الإحسان إليهم «بينما رجلٌ يَمشي بطريق، اشْتَدَّ عليه العطَشُ، فوجد بئرًا فنَزل فيها فشَرِبَ ثم خَرَج. فإذا كلبٌ يَلْهَثُ، يأكل الثَّرَى من العَطش، فقال الرجلُ: لقد بلغ هذا الكلبَ من العطشِ مثلُ الذي كان بلغَ مِنّي! فترل البئرَ فملأَ خُفَّهُ ماءً ثم أمْسَكَه بِفَمه حتى رَقِيَ، فسَقَى الكلبَ. فشكرَ اللّهُ له فغفر له» قالوا: يا رسولَ الله، إنَّ لَنَا في البَهَائِم أجرا؟ قال «في كُلِّ كَبدٍ رَطبَةٍ أجر!»[3].

لذا فإنَّه لا يَحلُّ للإنسان ولا يَحقُّ له، أيًّا كانت ملَّتُه، أن يتصرَّف بتهوُّر مع الطبيعة، فقد وصفَ اللّهُ ذلك بأنَّه طُغيان وإسراف يستحقُّ العقوبة فقال ﴿كُلُوا مِن طَيِّباتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي!﴾ [طه 81] وأيضا ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَات، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْع، مُخْتَلِفًا أُكُلُه، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّان، مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِه؛ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِه. وَلا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِين! وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِين!﴾ [الأنعام 141-142].

ومِن أجمَل وأجمع ما أعلَمُه في هذه المسألة ما بلغنا عن النبيِّ، صلى الله عليه وسلّم، قال «مَثَلُ القائِم في حُدودِ الله والْواقِع فيها: كَمثل قَومٍ استَهَموا على سَفينَة، فَأصابَ بَعضُهم أَعلاها وبعضُهم أسْفَلَها. فكان الذين في أَسفلِها إذا استَقَوا من الماء مَرُّوا على مَن فَوقَهم، فقالوا: لو أنا خرَقْنا في نَصِيبِنا خرْقا ولَمْ نُؤذِ مَن فَوقَنا! فإن تَركُوهُمْ وما

---

[2] خرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر والخشاش أي الحشَرات.

[3] خرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة،والهرَّة هي القطّة.

أَرَادوا هَلَكوا وهلكوا جَميعًا، وإن أخذُوا على أيدِيهِمْ نَجَوا ونَجوْا جَميعا!»[4] قولُه: حُدود الله أي الأُطُر الشرعية التي وضعها تعالى للناس والتي يجبُ الوُقوفُ عندها ولا يجوزُ التهاونُ بها ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا!﴾ [البقرة 187]، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ!﴾ [البقرة 229]، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه!﴾ [الطّلاق 1]. قولُه: الاستِهام هو القُرعَة، فصحَّ لِهؤلاءِ أعلى السفينةِ ولِؤلَئك أسفلُها. أخذوا على أيديهم: منعوهم عمّا أرادوه. وهذا مِثال ينطبِق على البيئة؛ فإن لم يمنع العقلاءُ منّا سُفهاءَنا من الإسراف والعبَث، اللاّ مَعقول، بالبيئة وبالثّروات هلَكنا كلُّنا جميعا.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِل لِتَعَارَفُوا؛ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم!﴾ [الحجُرات 13] ليس الكريمُ بحَسبه ونَسَبه بل بتَقوى الله، وقِوامُ التَقوى البِرُّ مَع خَلق الله. قال النبيُّ «إنَّ أَحبَّكم إلى الله أحَبَّكم إلى الناس، وإنّ أَبْغَضَكم إلى الله أبغضكم إلى الناس!»[5] وقال «إن أحبّكم إلى الله وأقربَكم مِنّي أحاسِنُكم أخلاقًا، وإن أبغضَكم إلى الله وأبعدَكم مني الثّرثارون الْمُتفيهِقون الْمُتشدِّقون»[6] الثرثار: كثير الكلام، الْمُتفيهق: فَهِقَ أي اتّسع وامتلأ، وتفَيهق أي فتح فمَه وتوسَّع في الكلام، الْمُتشدِّق: المتكلِّم من غير احتراز، وقيل: المستهزئ الذي يلوي شِدقَه على الناس. وقال «أَحبُّكم إلى اللهِ أحاسنُكم أخلاقًا؛ الْمُوَطِّئون أَكْنافًا، الذين يَأْلَفُون ويُؤْلَفون. وأبغضُكم إلى اللهِ الْمَشَّاؤون بالنَّميمَة الْمُفَرِّقون بين الإخْوان

---

[4] خرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.

[5] خرَّجه الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد الخُدري.

[6] خرّجه ابن حِبّان عن أبي ثعلبة الخُشني، وله شاهد عن ابن مسعود وجابر وغيرهم.

الْمُلتَمِسُون لهم العَثَراتِ»[7]. والأخبار عن النبي في هذا الموضوع، أعني الإحسان إلى الناس أيًّا كانَت أحوالُهم وألوانهم وأوطانهم وأديانُهم، كثيرةٌ جدًّا لا تكاد تنحصر.

ليس هذا من قبيل التطوُّع، بل واجبٌ مَحتوم كما أُمِرنا ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَر!﴾ [آل عمران 104] وعليه فلا بُدّ للمسلمين في كل عصر أن يتحمَّلوا أعباءَ النُّهوض بالناس في الْمَيادين الأخلاقية، لا بالكلام لكن بالتحلّي بمكارم الأخلاق إفشاءً للخير عل وجه الأرض قرنًا بعد قرن.

قال النبي في حَجَّة الوَداع «يا أيها الناسُ، إنَّ ربَّكم واحدٌ وإن أباكم واحد! ألا، لا فَضلَ لِعربيٍّ على عَجَمي ولا لِعجمي على عرَبي، ولا لأَحمَرَ على أَسوَد ولا لأَسود على أحمر، إلا بالتقوى! إنّ أكرَمَكم عند الله أتقاكم! ألا، هل بَلَّغتُ؟» قالوا: بلى يا رسولَ الله! قال «فَلْيُبَلِّغ الشاهِدُ الغائبَ!»[8] فالتَّبليغ لازِمٌ ولا بُدّ.

***

الإسلام والحداثة

لا بدَّ من تبليغ الدين، ولا يكفي مُجرَّدُ سَردِ نُصوص الوَحي، قرآنًا وسنّة. بل واجب علينا تَرجمَتها وفقَ كل زمان ومكان. يجب أن يتماشَى خِطابُنا الشَّرعي مع مُستجَدّات العصر وأن يوافِقَ عَقليّة البلاد، وإلا لأنكرَه العباد وصدُّوا عنّا وعنه. ما فائدة التبليغ إن لَم يكن الخطابُ مَفهوما؟ قال عليٌّ بن أبي طالب: حَدِّثوا الناسَ بما

---

[7] خرجه الخطيب البغدادي عن أنس بن مالك وله شواهد عن أبي هريرة وغيره.

[8] خرّجه أحمد وغيره عن أبي نضرة وصححه الأرنؤوط.

يعرِفون؛ أتُحِبُّونَ أن يُكذَّبَ اللهُ ورسولُه؟![9] وحصلَ هذا فعلاً، فكَذّبَ أكثرُ الناس بالدين لأنَّهم تبلُغُهم عنه أمورٌ لا يعقلوها. إمّا لكون الْمبلِّغين غيرَ مُتضلِّعين من علوم الدين أو غير مُطَّلِعين على نصوص الوَحي، أو متكلِّفين متطلّعين إلى التصدُّر والجاه بغير وسيلة. والله يعلم أن ما يصيب الإسلام من الداخل أنكى مما يأتيه من الخارج. فمَن لَم يجمع شروط التبليغ بالتَعليم فليكتفِ بإظهار آداب الإسلام وبالسلوك الحسَن بين الناس. وبالجملة فعلى كل مسلم أن يكونَ ترجمانًا للدين حسب ما وهبه الله من خصال تَبلُغها أفهام الْمُخاطَبين ليصحّ منه التَّبليغ ولينتفع به الغير.

لا تَـــنهَ عن خُلُقٍ وتأتي مِثلَه عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ!

أقلُّ القليل من المسلمين مَن يجمَع بين فقه الدين وفِقه الواقِع. وأقلُّ منهم مَن يفهَم معنى قول النبيِّ «إن الله يبعُث لِهذه الأمة، على رأس كل مِائةِ سَنَة، مَن يُجدِّدُ لَها دَينَها»[10]. ظنَّ أكثرُ العلماء أنّ الله سيُظهر كلَّ قرنٍ أحدَ الناس لِيُصلِح به الدين، وكأنَّه نبيٌّ مُرسَل. وهذا غلَط، فلا يلزَم أن يكون واحدا، كما قالوا، بل سيأتي في كل عصر ما يكفي مِن مُجدِّدين في مُختلَف ميادين الدين والحياة، من علماء في سائر العلوم الدينيّة وعلماء في سائر العلوم الدّنيويّة، والتي ليست في الحقيقة غير إلهامات مِن الله يختصّ بها مَن يشاء من خلقِه. فالتجديد قد يشارك فيه غيرُ المسلمين، وإن هم لا يشعرون بإفاداتهم للإسلام. ولَكم استفاد دينُنا من التكنولوجيات، القديمة منها والحديثة، كما هو ظاهرٌ لكل الناس. وكم من أمرٍ حدث وسايرتهُ الشريعة

---

[9] خرّجه البخاري غي كتاب العلم من صحيحه.

[10] خرجه أبو داود والحاكم والبيهقي في 'معرفة السنن' وصححه الأرنؤوط والألباني.

وتبنّته حتى دخلَ في حُكم الْمُستحَبّ بل الواجب. كما هو الأمر مثلاً في قانون السّير وإشارات الُمرور؛ فإنّ ما وجبَ منها عُرفًا تحتَّم شَرعا، وهذا لا يُنكرُه إلا أحمق.

دُعيتُ إلى المغرب منذ سنتَين لِلمُشاركة في مؤتَمَر عنوانُه 'الإسلام والحداثة'، فتعجَّبتُ من هذه المسألة التي ترجع مِرارًا وتِكرارا، وكأنّ بين الإسلام والحداثة تناقُضًا جِذريّا، بل تعارُضًا وُجوديّا بحيث أنّه إذا وُجد أحدُهما انعدَم الآخَر، فلا إسلام مع الحداثة ولا حداثة مع الإسلام. فاحتَرتُ في صيغة مُشاركتي، ولَم أُرِد لا مواجهةَ فِكر الغرب الُمعادي للدين بشتّى صيَغِه ولا مواكبةَ انفعال واندفاع العرب في دفاعهم عن الإسلام. ففكَّرت مليًّا إلى أن فتح الله عليّ، عشيَّة اللقاء فكتبتُ مقالاً سمّيتُه 'الإسلام والحداثة في ضوء سورة العصر' وهذا نصُّه:

سنتطرَّق بدأً إلى مَفهوم الحداثة من المنظور اللُّغوي والفلسفي، ثم نعمَد إلى سورة العصر لبيان قيمة الوقت في الإسلام، فنقول والله وليُّ التوفيق: الحداثة من حَدث الشيء بعد أن لم يكن، خرج من العدم إلى الوجود. ومنه الحديث أي الكلام الذي يظهر من فم المتكلّم ثم ينعدم إبّانَ حُدوثه، في اللحظة نفسِها. سُمّيَ القرآنُ حديثا في مواضعَ ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث﴾ ﴿مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُون﴾ ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيث﴾ ﴿يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيث﴾. وذلك لأنّه مُحْدَث: ﴿ذِكْر مِن رَبِّهِمْ مُحْدَث﴾ ﴿ذِكْر مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَث﴾ قد جاء بعد أن لم يكن ثم ارتفع بارتفاع الوحي وبقيت عبارتُه. فخاصيّة الحدَث هو كونُه بين عدمين، أوّلُهما وُجودي وثانيهما ثبوتي، فهو يَخرُج إلى الوجود ثم لا تثبتُ عينُه. وهو نقيض القِدم أي ما كان ويبقى على مدى الدَّهر؛ وليس ذلك إلا الله ﴿هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِن﴾. الحداثة حقيقةٌ بين

عدمَين، ما لم يكن وما لن يكون، وهي 'الآنَ وهنا' وليست إلا كذلك، فلا تخرج عن مجموعِهما، وإلا لبقيت عدَما.

نجد للحداثة مرادفا، وهو لفظة 'الْعَصرنة' أخذًا من 'الْمُعاصَرَة' والتي تعني الاقتِرانَ بالعصر. هذه اللفظة وإن لم تكن مستعملة من قِبل الأوائل إلا أنّها موافقة لأصول العربية، جاءت على وزن 'فَعلَنة' من عصر مثل 'رَهبنة' مِن رهب. لكن شريحة من علماء هذا العصر يرفضون هذه اللفظة لِما يشتبه لهم أنّها خاصيَّة غربيّة منافية للدين وللتراث الإسلامي. إلا أنّ أصل هذا المصطلَح قُرآنيٌّ بحت كما تدلُّ عليه سورة تحمل اسمَه: ﴿وَالْعَصْرْ، إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرْ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرْ﴾. العصر هو الحقيقة الراهنة التي تظهر فيها الأحداث، وكأنّه عُصارة الزمان، أي ما تمخّض وحصل منه كما يحصُل الزيت من عَصر الزيتون والخمر من عصر العنب. فالعصر خُلاصة الدَّهر، ولأنّ الدَّهر لا بداية له ولا نهاية لا مَجالَ فيه للحَوادث، فلا بدَّ من تشطيرِه ليستقبلَ الحوادث. والعصر هو الشَّطر والقِسم من الدَّهر الذي له أوّلٌ وآخر لتَظهَر فيه الأشياء ويعيشه الناس بين الماضي الذي انقضى والمستقبَل الذي لم يأتِ بعد.

فإذًا لا مفرَّ من العصرنة ولا الحداثة لأنهما لفظان لحقيقة واحدة ألا وهي وُجود الناس في حين وُجودهم. لذا أقسم الله به فقال ﴿وَالْعَصْرْ، إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرْ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرْ﴾ فقوله: ﴿والعصر﴾ قَسَمٌ، وجوابُه: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرْ﴾ ثمّ استثنى منه: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرْ﴾. ممّا يدلّ على أن العصر هو ما وصفناه قراءاتُ

بعضِ الصحابة، فعن علي بن أبي طالب أنه كان يقرأ ﴿والعصرِ ونوائب الدهرِ إن الإِنسان لفي خسر وإنه لفيه إلى آخر الدهر...﴾ وفي قراءة ابن مسعود ﴿والعصر إن الإِنسان لفي خسر وإنه لفيه إلى آخر الدهر...﴾ فالعصر هو الذي تظهر فيه نوائبُ الدّهر وتتحقّق فيه أفعال العباد. ومن أحسن ما ورد في وصفه ما كتبه فخر الدين الرازي، فإنه يقول: الدهر مشتمل على الأعاجيب لأنه يحصل فيه السَّرّاءُ والضَّرّاء والصِّحّة والسَّقَم والغِنى والفَقْر، بل فيه ما هو أعجب من كل عجَب، وهو أن العقل لا يقوَى على أن يَحكُم عليه بالعدَم: فإنه مُجزَّأ مُقسَّمٌ بالسَّنَة والشهر واليوم والساعة، ومحكومٌ عليه بالزيادةِ والنُّقصان والمُطابقة، وكونه ماضيًا ومستقبلا؛ فكيف يكون مَعدوما؟ ولا يمكنه أن يَحكم عليه أي العقلُ بالوجود لأنّ الحاضِر غيرُ قابل للقِسمة والماضيَ والمستقبلَ معدومان: فكيف يمكنُ الحكمُ عليه بالوجود؟ إن بقية عمر المرء لا قيمة له؛ فلو ضيَّعتَ ألفَ سنةٍ ثم تُبتَ في اللَّمحة الأخيرة مِن عُمُرك بقيتَ في الجنة أبدَ الآباد: فعلمتَ حينئذ أنَّ أشرفَ الأشياء حياتُك في تلك اللَّمحة. فكأن الدهر والزمان من جُملة أصول النِّعم، فلذلك أقسم الله به ونبّه على أن الليلَ والنهار فُرصةٌ يُضيِّعها المُكلَّف، وإليه الإشارة بقوله ﴿وَهُوَ الذي جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً لّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورا﴾. ثم إنهم كانوا يُضيفون الخُسران إلى نوائب الدهر، فكأنه تعالى أقسم على أن العصر نعمة حاصلة لا عيبَ فيها، وإنما الخاسر الْمَعيب هو الإنسان. فذكر تعالى العصرَ الذي بِمُضِيِّه يُنتقَصُ عمُرُك، فإذا لم يكن في مُقابلته كَسْبٌ صار ذلك النُّقصان خسرانا، فلذلك قال ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ ومنه قوله:

إنا لنفرح بالأيام نَقطَعُها وكل يوم مضى نَقصٌ مِن الأجل[11]

هذا كلُّه لنعلم أن الإسلام يركِّز الإنسان في حاضره وينبِّهه على مسؤوليّاته في كل عصر ومِصر وفي كل آن وحين. فتقسيم العبادات على الساعات في الصلاة وعلى الأشهر في الصوم والزكاة والحج من قَبيل ترسيخ الإنسان في الواقع وترسيخ الواقع في وَعي الإنسان. وكذلك في المعاملات، حيث أن الإسلام يضع الأطر الشرعية والأخلاقيّة التي لا يحقّ للناس تعدّيها. فالإنسان يكون في عصره أي في حياته وفي كلّ لَحَظات عمرِه خاسرًا إن لَم يقم بواجباته التعبُّديَّة تُجاه الله الذي لَم يخلقه إلا لذلك كما هو ظاهر في قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ فإذا أدّى ما عليه اُستُثني من الخُسران وذلك قولُه في سورة العصر ﴿إِلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. ولكن لا يكفي تعبُّد المَرءِ إذا كان مُسيئًا لغيره من بني آدم بل يجب أن يحبَّ لهم ما يُحبُّ لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه وأن ينشُر بينهم السلام ويدلَّهم على طُرق الوِئام. ذلك من واجب المسلم الذي لا يسقُط بوجه من الوجوه ولا في حالة من الأحوال. فليقم بواجباته التعامُليَّة كما في قوله تعالى ﴿لا تَعْبُدُونَ إِلاّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنا﴾ وما إلى ذلك من الآيات التي تحثُّ على حسن التعامل مع الغير: ﴿قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنا﴾ ليكن كلامُكم حَسَنًا مع الناس كلِّهم وليكن قصدُكم جلبَ الخير للناس قاطبة، فالله الذي هو خالق الناس جميعا يقول ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ

---

[11] تفسير الرازي المسمّى 'مفاتيح الغيب' 32/80–81، دار إحياء التراث.

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم﴾ وذلك قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم «الخلق كلُّهم عيالُ الله، وأحبهم إلى الله أنفعُهم لعِياله»[12] يعني هذا أن الخلق كلُّهم، بما في ذلك الإنسان والحيوان والنبات بل والأرضُ جميعا، تحتَ رعاية الله، فمَن أراد التحبُّبَ إلى الله فليُراعِ ما خلَقَه تعالى وليُحافظ عليه. والنفع يكون بالفعل وبالعطاء وبالكلمة الطيبة، والضدُّ بالضدّ، ومن ذلك امتِحانُ النبيِّ يومًا لأصحابه قال «أَتَدْرُونَ ما الْمُفْلِس؟» قالوا: المُفلسُ فينا مَن لا دِرهَمَ له ولا مَتاع. قال «إن المفْلسَ مَن يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاة، ويأتي وقد شَتَمَ هذا وقذفَ هذا وأكل مالَ هذا وسَفَك دمَ هذا وضرب هذا، فيُعطَى هذا مِن حَسناته وهذا من حسناته، فإن فَنيَتْ حَسَناتُه قبلَ أن يُقْضَى ما عليه، أُخِذَ مِن خَطاياهم فطُرِحَتْ عليه ثم يُطْرَحُ في النار»[13] يقال: أَفْلَس الرجلُ إذا لم يبق له مالٌ وانقلبَ حالُه من غِنَى إلى فَقر، وهذا معنى الإفلاس في مَفهوم الناس، أمّا في حقيقة الأمر فهو أن يخسَر الإنسان قيمَة حياتِه، كما جاء وصفُه في سورة العصر، باستِثناء الذين ﴿تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْر﴾. فهذا هو المطلوب من المسلم في عصره هذا، أن يوصي نفسَه قبل غيره بالحقّ وبالصبر، أي بإيتاء كلِّ ذي حقّ حقَّه وبالصبر على أذى الخَلق.

على المسلم أن يغرِس الأخلاقيّات المِثاليّة في قلبه وعقله وجوارحه وفي بيته وفي مجتمعه وفي كل مكان يحِلُّ به. عليه أن يَبُثّ القيَم الحقيقيَّة حولَه وأن ينشُر الخير بينه وبين الناس وما بثَّ الله على وجه الأرض من حيوان ونبات وطبيعة. معلوم أن مَقاليد

---

[12] خرجه البزار وغيرُه عن أنس بن مالك وله شاهد عن عبد الله بن مسعود

[13] خرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة.

التكنولوجيا بين أيدي الغربيّين، لكن لا يمنع ذلك من أن يستعملَها المسلم بلا إسراف وأن يُري الغربيين أن الإسراف أمر يؤدّي إلى الخسران الذي نبّهت عليه سورةُ العصر. فالرّبا مثلا من أبشع مظاهر العالَم الغربي وأضرارُه لا تحتاج إلى بيان لِما هي عليه المجتمعات والأفراد الذين صاروا عَبيدًا تعبَثُ بهم رؤوسُ الأموال.

جاء الإسلام إلا لتحرير الناس من رِقِّ أنفُسهم وغيرهم من بني جنِسهم. فمن ذلك ما بلغنا عن أنَس بن مالك أن ابن والي مصر عمرو بن العاص ضرب قُبطياً ظلمًا لِمجرَّد أنّه غلبَه في السباق، ضربَه وهو يقول له أيغلِبُني مثلُك وأنا ابنُ الأكرَمين؟! فقصد القُبطي المدينةَ يشكُو إلى أمير المؤمنين عُمر بن الخطاب اعتِداءَ ابنِ الوالي المسلم عليه، فاستدعى الخليفةُ الواليَ عمرَو بن العاص وابنَه، وأعطى السَّوط للقُبطي وقال له: اِضرِب ابنَ الأكرمين! قال أنس: فضرب، فوالله لقد ضربه ونحن نحبّ ضربَه فما أقلع عنه حتى تَمنّينا أنه يرفع عنه! فلما انتهى مِن ضَربِه أراد عُمَر أن يضرب القبطيُّ عمرَو بن العاص نفسَه فقال له: أَدِرْ السَّوطَ على صَلْعَة عمرٍو فإنما ضربَك ابنُه بسُلطانه! فقال القبطي: إنما ضربتُ من ضربني! فالتفت عُمَر إلى عَمرٍو وقال كلمتَه الشهيرة: يا عَمرُو، متى استعبَدتُم الناسَ وقد ولدتْهُم أمَّهاتُهم أحرارا؟![14] هذه روح الإسلام وبِضاعتُه التي كلَّف الله المؤمنين بتسليمها للناس كافَّة. وفي هذا العصر بالذات.

جاء الإسلام ليُعْلمنا أن ما نحن فيه، من رَخاء وسعة ونِعم لا حصرَ لها، إنّما ذلك فضلٌ من الله ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُم مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ

[14] أبو القاسم المصري 'فُتوح مصر والمغرب' 195/1، مكتبة الثقافة الدينية.

تُسيمُون. يُنبتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ تَفكَّرُون! وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَر، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِه؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون! وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُه؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُون! وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها، وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون! وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُم وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون! وَعَلامَات؛ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُون! أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُق؟! أَفَلا تَذَكَّرُون! وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا! إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيم﴾. فالله بقَدر ما أنعم علينا فإنّه تعالى لم يسمح لنا بأن نتعدَّى حدودَ المعقول ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ، وَلا تَعْتَدُوا؛ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِين! وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُون﴾، فالقوَّة والمال والجاه والسلطة لا تُبيح الإيذاءَ ولا التَّبذير ولا التغطرس ولا العبَث بكرامة الخَلق، ولا أيّ نوع من الإسرافَ أو الفساد كأن يُقهرَ خلقُ الله أيًّا كانوا وذلك قولُه تعالى ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِين﴾ ﴿وَلا تُفْسِدُوا في الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها﴾ ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِين﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي تضع المسلم أمام مسؤوليّته أمام ربِّه وواجبِه إزاءَ بني جنسه. هذا، فيما أرى، هو مَوقف الإسلام من الحداثة وموقع المسلم. والله أعلى وأعلَم.[15]

---

[15] مدينة وَجدة بالمغرب الأقصى، يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018.

لعلّ أهلَ الغرب الإسلامي موكَلون أكثر من غيرهم بأمر التجديد الديني. فقد صحّ عن النبي أنه قال «لا يزال أهلُ الغرب ظاهرين على الحق حتى تقومَ الساعة»[16]، وفي رواية «لا يزال أهلُ الْمَغرب ظاهرين إلى أن تقوم الساعة»[17]. الظهور على الحقّ هو النُّصرة من الله في اتّباع الحق. واختلف العلماء في مدلول الغرب في هذا الحديث. كأنّهم أنكروا أن يأتي من الغرب أيُّ خير: ...قيل أن الْمُرَاد الغربُ من الأَرْض الَّذِي هُوَ ضد الشرق، فَقيل المرَاد أهل الشَّام وَقيل الشَّام وَمَا وَرَاء ذَلِك. وَقيل أهل بَيت الْمَقدِس. قال القرطُبي: أول الغرب بالنّسبة إلى الْمَدينة النبَويّة هو الشَّام وآخره حيثُ تَنقطِع الأرض من الغرب الأقصى وما بينهُما، كل ذلك يقال عَلَيْهِ مغرب. فَهَل الْمُرَاد الْمغرب كُله أَو أَوّله؟ كل ذَلِك مُحْتَمل. وقال أبو بكر الطرطوشي في رسالة بعث بها إلى أقصَى الْمغرب: الله أعلم هَل أرادكم رَسُول الله بِهذا الحديث أو أراد بذلك جُملةَ أهل المغرب لِما هم عليه من التمسُّك بالسُّنة وطهارتِهم من البِدع في الدّين والاقتفاءِ لآثار مَن مضى من السَّلف الصّالِح؟ ومِمّا يُؤيِّد أنّ الْمُراد بالْمَغرب رِوايةُ عبد بن حميد وبَقي بن مَخلد «ولا يزَال أهل الْمَغرب» وروايةُ الدّارَقُطني «لا تزالُ طائفةٌ مِن أمّتي ظاهرين على الحقّ فِي الْمغرب حَتَّى تقوم السَّاعَة»[18]. وهذا هو الصحيح بلا شكّ، فقد كان توجُّه الإسلام منذُ أوَّل عهده صَوب المَغرب، كما تدلُّ عليه سورة الروم في القرآن والأحاديث الواردة في فتح قسطنطينية وقبرص وفي

---

[16] خرجه مسلم والبزار وأبو يعلى عن سعد بن أبى وقاص وله شاهد عن المغيرة.

[17] خرّجه أبو عوانة في 'المستَخرَج' 78/4، دار المعرفة، بيروت.

[18] قاله السيوطي 'الديباج بشرح صحيح مسلم' ج4/ص514، دار ابن عفان السعودية.

ذكر بني الأصفر،الخ. والواقع أنّ الغرب مسرح العِراك بين الحق والباطل منذ زمن، أمّا الإسلام فلا ينتمي إلى شرق ولا غرب ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِب!﴾ [البقرة 115] ﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّة!﴾ [النور 35].

تمهيد لعلوم الدين

أوّل ما يلفتُ نظرَ الباحث في علوم الدين الإسلامي أسماءُ العلماء كالطَبَري والبُخاري وسيبوَيهْ والرازي وغيرها من أسماء أعجميّة. نعم حملة العلم في الإسلام عرب وعجَم، لكنّ الذين كَتبوا في مختلَف العلوم، أكثرُهم العجَم. والسبب في ذلك أن العرب في بدأ الإسلام لم تكن لهم كثير صناعة ولا علم إلا في القليل النادر، وذلك لأحوال البداوة التي كان مُعظمُهم عليها. فكانوا يتناقلون مبادئ الدين من قرآن وسنّة شفويًّا، بدأً منذ العهد النبوي، فكان الرجال يحملونها في صدورهم ليلقوها في صدور مَن لقيَهم من طالبي العلم الشرعي. كان إذًا الإلقاءُ والتلقّي بالسليقَة، سجيَّةً وفِطرة من غير حاجة إلى أدوات اللغة والمنطق. قد عرفوا جُلَّ مقاصد القرآن والسُّنة مما تلقَّوه مُشافهةً بغير كتابة ولا تدوين إذْ لَم تدعُهم الحاجة إلى ذلك.

فلمّا دخل الأعاجم في الدين واعتنقوه، وقعت الحاجة إلى العلوم والتدوين. فوُضعت التفاسير القرآنية وقُيِّدت الأحاديث النبوية واحتيج إلى وضع قوانين النحو العربي وقوانين استخراج الأحكام والقياس والذَّب عن الإيمان الصحيح بالرد على العقائد الدَّخيلة بالأدِلة العقلية والنقليَّة، وما إلى ذلك. فصارت هذه الأمور كلها علوما محتاجًا إليها واندرجت في جملة الصنائع التي كان العرب أبعد الناس عنها. فلكونها صنائع حَضَرِيَّة، والعجمُ مِن فُرسٍ وغيرهم أصحابُ حضارة مُتقنة لفنون الصنائع والحِرف، كان واضعو صناعة النحو والتفسير والحديث والفقه والكلام والتصوّف وغيرها أكثرُهم عجما. وكذلك الأمر بشأن العلوم العقليّة، فقد اختصّ بها العجم.

أما العرب وإن خرجوا عن البداوة وأدركوا الحضارة فقد شُغِل أكثرُهم بالرياسة في الدولة العباسية، ومعلوم أن الرؤساء كثيرًا ما يستنكفون عن الصنائع وإن كانت شريفةً كالعلم.

لقد نوَّه القرآن بشرَف العلم والعلماء؛ فمن ذلك ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [58-11] ﴿قُل: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ؟﴾ [39-9] وكذا السنَّة، فعن قيس بن كَثيرٍ قال: كنتُ جالسًا مع أبي الدَّرْداءِ في مسجد دِمَشقَ فجاءه رجلٌ فقال: يا أبا الدرداء، إني جئْتُك من مدينَة الرَّسولِ لحديثٍ بلغني أنَّك تُحدِّثُه عن رسولِ الله، ما جئتُ لحاجة! قال: فإني سمعتُ رسولَ الله يقول «مَن سَلَكَ طريقا يَطلُبُ فيه علما، سَلَكَ الله بِهِ طريقا من طُرُقِ الجنَّة، وإنّ الملائكَةَ لَتضَعُ أَجنحَتَها رِضًا لطالبِ العلم، وإنّ العالِمَ لَيستَغفِرُ له مَن في السموات ومن في الأرض والحِيتانُ في جَوفِ الماء، وإنّ فَضلَ العالِم على العابد كَفضل القمَر ليلةَ البَدر على سائرِ الكواكب. وإنّ العُلماءَ وَرَثَةُ الأنبياء، وإنّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا دِينارًا ولا دِرْهما، وَرَّثُوا العلم؛ فَمَن أَخَذَهُ أَخَذَ بِحظّ وَافِر!»[19] ذلك لأن العلم نورٌ يستضيء به الإنسان في أمور دينه ودُنياه، وبه تحيَ القلوب وتبرأ النفوس، وبه يقوم الحق وتستقيم الأمور، وبه توصل الأرحام ويُعرَف الحلال والحرام. وإنّما فُضِّلَ العالِمُ على العابِد لأنّ العِلمَ قائد والعمَل تابعٌ له، فمن جمع بينهما فهو الإمام الربّاني الذي ببركته تزهو الدُّنيا وينتشر الدين. فالعلمُ رأس المال والعملُ فائدتُه؛ يُلهَمُه السُّعَداءُ ويُحرَمُه الأشقياء.

---

[19] خرجه ابن ماجة وأبو داود والترمذي عن أبي الدَّرْداء وعلَّقه البخاري وحسّنه الأرنؤوط بطُرقه.

علوم الدين ضروريَّة لصَلاح الأفراد والمجتمَعات البشريّة، بل والبيئةِ التي جعلَ الله فيها حقوقًا لجميع خَلقِه، من الجراثيم التي في بطن الأرض إلى الحيتان في المحيطات: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا: بَعُوضَةً!﴾ [البقرة 26] ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ، وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَر، إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِين!﴾ [سبأ 34] ومَن نظَر في القرآن وجد من بين سُوَره سورةَ النَّحل وسورة النّمل وسورة العنكبوت وسورة الفيل. ولَمَّا كان ما لا يَتِمُّ الواجبُ إلاَّ به واجبًا هو أيضا، لَزم الناسَ أن يقوموا بعلوم الدين تأصيلاً وحِفظًا ودراسة. فهي من الواجبات، ولا أقلَّ من أن تكون فضائلَ يَحسُن القيامُ بها في أدنى الحالات. فما كان شرعًا واجبًا فِعلُه، وَجبَ تعلُّمُه. وما كان فعلُه فضيلةً كان تعلُّمُه فضيلةً كذلك. فالدين كلُّه خيرٌ ورَحمة، وليس ذلك في الآخرة فقط بل وفي هذه الحياة الدُّنيا أيضا. مَن نظَر بتدبُّر نصوصَ الوَحي في الأديان كلِّها وجدَها لا تأمر إلا بالخير ولا تَنهى إلا عن الشرّ وما فيه هلاكُ البشَر.

وبهذا خاطبَ القرآنُ النبيَّ محمّدًا: ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِين! إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ؛ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون! وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا؛ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُون! وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا، مِن بَعْدِ قُوَّةٍ، أَنكَاثًا، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ، أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّة؛ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ به! وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُون. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَة، وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ

وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ، وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُون!﴾ [النّحل 89-93] هكذا جاء الكتابُ مِن ربِّ العالَمين، تِبيانًا وتمييزًا بين الخير والشَّر، لِيُربِّيَ الفَرد والمجتمَع ولِيُنشئ عالَمًا قائمًا على النّظام والحقّ، ودعوةً لإنسانيّة لا عُنصريّة فيها ولا امتياز؛ قِوامُها العدل الذي يكفُل للكلّ قاعدةً ثابتة، لا تتغيَّر حسَبَ الأهواء ولا تتأثَّر بالوُدّ والبَغضاء، سِيّانَ فيها الضعيفُ والقويّ، الفقيرُ والغنيّ، الدَّاني والقَصيّ. فهذا العدل هو أقلّ ما يجب توفيرُه للناس كافّة. ثم مَن تفضَّل وارتَقى وبلغ مقامَ الإحسان، تَلطَّف مِن حِدَّة العَدْل الصارِم وفتَح باب الرَّأفة والرَّحمة للتسامُح فيما لَه، عَطفًا على الخَلق ومحبَّةً لَهم في الله. فيصِل الإنسان أقارِبَه بالإحسان إليهم، وينتهي عن ذَميم الكلام وسيّء السلوك والظُّلم بجميع أنواعه. حينها يفشو الوَفاء بالعَهود ويقلُّ شرُّ الغادر والحَسود.

ونحن أبناءُ العصر في حاجة شديدة للدين لما عليه الناس، خاصّةً في زماننا هذا الذي تفاقمَت فيه القبائحُ وانتشرت فيه الفضائح وانعدمت منه النصائح وغاب منه الحياء؛ حتى أننا نرى رؤساء الدُّوَل يكذبون جِهارًا وينقُضون مُعاهدات دُوَلهم عَلنا، ظَنًّا منهم أنّهم لا غالِبَ لَهم. ونرى القويَّ يستغلُّ الضعيف، وليس هذا خاصًّا بالأقوياء فقط، بل الضعيفُ الْمُحتقَر ينتقم ممّن هو دونَه فيحتَقره بأبشَع ممّا أصابه؛ وهكذا إلى ما لا نهايةَ في المُنكَر والسُّفْل والقُبح. وهذا أحدُ نداءات القرآن: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِل لِتَعَارَفُوا؛ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم!﴾ [الحجُرات 13] فالكريم ليس بحَسبه ونَسَبه ولكن بتَقوى الله، وقوامُ تَقوى الله الإحسان إلى خَلق الله. قال النبيّ «إنَّ أَحبَّكم إلى الله أحبَّكم إلى الناس، وإنّ أَبْغَضَكم

إلى الله أبغضكم إلى الناس!»[20] وممَّا قالَه، صلّى الله عليه وسلّم، في حَجَّة الوَداع «يا أيها الناسُ، إنَّ ربَّكم واحدٌ وإن أباكم واحد! ألا، لا فَضلَ لِعربِيٍّ على عَجَمي ولا لِعجمي على عرَبي، ولا لأَحمَرَ على أَسوَد ولا أَسود على أحمر، إلا بالتقوى! إنّ أكرَمَكم عند الله أتقاكم! ألا، هل بَلَّغتُ؟» قالوا: بلى يا رسولَ الله! قال «فَلْيُبَلِّغ الشاهِدُ الغائبَ!»[21] هذا تَبليغٌ لازِم لا بُدّ منه أوّلا.

نعم في القرآن والسنّة كلُّ ما يلزَم الناسَ لحياةٍ طيِّبة وآخرةٍ رَضيَّة، ولكنّهما مَحدودَان وحوادثُ الناسِ لا حدَّ لها. ولّما كان القرآن والسنّة من العلوم النَّقلية، أي الواردة علينا عن طريق النّقل، دونَ زيادة ولا نَقص من جهة الناقل، لَجأَ الناسُ إلى العلوم العقليّة، وهي ما يُسمَّى بالعلوم الوضعية، كعلوم اللغة مَثلا. فالعلوم الوضعيَّة كلُّها مستنِدة إلى الخبَر، أي إلى القرآن والسنّة. وغايتُها إلحاقُ الأمور التي تطرَأ على الناس، ولم يَرِد ذِكرُها صراحةً في الوحي، بالقرآن والسنّة على وجهٍ قياسيّ، أي بإلحاق المسألة الطارئة بأصلها في القرآن أو السنّة. فيحصُل من ذلك القياس ما يسمَّى بالحُكم، أي حكمُ الله في المسألة. ولما كان الدين شاملاً لحياة الناس من أوّلها إلى آخرها، بل ولِما بعد مَماهم، وجبَ على كلّ مُسلم أن يعلم أحكام الله الواجبة عليه أو المستحبّة له أو المُحرَّمة عليه أو المكروهة منه أو المُباحة لِموافقتِها الفِطرة. والفطرة هي الطبيعة التي جبَل الله خلقَه عليها، ولا تَضادَّ بين الدين والطبيعة فكلاهما مِن فضل الله تعالى، كما هو واضحٌ في قولِه: ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ

[20] خرّجه الطبراني وعبد الرزاق عن أبي سعيد

[21] خرجه أحمد وغيرُه عن أبي نضرة وصححه الأرنؤوط.

النَّاسَ عَلَيْهَا. لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ: ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّم﴾ [الروم 30] فواجب المسلم أن يتَّجهَ مُستقيما نَحوَ ربِّه، حنيفا أي مائلاً عن كل ما عداه؛ وذلك هو الدين القيِّم الذي لا عِوَج فيه. ويدخُل في الْمُباح كلُّ الأمور اليوميّة إلا ما أمر الشَّرع به من عبادة أو نهى عنهُ مما فيه ضرر ظاهر أو باطن. ذلك لأنّ الأصلَ في أمور الناس الإباحة، باستِثناء ما جاء تحريمُه بنص صريح في القرآن أو السنّة أو ما يرجع إلى ذلك المَنع بقياس صحيح.

بحثُ هذه الأمور يسمَّى بعلم الشَّرع كما جاء في القرآن من قوله ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيه!﴾ [الشورى 13]، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْه؛ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ. لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجا﴾ [المائدة 48]، ﴿جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُون﴾ [الجاثية 18]. شرَع وشِرْعَة وشَريعة من أصل واحد وهو السَّير الْمُمتدّ نحو هدف واضح، من ذلك الشارع أي الطريق الْمُمهَّد الذي يُسار عليه بسهولَة وأمان، والمشروع أي ما يسلُكه الإنسان لقضاء فائدة عاجلة أو آجلة، ومنه المَشرَع الذي وهو مَسيل الماء السهل الذي لا يعوقه شيء. فأحكامِ الدين شرع لأنّها تسلُك بالناس بيُسْر طوالَ حياتهم إلى ما فيه خيرُهم دنيا وآخرة؛ وهذا أوضح وأتمّ معنى لهذه اللفظة. والله أعلى وأعلَم.

فالشرع إذًا ما نصَّ اللهُ عليه مِن أحكام لعباده في كتابه الْمُنَزَّل وعلى لسان نبيِّه الْمُرسَل الذي أوحى إليه وعلَّمه الحكمةَ حتى كان كلُّ ما يلفظ به، وإن لَم يكن قرآنًا، من قَبيل الشَّرع ﴿أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُم﴾ تعرفونَه لقُربه منكم ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا

وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة 151]. الحكمة هنا، وإن كانت مُنزَّلة من عند الله على نبيّه، فهي غير القرآن بل القدرَة على فَهمه وتفهيمِه للناس وتبيين طُرق العمل به وترجمته إلى واقع، وذلك قولُه ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء 39] و﴿أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء 113]. لا تَخصُّ هذه الحكمة الأنبياء، هي في حقّهم وحيٌ وفي حقّ غيرِهم من البشر إلهامٌ وسجيّة، وهي في كل الأحوال نعمةٌ يتفضّل بها الله على مَن يشاءُ من عباده كما صرّح به قولُه: ﴿اِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيد... يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [البقرة 267-269] فالحكمة هي المعرفة بالقرآن وبمَواضع الأمور في الحياة.

الشرع أمرٌ إلَهي يضع الواحدَ من الناس بين خِيارَين أساسيَّين: قَبولِه أو ردِّه. فإن قبلَه لَزمَه العملُ به، على درجات مُتفاوتة يرجِع كلٌّ منها إلى اختياره. فمَقصود الشَّرع سَوق ذوي العقول الصحيحة، باختيارهم الحرّ التّام، إلى الخير حيثُما كان ولِما يُصلحهم في مَعاشهم ومَعادِهم. فلا بدّ من اختيارُ الناس ضرورةً: ﴿الْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُر!﴾ [الكهف 29] ولا مَحالَةَ ما دام ثمَّة اختيار فلا بدّ أن يعود على صاحبه إن خيرًا أو غيرَه: ﴿مَن اِهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِه، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا!﴾ [يونس 108] وإلا فالله لا يستفيد شيئًا من قرارات الناس ﴿مَن كَفَر؛ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِين!﴾ [آل عمران 97]، وليس هذا إلا حكمةً إلَهيّة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا، أَفَأَنتَ﴾ يا نبيّ أو يا مُعلِّم ﴿تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِين؟!﴾ [يونس 99]. لا بل العكس: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين!﴾ [البقرة

256]، وإنّما غاية ما هو مطلوب من الرسُل وأتباعهم تبليغُ الرسالة، ليس إلاّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، قُلْ: مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا!﴾ [الفرقان 56-57]. ﴿قُلْ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدا!﴾ [الكهف 110]. هذا أصل وَضع الشرع وأحكامِه التي جاء بها كلُّ الأنبياء عليهم السلام.

حاصل هذا أن كل مَن هداه الله إلى ما فيه خيرُه وصَلاحُه، باختياره الخاص وقناعةِ عَقلِه وطُمئنينةِ قلبه، فتقبَّل الوحي واعتنق الإسلام، فقد أصبَحَ مُكلَّفًا، أي أنه قبِلَ الكُلْفة والمؤونَة التي تتعلَّق بالدين والدّنيا، بحيث أنه يربط شؤونَ الأرض بأمور السماء، لِما بينه وبين الله من علاقة العبد المأمور بربِّه الآمر الذي لا يُردُّ أمرُه ﴿هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام 61] ﴿ادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعا، إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِين﴾ [الأعراف 56]، ما الخوفُ منه ولا التذللُ بين يديه ولا الطمَع فيه عيبًا في حقِّنا لأنَّه الخالق الربّ ونحن المخلوقون العبيد:

وما في سَطوَةِ الأَربابِ عَيبٌ ولا في ذِلَّـــةِ العُبدانِ عارُ

قلبُ الخطاب الإلَهي أمورٌ أوجبها تعالى من عِبادة وتحمُّل أذى وإحسان إلى الخلق وتسليم لمصائب الدّهر وما إلى ذلك من أمور تأباها طباع عامّةِ الناس. فمن قبلَ الشرعَ شَرَع مِن حينه في سُلوك سبيل الهُدى، وأوّلها تلقّي العلوم النَّقلية الْمُستنِدة إلى الخبَر عن واضع الشرع، والتي لا مجالَ فيها للعقل إلا في إطار إلحاق فروع ما يطرَأ من مسائلَ بأصولها العامّة. وكما أسلَفنا، لا حدّ للجزئيات الحادِثة الْمُتعاقِبَة. وحيثُ لا مجالَ مِن أن تندرج كلُّها في النقل، أي القرآن والسنّة، فلا بُدّ من إلحاقِها بالقرآن

والسنّة بوجه قياسي. عِلمًا بأنّ ذلك القياس لا بدّ من أن يتفرَّع عن شيءٍ من الخبَر الثابت، وهو نقلي. فرجع القياس، والذي هو ضَروري شَرعًا، إلى النَّقل لتفرُّعه عنه. فلا يُمكن الخروج عن النَّقل ألبتّة، بل العَقل مُقيَّدٌ بالنَّقل كما أنّ النَّقل يُنيرُه العقلُ. وهذا ارتباطٌ أصلي طبيعي كما نبَّه عليه القرآن في مواضع لا حصر لها، منها قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة 203] ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام 65] ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل 44] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد 4] ﴿انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس 101] ﴿يُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة 221]. فالعلم والفقه والفكر والنَّظر والتذكُّر كلُّها من أعمال العقل، وهو أعظمُ ما أنعم به الله على البشر. لكن حذارِ، فقد سئل ابن مسروق الصوفي عن العقل فقال: مَن لم يحترز بعقله من عقله لعقله؛ هلك بعقله! فالعَقل نعمة والشَّرع قيدُها. فلولا العَقل وتقييده بالوَحي لكان الناس من جنس الحيوان. لذا شبَّه التَّنزيلُ أولئك الذين لا يهمُّهم أمر الدين بالحيوانات لغَفلتهم عن حكمة الوجود فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ؛ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ!﴾ [الأعراف 179].

ثبتَ عن النبي قولُه «تَركْتُ فيكُم أمرَيْن لَن تَضِلُّوا ما تَمسَّكتُم بهما: كتابَ الله، وسُنَّة نبيّه»[22]، يشير إلى أهمّيّة هاذَين الأصلَين التي انبَثقت وتفرَّعت جميعُ علوم الدين

[22] رواه مالك بلاغًا، وخرّج مسلم وأبو داود والنسائي عن جابر أن النبي قل في حَجّة الوداع «تَركتُ فيكم ما لن تَضِلُّوا بعدَه إن اعتصمتم به؛ كتاب الله! وأنتم تُسأَلون عنِّي؛ فما أنتم قائلون؟» قالوا: نَشهَدُ

عنهما. وهي أصنافٌ كثيرة، لأن على المُكلَّف أن يعرف أحكامَ الله المفروضة عليه وعلى بني جنسه أخذًا لها من الكتاب والسنة بالنص أو إلحاقًا لها بهما بالقياس. لا بُدّ من النظر في القرآن لتَبيُّن لفظه ومعانيه ومَغزاه؛ وهذا هو علم التفسير. ثم النظر في السُّنة بإسناد ما جاءِ منها إلى صاحبها أي بالنَّظَر في طُرُق نَقلِها، كأسماءِ الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم للتَّوَثُّق من أخبارهم، حتّى إذا ثبتت صحّةُ النَّقل، وجبَ العملُ بمُقتَضاه؛ وهذه هي علم الحديث. ثم لا بد من استِنباط، أي استِخراج، الأحكام التي وَردَ ذِكرُها في القرآن والسنّة من أصولها على وجه قانوني يفيد العلم بكيفية العمَل بها في الواقع؛ وهذا هو علم أصول الفقه. وبعد هذا تحصُل الثَّمرة بمعرفة أحكام الله في أفعال الْمُكلَّفين التعبُّديَّة والتعامُليّة؛ وهذا هو علمُ الفقه. ثم إنّ من التكاليف الشرعيّة ما هو بَدَني، وهو الفقه المُصطَلَح عليه، ومنها ما هو باطني وهو قِسمان: أَحدُهما أمورُ العَقل الْمُختصَّة بالإيمان وما يلزَمُ ظَنُّه، وما لا يجوز أن يُظَنّ؛ وهذا هو علم الكَلام. والقسم الثاني من أعمال القلب يتطرَّق إلى النيَّة التي تسبقُ العمَل وأحوال القلب مثل مَحبَّة الله ورُسلِه والمؤمنين، وصِلَة الرّحم، والصبر على طاعة الله وعن معصيته وفي الشدائد، والرَّجاء في الله والخوف منه، وما إلى ذلك من أعمال القلوب الواجبة، هذا من جهة. ومن جهة أُخرى ترك ما لا يجوز ممّا يُضادُّها، ككراهية الخير وسوء الأخلاق وقَسوة القلب، وما إليه من أمور يجب على المؤمن تركُها؛ وهذا هو علم التصوُّف.

أنكَ قد بَلَّغتَ وأدَّيت وَنَصَحت! فقل بِإصبَعه السَّبابَةِ، يَرْفَعُهَا إلى السماء ويَنكِّبُها إلى النَّاسِ «اللّهمَّ اشْهدْ، اللهم اشْهد، اللهم اشهد!».

هذه العلوم، النقلية والعقليَّة، كلها مختصة بالمِلَّة الإسلامية وأهلِها. وإن شاركتها سائرُ الْمِلَل التي تنتمي إلى الوَحي الإلَهي فيها إجمالا، أي مِن حيثُ الحاجةُ إلى استنباط تلك العلوم من الكتاب الْمُنَزَّل عليهم، فالْمُشاركة لا تتعدّى هذا الحدّ. وذلك قولُه ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْه؛ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ. لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجا. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً!﴾ [المائدة 48] فالله تعالى لَم يشأ أن يجعلَ أهلَ الكتاب أمّةً واحدة. فإنّ لكلٍّ من اليهود والنصارى والمسلمين شَرعا خاصًّا بهم ومنهَجا عليهم أن يتَّبعوه. فمن ذلك ما بلغنا أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطّاب أتى النبيَّ فقال: يا رسولَ الله، إني أصبتُ كِتابًا حَسَنا مِن بعض أهل الكتاب! فغضب النبيُّ وقال «أَمُتَهَوِّكونَ أنتُم فيها يا ابنَ الخَطّاب؟! والذي نفسي بيَده، لقد جئتُكم بها بيضاءَ نَقيَّة! لا تسألوا أهلَ الكتاب عن شيء؛ فيُخبِروكم بِحَقٍّ فتُكَذِّبوا به أو بِباطل فتُصدِّقوا به. والذي نفسي بيده، لو أنَّ موسى حيًّا اليومَ ما وَسِعَه إلاَّ أن يَتَّبِعَني!»[23].

لا يعني هذا أنَّه يجب تركُ التعامُلِ مع أهل الكتاب أو مُخاطبَتِهم أو عدم احترامهم، فضلا عن الإساءة إليه، لا وكلاّ فإنّ ذلك غيرُ جائز شرعا! بل من واجب المسلم أن يُكنَّ لَليهود والنصارى عُمومًا كلَّ المحبَّة وأن يُحسِن مُعاشَرَتَهم إذا كانوا جيرةً، وذلك عملاً بقوله ﴿لا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُم.

[23] خرجه أحمد وغيرُه وضعفه الأرنؤوط. قولُه: أَمُتَهَوِّكون؟! ليس استفهامًا بل هو تعجُّبٌ واستِنكار، فلقد أنكَر النبيُّ ما فعلَه عمرُ واستَقْبَحه ونَهاه عنه. أمّا التَهَوُّك، فمِثل التَّهَوُّر، وهو التحيُّرُ الذي يُوقِع في قلَّة الْمُبالاة بالعواقب.

وَقُولُوا: آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُم، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون؛ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ! فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ [العنكبوت 46-47] وبذلك أمرنا نبيُّنا كما جاء في قوله «لا تُصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُم، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ لأن الله تعالى أخبرَ أَنَّهُمْ كَتَبُوا بأيديهم، وقالوا: هذا من عند الله!»[24] فكونُ إلَهنا وإلَهُهم واحدًا، وهو الله الذي لا إلَه غيرُه، يُوجِبُ على كلّ مُسلِم حَتمًا أن يكونَ أحنَّ وأعطَف على أهل الكتاب منه على غيرِهم من الناس، وذلك لأنَّه حاملٌ لرسالات رسُلهم بقدر ما هو حاملٌ لرسالَة محمَّد، على جميعهم السلام، وإن كان لا يجوز له العمَل إلاّ بشريعة محمّد، ومن ذلك نُصحُهم بما فيه خيرُهم وصلاحُهم، كدعوتهم إلى السِّلم والسلام، عملاً بأمر الله للرسول ولنا مِن بعده أن نقول لهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَاب، تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم: أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّه. فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا: اِشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون!﴾ [آل عِمران 64].

ثم تفرَّت عن أمّهات تلك العلوم علومٌ أَدقُّ بما لا مَزيد عليه وانتهت فيها مداركُ الناظرين إلى الغاية ورُتِّبت الفنون وهُذِّبت الاِصْطِلاحات، فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق. فالتفسيرُ مثلاً علم مُستقلّ إلا أنَّه انبثقت عنه جملة هائلة من العلوم القرآنية؛ فمن ذلك: بيانُ جَمعِه، وُجوه تَواتُره، مَرسوم خطِّه، لُغاته، أسباب النزول، المكّي منه والمَدني، تَحزيبُه، الأحرُف السبع، القراءات العشر، المناسبة بين الآيات،

---

[24] خرجه البخاري عن أبي هريرة.

المناسبة بين السُّوَر، أحكام تِلاوَته، فضائله، خَصائصه، أمثاله، أقسامه، جَدَله، ناسخه ومَنسوخه، مُحكَمه ومُتشابهه، أساليبه، إعجازه البَلاغي، إعجاز الطبيعي، حقيقته ومَجازه، تَأويله، كِناياته وتَعريضه، إلى غير ذلك من العلوم التي صدرَت ولا تزال تصدُر إلى يومنا هذا كالإعجاز العلمي، سواءً من طَرف المسلمين أو من طرَف غيرهم من باحثين في هذا الميدان في شتى أصْقاع المَعمورة.

وكذلك الأمر في علوم الحديث والفقه والكلام والتصوُّف. فاحتيج إلى وضع القوانين اللازمة لتفريع العلوم الشرعية كلها وإتاحَة المَلَكات للتَّنظير والقياس والاستنباط، قصدَ استِخراج قوانينَ العبادات والمُعاملات والأصول بدقائقها كما يرضاها الشارِعُ، أي الله تعالى، وكذا للذَّبِّ عن الْمِلَّة الإسلاميّة من أخطار التحريف والإباحة والبِدَع والإلحاد سواءً صدرت من الداخل أو جاءت الخارج. ومن جهة أخرى لتَحفيز العِباد على الإنابة إلى الله ومُراقبَة حقوقِه تعالى ولِحِفظ حُقوق الناس، والتي أدناها احتِرامُ النَّفس والعَقل والدين والعِرض والْمِلكيَّة. لذا كان من واجب كل مسلم أن يُفيدَ غيرَه، أيًّا كانت ديانتُه، بما معه مِن نصائح وحِكَم بلغته عن النبي محمّد، فإنّ في ذلك خيرًا للناقل والسامع معًا، كما بينتُه مُطوَّلا في بحثٍ حَديثيٍّ وفِقهيٍّ أُصولي؛ وهذا تَمامُ نصِّه نقلاً من كتابي 'أحكام الصلاة الأصوليّة' والذي أتممتُه في أغسطس 2015:

***

حديث النَّضارة

بلغنا عن زيد بن ثابت أنّه قال: سمعتُ رسولَ الله يقول «نَضَّرَ اللهُ امرأً سمِع مِنّا حَديثًا فحَفِظَه حتى يُبَلِّغَه، فرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلى مَن هُو أفْقَهُ مِنه ورُبَّ حامِلِ فِقهٍ ليس بفَقيه!»[25] وعن جُبَير بن مُطعِم قال: قام رسول الله بالخَيْفِ من مِنًى فقال «نَضَّرَ الله اِمْرَأً سَمِعَ مَقالَتِي فبلَّغها، فَرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ غيرُ فَقيهٍ وَرُبَّ حامِلِ فقه إلى مَن هُو أَفْقَهُ مِنه!»[26] وعن أبي الدَّرْداءِ قال: خَطَبَنا رسولُ الله فقال «نَضَّرَ الله امرَأً سمِع مِنّا حَديثًا فبلَّغَه كما سَمِعه فرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِن سامِعٍ! ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنّ قلبُ امرِئٍ مسلم؛ إخلاصُ العَمَلِ لِلَّه والنَّصِيحةُ لِكُلِّ مسلم ولُزومُ جَماعَةِ المسلمين، فإنَّ دُعاءَهم يُحيطُ مِن ورائِهم!»[27] وعن عبد الله بن مسعود عن النبي أنه قال «نَضَّرَ اللهُ امرَأً سمِع مَقالتِي فوَعاها وحفِظَها وبَلَّغَها، فرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلى مَن هو أَفْقَهُ منه! ثلاثٌ لا يَغُلُّ عليهنَّ قلبُ مسلم؛ إخلاصُ العملِ لله ومُناصَحَةَ أَئِمَّة المسلمين ولُزومُ جَماعتهم، فإنّ الدَّعوةَ تُحيطُ مِن ورائِهم!»[28] وعن أبي سعيد الخُدْرِيّ عن النبي أنه قال في حَجَّة الوداع «نَضَّرَ اللهُ امرَأً سمِع مَقالتِي فوَعاها، فرُبَّ حاملِ فِقهٍ ليس بفقيه! ثلاثٌ لا يَغُلُّ عليهن قلبُ امرِىءٍ مؤمن؛ إخلاصُ العمل لله والْمُناصَحَةُ لأئِمّة المسلمين ولُزومُ

---

[25] خرجه الترمذي الترمذي في العلم وأبو داود وابن ماجه والدارمي. وحسّنه الترمذي.

[26] خرجه ابن ماجه في السنة وأحمد والحاكم وصححه.

[27] خرجه الدّارِمي في المقدِّمة، وأورده الهيثمي في كتاب العلم ح583، وقل: خرجه الطبراني في المعجم، 'مجمع الزوائد' ج1 –ص353، دار الفكر، بيروت.

[28] خرجه الترمذي في كتاب العلم بسند صحيح.

جماعتهم؛ فإنَّ دعاءهم يُحيط مَن وراءَهم!»[29] وعن أنس بن مالك قال: خطَبنا رسولُ الله بِمسجد الخَيْف مِن مِنًى فقال «نَضَّرَ اللهُ امرأً سمِع مَقالتي فحفِظَها ثمّ ذهب بها إلى مَن لم يسمَعْها، فرُبَّ حاملِ فِقهٍ ليس بفَقيهٍ له ورُبَّ حامِلِ فقه إلى مَن هُو أَفْقَهُ مِنه! ثلاثٌ لا يَغُلُّ عليهنّ قلبُ امرِىءٍ مؤمن؛ إخلاصُ العمل لله والنُّصحُ لِمَن وَلاّه الله عليكم الأمرَ ولزومُ جماعة المسلمين؛ فإنَّ دَعوَتَهم تُحيط مِن ورائهم!»[30] وعن مُعاذ بن جَبل قال: قال رسول الله «نَضَّر اللهُ عَبدًا سَمِعَ كلامي ثُمّ لم يَزِد فيه، فرُبَّ حاملِ فِقهٍ إلى مَن هو أَوعَى منه! ثلاثٌ لا يَغُلُّ عليهن قلبُ مؤمن؛ إخلاصُ العمل لله والْمُناصَحَةُ لأُولِي الأَمْر والاعتصامُ بجَماعة الْمُسلمين، فإنَّ دعوتَهم تُحيط مِن ورائهم!»[31] وعن النُّعمان بن بشير عن أبيه عن النبي قال «رحم الله عبدا سمع مَقالتي فحفِظها، فرُبّ حامل فقهٍ غيرُ فقيه وربّ حامل فقه إلَى من هو أفقه منه! ثلاثٌ لا يَغُلُّ عليهنّ قلبُ مؤمنٍ؛ إخلاصُ العمل لله ومُناصَحَةُ وُلاةِ الْمُسلمين ولُزومُ

---

[29] ذكره الهيثمي في 'مجمع الزوائد' ح582، وقل: خرجه البزار ورجاله موثقون إلا أن يكون شيخ سليمان بن سيف سعيد بن بزيغ فإني لم أر أحدا ذكره، وإن كان سعيد بن الربيع فهو من رجل الصحيح فإنه روى عنهما.

[30] خرجه الطبراني في 'المعجم الأوسط' ح9444، وقل في 'مجمع الزوائد' ح591.

[31] خرجه الطبراني في 'الكبير' ح155، و'الأوسط' وقل الهيثمي ح585: وفيه عمرو بن واقد؛ رُمي بالكذب وهو منكر الحديث.

جَماعة الْمُسلمين!»[32] وعن سعد بن أبي وقّاص قال: قال رسول الله «نَضَّرَ اللهُ عبدا سمِع مَقالتي فوَعاها، فرُبَّ حاملِ فقه وهو غيرُ فقيه ورُبّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه!»[33] وعن أبي قِرصافة جَندَرَةَ بنِ خَيشَنَة الليثي قال: قال رسول الله «نَضَّرَ اللهُ عبدًا سمِع مَقالتي فوَعاها وحفِظَها، فرُبَّ حامِل علمٍ إلى مَن هو أَعلَمُ منه! ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهن القلبُ؛ إخلاصُ العملِ للّه ومُنَاصَحَة الوُلاة ولُزومُ الجَماعة!»[34].

هذه عشر طرق لحديث النضارة بلغتنا عن كِبار الصَّحابة وهم: زَيْد بن ثابت[35] وجُبَير بن مُطعِم[36] وأبو الدَّرْداء[37] وعبدُ الله بن مسعود[38] وأبو سعيد الخُدري[39] وأنس

[32] خرجه الطبراني في 'الكبير' ح1224، وقل الهيثمي ح587: وفيه محمد بن كثير الكوفي ضعفه البخاري وغيره ومَشّله ابنُ مَعين.

[33] خرجه الطبراني في 'المعجم الأوسط' ح7020، وقل الهيثمي ح590..

[34] خرجه أبو القاسم الطبراني في 'المعجم الصغير' ح300، وقل: لا يُروَى عن أبي قِرصافة إلا بهذا الإسناد. قل: وبلغني أن ابنا لأبي قرصافة أسَرته الرومُ فكان أبو قرصافة يناديه من سور عسقلان في وقت كل صلاة "يا فُلان، الصلاة! يا فلان الصلاة!" فيسمعه فيجيبه وبينهما عرض البحر. وقل الهيثمي ح588: وإسناده لم أر مَن ذكر أحدا منهم.

[35] زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي ثم النَّجّاري. كان عمره لما قدم النبيُّ المدينة إحدى عشرة سنة. وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحيَ وغيرَه، وكتب بعد النبيِّ لأبي بكر وعمر. كان من أعلم الصحابة ومن الراسخين في العلم، وهو الذي كتب القرآن في عهد أبي بكر وعثمان. تُوُفِّيَ سنةَ خمس وأربعين. ابن الأثير 'أسد الغابة' ج2–ص346، دار الكتب العلمية.

بن مالك[40] ومُعاذ بن جَبَل[41] وبشير بن سعد[42] وسعد بن أبي وقّاص[43] وجَندَرة بن خَيشَنَة[44]. وقد أَفرَد أبو عَمرو أحمد بن حكيم المديني جُزءًا لطُرُقه فزاد روايات أبي

---

[36] جُبَيْر بن مُطْعِم بن عَدِيٍّ بنِ نَوفل بن عبد مَناف القرشي النوفلي، كان من حُلَماء قريش وسادتِهم، وكان يؤخذ عنه النَّسَب لقريش وللعرب قاطِبةً، كان يقول "أخذتُ النَّسب عن أبي بكر الصديق"، كان إسلامُه بعد الحُدَيبِيَّة وقبل الفتح. تُوُفِّي سنة سبع وخمسين. المصدر السابق، ج1 –ص517.

[37] أبو الدرداء، واسمه عُوَيْمَر بن عامر بن مالك الخزرجي. تأخّر إِسلامُه قليلاً، حَسُن إِسلامه وكان فقيهاً عاقلاً حَكيماً. آخَى رسولُ الله بينه وبين سلمان الفارسيّ. شهد ما بعد أُحُدٍ من المشاهد. وَلِيَ قضاءَ دِمشق في خلافة عثمان، وتُوفِّي قبل أَن يُقتل عثمان بسنتين. المصدر السابق، ج6 –ص94.

[38] عبد الله بن مسعود بن غافل الهُذَلِي، حليف بني زُهْرَة، يُكَنَّى أبا عبد الرحمن. كان إسلامه قديماً أوَّلَ الإسلام، حين أسلم سعيدُ بن زيد وزوجتُه فاطمةُ بنتُ الخَطّاب، وذلك قبل إسلام عمر بن الخطاب بزمان، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة. كان يَلِج عل النبيِّ ويُلبِسه نَعلَيْه ويمشي معه وأمامه ويستُره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام، وكان يُعرَف في الصحابة بـ'صاحب السِّوَاد والسِّوَاك' خرجه أحمد في المسند هاجر الهِجرتين جميعاً، إيي إلى الحبشة مع جعفر بن أبي طالب ثم إلى المدينة. وشهِدكلّ المشاهدَ مع النبي وشهد اليَرْموكَ بعدَه، وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة. توفي بالمدينة عام اثنتين وثلاثين عن بضعٍ وستين سنة ودفن بالبقيع وصلى عليه عثمان. المصدر السابق، ج3/ص381– 387.

[39] أبو سعيد الخدري هوسعد بن مالك بن شيبان الخزرجي الأنصاري، شهد الخندق، ثم غزا مع رسول الله اثنتي عشرة غزوة. تُوُفِّي سنة أربع وسبعين ودفن بالبقيع. المصدر السابق، ج2 –ص451.

[40] أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم الخزرجي النجاري. يُكَنَّى أبا حمزة، خادمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يتسمّى بذلك ويفتخر به. قل: أخذتْ أمُّ سليم بيدي فأتت بي رسول الله فقالت "يا رسول الله، هذا ابني، وهو غلامٌ كاتِبٌ" فخَدَمتُه تِسعَ سنين، فما قل لي لشيء قطُّ صنعتُه: «أسأتَ!» أو

«بئس ما صنعتَ!» توفي سنة ثلاث وسبعين عن تسع وتسعين سنة، وهو آخر من توفي بالبصرة من الصحابة. المصدر السابق، ج1/ص294-297.

[41] معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الخزرجي، يُكَنَّى أبا عبد الرحمن. أحد السبعين الذين شهِدوا العَقَبة من الأنصار، وشهد بدرًا وأُحُدًا والمَشاهدَ كلَّها مع رسول الله، وآخى صلّى الله عليه وسلم بينه وبين عبد الله بن مسعود. كان عُمُرُه لّما أسلم ثمانيَ عشرةَ سنة. قال النبي صلى الله عليه وسلم «أعلمُ أُمّتي بالحلال والحرام مُعاذُ بنُ جَبَل» خرجه ابن حبان وابن ماجه وأحمد وغيرهم. تُوُفِّي بالشام في طاعون عَمْوَاسَ سنة ثمانيَ عشرة وكان عمره ثمانيا وثلاثين سنة. المصدر السابق، ج5/ص187-190.

[42] بشير بن سعد بن ثعلبة بن خلاس الخزرجي. يُكنَّى أبا النُّعمان بابنه النعمان بن بشير، شهد العَقَبة الثانية وبدراً وأُحداً والمشاهدَ بعدها، يقال أنّه أوّل مَن بايع أبا بكر الصِّدّيق يوم السَّقِيفة من الأنصار. قتل يوم عين التمر، مع خالد بن الوليد بعد انصرافه من اليمامة سنة اثنتي عشرة. روى عنه ابنه النعمان وجابر بن عبد الله. المصدر السابق، ج1-ص398.

[43] سَعد بن أبي وقّاص، وهو سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف، القُرَشي الزُّهري، أسلم بعد ستّةٍ وكان عمُرُه سبعَ عشرةَ سنة. هو أحَدُ الذين شهِد لهم رسول الله بالجنة وأحد العشرة سادات الصحابة وأحد الستة أصحاب الشُّورى الذين أخبر عمر بن الخطاب أنّ رسول الله تُوُفّي وهم عنهم راض. شهد المشاهد كلَّها مع رسول الله، وهو أول من أراق دماً، وأوّل من رمَى بسهم في سبيل الله. كان أمير الجيش الذي هزم الفرس بالقادسية، وهو الذي فتح المدائن، وهو الذي بنَى الكوفةَ. وَلِيَ العراق ثم عَزَلَه عمرُ، فلما حضرته الوفاةُ جَعلَه أحدَ أصحابِ الشورَى، وقال "إن وَلِيَ سَعدُ الإمارةَ فَذاكَ وإلاّ فأُوصي الخليفةَ بعدي أن يَستعمِلَه؛ فإنِّي لم أعزِلْه مِن عَجْزٍ ولا خِيانَة" فولاّه عثمانُ الكوفةَ، ثم عزله. ولما قُتِل عثمانُ اعتزَل سعدُ الفِتنةَ، ولم يكن مع أحد من الطوائف المتحاربة، بل لزِمَ بيتَه. تُوُفِّي سنة خمس وخمسين بالعَقيق، على سبعة أميل من المدينة، فحمل على أعناق الرجل إلى المدينة فأدخل المسجد

مالك الأشعري وأبي أُمامة الباهِلي والمِسْور بن مَخرَمة والنُّعمان بن بشير والبَراء بن عازِب وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عَمرو بن العاص وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عُمر بن الخطاب وأبي بكرة وشيبة بن عثمان التميمي وجرير بن عبد الله البَجَلي وعمار بن ياسِر، ولكنّه فاتته أحاديث أبي الدَّرْداء وسعدِ بن أبي وقّاص وأبي قِرصافةَ، رضي الله عن الصحابة أجمعين. فالحديث متواترٌ ثابتٌ وإن لَم يرد في الصحيحين.

يرجع تعدّدُ طُرُق الحديث إلى أنّه ورَد في حَجّة الوداع، في أكبَر حَشْد للصحابة. وقد تبيَّنَ لي أنَّ له سببًا، ولكن لم أجده عند أحد ممَّن طالَعتُ شروحَهم له. وسببُه، والله أعلم، تأخّرُ رجُلين عن صلاة الفجر خلفَ النبي. قال يزيد بن الأسود العامري: شهِدتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم حَجَّته فصلَّيتُ معه صلاةَ الصُّبح في مسجد الْخَيْف، فلمَّا قضَى صلاتَه وَانحرَفَ، إذا هو برَجُلين في أُخرَى القوم لم يُصلِّيا معه، فقال «علَيَّ بِهما!» فجِيءَ بهما تَرعَدُ فَرائِصُهما، فقال «ما منعَكما أن تُصلِّيا معنا؟» فقالا "يا رسولَ الله، إنا كنّا قد صلّينا في رِحالِنا!" قال «فلا تَفْعلا، إذا صلّيتُما في رِحَالِكما ثُم أتيتُما مسجِدَ جَماعة، فصلِّيا معهم؛ فإنَّها لكما نافلةٌ!»[45]. وغالِب ظنّي أن ذَينِك الْمُتخلِّفَين هما الرجلان من بني بَكرٍ اللَّذَان قالا "رأينا رسولَ الله صلى الله

فصلَّى عليه مَروان، وأزواجُ النبي أمَّهاتُ المؤمنين. وكان آخرَ المهاجرين موتًا. المصدر السابق، ج2/ص452–456.

[44] جَندَرَة بن خَيشَنَة بن نقير بن مُرّة من ولد مالك بن النضر بن كِنانة، أبو قِرصافة. نزل فلسطين وله أحاديث مَخرجُها من الشامِيِّين ابن الأثير، أسد الغابة، ج1/ص452–571.

[45] خرجه الترمذي في الصلاة وصححه. وخرجه أيضا أبو داود والنسائي وأحمد وابن حبان.

عليه وسلم يَخطُب بين أَوسَط أيام التَّشريق ونحن عند راحِلته"[46] وأيامُ التَّشريق هي الأيامُ الثلاثةُ التي تَلي عيدَ الأضحى والتي ظَلَّ فيها النبيُّ والحجيجُ معه بالْخَيف، أي بالموضع الذي قال فيه مقالَته، كما هو في رواية جُبير بن مطعم قال: قام رسول الله بالخيف مِن مِنًى فقال «نضَّر الله امرأً» ليست لِحديث النضارة ولا لِحادِثة الرَّجلين علاقةٌ بالحجِّ، بل بالصلاة جماعة. فكأنّ النبي صلى الله عليه وسلم جمعَ الناسَ لسببِ تَخلُّف الرجلين من بني بَكرٍ عن صلاة الصبح خَلفَه، فخَطبَهم من يومِهم ذاك، وحمَّلَ الحُضورَ مسؤولِيَّةَ تبليغ سائرِ المسلمين في كل عَصر ومِصر مدَى أهمِّية صلاة الجماعةِ في الدين.

هذا عن سببِ وُرود الحديث، والله أعلم، وبه يتَّضِح فقهُه. افتِتاحُ النبي مَقالَته بقولِه «نَضَّرَ اللهُ امرأً سمِع مَقالتي فوَعاها وحفِظَها وبَلَّغَها» يدلُّ على شِدّةِ حِرْصِه على أن يَستمِع إليه الصحابةُ على كثرَتِهم، فدعَا بخيرٍ لِمَن استَمع إليه بوَعيٍ حتى يُلفِتَ انتباهَ الحاضِرين جميعًا لِما سيقول مِن أمرٍ ذي بال، ليَعُوه ويَحفَظوه حتَّى يتمكَّنوا مِن تبليغِه على وجهِه كما سَمِعوه منه صلى الله عليه وسلم. أمَّا النَّضْرَة فهي أثَرُ النِّعمة السابِغة على الإنسان وهي ما يراه الناظرُ مِن بَهْجة ووَضاءة وحُسْن في الخُلُق وجَمال في الخَلق كما في قوله ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين 24]. ليس تبليغُ العِلم من نافِلة العمل، بل هو عهدٌ أخذه الله على كلِّ مَن بلَغته رسالةٌ من عنده، فقال ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ: لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ! وَلا تَكْتُمُونَه!﴾ [آل عمران 187]

[46] خرجه أبو داود في المناسك، وصححه في ’عون المعبود‘.

فأمر تعالى بالتَّبيين ونَهى عن الكِتمان، وقال رسول الله «بَلِّغوا عنِّي وَلَو آيةً، وحَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَجَ، ومَن كَذَبَ عليَّ مُتعمِّدًا فَلْيَتبَوَّأْ مَقْعدَه مِن النار!»[47] وقال صلى الله عليه وسلم «مَن سُئِلَ عن عِلمٍ عَلِمَه ثمَّ كَتَمَه، أُلْجِمَ يومَ القيامة بِلِجَامٍ مِن نار!»[48] وفي القرآن ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ؛ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ!﴾ واللَّعنَة أشدُّ ودوامُ الإبعاد والإقصاء، فمَن كتم ما معه من علمٍ فهو عدوٌّ لله نقيض أوليائه الذين هم أقرب الناس إليه تعالى. ثم استَثنَى اللهُ مَن عاد مِن العلماء إلى رُشدِه واستقامَ بعد اعوجاجه كما بيَّنه بقوله ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ من تاب تاب الله عليه، ثم زادنا ربُّنا تبصرةً لنعلَم أنّ مِن العلماء مَن يكفُر وهو متحلٍّ بزيِّ العلماء ظاهرًا وباطنُه خراب، وذلك قولُه بعد وَصفِهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ؛ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ! خَالِدِينَ فِيهَا؛ لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ!﴾ [البقرة 159-162] وهذا وَعيدٌ جِدُّ شديد، والعياذُ بالله.

قول النبيِّ «فحَفِظَها وأدَّاها كما سَمِعها» يوجِب على سامِعي الأحاديثِ تبليغَها بألفاظها دونَ تصرُّف. وإن لَم يفهمْها الناقِل، فقد يوجَد في الناس مَن يفتح الله عليه بابَ فِقه فيها فيستفيدَ ويُفيد. وذلك قولُه صلى الله عليه وسلم بعدَه «فرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلى مَن هو أَفْقَهُ منه» وفي رواية أبي سعيد «فرُبَّ حامل فقه ليس بِفَقيه» لأنّ إدراك

---

[47] خرجه البخاري في حديث الأنبياء، والترمذي والدارمي وأحمد عن عبد الله بن عمرو.

[48] خرجه الترمذي عن أبي هريرة في كتاب العلم وحسنه، وخرجه أيضا أحمد وابن ماجه.

العلم والتأثُّرَ به يختلف من إنسان إلى آخر، كما بيَّنه رسول الله بقوله «مَثَل ما بَعثني الله به مِن الهُدى والعلم كمَثل الغَيث الكثير! أصاب أرضًا؛ فكان منها نَقيَّةٌ: قبلت الماءَ فأنبتت الكَلَأَ والعُشبَ الكثير، وكانت مِنها أَجادِبُ: أمسكَت الماء فنَفع الله بها الناسَ فشَربوا وسَقَوا وزَرعوا، وأصابت منها طائِفةً أخرى إنما هي قِيعانٌ: لا تُمسك ماءً ولا تُنبت كلَأً! فذلك مَثلُ مَن فَقِه في دِين الله ونَفعه ما بعَثني اللهُ به، فعَلِم وعلَّم، ومَثلُ من لم يرفَع بذلك رأسا و لم يقبل هُدى الله الذي أُرسِلتُ به!»[49] معنى هذا أنّ مَن بلغَه خطابُ الله تعالى من قرآن أو سنَّة أو إجماع وفهِمه كما هو، وَجب عليه أن يحوِّله إلى سلوك وعمَل لِحينه، وذاك معنى الفقهِ في الدين. والخير كلُّ الخير في هذا، كما نصّ عليه رسول الله بقوله «مَن يُرِدْ الله به خَيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين!»[50].

أما قولُ النبي «ثلاثٌ لا يَغُلُّ عليهنَّ قلبُ مُسلم» فقد يكون ضبطُه «لا يَغُلُّ» برفع الغين وهو مِن الغُلول، أي الخِيانة في الغَنيمة، بالأخذ منها قَبل قِسمَتها، كما في قوله ﴿وَمَن يَغْلُلْ، يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!﴾ [آل عِمران 161] فيكونُ المعنى: لا يُنقِصُ منهنّ شيئا. وإن ضبطناه بخفض الغين هكذا «لا يَغِلُّ» فمن الغِلّ أي البَغْض والحِقد، كما في قوله ﴿الَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحجر 47] فيكون المعنى إذًا: مَن اتَّصف بِمنّ طهَّر الله قلبَه فلَم يَنطَوِ على بَغضٍ لإخوانِه وكانت مَحبَّته في ذات الله. وكِلا المعنيَين صحيح، والله أعلم.

[49] خرجه البخاري في العلم ومسلم وأحمد عن أبي موسى الأشعري.

[50] خرجه البخاري في العلم ومسلم عن مُعاوية.

الحاصل أنّ مَقصود النبيِّ مِن مَقالته العظيمة هذه خِصالٌ ثلاثٌ، يَجب على كلِّ مَن بلَغَه أن يحْفَظَهنّ ويُبلِّغَهنّ وأن يَجتهِدَ في تفهُّمهنَّ وتَفَقُّهِهنّ بنيَّةِ العملِ هِنّ وتعليمِهنّ للناس كافَّة. ثلاثُ خِصال مُرتبطات فيما بينهُن، تقتضي السابقةُ منهنّ التي تَليها وتُمَهِّدُ لها؛ بحيث لا أملَ في حُصول التاليةِ ما لم تَتحقّق وترَسَخْ سابِقتُها في كيانه.

الْخَصلةُ الأُولى «إخلاصُ العملِ لله!» وهنا أَمران: إخلاصٌ وعمل، أي تركٌ للشِّرك بإصلاحٌ للنيّة وإخلاصٌ لله، وتمسُّكٌ بسنَّةِ النبي. وذانِك ما يشير إليهما: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة 25] في أكثر من خمسين موضع في القرآن.

فمَتى تحقَّق هذا وثبَت، ساقَ إلى الخَصلةِ الثانية، وهي «مُنَاصَحَةُ أَئِمَّة المسلمين» ليكون حُكَّامُهم خِيارَهم، أي أئمَّةً بالمعنى الشرعي الصحيح؛ يُحبّون الرعيّةَ ويُحبّونَهم، وينصَحون لهم ويقبَلون نُصحهم ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ، يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ! وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون!﴾ [المائدة 3] في الدنيا قبل الآخرة حيث يَصلُح بهم حالُ الرُّعاة والرَّعيّة.

فمَتى تحقَّق هذا كلّه ساق إلى الخصلة الثالثة، وهي «لُزومُ جَماعةِ المسلِمين» وهذا غايةُ الكمال في الأرض؛ اجتِماعٌ فِعليٌّ مُتكرّرٌ خلفَ رُعاةٍ دُعاةٍ هَمُّهم إقامةُ الصلاة وإصلاح البلاد والعباد بها، كما كان عُمر يقول "إنّ أهمَّ أمرِكم عندي الصلاةُ؛ فمَن حفِظها وحافَظ عليها، حفِظَ دينَه! ومَن ضيَّعها، فهو لِما سِواها أضيَعُ!"[51] حينها يصدُق فيهم قولُه ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

[51] خرجه مالك في وُقوت الصلاةِ عن نافع والبيهقي في 'الكُبرى' عن هشام بن عُروة عن أبيه.

الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه!﴾ [آل عمران 110] كما تحقَّق ذلك في عهد النبي فكان، عليه السلام، خيرَ إمام، وكان الصحابةُ، رِضوانُ الله عليهم، نِعمَت الرعيَّة. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

علم اللغة

ممّا يجدُر التنبيه عليه أوّلا أنَّ لفظة ’لغة‘ لا توجد لا في القرآن ولا في السنّة. وذلك لأنها كلمة إغريقيّة استعملَها العرب بعد الإسلام بقليل، ولا أعلَمُ أن أحدا من شُعراء الجاهلية استعملَها. تعني كلمةُ (logos) الكلامَ، الخِطاب، المنطِق. ينبئُ استيرادُ هذه اللفظة من قِبل الجيل الثاني عن انفتاح المسلمين على الحضارات الأخرى لتلقّي علومٍ تنفعهم دينا ودنيا. أما العربُ من قبلُ وفي بَدءِ الإسلام فكانوا يستعملون لفظة ’لسان‘: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ، لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِين؛ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين﴾ [الشعراء 193–195]. لا يعني هذا أن القرآن لم يستعمل ألفاظا ذاتِ أصولٍ أجنبية. ففي القرآن عددٌ كبير من الكلمات الغير عربية. فمن ذلك ما هو من أصل سامي، وسرياني خاصّة، مثل: إصْر، أوّاه، طور، تنّور، حِطّة، سقر، رَسّ، رَقيم، سِجّين، سَرِيّ، شَنأ، نسَأ، سبُّوح، قُدّوس، مَلكوت، الخ. ومنها ما هو فارسي مثل: تسنيم، سلسبيل، سُندُس، فِردَوس، زَنجبيل، ياقوت، زرابي، أرائك، الخ. ومنها الإغريقي مثل: قرن (chronos)، هُدى (hodos) ومنه (methodos) مِنهاج، أتقن (technè) ومنه تقنية، كوثر (katharos) الطاهرا، نفل (nephalieuô) قُربان، زُخرُف (zographéô) رَسْم، حَرْث (harotos) الفِلاحة، درهم (drachma)، إبليس (diâbolos) الخ. ومنها اللاتيني: بروج (burgus)، قِسطاس (justitia)، أساطير (historia)، قَلَم (calamus)، قِرطاس (charta)، قنطار (centenarium) والذي انتقل

من العربية إلى الفرنسية فأعطى (quintal)، دينار (denarius)، إلى غيرها من ألفاظ كثيرة لا شكّ في نسبتِها إلى لُغات غير عربية.

لكن، وللأسف الشديد، أنكر أكثرُ علماء الإسلام هذه الحقيقة تعسُّفًا وحميَّة. قالوا: كيف يكون في القرآن ما ليس عربيا وقد صرّح القرآن ذاتُه بأنّه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين﴾؟ فلم يتقبَّلوا حقيقةَ أن يتضمَّن القرآنُ ألفاظً أعجمية، وكأنّ ذلك كُفر بالله. وهذا خطأ كبير منهم، إذ لا يمكن لِمَن له أدنى علم باللغات أن ينكِر أن هذه الألفاظ التي أوردنا شيئًا منها أعجميّة الأصل وأنّها تُراث شعوبٍ غير عربيّة منذ أقدم العصور. والجواب على هذا الإشكال هيِّن يسير لا يحتاج إلى بحْث كثير. وهو أن هذه الكلمات وإن كانت أعجميةَ الأصل إلا أنها باستعمال العرب لها قد صارت من لغتهم. فلمَّا جاء بها القرآن وكرَّسها أضحت عربيةً خالصة. يقول السيوطي: الصوابُ عندي مَذهَبٌ فيه تَصديقُ القولَين جميعا؛ وذلك أن هذه الأحرُف أصولُها أعجميَّة كما قال الفُقهاء، لكنها وقعت للعرب فعرَّبتها بألسنَتِها وحوَّلَتها عَن ألفاظِ العَجَم إلى ألفاظِها فصارت عربية، ثم نَزل القرآنُ وقد اِختلطَت هذه الحُروف بِكلامِ العرَب. فمَن قال أنّها عربيّة فهو صادِقٌ ومَن قال أعجميَّة فصادِق[52]. قلتُ: وهذا قوله: ﴿إنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيز، لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِه؛ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد... وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا: لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُه؛ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيّ؟ قُل: هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء. وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ، فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى؛

[52] 'الإتقان في علوم القرآن' النوع 38: فيما وقع في القرآن بغير لغة العرب، 396/1.

أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَكَانٍ بَعِيد!﴾ [فصلت 41-44] قيل: إنما طعَنوا فيه لِما فيه من الكلمات العجمية، كسجّين وإستبرَق، فقالوا: أقرآنٌ أعجمي وعربي، مختلطٌ مِن كلام العرب والعجم؟[53] والجواب أن يُقال: نعم، القرآن عربيٌّ بلا شكّ، وما مِن شكّ أيضًا أن فيه ألفاظًا أعجميّة الأصل، لكنَّها أصبحت عربيَّة بدخولها في القرآن. ولا يُنكر هذا إلا مُكابر، ولا حجَّةَ له في قول الشافعي ولا غيرِه ممّن أنكروا أن يكون في القرآن غير ألفاظ عربيّة الأصل، فالشافعي لن يشفَع له عند ربّه. كيف وقد ثبتَ عنه بالتواتُر أنّه قال: إذا خالَف قولي حديثَ رسول الله فخذوا بكلام رسول الله واضرِبوا بقَولي عُرضَ الحائط! أي لا تتَّبعوني فيما أخطأتُ، بل الحجّةُ ما جاء به الرسول. هذا فيما يأتي عن النبي، فما بالُك فيما يأتي صريحًا في القرآن؟!

كون اللغة من علوم الدين أنّها القاعدة التي تنبني عليها تلك العلوم قاطبةً. فالوَحي إنما هو كلام، فلا بدَّ من تحصيل الوسائل الكلاميّة لفَهمه. ولَمّا كانت لَهجاتُ العرب مختلِفةً وجب جمعُهم على عربيَّة القرآن التي هي لسان الحجاز في القرن السادس ميلادي. ومن ثَمّة أصبح علمُ الإملاء والنحوِ والصَّرْف والبلاغة والاشتِقاقِ وغيرها ضروريّا لفهم مصادِر الدين. هذا أوّل قَدم في الفقه، ومعناه الأوّل إنما هو الفَهمُ كما يجب، أي تحصيل العلم بالأمور على أحسن وجهه أي أقربِه من واقع الأمر.

خلافًا لما شاع منذُ زمَن، فالحاجة إلى تعلُّم اللغة غير قاصر على الأعاجم، بل العربُ أيضا كانوا ولا يزالون في حاجة إليه. كم مرّة تساءل أصحابُ النبي عن معنى هذه

[53] قاله ابن جُزَيّ في ’التسهيل لعلوم التنزيل‘، 294/2، دار الباز، مكة.

العِبارة أو تلك. وكم لَفظة في القرآن ليست حجازيّة، بل ولا عربيَّة. فاللُّغة العربية، وعلى غِرار غيرها من اللغات الحيّة، مَزيجٌ من لُغات. فلزمها دَمجُ ألفاظٍ أعجميّة كثيرة في مِصْهرها، لتُصبِح عربيّة حقًّا أي يُعرَب بها عن أمور شتّى قادمة من وراءِ الحدود بل ومن وراءِ الطبيعة، أي الوحي. اِنطلاقًا من هذا بدأ البحثُ والتدوين لوضع علوم اللغة وفقَ النص القرآني الذي هو المرجَع الأساسي للسان العربي منذ عهد النبوّة وإلى آخر الدهر.

يبحثُ علمُ اللغة عن مدلولات الألفاظ مِن حيثُ الوضعُ والتركيب المؤدّيان إلى المعاني التي تُفهم من كلام العرب. فإن قيل لا تكون اللغة علمًا، لكونها معلومةً بالضرورة وبالسَّليقة، أي بالطبع الذي ينشأ عليه الناسُ في أحضان أمهاتهم. أجيب بأنّه صواب ما دام الأمر كذلك، أما إذا احتيجَ إلى تعلُّم لغة غير لغة الأم وجب تعلُّمها وفق مقتضيات تلك اللغة وقوانينها. وفيما يخصُّ العرب، هذا أمر محسوس لا يحتاج إلى دليل. فاللسان عند العربي لا تكاد تتجاوز حدود منطقته، حتى أننا نجد في المدينة الواحدة لهجات مختلفة. فما بالك بالعربية الفُصحى التي هي لغة القرآن والحديث النبوي. فلولا حِفظ لغة القرآن والحديث بالدواوين التي وضعها أئمة اللسان لتعذّر فهم نصوص الوحي ولاندَرس علم الدين بشتّى فنونه ولتعطّل الإسلام.

ولّما كان التدوينُ بالكتابة، احتيجَ إلى تعلُّم الخطّ. وقد أضاف اللهُ تعليم الخط إلى نفسه تعالى كما جاء في القرآن ﴿اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَم، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ [العلق 3-5] وقد كان تعالى علَّم من قبلُ أبا البشر الكلامَ كما هو واضح في القرآن ﴿عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة 31] فناهيك بعلم اللُّغة شرَفا!

الخط أجدَى من اللفظ، لأن اللفظ يفيد الحاضرَ فقط والخطّ يفيد الحاضر والغائب عبر الزمان والمكان. فلمّا كان الخط بهذه المَثابة لزِمَ ضبطُه بقوانينَ دقيقة يتَّضح بها المقصود ويُتفادى بها سوء الفهم وتقع الفائدة. فبحثَ أهلُ اللّغة عن أحوال الكتابة العربية بحُروفها وحركاتها وسكناتها ونُقطها وشَدّاتها ومَداتها، وعن تراكيبها وتسطيرها لتَصلَ القارئَ عبر الزمان والمكان فينتقل منها إلى الألفاظ ومنها إلى المعاني الحاصلة في الأذهان دون ما حاجةٍ إلى اللسان والآذان.

وقبل ذلك كان الخط العربي ساذجًا بلا نَقْط ولا حركات. فلمَّا انتشر مصحف الخليفة عثمان بن عفّان مكث الناس يقرؤونَه زُهاءَ الأربعين عاما، ثم كثُر التصحيف وانتشر التّحريف، وخاصّةً بالعراق حيث كان الأعاجم بكثرة، فأمر الحَجّاجُ بن يوسف الثقَفي، أميرُ العِراق في الحِقبة الأمويّة، كُتّابَه بأن يفرِّقوا بين الباء والياء والتاء والثاء، وكذا الجيم والحاء والخاء بعلامات تميِّز بينهم؛ فوضع النُّقط وتميّزت الحروفُ المشتبِهة في الرَّسم. سمِّيت تلك العمليّة بالإعجام، لِحاجة الأعاجم إليها لكونهم لا يُحسنون العربية سليقةً. فمنذ ذلك الزمان والإعجامُ واجبٌ شرعًا في المُصحف وفي الحديث النبوي، وعموما في كل كتابة، إلاّ إذا أراد صاحبُها أن يُلغِزها ويُعمّيها.

مما يندرِج تحت علوم اللغة: النَّحو وقواعدُه، والإملاء والإنشاء والتصريف والاشتقاق، والبلاغة، من معاني وبيان وبديع. وكل هذه العلوم ضرورية في الدين، إذ لا يتيسّر فهمُ القرآن ولا السنّة بدونها، أما علوم الأدَب والعَروض والقوافي، وإن كانت من علوم اللغة، إلا أنّها ليست واجبة شرعا.

التفسير

قبل الشروع في الموضوع تستوقِفُنا مَسألة أساسية؛ وهي قضيّة جَمْع القرآن، أي كتابتُه وتقييدُه في سِفْر واحد. فهي قضيّة لَطالَما اختلَف فيها الناس، مِن مسلمين وغيرهم، حتى ادَّعى بَعضُ الغُلاةِ أنّ القرآن لَم يُنزَل على الرسول وإنَّما أُلِّف بعدَ وَفاتِه بقُرون. الواقع يُخالِف هذا؛ فالقرآن نفسُه يشهد بأنَّه مُنزَّلٌ على النبيّ محمد: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ؛ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُم!﴾ [محمّد 2] ﴿إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيم!﴾ [النمل 6] ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِين!﴾ [يوسف 3] ﴿قُل: اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ: وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآن!﴾ [الأنعام 19] ﴿قُلْ: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ! فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِن قَبْلِه؛ أَفَلاَ تَعْقِلُون؟!﴾ [يونس 16] الخ، من الآيات الكثيرة التي تدلُّ على أنّ محمّدا تَلقَّى القرآن مِن لَدُنِ الله.

قال الجُرجاني: نَعلم أنّ الجِهة التي منها قامَت الحُجَّةُ بالقُرآن وظهرت وبانَت وبَهرت، هي أن كان على حَدّ من الفَصاحة تقصُر عنه قُوَى البشر، ومُنتهيا إلى غاية لا يُطمَح إليها بالفِكر... لم نُتعبَّد بتلاوتِه وحِفظه والقيامِ بأَداء لفظِهِ على النَّحو الذي أُنزل عليه وحراستِه من أن يُغَيَّر ويُبدَّل، إلاّ لتكونَ الحُجَّة به قائمةً على وجهِ الدَّهر، تُعرَف في كل زمان ويتوصَّلُ إليها في كلّ أَوان... وعلِمنا عَجْزَ العرَب عن أن يأتوا بمثلِه وتَرْكَهم أن يعارضُوه، مع تكرارِ التّحدِّي عليهم وطولِ التَّقريع لهم بالعجزِ عنه. وكذلك قامت الحجةُ على العَجم قيامَها على العرب واستوى فيها الناسُ قاطِبة. لا

يَخْرج الجاهلُ بلسانِ العرب من أن يكونَ مَحْجوجًا بالقرآن. لذا اتفقَ عليه المُسلمون على اختصاص نبيّنا، صلى الله عليه وسلم، بأنّ معجزته باقيةٌ على وجهِ الدَّهر. فلا يزالُ برهانُه منه لائحًا مُعرَّضا لكلّ مَن أراد العلمَ به وطلبَ الوصولَ إليه، والحجةُ فيه وبه ظاهرة لِمن أرادَها والعلمُ بها ممكنٌ لمن اِلْتَمسه... قال الجاحِظُ في كتابِ النبوَّة: لو أنّ رجلاً قرأَ على رجُل مِن خُطبائِهم وبُلغائهم -أي العرب- سورةً، قَصيرة أو طويلة، لَتبيَّنَ له في نظامِها ومَخْرجها مِن لفظِها وطابَعِها أنّه عاجزٌ عن مثلها؛ لو تَحدَّى بها أبلَغَ العربِ لأَظْهَر عجْزَه عنها![54].

ليس القرآن الكريم من طاقة البشَر، فالناسُ عاجزون عن الإتيان بشيء يُماثِلُه إلى أبد الآبدين: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا: اِئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْه! قُلْ: مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي؛ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيّ!﴾ [يونس 15] فالنبي عاجز عن الإتيان بقرآن من عند نفسه، ﴿أَمْ يَقُولُون: اِفْتَرَاه! قُلْ: فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِين! فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّه، وَأَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ؛ فَهَلْ أَنْتُم مُسْلِمُون؟!﴾ [هود 13-14] فالقوم قد عجزوا عن الإتيان بعشر سوَر مما يشبَه القرآن ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّه؛ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَاب. لا رَيْبَ فِيه: مِن رَبِّ الْعَالَمِين! أَمْ يَقُولُون: اِفْتَرَاهُ! قُلْ: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِه، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِين!﴾ [يونس 37-38] ثم جاءهم التحدّي الأخير

---

[54] 'دلائل الإعجاز' 1/8-9-10-251، مطبعة المدني بالقاهرة.

بأن يأتوا بسورة واحدةٍ فعجزوا وقد كانوا أفصحَ العرب في التاريخ. قولُه: اِفتَراه، من فَرَى الشَّيءَ يَفريه أي قَطَعَه ليُصلِحه والفَري أيضًا الكذب، فالَمعنى لُيقطّعوا كلامَ العَرب ثم ليجمعوه لصناعة نَصّ يُشبه القرآنَ وإن كان كَذبا؛ فلم يستطيعوا!

وليس البشر فقط، بل الجنُّ كذلك لا طاقةَ لهم بنصٍّ يقاربُ القُرآن ﴿قُلْ: لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ؛ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا!﴾ [الإسراء 88] ولو ظاهر بعضُهم بعضًا، أي تعاونوا عليه، فإنّهم سيظلّون عاجزين عن أن يضعوا شيئًا يقاربُ هذا القرآن. بل والجنُّ أنفسهم سلّموا: ﴿قُلْ: أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبا! يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدا!﴾ [الجن 1]. يكفي النَّظرُ في القرآن بتبصُّر لتُعلَم هذه الحقيقة ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ؟! وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرا!﴾ [النساء 82]. فتلاه الرسول على أفصَح العرب في عصره، وكان عصرَ أصحاب الْمُعلّقات الخالدة، وتحدَّاهم به، ثم علَّمه أصحابَه ترتيلاً في الصلوات حتَّى تعلَّموا أكثرَه من خلال سَماعِه في الصلاة خَلفَه.

فإذا ثبتَ أنّ القرآن مُنزَّل من عند الله، تيسَّر فَهمُ أنَّ مِن مَهامِّ الرسول تبليغَه إلى الناس، لا بل تبليغُ القرآن أعظَم ما كلَّف اللهُ به رسولَه، وذلك قولُه ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ البَلاَغ!﴾ [المائدة 99] أي ليس عليه غيرُ ذلك. فالتَّبليغ هو مَدارُ الْمُرسِلِ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقّ!﴾ [البقرة 119] والرسالةِ ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ، بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّك! وَإِن لَمْ تَفْعَلْ؛ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَه!﴾ [المائدة 67] والرسول ﴿هَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ البَلاَغُ الْمُبِين؟!﴾ [النحل 35] والْمُرسَل إليهم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ،

كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا؛ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلا! فَكَيْفَ تَتَّقُونَ، إِن كَفَرْتُمْ، يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبا؟!﴾ [المزَّمل 15-17]. فإن ثبت أنّ التبليغ هو أهمُّ مَقصَدٍ من بِعثة الرّسول، اتَّضح وتبيَّن أنَّ جَمْعَ القرآن لا بدَّ أن يكون مِن طَرف الرسول نفسه وأنّه لَم يكِلْه إلى أحد غيره. وقد قام حقًّا بهذه المهمَّة غايةَ ما يُمكِن ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى! إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى؛ تَنزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى؟!﴾ [طه 2-4] فاللهُ الذي هو خالِق كلِّ شيء هو الذي أنزَل القرآنَ على محمَّد، وليس بقَصد أن يشقَى به لا هو ولا الناس، بل ليسعَدَ به هو والبشريَّة.

مرَّ جَمْعَ القُرآن عَبرَ ثلاث مراحِل. أولاها في حياة الرسول، وثانيها في خلافة أبي بكر، وثالثُها في خلافة عثمان. نعلَم من دراسة الأحاديث والأخبار التي بلغتنا أنّ القرآن قد كُتِب كلُّه بأمر من النبيِّ، إلا أنّه لَم يُجمَع في كتاب واحد. فمن ذلك ما بلغَنا عن زيد بن ثابت، قال: كُنّا عند رسول الله نؤلِّف القرآن مِن الرِّقاع[55]. وعن زيد بن ثابت أيضًا، قال: أرسلَ إليَّ أبو بَكْر، مَقْتَلَ أَهْلِ اليَمامَة، فإذا عُمَرُ جالسٌ عنده. فقال أبو بكر: إنَّ عمرَ جاءني فقال أنَّ القَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يومَ اليمامَةِ بقُرَّاءِ الْقُرآن وأنّه يَخْشَى أن يَسْتَحِرَّ القَتلُ بالقُرّاءِ في كُلِّ الْمَواطِن؛ فيذهَبَ من القرآن كثيرٌ، وإنه يرَى أن آمُرَ بِجَمْعِ القرآن! فقلتُ لعُمَر: كيف أفْعلُ شَيْئًا لَم يفعلْه رسُول الله؟! قال عمر: هو واللهِ خَيْر! فلم يَزَلْ يُرَاجِعُني في ذلك، حتى شَرَحَ الله صَدْري للَّذي شرح له صَدْرَ عمر؛ فرأيتُ في ذلك الذي رأى عُمرُ. فقال لي أبو بكر: إنَّكَ رُجلٌ شَابٌّ

---

[55] خرجه أحمد والحاكم والبيهَقي وغيرُهم بأسانيد صحيحة.

عاقل، لا نَتَّهِمُك، قد كنتَ تكتُب الوَحيَ لرسولِ الله؛ فتتبَّعْ القُرآنَ فاجمَعه! قال زيدٌ: فَوَاللَّهِ لو كلَّفَني نَقلَ جَبَلٍ من الجبالِ ما كان أثقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أمَرَني به مِن جَمع القرآن! قلت: كيف تَفْعَلانِ شَيئًا لم يفعلْهُ رسولُ الله؟! فقال أبو بكر: هو والله خَير! فلم يزل أبو بَكر يُرَاجعني حتَّى شرحَ اللّهُ صَدْرِي للذي شرحَ له صَدْرَ أبي بَكر وعُمَر. فتتبَّعتُ القرآنَ أجمعُه من الرِّقاع والْعُسُبِ واللِّخافِ وصُدُور الرِّجال، حتى وجدتُ آخِرَ سورَةِ 'التوبة' مع خُزَيْمةَ الأنصاري؛ لَم أجدها مع أحدٍ غيرِه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُم: عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم، حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيم! فَإِن تَوَلَّوْا فَقُل: حَسْبِيَ اللَّهُ، لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم!﴾ [التوبة 127–128] قال زَيد بن ثابت: فكانت الصُّحُفُ عند أبي بكْر، حتى تَوَفَّاهُ اللّه، ثم عند عمر، حتى تَوَفَّاهُ اللّه، ثم عند حَفْصَةَ بنت عمر[56].

قولُه 'مَقتَلَ أهلِ اليَمامة' يعني: حينَ قُتِلَ جَمعٌ كبير من الصحابة في معركَة اليمامة، أثناءَ حَرب الرِّدَّة في أيام الخليفة الأوّل أبي بكر. قولُه 'العُسُب' جمع عَسيب وهو جريدَة النخل. و'اللِّخاف' جمع لَخْفَة، هي الحجَر الأبيض العريض وأجزاء الفَخّار الْمُسطَّحَة. وجاء في رواية عن زَيد: فجمَعتُ القُرآنَ أَتَتَبَّعُه من الرِّقاع والأكتاف وصُدور الرجال. 'الرّقاع' جمع رُقعة أي القطعة من الورَق أو الجِلد، وأما 'الأكتاف' فعظام أكتاف الإبل أو الشِّياه لأنها مُسطَّحة. أمّا 'صُدور الرجال' فمعناه أنَّه سمِعَه منهم مُشافهةً فقيَّده بالكِتابة.

---

[56] هذا خَبر صحيح خرجه البخاري وغيرُه.

هكذا بدأ تأليفُ القرآن وترتيبُه؛ بِحَسَب إرشاد النبي نَفسِه، سواءً في سوَره أو آياته. يقول الزرقاني: وهو ترتيبٌ بتوقيفٍ من جبريل، فقد ورد أن جبريل كان يقول «ضعوا كذا في مَوضع كذا»[57]، ولا ريب أن جبريل كان لا يَصدُر في ذلك إلا عن أمرٍ من الله تعالى. ومن بين الأدلّة على ذلك ما بلغنا عن عبد الله بن عباس؛ قال: قُلْتُ لعُثمان: ما حَمَلَكُم على أن عَمِدتُم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المِئين فقرنتم بينهما، و لم تكتبوا سَطر: بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطُّوَل؛ ما حملكم على ذلك؟ قال عثمان: كان رسول الله مما يأتي عليه الزمان، وهو تُنَزَّل عليه السوَرُ ذواتُ العَدَد. وكان إذا نُزِّل عليه شيءٌ دعا بعضَ مَن كان يكتُب، فيقول «ضَعُوا هؤلاء الآيات في السُّورة التي يُذكَر فيها كذا وكذا»[58] وكانت الأنفال مِن أوائل ما نزل بالمدينة وكانت بَراءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قِصَّتُها شبيهةً بقصتها. فقُبِضَ رسولُ الله ولم يُبيِّن لنا أنها منها، فمِن أَجلِ ذلك قَرَنتُ بينهما و لم أَكتُب سَطْرَ 'بسم الله الرحمن الرحيم' ووضعتُهما في السبع الطوال[59]. قولُه 'عَمِدتُم' من عَمِدَ أي قَصد. قولُه 'قُبِضَ رسولُ الله' أي تُوفِّي، صلى الله عليه وسلّم، و'السَّبعُ الطُّوَلُ' أي أطوَل سوَر القرآن، هي: البقرة وآل عِمران

---

[57] يقول الزرقاني: كان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول «ضعوا كذا في موضع كذا» ولا ريب أن جبريل كان لا يَصدر في ذلك إلا عن أمر الله عزّ وجل. 'مناهل العرفان في علوم القرآن' 247/1، مطبعة الحلبي.

[58] خرجه أحمد وغيره عن ابن عباس وضعَّفه الأرنؤوط.

[59] خرجه الترمذي وأبو داود

والمائدة والأنعام والأعراف وبراءة، أي سورة التوبة، مع الأنفال. و'الْمِئُون' هي السور التي تزيد على مائة آية. و'الْمَثاني' جمع مثنى، وهي التي تلَت المِئين، ثم أخيرًا 'الْمُفَصَّل' وهو مِن سورة 'ق' إلى آخر المصحَف. هذه أقسامُ القرآن الأربعة.

فالقرآنُ قد كان مكتوبا في عهد النبي بأمره، ولكن لَم يُجمَع في كتاب واحد إلا بعد وفاته. والسببُ في ذلك بسيط: فعدَم جمعه في كتاب واحد يرجِع إلى كون الوحيِ ساريًا بعدُ لَم يتوقّف طِوالَ حياة الرسول، أي أن إمكانيَّة نزول القرآن كانت سارية إلى آخر رمَق من حياة النبي. لذا بقي القرآن مَنثورًا بين الصحابة إلى حين جَمْعِه بإلْهامٍ من الله لعُمَر بن الخطاب، وقد كان من 'الْمُحدَّثِين' كما وصَفه رسول الله في قولِه «لقد كان فيما قبلَكم مِن الأُمم مُحَدَّثون؛ فإن يكن في أمتي أحدٌ: فإنه عمر!»[60] وهذه من مناقب عمر بن الخطاب ومكانتِه في 'الْمَشروع الإلَهي'. فالوَحي وإن كان ارتَفَع بوفاة الرسول وتوقّف القرآن عن النُّزول، إلا أنَّه ظلَّ ساريًا فعّالاً فيما بعدُ لتثبيت القرآن للبشريّة جمعاء إلى آخر الدَّهر. وذلك قولُه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون!﴾ [الحِجر 9] فتقييد القرآن كتابةً وجمعُه بعد تفرُّقِه من الحِفظ المَذكور في هذه الآية والذي وعد الله به ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلا؟!﴾ [النساء 121] فلا أحدَ أصدقُ من الله إذا قال أو وعد. فهذه هي المرحلة الأولى من جمع القرآن.

الْمَرحلة الثانية، وهي الواردة في خبر أبي بكر وعمر وزيد، تمَّلت في جَمع، في كتاب، ما كان مُفرَّقا. وذلك بالضبط معنى 'كتب' يقول ابنُ فارس: الكاف والتاء

---

[60] خرجه البخاري وغيره عن أبي هريرة.

والباء أصلٌ صحيح واحد يدلُّ على جمع شيءٍ إلى شيء؛ مِن ذلك الكِتَابُ والكتابة. انتهى من'معجم مقاييس اللغة'. فلمَّا انقضى الوحي بوفاة الرسول، أمِنَ الناس من الزيادة في القرآن، ولكن النَّقص منه كان جدُّ مُمكنًا. وذاك الذي أزعج عمرَ بن الخطاب حتى أَلَحَّ على أبي بكر بفعل ما يلزم لحِفظ القرآن من الضَّياع.

ومِن الصحابَة مَن جمَعوا القرآنَ كتابةً لأنفُسهم، مثل عليٍّ وأُبَيٍّ وابن مسعود وغيرِهم، ولكن لا على الترتيب المتَّفَق عليه بين أبي بكر وعمر وزيد، بل حسَب ما وُفِّقوا إليه. إلا أنّ الترتيب القرآني، سواءً في آياته أو في سُوَره، توقيفي لا توفيقي. كما مرَّ من قول النبي لكُتّابه «ضَعُوا هؤلاء الآيات في السُّورة التي يُذكَر فيها كذا وكذا»: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَه! فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَه! ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه!﴾ [القيامة 17-19] فمِن مُقتضيات هذه الآيات أنَّ ترتيب القرآن إنّما هو بإذن من الله تعالى، إذْ أن الجمع والقراءة الواردين فيها يَقتَضيان حتمًا أن يكون الترتيب في كتابَة القرآن يفيدُ البيانَ ولا بدّ. ولا يؤثِّر في هذا الترتيب كونُ القرآن أُنزل حسب الظُّروف والوقائع التي مرّ بها الرسول. لذا جاءت البقرة مثلاً ثانيَ سورة في المصحَف مع كونها نزلة في المرحلة المدنيّة، والمائدة خامسَة في المصحف مع كونها آخرَ السُّور نزولا. وكذلك، فأكثرُ السوَر المكِّيّة ففي آخر المصحف.

المرحلَة الثالثَة هي تلك التي أخذَها عُثمان بن عفّان، رضيَ الله عنه وأرضاه، على عاتقِه. ذكر البخاري في صحيحه أن حُذيفَة بن اليمان قدِم على عثمان وكان يُغازي في فتح أرمينية وأَذربيجان مع أهل العراق، فأفزعه اختلافُهم في القراءة فقال لعثمان: يا أميرَ المؤمنين، أَدرِكْ هذه الأمّة قبلَ أن يختلفوا في الكتاب اختلافَ اليهود

والنصارى! فأرسلَ عثمان إلى حَفصة بنت عمر أن: أرسِلي إلينا بالصُّحُف نَنسَخُها في الْمَصاحِف ثم نردُّها إليكِ! فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيدَ بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرَّهْط القُرشيِّين الثلاثة -ابن الزبير وابن العاص وابن الحارث-: إذا اختَلفتم أنتم وزيد بنُ ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم! ففعلوا. حتى إذا نسَخوا الصُّحُفَ في الَمصاحِف، ردَّ عثمان الصُّحف إلى حفصة، وأرسلَ إلى كلِّ أُفُق بمَصحَف مما نسَخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفة أو مصحف أن يُحرق.

لقد تحمَّل عثمان من جرّاءِ واجبه ذاك الصِّعاب، فجمعٌ من كبار الصحابة رفَضوا أن يُعطوه مَصاحِفَهم التي كتبوها نقلا عن النبي مباشرةً، أو أن يقرؤوا القرآن حسَب لسان قُريش. فمن ذلك ما بلغنا عن عبد الله بن مسعود، قال: كيف تأمرونَني أن أقرأَ على قِراءة زيد بن ثابت، بعد ما قرأتُ مِن فَم رسولِ الله بضْعًا وسبعين سورة، وإنَّ زيدا مع الغِلمان؟![61] وجاء عنه في رواية: والذي لا إلَهَ غَيرُه، ما أُنزِلت سورةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلمُ أين أُنزِلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمَ أنزلَت؛ ولو أعلمُ أحدًا أعلمَ مِني بكتاب الله، تَبلُغُه الإبلُ، لَرَكِبتُ إليه![62] حاصل ما فعلَه عثمان أنَّه أجبَر الصحابةَ الذين كانت معهم كِتابات من القرآن أن يُسلِّموها لَه حتى لا يختلط الأمر؛ كأن يقال: هذا قرآن علي أو ابن مسعود أو أُبي ابن كعب أو

---

[61] خرجه النَّسائي في السنن الكبرى.

[62] صحيح خرجه البخاري ومسلم.

غيرهم فيضيع من الأمّة ما جاء به الرسول ويتشتّت أمر الناس من جديد. ولا داعيَ في هذا المُختَصَر إلى الخَوض مُضيًّا في اختلاف الصحابة في المسألة. إلا أنّ جمعَ عثمان للمصحَف، فضلاً عن كونِه حَفظ الله به ألفاظَه، فقد حَفظ لنا بيانَه، فجزاه الله عنا خيرَ الجزاء.

***

إذا علمنا هذا حان لنا أن ننتقل إلى التفسير، فنقول: هو علم يبحَث عن معاني النَّصّ القرآني بحسَب الطاقة البشرية وبحسب ما تقتضيه اللغة العربية. والقَصد منه حُصول القدرة على فَهم القرآن على وجه الصواب بقصد تصحيح الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسُله واليوم الأخر والقَدَر، خيرِه وشرِّه، واستنباط أحكام الشرع العَمليَّة ما أمكَن ذلك، علمًا بأنّ في السنَّة المحمَّديَّة زيادةُ بيان ما لم يأت في القرآن من تطبيقات الشرع. ومن فوائد التفسير الاتِّعاظ بما فيه من القَصص والعِبر، والاتصاف بما تضمنه من مكارم الأخلاق. إلى غير ذلك من الفوائد التي لا يمكن تعدادها، علمها مَن علمها وجهلَها مَن جهلِها.

ما من نصٍّ، مهما قصُر ووَضُح، إلا ويحتمل وجوهًا ترجع إلى أمور عديدة. منها مثلا: الغموض الناجم عن دِقَّة المعاني والألفاظ الوجيزة، أو عكس ذلك، كأن تأتي الألفاظ ركيكة والمعاني فارطة. ومنها احتمال اللفظ لِمعان مختلفة، كما في الْمَجاز والاشتراك. ومنها إغفال المقدّمات والمتممات، اعتمادا على وضوحها أو على كونِها من علم آخر. وما إلى ذلك من أمور تُعوِز القارئَ إلى زيادة بيان. فإذا تقرر هذا فنقول: نعم لقد أنزِلَ القرآن بلسان عربي في زمن فُصحاء العرب، وقد كانوا يفهمون

مُعظَمَ ما جاء فيه ظاهرًا. أما دقائق أحكامِه وإحالاتِه وإشاراته وباطن مَقاصده، وغير ذلك من مسائل لَم تتبيَّن لَهم. فقد بلغنا عن عمر بن الخطاب أنه قرأ على المنبر ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس 31] فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبُّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لَهو التَّكلُّف يا عمر! فنهى نفسَه عن تكلُّف ما لا علمَ له به، والحقيقة أنَّه علم لا ينفع وجهلٌ لا يضرُّ، كما قيل.

الحاصل أن عُمر أعلن أمام الناس على المِنبر أنَّه لا يعلم لفظًا جاء في القرآن، فما بالُك بغيره من الصحابة فمَن دونهم! ولقد سأل الصحابةُ النبيَّ لَما أنزِل ﴿آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام 82] فقالوا: أيُّنا لا يَظلِمُ نَفسَه؟ قال النبي «ليس ذاك، إنَّما هو الشِّركُ؛ أَلم تَسمَعُوا قولَ لُقمان لابنه ﴿يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ باللّه، إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظيم﴾؟! [لقمان 13]»[63] فالناس بحاجة إلى أكثر بكثير مما كان هؤلاء الصحابةُ يحتاجون إليه في هذا الميدان.

علم التفسير أشرفُ علوم الشَّرع لما فيه من حِكمة، والحِكمة في الشَّرع الإسلامي إنّما هي فَهم كُتُبَ الله الْمُنَزَّلة. وبيان هذا ما بلغنا عن عبد الله بن عباس، وهو أعلَمُ الصحابة بتفسير القرآن، قال: ضَمَّني رسولُ الله إلى صدره وقال «اللهمَّ، عَلِّمْه الكتابَ والحِكمةَ والتأويل!»[64] فقد لَبَّى الله دعاءَ نبيِّه حتى صار حَبْرَ الأمّة. وتعليم الناس معاني الكتاب المنزَّل من مَهامّ الأنبياء كما تقدّم وذلك معنى الحكمة في القرآن: ﴿بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة 2].

---

[63] خرجه البخاري وغيره عن ابن مسعود

[64] خرجه البخاري وغيره.

فالحكمة إنّما هي الفَهم الصائب للقرآن، وهي فَضلٌ من الله يُؤتيه مَن يشاء من عباده ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرا!﴾ [البقرة 269].

اختلف العلماءُ في جواز تفسير القرآن لعامَّة الناس. فقال قومٌ أنّه لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن وإن كان جامِعًا لِمؤَهِّلاته، وأنّه ليس له إلا أن ينتهي إلى ما رُوي عن النبي من بيان لكتاب الله. والراجحُ أن تفسير القرآن ليس بجائز فقط، بل واجبٌ على مَن جَمع العلوم التي يحتاج الْمُفسِّر إليها، وهي: اللغة بفنونها، والقِراءات، والْمُحكَم والمتشابه، وأسباب النزول، إذ بها يُعرف المعنى الُمراد من الآيات، وما إلى ذلك من علوم خاصَّة بالقرآن. أضف إلى ذلك علم الحديث وبخاصّة الأحاديث الْمُبيِّنة للْمُبهَمات والْمُجمَلات، وكذا السيرة. كل ذلك إلى جانب الْمَوهِبة وهي الحِكمة التي مرَّ بيانُها.

أصل لفظة تفسير من فَسَرَ الشيءَ، يَفْسِرُه فَسْرًا، وفَسَّرَهُ تفسيرًا، أي أظهرَه وأبانَهُ وأوضَحه. ولم تأت لفظة تفسير في القرآن غير مرّة واحدة وهي ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرا﴾ [الفرقان 3] أي بيانًا لذلك الحقّ الذي جاء. هناك أمر قريب من التفسير، وقد وردَ مرّات عديدة في القرآن، وهو التأويل. قال إخوةُ يوسف: ﴿مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِين﴾ [يوسف 44] وقال يوسف ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف 100]. فالتأويل كما هو هنا يرجع إلى مَآل الأمر أي مَصيره. فخلافًا لإخوته الذين يُقِرُّون بعدم علمهم بالأحلام وما يَعقُبها من أمور، يوسفُ كان يعلم ذلك. فالتأويل تنبُّؤٌ بأمرٍ سبقتْه علامات تؤول، أي تؤدّي، إليه ﴿كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُه﴾ [يونس 39]. من هذا

المَنظور يكون التأويل أقربَ إلى الْمَوهِبة والحكمة من التفسير. لذا نهى الله عن مُحاولَة التأويل كيفما كان وذلك قوله ﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ. وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ!﴾ فليس من الحكمة مُحاولةُ بيان ما لَم يأذَن الله ببيانه، بل هي جَهالة لذا خُتمت الآية بقوله ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا!﴾ [آل عمران 7] فالْمُحكَم والمتشابِه كلاهما من عند الله، إلا أن الأوّل يجوز لنا البحثُ فيه والثاني مُحرَّم علينا خَوضُه.

الفرقِ بين التفسير والتأويل، أنّ التفسير بيان ظاهر الكلام، حقيقةً كان أو مَجازًا، كتفسير الصراط بالطريق، وهو من الحقيقة، أو تفسير ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف 77] والجدارُ لا إرادةَ له، بل هي استِعارة وهو من الِمَجاز، وتفسيره أن الجدار كاد يقع على الأرض. وأمّا التأويل فاعتِبار باطِن الكلام وما ينجرُّ عنه، أي ما يؤول إليه. والأمثلة في ذلك تكاد لا تنحصر، فمنها ﴿مَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ [الزّلزلة 7-8]؛ تأويلُها أن يحرِصَ العبدُ على عمل الخير وإن قلَّ، وأن ينتَهيَ عن فِعلِ الشَّر مهما قلّ، لأنَّ مآلَه أن يرى في الآخرة نتيجةَ أعمالَه. وذلك قولُه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا. وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ؛ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدا!﴾ [آل عمران 30]، فلما كان مَصير الواحد خيرًا ومصير الآخَر شرًّا، كان دورُ التأويل إخراجَ وبيان هذه الحقائق التي كثيرًا ما تخفى على الغُفَّل.

بلغنا عن صَعْصَعة بن مُعاوية أنه قال: قَدِمتُ على النَّبيِّ فسمعتُه يقرأ هذه الآيَةَ: ﴿مَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ فقلت: واللهِ ما أُبالي ألاَّ

أَسمَع غَيرَها؛ حَسْبِي، حسبي! أي: يكفيني هذا فلا حاجةَ إلى مَزيد. وصَعْصَعة هذا هو عَمُّ الفَرَزْدَق، الشاعِرِ المشهور؛ أعرابِيٌّ لم يكُن يعلَم شيئًا عن الإسلام ولا القرآن، فلمّا سمِع هذه الآية بقَلب حاضر ورَّثَته الفِقهَ في القُرآن. وعلى عكسِه فأكثَر مَن وُلدوا في الإسلام، وعُلِّموا القرآن وسمعوا تفسيره والآثار عن النبيّ، لا يفهمون شيئًا منه كما ينبَغي لهم. وسببُ ذلك أنّ قلوبَهم مَشغولَة بغير فهمه ومَطامحهم في طلب الحياة العاجلة لا ما قد ينفَعهم في العاقِبة. فإذًا حضور القلب ضروري لفَهم القرآن: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد﴾ [ق 37].

كثيرٌ من حَملَة العلم، والذين ليسوا بالصّالِحين، غامَروا بأنفُسهم وعرَّضوها لِما لا تُحمَد عُقباه. وذلك أن مسألة تأويل القرآن قد فَتحت على الأمة أبوابًا كثيرة من الفِتَن والويلات، فأعظم الخِلافات التي فرَّقت المسلمين إنّما هي نتيجة التأويلات الباطلة. لذا جاء التَّحذير من سوء التأويل في مواضع عدّة من القرآن، من ذلك قولُه ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا؟﴾ أي أعرَضَ ومال عنها وترَك العمَل بمُقتَضاها ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ!﴾ وفي هذا إيماء إلى التأويل الْمُنكَر الذي هو في الحقيقة صَدٌّ للناس عن الخير ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي هل ينتَظِرون ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّك؟!﴾ وهذا إعجاز بياني معناه أنّ تأويلَهم مَردود عليهم لأنَّ ما وَعدَ الله به هو الحقُّ وما وُعودهُم إلاّ كذِبٌ وزُور ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ، لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا؛ لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا!﴾ وهذا هو وَعد الله الحقّ، فبِعثَة الرُّسُل تستلزِم من الناس التسليم لهم واتِّباعَهم ﴿قُل: انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُون!﴾

فستَرَون تأويلَ هذا كلَّه بأعيُنكم ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ!﴾ فالنبيُّ بريءٌ منهم ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّه، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُون!﴾ [الأنعام 157-159]. وهذا يوضِّح ما مرَّ آنفًا من سورتَي [الزَّلزلة 7-8] و[آل عمران 30].

ما حُروب الرِّدّة في خِلافَة أبي بكر، ولا مَقتلُ عثمان بن عفان بأيادي مُسلمين، إلا نتيجةَ التأويل الباطل الذي جرَّ على الأمّة ويلاتٍ لا تزال تتعاقب. كان قبلَ ذلك اعتصامُ المسلمين بالقرآن إيمانًا بالله وتسليمًا لِرسوله، فلما حدث ما حدث من التَّفرقة والاختلاف صار المسلِمون شِيعًا: ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون!﴾ [الروم 32]، فلا رحمَةَ بينهم ولا أخوَّة بل القَطيعة والبَغضاء والعياذ بالله. ذهبت كلُّ فِرقَة مَذهبًا تسير عليه منحرفةً عن سَواء السبيل الذي شرعه الله في كتابه وبيّنه الرسول وسُنَّته. ثم فشا الأمر وفَحُش إلى أن اتَّخذوا القرآن والسنّة هزوا؛ ما راق لَهم قَبِلوه وما أزعجَهم تأوَّلوه. فإن احتجُّوا بقرآن أو حديث لم يتتبَّعوا دلالاته الواردة في مواضعَ كثيرة من الوَحي، بل لا يجاوزون الموضِعَ الواحد الذي يريدون به تبريرَ مَذهَبهم. قد صحَّ فيهم قولُه ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ أي أوراقًا ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرا!﴾ [الأنعام 91]، ليس هدفُهم إظهارَ الحقّ، وهو عينُ التَّحريف ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُون: سَمِعْنَا وَعَصَيْنا!﴾ [النساء 46] وهو عينُ الإلحاد ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا!﴾ [فصلت 40].

بلغَنا عن عليٍّ بن أبي طالبٍ أنه قال: للقرآن ظاهِرٌ وباطِنٌ وحَدٌّ ومُطَّلَع. ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة درجات من الفهم: فظاهِرُها تفسيرُها، أي ما يتبادَر إلى الذِّهن بِمُجرَّد قراءتها حسَب اللغة وما إلى ذلك من أمور سبقَ ذِكرُها. وباطِنُها تأويلُها، أي

فَهْمُ مُقتضاها والعمل بِما ولِما تقتَضيه. أما حَدُّها فحُرمَتها، أي ما لا يجوز الخَوضُ فيه كأوائل السُّور، أي 'الم' التي افتُتحت بها البقرة والتي تُنطَق: ألف لام ميم، و'ن' التي في أوّل سورة نون و'كهيعص' أوّلَ سورة مريم، وما إلى ذلك مما يُسمَّى 'الحروف النورانية' وهي أربعةُ عشر حرفا: ا ل م س ر ك ه ي ع ص ح ط ق ن. يجمعها قولُ 'نَصٌّ حَكيمٌ قاطِعٌ لَه سِرٌّ' أي القرآن، وهي نصف حروف العربيّة عددًا وأشرفُها. وممّا يُنهى عن الخَوض فيه مُتشابه القرآن أو تمثيل الله بخَلقه أو تعطيل صفة من صفاتِه تعالى أو ما لا يجوز تعلُّمه من أسرار الحُروف وقِواها وما إليه من علوم السيمياء بقصد السحر. وأما مُطَّلَعُها فذلك أن المؤمن إذا أخلَص في عملِه وفقَ ما جاءَه من علم فإنّ الله يفتَح له علوما لم تكن تَخطُر بباله، كما قيل: مَن عَمِل بما عَلِمَ أَورثَهُ الله عِلمَ ما لَم يَعلَم! وذلك بيِّن من قوله ﴿يَرْفَع اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَات﴾ [المُجادلة 11]. فالْمُطَّلَع اِرتقاءُ الصالِح إلى درجات يتمكَّن له فيها فَهمٌ يفوق فهمَ عامَّة الناس. يقول الشيخ ابن العربي في الفُتوحات الْمَكِّيّة: لَمَّا أُغلق دونَ الخلق بابُ النبوَّة والرسالة، أُبقِيَ لهم بابُ الفَهم عن الله فيما أوحى به إلى نبيّه في كتابه العزيز. وكان علي بن أبي طالب يقول: إنَّ الوَحْيَ قد اِنقطع بعدَ رسول الله، وما بقي بأيدينا إلا أن يَرزُقَ الله عَبدًا فَهْمًا في هذا القرآن!

اهتمَّ المسلمون بعلم التَّفسير منذ بَدْءِ الإسلام. وكان أوَّلَهم النبيُّ، صلى الله عليه وسلَّم، كلُّ أقوالِه وأفعالِه وأحوالِه إنّما هي تفسيرٌ وتأويل للقرآن. فعلَّم الصحابةَ فَهمَ معاني القرآن بما آتاه الله من حكمة رافقت الوَحي: ﴿أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَم﴾ [النساء 113]. أما المفسرون من الصحابة فمنهم

الخلفاء الأربعة، أبو بكر وعُمَر وعثمان وعلي، وأكثرُ مَن رُوي عنه منهم علي بن أبي طالب. ثم ابن مسعود وأُبَيُّ بنُ كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأَشعَري وعبد الله بن الزُّبير وأنس بن مالك وأبو هريرة وجابر وعبد الله بن عَمرو بن العاصْ وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس. كان هذا الأخير بلا مُنازِع أكثَر الصحابة تفسيرا، ترجمان القرآن وحَبر الأمة. وقد روي عنه في التفسير ما لا يُحصى كثرة.

وأما المفسرون من التابعين، أي الجيل الثاني الذين عرفوا أحدًا من الصحابة، فمنهم أصحاب ابن عباس، وهم علماء مكة، كمُجاهِد بن جَبر وسعيد بن جُبَير وعِكرِمة وطاووس اليماني وعطاء بن أبي رَباح. ومنهم أصحاب ابن مسعود، وهم علماء الكوفة، كعَلْقَمَة بن قيس والأسود بن يزيد وإبراهيم النخعي وعامر بن شَراحيل. ويكفي هذا لبيان أن الصحابة علَّموا جماعات من التابعين وهؤلاء علّموا تابعيهم إلى أن انتشر علم التفسير ووُثِقَ به. ثم أخذ تابعو التابعين في تصنيف تفاسيرَ جمعوا فيها أقوالَ الصحابة والتابعين: منهم سُفيان بن عُيَينَةَ ووَكيع بن الجَرَّاح وشُعبة بن الحجاج وعبد الرزاق اليماني وإسحاق بن راهَوَيْه وأبو بكر بن أبي شيبة الخ، وهؤلاء كلُّهم من أئمَّة الحديث والفقه الذين جمَعوا بين العلوم النَّقليَّة والعقليّة. وبعد هؤلاء جاء إمام المُفسِّرين وَحيدُ عصرِه المؤرخُ المُحدّث الفقيه؛ أبو جعفر محمد بن جرير الطَّبَري. ولد في آمُل طَبَرِستان عامَ 839، واستَوطن بغداد وتُوُفِّيَ بها سنةَ 923. وليس هذا المختَصر مَوضِعَ بيان قيمة تفسيره العلمية ومزاياها. فإنَّه الأصل الذي لا يستغني عنه مُفسِّرٌ قطّ. كان يقول: إنّي لأَعجبُ مِمَّن يقرأ القرآن ولم يعلَم تأويلَه، كيف يَلتَذُّ بقِراءته؟! وهنا ملاحظة: فالطبري لم يكن يفرّق بين التفسير والتأويل، وقد سمى

تفسيرَه 'جامع البيان في تأويل القرآن'، وعندي أن هناك فرقًا كما بينتُه أعلاه، والله أعلَم بالصواب.

لا يمنَع هذا مِن الاطّلاعُ على غيره من التفاسير المُفيدة. فالقرآن لا تنقضي عَجائبُه، فهو بَحرٌ لا ساحلَ له، كلاّ بل ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدا!﴾ [الكهف 109]. لا يُمكِنُ حَصر القرآن في تَفسير مهما ضخُمَ حجمُه وبلَغ حُسنه، بل وليست تحصُرُه التفاسير كلُّها ﴿لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآن، لا يَأْتُونَ بِمِثْلِه!﴾ [الإسراء 88].

يجب الانتباه، فليس كلُّ تفسير وضعه عالِمٌ بنافع، بل من التفاسير ما هو سمٌّ قاتل. وبيانُ ذلك أنّ التفسيرَ ينقسم إلى مَنقول ومَعقول، أو إن شِئتَ إلى أثَر ورأْي، أي إما اعتمادا على ما جاءَ من علمٍ نبَويّ أو على ما جاد به العقل من فَهم واستِنباط. ومِصداق النَّوع الأوَّل من كتاب الله قولُه ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه!﴾ [الحشر 7] ومِصداق النَّوع الأخَر ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُون﴾ [آل عمران 79]. وكِلا العلمَين شَريفٌ لأنّ العَقل نِعمَةٌ جاد الله بها، وهو ذو أهمِّيَّة قُصْوَى، إذْ لولاه لفقَدت الرسالات السماوية فائدتَها بلا أمَل إلى الأبَد. فالقرآن يُخاطِب العقل والفكر كما يُخاطبُ القلب والوُجدان: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟! فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور!﴾ [الحج 46].

أوَّل ما يأتي من تفسير بالْمَنقول هو تفسير القرآن بالقرآن: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن؟!﴾ [النساء 82]، فكما أنّ الله سهَّلَ على الألسُن قراءتَه فقد سهَّل على القلوب فَهمَه وعلى

العقول تَدبُّر معانيه: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام 126]. فقد بيَّن القُرآنُ آياته بآياته، وهذا أشرف أنواع التفسير، إذ لا أحدَ أعلمُ بكتاب الله منه تعالى، وهو قوله ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ!﴾ [النساء 166]. وهذا النوع من التفسير يحتاج إلى إلْمام بالقرآن لا يتحقَّق إلا بعد سنين عديدة من حِفظه ودراسَته، وهو ما يسمَّى 'الاستقراء'؛ وذلك أن يتتبَّع المفسِّرُ القرآنَ ليجد فيه بيانَ ما أُبهِم في مواضعٍ مّا قد اتَّضح في موضع غيره؛ فما أجمل في موضع شرَحه في غيره، وما اختصره في مكان بسطَه في موضع آخر، الخ.

ثم يليه التفسير الْمَأثور عن النبي، وذلك قولُه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ!﴾ [الأعراف 62] ذلك واجبُ الرسول تُجاهَ الله وخَلقه: ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم﴾ [النحل 44]. فالناس إذًا مَقصودون بالوَحي بالأصالَة، ومن خصائص الرسول أن يبيِّن للناس تفاصيل الشَّرع الإلَهي: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام 89] فالكتابُ هو نصّ الوَحي، والحكمُ هو الْمَقصودُ من النصّ، والنبوَّة هي الْمَلَكَة التي لا بدَّ منها لتَلقّي الوَحي من عند الله كتابًا وحُكما. فمن هذا الوَجه كان النبيُّ أحقَّ الخَلق بتفسير القرآن، خاصَّةً وأنّ سُنَّته وَحيٌ من ربه أيضًا كما هو صريح في الآية، وكما صرَّح به النبيُّ في مواضعَ عدّة، منها قولُه «إنّي أُوتيتُ القُرآنَ ومِثلَه مَعه»[65] أي السنَّة التي هي بيانٌ للقرآن حتّى يتمكَّن الناس من ترجمتِه إلى واقع. بالجملة فالقرآنُ والسنَّة كلاهُما وَحيٌ

[65] خرجه أحمد عن المِقدام بن مَعديكَرِب وصححه الأرنؤوط.

﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم 3-4] أي أن الرسول لا يتكلّم من عند نفسه ولكن بوحيٍ من ربّه. يأتي بعد هذا التفسيرُ بالسنَّة التفسيرُ بأقوال الصحابة، وأخيرا التفسيرُ بأقوال التابعين.

أمّا التفسير بالرأي، فأصلُه مِن رَأى يرى رأيًا. وهو ما يراه الْمَرءُ اجتهادًا من نَفسه واعتِمادًا على عَقله وِفقَ ما تُمليه اللُّغة. والعلماء مُختَلفون في هذا النَّوع من بينِ مانعٍ له ومُولَع به ومُعتدِل فيه، أخذًا بالأدلَّة الشرعية التي ذكرناها. وهذا هو الصواب، فلو كان التفسير بالرأي غير جائز لانسدَّ باب الاجتهاد، ولتعطلت الآيات التي تحثُّ على دراسة القرآن، وكذا الأحكام الشرعيّة، وهذا باطل فالاجتهادُ يبقَى ضرورةً إلى يوم القيامة، لِما عليه أمور الناس من مُستَجَدّات لا حصرَ لها على مَرّ الدَّهر.

الرّأي قسمان: أحدُهما جارٍ وفقَ كلام العرب مع مُوافقةِ الكِتاب والسُّنة، وهذا القسم جائز لا شك فيه، بل واجب إذا اقتضَته الضّرورة، كما مرّ، والقسم الآخَر ما لم يكن جاريًا على قوانين العربية ولا مُوافقًا للأدِلَّة الشرعية، وهذا مَردودٌ على صاحبه لأنّه تحريف ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عن مَوَاضِعِه﴾ [النساء 46] أي يحمِلون كلامَ اللّٰه على غير ما وُضع له، وهذا ظلمٌ وتعدّي لحدود اللّٰه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِه؟! إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُون!﴾ [الأنعام 21]، فالتَّحريف هنا مُتعمَّد، افتِراءً وكَذبا على اللّٰه وعلى خلقِه، كمَن يتأوَّل القرآن ليُبرِّر سُلوكًا خاصًّا به غير مشروع، أو نُصرةً لفِرقَةٍ يراها على الحقّ مهما فعلت. وقد يكون التّحريف خطَأً من غير تعمُّد، إمَّا لعدم استِكمال أدوات الفَهم من لُغة وآثار وفقه، وإمّا لِعَدم وُضوح المسألة. وفي كلتا الحالتَين يُعتبَر الْمُخطئُ مُجتهدًا، فلا إثمَ عليه، ولكن بشَرط أن

يَرجعِ عن خَطَئه في حين يتّضح له الصوابُ، سواءً فتحًا من الله عليه أو تعَلُّمًا من غيره ممّا هو موافقٌ للشَّرع بعد إيضاح الموافقَة إن كان السائلُ والمسؤول أهلاً لذلك. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

أنواع التفسير بالرأي كثيرة، منها والتفسير البلاغي أو الأدبي، والتفسير الفقهي أو الأحكام القرآنية، والتفسير الإعجازي أو العلمي، والتفسير الإشاري أو الصوفي، والتفسير الموضوعي، الخ. ولكلٍّ أدواتُه الخاصّة به.

علم الحديث

الحديث غيرُ الكلام وغير القول. أما الكلام فقد يكون أو لا يكون مُفيدًا، لا من حيث المَعنى بل من حيثُ عدَم الجَدوى، وقد يكون إنشاءً أو نقلا عن الغير. أما القول فهو الحركة، يقول ابن جنّي: إنّ معنى قول، أينما وُجدَت وكيف وَقعت مِن تقدُّم بعض حروفها على بعض وتأخّره عنه -قلو، ولق، وقل، لقو، لوق- إنما هو للخُفوف والحرَكة؛ وذلك أن الفم واللسان يَخِفّان له ويَقلَقان ويَمذُلان به. وهو بضِدّ السكوت الذي هو داعية إلى السكون[66]. وقال بن منظور: قال ابن الأَثير العرب تجعلُ القولَ عبارةً عن جميع الأَفعال وتُطلِقه على غير الكلام واللسان، فتقول: قال بِيَده، أَي أَخذ، وقال برِجْله، أَي مشَى، وقال بالماء على يدِه، أَي صبَّه عليها، وقال بثوب، أَي رفَعَه[67]. والقولُ عباراتُ الوجه، كالغَمز بالأعيُن ورَفع الحواجِب وهزّ الرَّأس والإشارة بالأيدي، وهذا كثير؛ فالبُكم يقولون بها أشياءَ لا حصرَ لها من غير كلام. وكذلك الرَّضيع الذي لَم يتكلَّم بعدُ، فإنَّه يقول أشياءَ كثيرةً دون أن يتكلَّم. صحيح أنه لا يُفهَم لأوّل وَهلَة، ولكنَّه يظلُّ يعيدُ قولَه حتى يحصل على ما يريده. فالقَول أعمُّ من الكلام لأنّه لا يقتصر على النُّطق باللسان، بل هو تعبير عَبرَ حركات جَسديّة ذات معنى مَفهومٍ مِن طرَف أغلب البشر.

---

[66] الخصائص، 5/1، عالم الكتب.

[67] لسان العرب، 572/11، دار صادر.

أما الحديثُ لغةً فمِن حَدَثَ الشيءُ، أي وَقعَ بعد أن لَم يكن، فهو حادِثٌ حُدوثًا مُختصًّا بالكَلام. يقول ابن فارس: الحاء والدال والثاء أصلٌ واحد، وهو كونُ الشيء لم يكُن؛ يقال: حدثَ أمرٌ بَعْد أن لم يكُن، والحديثُ مِن هذا. انتهى من ʻمُعجَم مقاييس اللغةʼ. فكلُّ مَن حدَّث أو تَحدَّث فلا بدّ أن يُخبرَ عن أمرٍ حدَث بعد أن لَم يكن أو قال كلاما جديدا لم يُسبق إليه. ومن ذلك كونُ القرآن حديثا ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ؛ كِتَابا﴾ [الزُّمَر 23] فالقرآن حديثٌ من الله نزَل في صورة كتاب، أي أنَّه لَم يكن موجودًا بين الناس فأوحاه الله إلى رسوله ثم بلَّغه الرسولُ إليهم، ومنه ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ؟!﴾ [النجم 59] لأنّه جاءهم بأمور لا تخطُر ببال أحد من الناس. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثا؟!﴾ [النساء 87] فلا أحدَ أصدقُ حديثًا منه سبحانَه وتعالى؛ وهو القائل ﴿مَا يَأْتِيهِم مِن ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء 5]. استشكل المفسِّرون لفظةَ ﴿مُحْدَث﴾ فقال الطبري: ما يُحدِث الله مِن تنزيل شيء من هذا القرآن، وقال ابن كثير: أي جديدٍ إنزالُه، وأعرض عنه بالْمَرّة الزَّمَخشَرِيُّ الْمُتَّهَم بالاعتزال، وقال أبو حيّان: هي مسألة يُبحث فيها في علم الكلام. هذا منهم فرارٌ من الوقوع في مسألة خَلق القرآن وأنَّه غير قديم، والتي أحدثها الْمُعتزلة فأفضت إلى تجرُّد المسلمين عن قسم كبير من العقل. ولكن بحمد الله فسيظلُّ هناك مَن يجمع بين العقل والنقل؛ قال الخازن في تفسير ﴿مَا يَأْتِيهِم مِن ذِكْرٍ مِن رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء 2]: قيل معناه أن الله يُحدِثُ الأمرَ بعد

الأمر، فينَزِّل الآيةَ بعد الآية والسورة بعد السورة في وقتِ الحاجة لبيان الأحكام وغيرها من الأمور والوقائع[68]. ويقول الشيخ محيي الدين بن العربي: ليست كلماتُ الله سوَى أعيانُ الموجودات؛ فيُنسَب إليها القِدَمُ من حيثُ ثبوتُها، وينسبُ إليها الحُدوثُ مِن حيث وُجودُها وظهورها. كما تقول: حدَثَ عِندنا اليومَ إنسانٌ أو ضيف. ولا يلزم مِن حُدوثه أنه ما كان له وُجودٌ قبلَ هذا الحُدوث[69]. فالحديث إذًا أخصّ من الكلام الذي هو أخصّ من القول. فالأبكم يقول أشياءَ مفهومة من غير كلام، والمتكلّم قد يقول كلامًا في غاية الأهمّيّة، ومنه القرآن، وقد يتلفّظ بأشياء لا معنى لها، أمّا المُتحدِّث فإنّه يأتي بأمور ذات فائدة ولا بدّ، وقد يكون لَم يُسبَق إليها.

معذرةً، سيدي القارئ، فقد أخَّرتك عن الدخول مباشرة في الموضوع، لكنّ هذا التمهيد مهمٌّ لفَهم لِمَ الحديث النبوي سمِّيَ بذلك ولَم يُقَل عنه: كلامُ النبي ولا قولُ النبي، كما قيل أقوال علي مثلاً؛ وذلك لنَعلَم أن أخصّ ميزات حديث الرسول أنّه لَم يُسبَق إليه وأنَّه مُتجَدِّدٌ على الدوام، كما سيظهر لنا فيما بعد. فنقول: الحديثُ اصْطلاحًا، أي بالْمَعنى الذي اصطَلح واتَّفق عليه أربابُ تلك الصناعة، هو كلُّ ما أضيف إلى النبي قولاً كان أو فعلاً أو تقريرا أو حالا، فيدخُل فيه حركاتُ النبي وسَكناتُ في يقظته ومنامه، ويُطلَق على هذا كلِّه اسمُ: السنَّة. كان هذا المُصطَلَح مُستَعمَلا من طَرَف الصحابة فمن بعدهم. وهناك عبارة أُخرى تُؤدّي إلى ذات المعنى وهي: الخَبَر، مع الضابط أنَّ الخبر روايةُ حديث الغير لا إنشاء ما لَم يكن. من هنا

---

[68] 'لباب التأويل في معاني التنزيل' 288/4، دار الفكر.

[69] 'فصوص الحكم' ص201، الكتب العلميّة.

اتَّفق الْمُحدِّثون، وهم أرباب الصناعة الحديثيّة، على تسمية ما جاء عن النبي حديثًا أو خبرًا، فهو حديث من جهَة إنشاء النبي له، وهو خبر من جهة أنّه منقولٌ عنه.

وهناك نوع من الحديث النَّبوي ولكنَّه ليس من إنشائه، صلى الله عليه وسلّم، وهو ما سُمِّي 'الحديث القدُسي' أو 'الحديث الإلَهي'. وذلك لأنّ مُنشئَه هو الله تعالى ولكنّه ليس من القُرآن. وهو ما نَعرفُه من قول قال النبيّ «قال الله:...»، أو قول الصحابي الراوي: قال النبي فيما يرويه عن ربّه، أو ما شابه مِن عِبارات. وهذا صريح في أنّ النبي ينسُب القولَ بألفاظه ذاتها إلى الله تعالى، فالحديث القدسي وحيٌ من الله غير أن يكونَ قرآنًا. وليس فيما أعلَم ما يسمَح بقَول أنّ النبي كان يتصرَّف في ألفاظ الأحاديث القُدسيّة، كما ظنَّه بعض العلماء، بل الظَّاهر أنّ روايتَه عن الله في الحديث كروايتِه عنه في القرآن. والصحيح أنّ الأحاديث القدسية أو النبويّة ممّا يدخُل في عموم السنة، والتي هي شرائعُ الله التي أوحاها إلى نبيِّه زائدةً على القرآن. ليس عددُ الأحاديث القدسية كبيرا، يزيد قليلا على المائتَي حديث، وقد صُنِّفت في جمعها كتبٌ شَمِلت الصحيح والضعيف من جهة الإسناد، وفيها مِن الواهي والموضوع ما لا تَجوز نِسبتُه إلى النبي. وكَون مُعظَمها في الْمَواعِظ لا يُمثِّل رُخصةً في اختِلاقها وزَعمِ نِسبَتها إلى النبيّ، بل فعلُ ذلك إثمٌ لا شكّ فيه، وقد ثبت عن النبي نقلاً عن عدد كبير من الصحابة أنّه قال «مَن كذَب عليَّ مُتعمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقعَدَه من النار» وفي رواية «مَن قال عليّ ما لَم أَقُل فليتبوأ مقعده من النار»[70] أي فقد اتَّخَذ مَقعدًا في

[70] محمد بن خليل الطرابلسي: عنه صلى الله عليه وسلم أنه قل «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» وهذا الحديث خرجه أكثرُ من مائة من الصحابة الأخيار، وجمعه بعض العلماء بألفاظ متقاربة

جهنَّم والعياذُ بالله. الكذِبُ على النبي كذبٌ على الله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ؟!﴾ [الزمر 32] وهذا مَعلوم من الدين بالضرورة؛ فالشريعة لا تحتَمل أن يُضاف إليها شيء، فهيَ حرَمٌ لا يجوز لأحدٍ انتهاكُه أبدا.

يتميَّز الحديث القدُسي عن الحديث النبوي بكونه أعلَى نَبرةً وأرفَع سَنَدًا وأجمَع مَعنى. وهذا حديثٌ قدسي عظيم قد بلغنا بالسَّنَد الصحيح عن أبي ذَرٍّ الغِفاري عن رسول الله، فيما روى عن الله تبارك وتعالى، أنه قال: «يا عِبادي، إنّي حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم مُحرَّما؛ فلا تَظَالَموا! يا عبادي، كُلُّكم ضالٌّ، إلا مَن هَدَيتُه؛ فاستَهدُوني أهْدِكم! يا عبادي، كُلُّكم جائِعٌ إلا مَن أطعمتُه؛ فاستَطْعِموني أُطْعِمْكم! يا عبادي، كُلُّكم عار إلا مَن كَسوتُه؛ فاستَكْسُوني أَكْسُكُمٍ يا عبادي، إنّكم تُخطِئون باللَّيل والنهار، وأنا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جميعا؛ فاستغفروني أغفِرْ لكم! يا عبادي، إنَّكم لَن تَبْلغُوا ضَرِّي فتَضُرُّوني، ولن تَبلُغوا نَفْعي فتَنفَعوني! يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنكم، ما زادَ ذلك في مُلْكي شَيَئًا! يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ منكم، ما نَقَصَ ذلك مِن مُلكي شَيَئًا! يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صَعيدٍ واحِد فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْأَلَتَه، ما نَقَصَ ذلك مِمَّا عِندي إلاّ كما يَنقُصُ الْمِخيَطُ إذا أُدخِلَ البَحرَ! يا

وطرق رفيعة المنار، وأجمعوا على أن الكذب على رسول الله من أكبر الذنوب وأشد الأوزار. بل صرح الجُوَيني مِن الشافعية وابن الْمُنَيِّر مِن المالكية وغيرُهما من العلماء الكبار، أن الكاذب على رسول الله يُخرجُ عن الْمِلَّة ويكون من الكفار. 'اللؤلؤ المرصوع' ص23، دار البشائر، بيروت.

عِبادي، إنَّما هيَ أَعْمالُكم؛ أُحْصيها لَكم ثم أُوَفِّيكُم إيَّاها. فمَن وَجَدَ خَيْرًا فليَحْمَدِ اللهَ، ومَن وَجَد غَيرَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلاّ نَفْسَه!»[71] الصَّعيد هنا هو الأرض الواسعة، والْمِخيَط هو الإبرة التي يُخاط بها. وهو كما ترى خِطابٌ من الله لعِباده على لسان رسولِه ولكنَّه ليس من القرآن.

هناك رواية هي دونَ الحديث النَّبوي، وهي ما يَسمَّى 'الأثر'. أي ما أُوثِرَ عن الصحابة فمَن دونَهم نتيجةَ ما تأثَّروا به من تعاليم الرسول إمّا مباشرةً وإمّا بوساطة غيرهم. والأَثَر لغةً هو ما بقي من مُرور الشيء إمّا حقيقة أو مجازا. وهو في الْمُصطَلَح ما اختُصَّ بالأجيال الثلاثة الأولى من المسلمين، والذين هم الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. وهم الأجيال الذين شهِد لهم الرسول بالخَيْرِيَّة حيثُ قال «خَيْرُكم قَرْني، ثم الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهم. ثم إنَّ بعدَهم قوما يَشهَدون ولا يُستَشهَدون، ويَخُونون ولا يُؤتَمنون، ويَنذِرون ولا يُوفُون، ويَظهر فيهم السِّمَنُ»[72] ومعناه أنَّ جيل النبي -والذي يسمّيه قرنًا، والقرن ليس المائةَ عام كما يظنُّ الناس حاليّا وإنَّما معناه الجيل الذي يقتَرِنُ بعضُ أفراده ببعض في الزمان- أي الصحابة ثم التابعون ثم تابعو التابعين أنّهم خيرَة المسلمين. وهذه الشهادة تمنَح تلك الأجيال عَدالةً خاصَّة لكنَّها تنازُليّة؛ فالصحابة عند أهل السنَّة كلُّهم عُدولٌ، أي أن أحدَهم إذا قال:

---

[71] هذا الحديث عن الله صحيحٌ ثابت، خرجه البُخاري في 'الأدب الْمُفرَد' ومسلم في 'صَحيحه' والترمذي في 'جامِعه' وحسَّنَه.

[72] والحديث ثابتٌ عن عَدَدٍ مِن الصحابة بأسانيدَ مُختَلفةٍ، وهو في 'الصحيحَين'، أي 'صحيح البخاري' و'صحيح مسلم' دونَ غيرِهما من كتُب الحديث.

قال النبي كذا، فلا داعيَ للبَحث عن كيفيّة تَلقِّيه للحديثَ؛ روايتُه مقبولةٌ سواءً سمعه مُباشرةً من النبي أو أخبره به صحابيٌّ آخر. أمّا التابعي إذا قال: قال النبي كذا، فمِن الواجب البَحثُ عن الواسطَة بينه وبين النبي، لأنَّه لَم يسمَع من النبي بلا شكّ؛ فوجبت مَعرِفَةُ الصحابي الذي أخبرَه بالحديث. وأمّا تابعي التابعي إذا قال: قال النبي كذا، فلا بدَّ من البحث عن التابعي والصحابي اللَّذَين تناقلا الحديث حتى بلَغَه. فإذا كان التابعي عدلا ثقةً ثَبْتا كثيرَ الروايات الصحيحة المتَّصلة، أي حيث يذكر عمَّن سمع، ثم فاته ذكرُ الصحابي الذي سمع منه فروايتُه مَقبولة وتسمَّى مُرسَلة أي غير مقيَّدة بذكر الصحابي، وحينها لا ضرورة للتفتيش. وقد يُقبَل مُرسَل تابعي التابعين بالشروط المتقدّمة، لكنّه أقل والثقة به أدنى، والله أعلم.

نعلَم من هذا أن الحديث مُركَّب من شَطْرَين: أوَّلُهما ما قالَه النبيُّ، ويسمَّى 'الْمَتْن'، والشطر الثاني 'السَّنَد' أي ما يَسنُد الرواية فترتَكِزُ عليه ويعضُدها حتى تحظَى بالتَّصديق والقَبول المُوجبَين للعمل بها حالا، وإلا فالرواية واهية مَتروكة. ولقد نصَّ عُلماء الحديث على أهَميَّة الإسناد، فمن ذلك قولُ عبد الله بن المبارك 'الإسنادُ مِن الدين، ولولا الإسناد لقال مَن شاء ما شاء!' وقد سبق بيانُ أنّ علوم الدين من صميم الدين، أي أنها واجبة على المسلمين، كلاًّ حسَب طاقتِه وما منحه الله مِن مؤهِّلات توجبُ عليه العملَ لنشر الدين الصحيح بين الناس. وقد أمَر النبيّ أصحابَه بالتَّبليغ عنه مراتٍ عديدة في حجَّة الوداع بقولِه «بَلِّغوا عَني!» أي بلِّغوا غيرَكم ما بلَّغتُكم، وهذا أمرٌ يعمُّ كل المسلمين إلى آخر الدَّهر، ومنه «لِيُبلِّغْ الشاهِدُ الغائِبَ!» وقال لأصحابه

«تَسْمَعون ويُسمَعُ منكم، ويُسمَع مِمَّن يَسْمَعُ منكم!»[73] وهذا أصلُ الإسناد، فهو عِبارة عن ذكر أسماء رجال السلسلَة الناقلين للحديث من عهد النبيّ إلى أُذُن الْمُحدِّث، أي العالِم المختصّ بهذا الفَنّ، في أي عصرٍ كان.

ترتكز صناعةُ الحديث على أمرين أساسيَّين وهما: البحث في كيفيّة وصول الحديث وهو دراسة الإسناد. ثم إذا صحَّ السَّند وغلبَ على الظَّن ثبوتُ الرواية عن النبي، نُظِر في الَمتن لدراسة ما جاء عن الرسول لفَهم معناه وما يقتضيه من عمَل. فالَمرحلة الأولى قسمَين أيضًا: أوّلهما البحثٌ في كيفيَّة وُصول الحديث مِن حيث السنَد اِتِّصالاً وسَماعا، والثانية بحث عن أحوال رواتِه ضبطًا وعدالة. ثم تأتي بعدَها الدِّراسةُ لدِراية الحديث بَحثًا عن المعنى الْمُراد الذي من أجلِه قال الرسول ما قاله. وكما هو الشأن في القرآن، يجب أوَّلا مَعرفة قواعد العربية وضوابط الشريعة الكُلِّيّة المستوحاة من القرآن والسنّة والفِطرة الصافية.

أما الضَّبط والعدالة والاتِّصال والسماع الوارد ذكرها، فمن اصطلاحات الُمحدِّثين. الضَّبط يختصّ بالرواة، فلا بدّ للراوي أن يكون حافظًا لما يرويه بالحَرف الواحد، فالرواية بالَمعنى ليست من الحديث في شيء. فمَن لَم يحفَظ بالضَّبط الحديث وقع في الوهم والغلط. وأمّا العَدالة، فكَون الراوي عَدْلاً، والعدْل هو الْمَرْضيُّ الأخلاق الذي يثقُ به الناس ويأتَمِنونه، ويكفي سلوكُه الظاهر، وتُكَل إلى الله السرائر. فإن زُكِّيَ الرَّاوي، أي ذُكِر بِخير من قِبَل جماعة ممّن عرفوه، كفى شرعًا ولا حاجةَ للتفتيش. أما

---

[73] صحيح خرجه أحمد وأبو داود وابن حبان عن ابن عباس.

الاتِّصال والسماع فإنَّهما يتعلَّقان بكون كلٍّ من الناقلين قد التَقى بالذي يروي عنه، فإن ثبت أنَّ السامع لم يرَ الراوي فالروايةُ ساقطة، ولذلك قرائن ليس هذا محلُّ بيانها.

ولنُمسِك هنا العِنان حتى لا يشطُط بنا القَلَمُ في مباحثَ لا تُجدي قارئَ هذا الْمُختصَر، والذي هدفُه تقريبُ أمَّهات العلوم الشرعية في الإسلام دون قصد الإلْمام بشيء منها، فإنّه ليس للتَّعليم ولكن للتنبيه والإعلام. وإلا فعلوم الحديث كثيرة جدّا، فمنها: معرفة الصحيح، وهو المَوثوق به الذي يقتضي العمَل، والحَسَن وهو الذي يُطمأنّ له بشرط أن لا يُعارض الصحيح، ثم الضعيف الذي قد يكون مِمّا قاله النبي ولكنّ سندَه واهٍ، وقد يكون له طُرقٌ عدَّة لكنَّها كلُّها مَعلولة، فهذا النوع لا يردُّ بالمرَّة ولكن يُنظَر فيه من جهة قُربه من كلام النبي ولفائدته الشرعيّة المتلائمة مع النصوص الثابتة، ثم يأتي الْمُنكَر وهو ما تفرّد به راوٍ قلّت ثقتُه، وهذا فيه نظر أيضًا، لإمكانيّة ثبوته والبحث فيه من صلاحيات المختصّين بعِلل الحديث كالدارَقُطْني وغيره، وأخيرًا الْمَوضوع أي ما وضَعه واخترعه أحد الناس ثم نسبَه إلى النبي، وهذا النوع يخرُج عن الحديث بالكليَّة ولا تجوز نسبتُه إلى النبي ولا روايته لقول النبي: «مَن روَى عني حديثًا وهو يُرَى أنه كَذِبٌ؛ فهو أحَدُ الكَذّابين!»[74]. والمرفوع سندًا والمرفوع حُكمًا، والمُرسَل والمَوقوف والمقطوع والمتَّصِل والْمُعَنعَن، والتَّدليس، والمُتواتِر والمشهور والعزيز والآحاد والشاذّ، والسَّماع والإجازة والْمُناوَلة، الخ مما يَخُصّ علومَ الإسناد. ثم علوم الرجال مِن جَرْح وتَعديل ووَفيات وطَبقات، وعدالة وضَبط واتّهام ووَهْم، ثم الإعضال والعِلل

[74] صحيح خرجه أحمد وغيرُه عن المغيرة بن شعبة.

الخفيَّة والظاهرة والشواهد والمُتابَعات، والإدراج والقَلب والاضطراب والتصحيف، والناسخ والمَنسوخ والغَريب وغير ذلك. ثم بعد هذا كلّه تأتي علوم الدِّراية التي تبحثُ في فَحوى ما جاء عن الرسول ودلالتِه ومُقتضياته الشرعية وما له علاقة بالعبادات والعادات والإيمان والسلوك وغير ذلك من شُعَب الدين.

تشعَّبت علومُ الحديث إلى حدٍّ أن انتَقد جماعةٌ من العُقلاء ذلك وعدّوه تشغيبًا لا خيرَ فيه يَحول بين العبد وطاعة ربِّه باتِّباع نبيِّه. فوقع المحدّثون في متاهات لا علاقةَ لها بلُب موضوع الحديث والذي هو دِراسة أقوال وأفعال وأحوال الرسول وإقراراته، قصدَ العمل بمُقتضاها. والإقرار هو أن يفعل الصحابيُّ أو يقول شيئًا بحضرة النبي فيُقِرُّ النبيُّ ما صدرَ عنه ولا يردُّ عليه؛ فذاك هو الإقرار، وهو من السنّة. وأمّا دخولُه ضِمن الحديث فلأنَّ الرسول مَجبورٌ على تعقُّب كلّ مُخالَفة يراها من الناس وذلك قولُه «مَن رأَى منكُم مُنكرًا فلْيُغَيِّره بيده، فإن لَم يَستَطِع فبِلسانه، فإن لم يستطع فبقَلبه؛ وذلك أَضعَفُ الإيمان!»[75] أي أنّه ما وراء ذلك إلا الكُفر. ومن المَعلوم من الدين بالضرورة أنّ النبيَّ لَم يكُن لينهى عن شيءٍ ثم يفعَلُه لِما اختصَّه الله به من وَظيفة التعليم ولعموم قولِه ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ، وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ؟! أَفَلا تَعْقِلُونَ؟!﴾ [البقرة 44].

قيل أنّ أول كتاب صُنِّف في الإسلام كتاب الْمُوطَّأ لعالِم المدينة مالك بن أنَس الأصبحي الحِميَري، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه يُنسَب المَذهب المالكي. والْمُوطَّأ كتابٌ نفيس مع صِغَر حَجمه جمع فيه مالكٌ ما يزيد عن الخمسمائة رواية بين

[75] خرجه مسلم وغيره عن أبي سعيد الخُدري.

خبر وأثر، حسبَ ما بيّناه آنفا. وهذه روايتي لهذا الكتاب: أقول، وأنا أبو حامد صخر بن حسين: أخبرَني محمد الحسن بن علوي بن عباس المالكي المكي الشريف الحَسَني، مُناولَةً، عن والده عن جَدّه عن محمد عابد المكي عن أحمد زيني دَحلان عن عثمان بن حسن الدِّمياطي عن محمد الأمير الكبير عن علي بن السقاط الفاسي عن محمد الزرقاني عن والده عبد الباقي عن علي الأجهوري عن محمد بن أحمد الرملي عن زكريا الأنصاري عن ابن حجَر العَسقلاني عن نجم الدين محمد بن علي ابن عقيل البالسي عن محمد بن علي المكفي عن محمد بن الدلاصي عن عبد العزيز بن عبد الوهاب بن إسماعيل عن جده إسماعيل بن الطاهر عن محمد بن الوليد الطرطوشي عن سليمان بن خلَف الباجي عن يونس بن عبد الله بن مغيث عن أبي عيسي يحيي عن عم أبيه عبيد الله بن يحيي عن أبيه يحيي بن يحيي اللَّيثي الأندلسي عن الإمام مالك بن أَنس عن أبي الزِّناد عَن الأَعْرَج عن أبي هُرَيرَةَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إيّاكُم والظَّنَّ؛ فإنّ الظَّنّ أَكذَبُ الحديث! ولا تَجَسَّسوا ولا تَحَسَّسوا ولا تَنافَسوا ولا تَحاسَدوا ولا تَباغَضوا ولا تَدابَروا؛ وكونوا، عبادَ الله، إخْوانا!»[76].

وَضعتُ هنا بين يدَي القارئ نَموذَجًا حيًّا للحديث. بيني، أنا صخر، وبين النبي محمّد ثلاثون رجُل؛ كلٌّ واحد ينقُل عن شيخِه إلى أن بلَغني الحديث عن محمد بن علوي المالكي، المولود في مكّة عام 1944 والمتوفَّى بها سنةَ 2004 رحمه الله، وهو مَعروف ذو شُهرة، له مؤلَّفات عديدة وكان كريما ذا همّة وشجاعة ومواقفُه معروفة

---

[76] خرجه البخاري وغيره عن أبي هريرة.

في الدفاع عن السنّة. أخذتُ عنه في بيته حيث مدرستُه بمكّة وناولني عددًا من كُتُبه وأجازَني في الرواية عنه. فالسنَد هنا يتمثّل في الرجال المذكورون بما فيهم أنا، آخرَهم، وأبو هُريرة الصحابي الجليل، هو أوّل رجال الإسناد. ثم إذا تتبَّعنا السلسلَة فردًا فردا لَوجدنا كلَّ واحد منهم معروفًا، مَذكوراً فيما يسمَّى بكُتُب الرّجال، كالطّبقات لابن سَعد وميزان الاعتدال في مَعرفة الرّجال للعَسقلاني، وغيرها إلى يومنا هذا. لا حاجةَ في الحقيقة إلى هذا القدر من التَّحرّي، فعلم الإسناد قد فقد بعد القَرن الثالث هجري فائدتَه، كما سنبيِّنه فيما بعد إن شاء اللّٰه.

ثمّ هناك الْمَتْن، والذي هو كلام الرسول. وهذا شرحُ ما جاء فيه، فقَول النبيِّ: إياكم والظَّنَّ: معناه لا يقَعنَّ أحدُكم في الظَّنّ، الظنّ السَّيِّئ خُصوصًا، لأن من الظنّ ما هو حَسَن كما في قوله ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرا﴾ [النور 12]، وعن النبي في أنّه قال «يقول اللّٰه: أنا عند ظَنِّ عبدي بي؛ فَلْيَظُنَّ بي ما شاء!»[77] وهذا كلُّه ظَنٌّ حسن، وليس هو المَقصود في حديثنا، بل المَقصود الظنُّ السَّيِّئ كالذي في قوله ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقّ﴾ [آل عمران 154]؛ هذا هو الظَّنّ الذي نهَى عنه الرسول، أي: إيَّاكم أن يُسيءَ بعضُكم الظَّنَّ ببعض. وعلَّة هذا الظَّن أي سببُه أنَّه كَذبٌ، بل شرُّ الكَذبِ على الإطلاق، وهو قوله «فإنّ الظَّنّ أكذَبُ الحديث!»[78] وأمّا تحقيقه ومُقتضاه فقوله: لا تَجَسَّسوا ولا تَحَسَّسوا، هما كلمتان قريبتان يرجِع معنى الأولى إلى البَحث عن عيوب الناس لفائدة الغير والثانية طلبًا لشفاء غَليل. ولا تَنافَسوا: من

[77] خرجه أحمد عن أبي الأسود الجرشي وصححه الأرنؤوط.

[78] خرجه البخاري وغيره عن أبي هريرة.

المُنافَسة، أي لا تتسابَقوا لنَيل حُطام الدنيا، فليس للمرء غير ما كُتِب له. ولا تَحاسَدوا: والحَسد هو إرادة زَوال النِّعمة عن الغَير. ولا تَباغَضوا: والبَغض هو الكُره الشديد. ولا تَدابَروا: من التَّدابُر وهو قَطعُ العَلاقة، وأصلُه أن يوَلّي أحدٌ ظهرَه قَطعًا للصِّلة بالغَير. ثم ختمَ بقولِه: وكونوا، عبادَ الله، إخْوانا!، أي: كونوا، يا عبادَ الله، إخْوانا. هذا الحديث الجليل مُستَوحًى من القرآن مباشرةً، وذاك قولُه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ؛ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون! يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ، عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُم! وَلا نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ، عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنّ! وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَاب!﴾ [الحُجُرات 10-11].

كانت هذه عيِّنة في فنّ الحديث روايةً ودراية. فلْنغتنمْها لبيان عمليّة التَّحرّي التي اعتمدها المحدّثون لِمَعرفة صحيح الأحاديث من مَعلولها، أي سقيمها. فأقول: إنّما ذكرتُ إسنادي ابتداءً بشيخي محمّد بن علوي، مع ذكر شيءٍ عنه، لإتاحة البَحث لِمَن يريد؛ فقد أكون كاذبًا مخترعًا لأسماءَ وأعيانٍ لا حقيقةَ لها. فمَن شاء بَحَث عن هؤلاء الرجال ليعلم صحَّة ما أقول. وكذلك كان يفعل عُلماء الحديث؛ وكأنّهم في تحقيق قضائي. إذا سمعوا أحدًا يقول: قال النبيُّ كذا. سألوه: مَن أخبرك بهذا؟ فيقول: فُلان. فيذهبون إليه ليتحقّقوا أنّه هو الذي أخبرَ الأوّل. فإن أنكَرَ، ثبتَ كذبُ الأوّل فجَرحوه، أي وَصَموه بالكذب أو الوَهم، وحكموا عليه بأنَّه لا يُوثَق بكلامه وأنَّه إذا ظهر اسمُه في إسناد أعلَّه، أي ضعَّفَه. وإن أقرَّه الشيخ وقال: أنا الذي أخبرتُه؛ عدَّلوا الأوّل، أي حكموا له بالصِّدق. ثم يسألون الثاني عمَّن أخذَ ذلك الحديث. فإن كان شيخُه حيًّا ذهبوا إليه، وإلاّ سألوا تلاميذَه ليتحقّقوا من دَعوى الثاني، وهكذا. فإن

طال بهم الأمَد و لم يستطيعوا سؤالَ أحدٍ لقِدم عَهده، نظروا في ’كُتب الرّجال‘ و’الجَرح والتَّعديل‘ ليعلَموا مدَى تَوثيقه مِن عدَمه عند أرباب الصِّناعة. وهذا معنى قول عبد الله بن المبارك ’لولا الإسنادُ لقال مَن شاء ما شاء!‘

مرّ تصنيف الحديث على مراحل. حدث في زمَن الإمام مالك وبعدَه رجال اهتمُّوا بالحديث، كالأوزاعي وسفيان الثوري وسفيان بن عُيينة وطاووس اليماني وعبد الله بن المبارك وأبو داود الطيالسي ومحمد بن إدريس الشافعي وغيرهم، ثم جاء أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهَوَيه ويحيى بن مَعين وأبو بكر بن أبي شيبَة وعبد الرزاق الخ، ثم جاء ابنُ ماجَه والدَّارِمي وأبو داود السِّجستْاني وأبو عبد الله البُخاري وأبو عيسى الترمذي ومُسلِم بن الحجاج، ثم النَّسائي وابن خُزَيمة والدارقُطني وغيرهم. ولكلّ واحد من هؤلاء طريقَتُه في عَرض الأحاديث وتصنيفها.

وفي هذه الْمَرحلَة، أي من نصف القرن الثاني هجري إلى القرن الرابع، أي بين القرنين الثامن والعاشر ميلادي، بلغ علمُ الحديث أَوجَه وخرجت إلى الوُجود أمَّهات الحديث وفي طَليعتها ’صحيح البُخاري‘ والذي هو، فيما أرى، أوثَقُ وأنفَعُ كتاب في الإسلام بعد كتاب الله، لِمَن تأمَّلَه. لِما فيه من علوم حديثيّة وقرآنيّة ولُغويّة وأُصوليّة وفقهيّة وتاريخيّة إلى غير ذلك ممّا يبهَر العقل؛ سواءً عقائديًّا أو فقهيّا، وكذا في السيرة والرَّقائق وما إليها من علومٍ وفوائدَ جَمَّةٍ لا يزال بعضُها مَستورا إلى يومنا هذا. والاسمُ الكامل لهذا الكتاب العظيم هو: ’الجامِع الْمُسنَد الصَّحيح الْمُختصَر من أُمور رسول الله وسُنَنِه وأيامه‘، ما كان مَقصود البخاري الاقتصارَ على الأحاديث، بل وَضع كتاب فقه، أي فَهم عامّ شامل لأبواب الدين كلِّها، والتي بنينا هذا الْمُختصَر

على بيان شيءٍ منها، لذا اشتَغل باستنباط الأحكام من القرآن والأحاديث وأقوال العلماء في شتّى الفنون.

تظهَر عبقريَّة البُخاري من أوَّل نَظرة في كتابه، فقد ابتدأه هكذا: كَيف كان بَدْءُ الوَحْيِ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقولُ الله جَلَّ ذِكْرُه ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ حدثنا الحُمَيدي عبد الله بن الزبير قال: حدثنا سفيان قال: حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري قال: أخبرني محمد بن إبراهيم التَّيمي أنّه سمع عَلقمةَ بن وَقّاص اللَّيثي يقول: سَمعتُ عمرَ بنَ الخطّاب على المنبر قال: سمعتُ رسول الله يقول «إنَّما الأعمالُ بالنيَّات، وإنما لكل امرئٍ ما نَوَى؛ فمن كانت هِجرتُه إلى دنيا يُصيبها أو إلى اِمرأةٍ يَنكِحها؛ فهجْرتُه إلى ما هاجَرَ إليه!»[79]. هكذا افتتح البخاري كتابَه. تمام الآية أعلاه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورا! وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْك؛ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيما! رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِين؛ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيما! لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْك؛ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ! وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُون؛ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدا!﴾ [النساء 163-166] فكما أنّ الله أوحى إلى هؤلاء الرُّسُل فقد أوحى إلى

[79] فائدة: ليس من شروط صحة الحديث أن يُتابَع الراوي الثِّقة. فهذا الحديث لا شكّ في صحَّته مع أنَّه شاذٌّ: تفرَّد به عمر عن النبي دونَ غيره من الصحابة، وتفرد به علقمة بن وقّاص عن عمر دون غيره من التابعين، وتفرد به محمد بن إبراهيم عن علقمة دون غيره من تابعي التابعين، وتفرد به عنه يحيى بن سعيد الأنصاري، ثم تواتر عن يحيى بن سعيد فخرجه عنه نحوٌ من مائتين.

محمَّد أيضًا، وكذلك جعلَ الرسُلَ حجَّةً له على خلقِه. ذلك لأنّ أكثرَ أهلِ الكتاب أنكَروا نبوَّةَ محمّد ورسالتَه، رغمَ أنّهم يؤمنون بأن الله قد أرسل أنبياءَ من قبلِه.

قصد البُخاريّ بحديث «الأعمال بالنيات» إشهاد الله على صِدْقِ نيَّتِه في وَضع كتابه. ثم ختمَ كتابَه بعد 7008 حديث. بقولِه: حدثني أحمد بن إشكابٍ: حدثنا محمد بن فُضيل عن عُمارة بن القعقاع عن أبي زُرْعَةَ عن أبي هريرة قال: قال النبي «كَلِمتانِ حَبيبَتان إلى الرَّحْمَن، خَفيفَتان على اللِّسان، ثَقيلتان في المِيزان: سُبحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، سُبحانَ اللهِ العَظيم!» فانظُر إلى حُسن ابتدائه كتابَه وحسن الختام:

رَبِّ آتِه مَخْلَصًا مِن رُبَّ زَلَّـــةٍ في حُسْنِ مُفْتَتَحٍ منه ومُختَـــتَمِ!

ومع هذا فقد استَغلَق 'صحيح البُخاري' على أفهامِ كثير من العلماء فضلاً عن عامّة الْمثقَّفين، فاستصعَبوا هذا الكتاب لأمور عدّة. يرجِع جُلُّها إلى تبحُّر البُخاري في علوم الدين الْمُختلِفة. فحاولَ جماعةٌ من شرحه ليُقرِّبوه إلى أفهام الباحثين، فلَم يزِده ذلك في غالب الأحيان إلا استشكالا وغُموضا.

***

مراجع الحديث

الكتب التي جمعت الحديث والسنّة لا تكاد تنحصر كَثرةً، وذلك لاختلاف مَقاصد مُصنِّفيها من جمعها وترتيبها. وتنقسم إلى: أصول، وهي كلُّ كتاب يروي فيه صاحبُه الأحاديثَ بأسانيده عن شيوخه، عمَّن فوقهم حتى يصل إلى الصحابي. القسم الثاني:

الفُروع، وهي كل كتاب يجمع فيه صاحبُه الأحاديث من مصادرها الأصلية من غير ذكر الأسانيد. فمن الأصول، أو الأمّهات، الكتب الْمُستلهَم ترتيبُها من حديث جبريل المذكور فيه الإسلام: أي الشهادة ثم الصلاة بتفاصيلها، من طهارة ومواقيت وأنواعها وكيفيّاتها الخ، ثم الزكاة بتفاصيلها، فالصوم فالحجّ، ثم المعاملات من بيوع وزواج ومواريث. ثم الإيمان بتفاصيله، وختامًا الإحسان ثم المَعاد. تَجمع هذه المؤلَّفاتُ أحاديث الموضوع الواحد كالصلاة مثلا في كتاب ثم توزِّعها حسَب الحاجة على أبواب خاصّة بالمسألة. من ذلك'الجوامع' أي التي تضمُّ العقائد والأحكام والسيرة والآداب والتفسير والفتَن والفضائل الخ، كصحيحَي البخاري ومسلم وجامع التِّرمذي.

ومن كتب الحديث المرتَّبة على أبواب الفقه 'السُّنن'. وتجمع الأحاديث الخاصّة بالفقه مرتَّبةً على أبوابه، وأشهرُها 'سنن أبي داود' 'سنن النسائي' 'سنن ابن ماجة' و'جامع التِّرمذي'؛ وهي 'السُّنن الأربعة'، وتسمّى 'الثلاثة' إذا استُثني منها ابنُ ماجة، و'الخمسة' إذا أُضيف إليها 'مسند أحمد'. وإذا قيل 'السِّتة' فالمراد منه 'الصحيحان' والسُّنن الأربعة. ويُرمَز لها في فروع الحديث بـــ: خ للبخاري، م لِمسلم، فق لِما اتّفق عليه البخاري ومسلم، وهما 'الشيخان' عند المحدِّثين. ثم يرمَز د لأبي داود، ت للترمذي، س للنَّسائي، (ه) أو (ق) لابن ماجة.

ومن الأمَّهات الْمُوَطَّآت، جمع مُوَطّأ، وهو مُصنَّف على أبواب الفقه يشمَل أحاديثَ مرفوعة وموقوفة ومقطوعة. وأشهرُها 'الْمُوطَّأ' لِمالِك، وقد ضمّ إليه أقوال الصحابة وآراءَه الخاصّة وأقوال غيره. وهناك الْمُصنّفات، كتب مرتَّبة على الأبواب لكن تشتمل على أقوال الصحابة فمن دونَهم، بالإضافة إلى الحديث المتَّصل، ومن أشهرها مُصنَّف

عبد الرزاق الصنعاني ومصنف أبي بكر بن أبي شَيبة. وثمّة الْمُستدركات، من استدرك الشيءَ أي حصَّله بعد أوانه، تجمع أحاديث تكون على شرط أحد المصنفين و لم يخرجها في كتابه، ومعلوم أن الشيخين البخاري ومسلم لم يستوعبا الصحيح في ولا التزما بذلك، إذًا فهناك أحاديث هي على شرطهما أو على شرط أحدهما لم يخرجاها، وقد جاء بعدهما مَن استدركَ عليهما، وأشهرُهم الحاكِم النيسابوري في 'الُمستدرَك على الصحيحين'. ومن ذلك الُمستخرَجات، مِن استخرج، وهو أن يعمَد أحدُ الحُفّاظ إلى كتابٍ كصحيح البخاري مثلاً، فيُخرج أحاديثَه بأسانيده هو مِن غير طريق البخاري، مع رعاية ترتيبه ومتونه وطرق أسانيده، وقد يسقط المستخرِج أحاديث لم يجد لها سندًا يرتضيه، ومن أشهرها 'المستخرَج على صحيح البخاري' لأبي نُعيم الأصبهاني. المسانيد، جمع مُسنَد، وهو الكتاب الذي تذكر فيه الأحاديث على ترتيب حروف الهجاء، أو وفقَ السوابق الدينية أو الشرف. والمسانيد كثيرة، أشهرها وأعلاها مسند أحمد بن حنبل ومسند أبي يعلى ومسند البزّار. ومن الأصول أيضا الْمَعاجم، والتي تُذكر فيها الأخبار التي تلقّاها صاحبُها عن شيوخه على الترتيب الهجائي، وأشهرُها المعاجم الثلاثة لأبي القاسم الطبراني، الأوسط والصغير، وهما مرتبان على أسماء شيوخه، والمعجم الكبير ورتَّبه على أسماء الصحابة، وهو المعني بقولهم 'مُعجم الطبراني' بلا تقييد. ومن الأصول أيضًا ما يسمَّى 'الأجزاء' وهي كُتب مفردة في مسائل مُعيَّنة. وأبرزُها الشمائل، كتبٌ تجمع ما جاء في أوصاف النبي الخَلقية والخُلقية، وعلى رأسها 'الشمائل المحمَّدية' للترمذي. ومنها دلائل النبوة، وتجمع الأدلة على نبوة محمّد، صلى الله عليه وسلم، ككتاب 'دلائل النبوة' للبَيهَقي. ومن ذلك الآداب، وتُعنَى بتزكية

النفس وتحليها بمكارم الأخلاق، ككتاب 'الأدب المُفرَد' للبخاري. ومن ذلك الزُّهد، وتجمع ما جاء في الحث على التقلُّل من الدنيا والترغيب فيما عند الله، ككتاب 'الزّهد' لابن المبارك. ومن ذلك الإيمان والتوحيد والسنة، التي تُعنَى بأصول الدين، ككتاب 'الإيمان' لابن منده و 'التوحيد' لابن خُزيمة و 'السنة' لعبد الله بن أحمد و 'الشريعة' الآجُرّي. ومن ذلك فضائل القرآن، التي تجمَع ما جاء عن النبي والصحابة في فَضل القرآن وفضائل السور والآيات، منها 'فضائل القرآن' للفِريابي.

القسم الثاني في ذكر كتب الفُروع. ومنها: الأطراف، وطرَف الحديث هو العبارة الدالة عليه في أوَّله أو وسَطه أو المشيرة إليه بتعبير آخر، مثالُه حديث الأعمال بالنيات، وحديث جبريل. وكتب الأطراف يقتصر مؤلِّفوها على ذلك مع ذكر أسانيده في الأصول، وقَد يُذكر الإسناد كاملا وقد يقتصر على جزء منه، لكنها لا تورد الْمَتن كاملا. فهي نوع من الفهارس لِمعرفة مَن أخرج الحديث من أصحاب الأصول والموضع الذي أخرجوه فيه. ومن أشهرها 'تُحفَة الأشراف بمعرفة الأطراف' للمِزّي و'ذخائر المواريث' للنابُلسي. ومنها الجوامع، ومَبناها على جَمع الأحاديث من مصادرَ عدة منها 'جامع الأصول' لابن الأثير و'جامع المسانيد والسنن' لابن كثير و'جمع الجوامع' للسيوطي. ومن الفروع ما يُسمّى الزوائد، ومَبناها على جَمع الأحاديث الزائدة على 'الكُتب الستّة' من كتاب أو أكثر. منها 'المطالب العالية' لابن حَجر، جمع فيه الأخبار الواردة في مسانيد: أبي يعلى ومُسدَّد وابن أبي عمر وابن منيع والطيالِسي والحارث والحُميدي وابن راهَوَيه، التي لا ذِكرَ لها في 'الكُتب الستّة'. ومن الفروع كتب أحاديث الأحكام والتي تجمع الأحاديث المقبولة من غير إسناد، منها

'المنتَقَى من الأخبار' لابن تيمية الجدّ و'بلوغ المرام' لابن حَجر. ومن الفروع كتب التَّخريج، والتي ذكر مصادر الأحاديث في كتب الفقه أو التفسير أو غيرها مع ذكر درجتِها من الصحة، ومنها 'نَصْب الراية' للزَّيلعي و'تخريج أحاديث إحياءِ علوم الدين' للعراقي. ومن ذلك ما يسمّى بالأحاديث المشتهِرة، مرتَّبة على حروف المعجم، منها 'المقاصد الحسنة' للسخاوي و 'كشف الخفاء' للعَجلوني.

تلك أهمّ فنون كُتُب الحديث وعلومه، وقد أضربنا صَفْحا عن تشاعيبَ لا تُحصَر في مُصطَلَح القوم، وكذا عن دقائق العِلل والشواهد والْمُتابَعات التي برَع فيها الدّارقُطني، وعن أمور تبعُد عن صميم الفنّ، كالرِّحلة وأدب طلب الحديث الذي برز فيهما الخطيب البغدادي. وكلٌّ هذه العلوم إنّما هي وسائل وأسباب يتوصَّل بها إلى معرفة ما بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلّم. وصدق ابن القيم إذ قال: وسئلتُ: هل يُمكِن مَعرفةُ الْحَديث الْمَوضوع بضابطٍ مِن غير أن يُنظَرَ في سَنَدِه؟ فهذا سؤال عَظيمُ القَدر! وإنّما يَعلم ذلك مَن تَضَلَّع في مَعرِفة السُّنَن الصَّحيحة وَاختَلَطَت بلَحمِه ودَمِه، وصار له فيها مَلَكَةٌ وصار لَه اختِصاصٌ شَديدٌ بِمَعرِفَة السُّنن والآثار، ومَعرفَة سِيرَة رسولِ الله، وهَدْيه فيما يأمر به وينهَى عنه، ويُخبِر عنه ويدعو إليه، ويُحبُّه ويَكرَهُه، ويُشرِّعُه للأمَّة؛ بِحيثُ كأنَّه مُخالِطٌ للرَّسول كواحِدٍ مِن أصحابه. فمِثلُ هذا يَعرِف مِن أحوال النبي، صلى الله عليه وسلّم، وهَديه وكلامِه وما يَجوزُ أن يُخبِرَ به وما لا يَجوز، ما لا يَعرِفه غيرُه![80]

[80] 'المنار المنيف' ص43، المطبوعات الإسلامية بحلب. وللذهبي كلامٌ قريب من هذا.

السيرة النبويّة

ولد محمّد بن عبد الله بن عبد الْمُطَّلِب بن هاشم في قبيلة قُريش، بمكة صبيحةَ الاثنين تاسع شهرَ ربيع الأول عامَ الفيل، الموافق لعشرين أبريل 571م. مات أبوه قبلَ ولادته. سُرَّ به جدُّه عبد المطلب واستبشر وأدخلَه الكعبة وباركَه فيها وشكر الله له، وسَمّاه مُحمَّدًا، وهو اسمٌ لم يكن معروفًا عند العرب. ثم خَتَنَه يومَ سابِعه، كما كان العرب يفعلون. وبعد بُرهة، استرضع له حليمةَ السعدية، لينمَو في مَناخ أصحّ من جوّ مكَّة، فمكث ستة أعوام ثم ردَّته حليمة إلى أمّه آمنةُ بنت وَهب. وسببُ ذلك إرهاصات النبوَّة التي بدأَت تظهَر عليه، وأعظَمها ما بلغنا عن أنس بن مالك، وقد يكون سمِعَه من النبي: أنّه، صلى الله عليه وسلم، أتاه جبريلُ، وهو يلعب مع الغِلمان، فأخذه فصرَعه فَشَقَّ عن قَلبهِ فاستخرجهُ، ثم استخرج منه عَلَقَةً، فقال «هذا حَظُّ الشيطان منك!» ثم غَسلَه في طَسْت من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعَون إلى أمه، يعني ظِئره، فقالوا: إنّ محمدًا قد قُتِل! فاستقبلوه وهو مُنتَقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى ذلك المخيط في صدره[81].

لَمّا رجع الطفل إلى أهله، بدا لأمّه آمنة أن تتجه برُفقة عبد المطلب إلى يَثرب، المدينة، لزيارة قبر زوجها وأقاربها هناك، ولمّا قفَلت راجعةً إلى مكَّة تُوفِّيت بمكان يقال له

[81] خرجه مسلم. وصرعه: طَرحَه على الأرض. العلَقة: القطعة من الدم المكبّد. الحظّ: القسمة. لأَمَه: أعاده كما كان. يسعَون: يركضون، الضِّئر: المُرضعة، وهي حليمة. انتقَع لونُه: تَغيَّر. استقبلوه: رجع إلى بيت حليمة وحده، كما بيّنته كتُبُ السيرة. فلما رأت حليمةُ ذلك فزعت وردَّته إلى أهله بمكّة.

الأبواء. فقام عبد المطلب برعاية الطفل، ولكن بعد سنتين من ذلك تُوفِّيَ. وقد كان عهِد بكَفالَته لابنه أبي طالب شقيق أبيه. فنهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده وقدمه عليهم.

قد ظهرت إرهاصات عن نبوَّتِه، أي علامات تبشِّر بأنّه نبي، طوالَ عمرِه، ثم كثُرت عندما اقترب من الأربعين. وفي الخامسة والعشرين من عمره تزوَّج محمّدٌ بخديجةَ بنتِ خُويلد وقد بلغت الأربعين، وكانت إذّاك أفضلَ نساء قُريش نسبًا وثَروة وعقلا. كانت أول امرأةٍ تزوجها، ولم يتزوج عليها غيرَها حتى ماتت. أنجبَت له القاسِمَ وزينب ورُقَيَّة وأمَّ كُلثوم وفاطمة وعبدَ الله. تُوفِّيَ القاسم وعبد الله في صِغرهما، وأما البنات فكلُّهن أدركن الإسلامَ فأسلمن وهاجرن. تُوُفِّيت زينب ثم رُقيّة ثم أمُّ كُلثوم في حياته النبيّ، وأما فاطمة فبعدَه بستة أشهر. تلك ذُرِيَّةُ النبي من خديجة. وفي أواخر عُمره، أنجبت له مارية القُبطية إبراهيمَ، فلَم يعش غيرَ عام ونصف. تزوَّجت زَينب بأبي العاص بن الربيع، وتزوَّجت رُقَيَّة بعُثمانَ بنِ عَفّان، فلمَّا ماتت زوَّجه النبيُّ ابنتَه أم كُلثوم. فعُثمان صِهرُ النبي مرَّتين، ولذا سُمِّيَ بذي النورَين. ويلتقي عثمانُ بالنبي في عبد مَناف من جهة أبيه، وأما أمُّه فهي أَرْوَى بنت كُرَيز بن ربيعة وأمُّها البيضاء بنت عبد المطلب أي عمَّةُ النبي، فقَرابة عثمان بالنبي وطيدة جدًّا.

لَمّا قاربَ الأربعين بدأَ محمّد يعتَزل الناسَ ويذهب إلى جبال مكّة ليتحنَّث، أي ليتحنَّف ويتعبَّد على ملّة إبراهيم. وفي الأربعين بدأت طلائع النبوة تلوح عليه، ومنها أنه كان لا يرى رؤيا إلا وتحقَّقت. فلما كان ثالثَ رمضان من عُزلته بغار حِراء

أكرمه الله بالنبوّة فأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن. وهذه عائشةُ زوجُ الرسول تقصُّ ما كان من بداية نبوَّة محمّد، قالت:

أَوّلُ ما بُدئ به رسول الله مِنَ الوَحْيِ الرُّؤيا: الصالِحةُ في النوم، كان لا يُرَى رُؤيا إلا جاءت مثلَ فَلَق الصُّبْح! ثم حُبِّب إليه الخَلاء، فكان يخلو بغار حِراءِ ويتَحَنَّث فيه الليالِيَ ذواتِ العَدد. ثم يرجع إلى خَديجة فيتزوَّد لِمثلها. حتى فَجَأَهُ الحقُّ وهو في غار حِراء، فجاءه الْمَلَكُ فقال له «اِقْرَأْ!» قال «قلتُ: ما أنا بِقارِئ؟ فأخذني فغَطَّني، حتى بلَغ مِنّي الجَهْد! ثم أَرْسَلَني، فقال: اِقرأ! فقلت: ما أنا بقارئ؟ فأخذني فغطَّني الثانيةَ، حتى بلغ مني الجَهْد! ثم أرسلني، فقال: اقرأ! فقلتُ: ما أنا بقارئ؟ فأخذني فغطني الثالثةَ حتى بلغ مني الجَهْد، ثم أرسلني فقال: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق! خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَق. اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم! الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَم، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم!﴾ [العلق 1-5]» فرجع بها رسولُ الله يَرْجُف فؤادُه، فدخل على خديجة بِنت خُوَيلد، فقال «زمّلوني، زمّلوني!» فزَمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع. فقال لخديجة، وقد أخبرها الخبر: «لقد خَشيتُ على نفسي!» فقالت له خديجة: كَلاَّ، أَبْشِرْ! فوَاللّهِ، لا يُخزيك اللّهُ أبَدا! إنك لتَصِلُ الرَّحِم وتَصْدُق الحَديثَ وتَحمِلُ الكَلَّ وتَكسِب الْمَعدوم وتَقْرِي الضَّيفَ وتُعين على نَوائب الحَق! فانطلقَت به خديجة، حتى أَتَتْ به وَرَقَةَ بنَ نَوفَلِ بْن أَسَدِ بن عَبد العُزَّى بن قُصَيٍّ -وهو ابنُ عَمِّ خديجة، أخي أبيها- وكان اِمرَءًا تَنَصَّرَ في الجاهليَّة، وكان يكتُبُ الكتاب العِبْراني، فكتب مِن الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتُب. وكان شيخا كبيرا قد عمي. فقالت له خديجة: يا ابنَ عمّ، اسمع مِن ابن أخيك! فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسولُ الله خَبَرَ ما رأى.

فقال له ورقة: هذا النَّاموسُ الذي نَزل على موسى! يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيًّا إذْ يُخرِجُكَ قومُك! فقال له رسولُ الله «أَوَ مُخْرِجِيَّ هم؟!» قال: نَعم، لَم يأتِ رَجُلٌ قَطُّ بمثلِ ما جئتَ بِهِ إلا عُودِيَ! وإن يُدْرِكْني يَومُك حيًّا، أَنصُرْك نَصرًا مُؤَزَّرا! ثم لَم يَنشَبْ وَرَقَةُ أَن تُوُفِّي، وفَتَرَ الوَحي[82].

ثم توقَّف الوَحي أسابيعَ، وحزِنَ النبيُّ وازداد حَيرةً، فبقي يتردَّد على غار حِراء يرتَقِب عَودةَ الوحي، حتى أكرمه الله به ثانيةً. قال «جاوَرتُ بِحِراءَ شهرًا. فلما قَضيت جِواري هَبَطتُ، فلما استَبْطَنتُ الواديَ نُودِيتُ. فنظرتُ عن يَميني فلم أَرَ شيئًا ونظرت عن شِمالي فلم أر شيئا ونظرت أمامي فلم أر شيئا ونظرت خلفي فلم أر شيئا، فرفعتُ رأسي فإذا الْمَلَك الذي جاءني بحراء جالِسٌ على كُرسِيٍّ بين السَّماءِ والأرْض، فَجُئِثْتُ منه رُعبًا حتى هَوَيت إلى الأرض! فأتَيتُ خديجةَ فقلت: زَمِّلوني، زَملوني! فدَثَّروني وصبُّوا عليّ ماءً بارِدا فقيل لي: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر، قُمْ فَأَنذِر، وَرَبَّكَ فَكَبِّر، وَثِيَابَكَ فَطَهِّر، وَالرُّجْزَ فَاهْجُر!﴾ [المدثر 1-5]»[83].

هكذا إذًا: كان بَدأُ نبوَّة محمّد بن عبد الله بـــ: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّك!﴾ وابتدأت رسالةُ محمّد بـــ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر﴾ أي الْمُتَدَثِّر الْمُتَلَفِّف بثَوْبه من شدَّةِ الرَّوع الذي حلَّ به: ﴿قُمْ!﴾ انتَهت الحياةُ العاديّة فإنَّه لا يجوز لَك بعد اليوم أن تَخشَى أحدًا إلا الله ﴿قُمْ فَأَنذِر﴾ وحذِّر الناس ممّا هم فيه من أوهام الدُّنيا التي هم فيها وويلات الآخرة التي تنتظرهم إن هم لَم يتنبَّهوا وينتَهوا ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّر﴾ عَظِّمهُ تعالى عن إشراك المشركين

---

[82] حديث صحيح خرجه البُخاري ومسلم وغيرُهما.

[83] صحيح خرجه البُخاري ومسلم وغيرُهما.

وسَهْو الغافِلين ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ من النَّجاسة والخُيَلاء ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ اُترُك ودَعْ كلَّ ما يصدُّك عن الله ظاهرًا وباطنا.

هكذا إذًا: ﴿قُمْ فَأَنذِر!﴾ قُم يا محمّد، فقد مضى وقت الراحة، قُم للأمر العظيم والعبء الثقيل، قم للجهْد والكَدّ والجهاد الشاقّ! فقام محمّد بإذن الله لدعوة الله ثلاثًا وعشرين عاما، لم يسترِح ولم يعش لنفسه ولا لأهله. قام بعِبءِ أكبرِ أمانةٍ في هذه الأرض؛ فالبشرية كلُّها في عُنُقه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون﴾ [سبأ 28] ﴿قُلْ: يَاأَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ: يُحْيِي وَيُمِيتُ! فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِه، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون!﴾ [الأعراف 158] فلاقَى في سبيل الله ما لا يتصوَّرُه العَقل من عَداء قَومِه وإيذائهم لَه ولِمَن آمَن به واتَّبعَه، ومن فِراق الأحبَّة والقَرابة الذين كانوا يَحْمونَه؛ تحمَّل النَّفي والتَّجويع والتَّهجير فصبَر على أصعب الْمِحَن وأشدّها على البشَر.

***

الإسراء والمِعراج

لقد ظهرت على يدي النبي مُعجزاتٌ خارقة لقوانين الكَون العاديّة، لكنَّه لَم يعتمَد عليها لإثبات نبوَّته. أما المُعجزة التي لا مثيلَ لها والتي هي حقًّا بُرهانُ محمّد إنما هي القرآن. وهناك أَمرٌ عظيم خارقٌ للعادة، بل فريد، ولا بدَّ من ذكره لأهَمِّيته؛ هو

الإسراءُ والمِعراج. ففي السَّنة الثالثة عشرة من النبوة، أي قُبَيل الهجرة بقليل، أَسرى الله بمحمّد من مكّة إلى القُدس، ثم عَرَج به من المسجد الأقصى إلى ما فوق السماء السابعة حيث رأى الله سبحانَه وتعالى. ولَكَم ردَّ الناسُ حقيقة هذا الحدَث العظيم وواقعيَّتَه؛ فهو عند أكثرهم عبارة عن قصَّة خياليّة مِثاليَّة لَم تتحقَّق في عالَم الحِسّ. هذا منهم تَخمين لا دافِعَ له سوى الجُحود والإلحاد للحَدّ من القُدرة الربَّانيّة؛ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُون!﴾ [الأعراف 182] وإلاّ ففي التَّنزيل ما يُثبِتُ حقيقةَ هذا الحَدَث وعُمقَه ومَفادَه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى، الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا!﴾ [الإسراء 1] فسُبحانَ الله الذي أسرى بعبده محمد ليلا، فالإسراء لغةً هو السير في الليل، من المسجد الحرام الذي بمكّة إلى المسجد الأقصى الذي ببيت المَقْدِس والذي بارك الله ما حوله من البقاع، ليرَى محمَّدٌ وليعلَمَ الناسُ مِن بَعده إحدى آيات الله وعجائب قدرتِه تعالى؛ والله هو السميع البصير، الذي يسمَع ويرى كلَّ ما في عالَم الملكوت وما سواه من عوالِم لا يعلمُها إلا هو سبحانه وتعالى.

الحادثةُ ثابتَة في الواقع، فقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عدد كثير جدّا من الصحابة، منهم: عمر وابنُه عبد الله وعلي وأختُه أم هانِئ وعائشة وأختُها أسماء وابن مسعود وأبو ذَرّ وأبو هريرة وأبو سعيد وابن عباس وشداد بن أوس وأُبيّ بن كعب وعبد الرحمن بن قُرط وأبو أُمامة وأبو الحمراء وأبو أيُّوب وأبو حيّة وأبو ليلَى الأنصاريّون وجابر وحُذَيفَة وبُرَيدة وسَمُرة وصُهيب وغيرُهم. وهذه رواية مالك بن صَعصَعة أنَّ نبي الله حدَّثهم عن ليلة أُسْرِيَ به، قال «بينما أنا في الحِجْر مُضْطَجعا،

بين النائِم واليَقْظان، إذ أتاني آتٍ فَشُقَّ صَدري من النَّحر إلى مَراقّ البطن، فَغُسِلَ البَطنُ بماء زمزم. ثم استُخْرِج قلبي، ثم أُتيتُ بطَسْت من ذهب مَملوءَةٍ إيمانًا، فَغُسِلَ قَلبي ثم أُعيد مكانه ثم حُشِيَ إيمانًا وحِكمة. ثم أُتيت بالبُراق، وهو دابَّة أَبْيَض فَوقَ الحِمار ودُونَ البَغل، يَضَع حافِرَه عِند مُنتَهَى طَرْفِه. فرَكِبتُه فسار بي حتى أَتيتُ بيتَ المَقْدِس. فرَبَطتُ الدابَّة بالحَلَقَة التي تَربط فيها الأنبياءُ. ثم دخلتُ فصلَّيتُ فيه ركعتَين ثم خرجتُ. فجاءَني جبريل بإناءٍ من خَمْر وإناء مِن لَبَن، فاخترتُ اللَّبَنَ، قال جبريلُ: أَصبْتَ الفِطْرَةَ! ثم عُرِجَ بي إلى السَّماء الدُّنيا فاستَفتَح جِبريل، فقيل: مَن أنت؟ قال: جبريل! قيل: ومَن معك؟ قال: مُحمَّد! قيل: أَوَ قَد أُرسِل إليه؟ قال: قد أُرسِل إليه! ففُتِح لنا. فإذا أنا بآدَمَ، فرَحَّب بِي ودَعا لي بالخَير. ثم عُرِجَ بي إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: مَن أنت؟ فقال: جبريل! قيل: ومن معك؟ قال: محمد! قيل: أَوَ قَد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعث إليه! ففُتِح لنا. فإذا بابْنَيْ الخالَة، يَحيَى وعيسى، فرَحَّبا بي ودَعَوا لي بالخير. ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتَحَ جبريلُ فقيل: مَن أنت؟ قال: جبريل! فقيل: ومن معك؟ قال: محمد! فقيل: أو قد أُرسل إليه؟ قال: قد أرسِل إليه! ففُتح لنا. فإذا أنا بيُوسَفَ، وإذا هو قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْن! فرَحَّب بي ودعا لي بخير. ثم عُرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل! فقيل: ومن معك؟ قال: محمد! فقيل: أو قد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه! ففُتح لنا. فإذا أنا بإدريس، فرحَّب بي ودعا لي بخير. ثم عُرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل! فقيل: ومن معك؟ قال: محمد! فقيل: أَوَ قد بُعث إليه؟ قال: قَد بُعث إليه! ففُتح لنا. فإذا أنا بِهارون، فرَحَّب بي ودعا لي بخير. ثم

عُرِج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل! فقيل: ومن معك؟ قال: محمد! فقيل: أَوَ قَد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بعث إليه! ففُتِح لنا. فإذا أنا بموسَى، فرَحَّب بي ودَعا لي بخير. ثم عُرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل فقيل: مَن أنت؟ فقال: جبريل! قيل: ومَن معك؟ فقال: محمد! قيل: أو قد بُعث إليه؟ قال: قد بعِث إليه! ففُتح لنا. فإذا أنا بإبْراهيم، وإذا هو مُستَندٌ إلى البَيت الْمَعمور، وإذا هو يَدخُلُه كُلَّ يَوم سَبعون أَلفَ مَلَكٍ ثم لا يعودون إليه. ثم ذَهب بي إلى سِدْرَة الْمُنتَهَى، فإذا أَوراقُها كآذانِ الفِيَلَة وإذا ثَمَرُها كالقِلال. فلمَّا غَشِيَها مِن أَمْر الله ما غَشيَها، تَغَيَّرت؛ فما أَحَدٌ مِن خَلق الله يَستَطيعُ أن يَصِفَها مِن حُسْنها! فأوحى الله إِلَيَّ ما أوحَى، وفَرَضَ عليَّ في كُلِّ يَومٍ ولَيلَةٍ خَمسين صَلاةً. فرَجعتُ بذلك، حتى انتهيتُ إلى موسى قال: ما فَرَضَ ربُّك على أُمَّتِك؟ قلتُ: خَمسين صلاة في كل يوم وليلة! قال: اِرْجِعْ إلى ربِّك فَاسْأَلْهُ التَّخفيفَ لأُمَّتِك، فإن أُمَّتَك لا تُطيقُ ذلك؛ وإنّي قد بَلَوْتُ بَني إسرائيل وخَبرْتُهم! فرجَعتُ إلى ربِّي فقلت: أَيْ رَبِّ، خَفِّفْ عَن أُمَّتي! فحَطَّ عنّي خَمْسًا. فرجعت إلى موسى قال: ما فعلتَ؟ فقلت: قَد حَطَّ عنّي خَمسا. قال: إنّ أمَّتَك لا تُطيق ذلك، فَارجِعْ إلى ربّك فاسْأَلْهُ التَّخفيفَ لأمَّتك! فلَم أَزَلْ أَرجِعُ بين ربّي وبَين مُوسى، ويَحُطُّ عنّي خَمْسًا خَمْسا حتى قال: يا مُحَمَّد، هِيَ خَمْسُ صَلَواتٍ في كُلِّ يَومٍ ولَيلة، بكُلِّ صَلاةٍ عَشْر؛ فتِلك خَمسون صَلاة! ومَن هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَم يعمَلْها كُتِبَت له حَسنةً، فإنْ عَمِلَها كُتِبَت له عَشْرا. ومَن هَمَّ بسَيِّئَة ولَم يَعمَلْها لَم تُكتَب، فإنْ عَمِلها كُتبت له سَيِّئةً واحدة! فنَزلتُ حتى انْتَهَيت إلى موسى

أَخبَرتُه، فقال: اِرجعِ إلى ربِّك فَاسأَلْه التَّخفيفَ، فإنّ أمتَك لا تُطيق ذلك! فقلت: قَد رَجَعتُ إلى ربِّي حَتى اسْتَحْيَيْت!»[84].

مَعلومٌ أن في قصَّة الإسراء والمِعراج أمورٌ يُحيلُها العَقل، ولَكن كما يقول أبو حامد الغزالي: عَدمُ العلمِ ليس علمًا بالعدَم! فكون العقل يستحيل شيئًا لا يعني أن ذلك الشيء غير مُمكن. والواقع يشهد على أمور كنا نستحيلها في العشر سنين التي مَضت فإذا بها من الأدوات التي نستعملها يوميًّا ولا أحد يشكُّ في فعاليَّتها فضلاً عن حقيقة وُجودها. لكن ليس كل ما جاء في قصة الإسراء خارجًا عمّا بلغَه العلمُ في زماننا. فمثلاً تلك الدابَّة التي «خَطْوُها عند مُنتهَى طَرْفِها» وفي رواية «يَقعُ خَطْوُها عند أَقْصَى طَرْفِها»، والطَّرْف هو النَّظَر؛ فإنّها تسير بسُرعة البرق، لِذا اشتُقَّ اِسْمُها 'بُراق' مَن البَرْق. الآن وقد كشفَ الله للبشريّة 'النِّسبية العامة' على يد أينشتاين، فقد علمنا أن السَّير بسرعة الضَّوء يُقلِّص الزمان. لذلك انتقَل النبيُّ، مُمتطيًا البُراق، بسرعة البَرق؛ فقطع ما بين مكّة والقُدس في لَمحَة بصَر ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَب﴾ [النحل 77]، تلك أبعادٌ ميتافيزيقية تتجاوز ما اعتاده أهلُ الأرض؛ لكنها لا تخرُج عن قدرة الله. فشتّان بين عالَمِنا الذي نعيش فيه وما سواه من عوالِم لا علمَ لنا بها: ﴿أُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِين﴾ [الأنعام 71] قال وَهْب بن منبِّه: إن لِلَّه ثَمانيَةَ عَشر أَلف عالَم؛ الدنيا منها عالَمٌ واحِد! فالزمان والمكان يختلفان من عالَم لآخر، ولا بدّ: ﴿إِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون﴾ [الحج 47] ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ

[84] خرجه البخاري ومسلم عن مالك بن صَعصَعة.

أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ... يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة 5] ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾، قد فهمنا الإسراء، أما المِعراج فلا نُعرِّج عليه أصلاً لأنّنا لا نتصوَّر شيئًا مما وُصف هنالك!

الحاصل أنّه أُسرِيَ بالنبيِّ في تلك الليلة الْمُباركة وعُرِجَ به جسدًا وروحًا ويقظَةً غيرَ مَنام، وقَطع ما بين مكة وبيت المقدس ثم ما بين الأرضِ وسِدرة الْمُنتَهى، ذهابًا وإيابا، في سِرْب زَماني خارجٍ عن الزَّمَن الْمُعتاد. وفي صباح الغدِ أخبر النبيُّ عن ليلته، فلما سمع المشركون قولَه أتَوا أبا بكر فقالوا: هَل لك في صاحبك؛ يُخبر أنه قطع في ليلته هذه مَسيرةَ شهر ثم رجع في ليلته؟! قال أبو بكر: إن كان قالَه فقد صدَق؛ إنا لَنُصدِّقُه فيما هو أبعد من هذا: نُصدقه على خَبَر السماء! فذهب المشركون إلى رسول الله فقالوا: ما علامةُ ما تقول؟ قال «مَرَرتُ بعِير، أي قافلة، لقُريش وهي في مكان كذا وكذا، فنَفَرَت الإبلُ واستدارت، وفيها بَعير عليه غَرارَتان، غَرارةٌ سوداءُ وغرارة بيضاء، فصُرِع فانكَسَر». فلما قَدِمت العيرُ بعد أيام سألوهم، فأخبروهم الخبرَ على مثل ما حدَّثهم به رسول الله. ومن ذلك لُقِّب أبو بكر بالصِّدّيق.

فبعد ثلاث عشرة سنة من النَّذارة في قومه، فتح الله له مَنفَذًا إلى يَثْرِبَ حيث هاجر هو وجماعة من أصحابه، واستَقبَلهم أهلُها، فسمَّاها النبيّ 'الْمَدينة'. بَلغت حفاوتُهم أن أسكنوهم في ديارهم وقَسموا معهم طعامَهم وكِسوتَهم، فبايعوه على النُّصْرة بالأموال والأنفُس، وبالصبر على ذلك مهما تكلَّفوا: فسمّاهم الرسول 'الأنصار'. الذين هاجَروا معه من مكَّة أو غيرها واستقرّوا معه بالمدينة سماهم 'الْمُهاجرين'، وذلك قولُه ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ

الْعُسْرَةِ!﴾ [التوبة 117] وهؤلاء هم صَفْوَةُ الله من خَلقه في ذلك الزمان الْمُبارَك: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانا، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُود: ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاة! وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيل: كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ، لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ. وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيما!﴾ [الفتح 29].

لكنّ شرَّ قُريش لَم يتوقّف عند هجرة الرسول وأصحابه، بل نَقِموا أن فاتَهم ذلك وخافوا من انتشار الإسلام بين العرب. فأعدُّوا العُدَّة وبدؤوا يُخطِّطون ويُشَحّذون الهِمَم لقِتال الرسول أصحابه. فكتبوا إلى عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلول، بصفته سيّدَ يَثربَ قبل هجرة الرسول إليها، ما نصُّه: إنكم آوَيتم صاحبَنا، أي محمّد، وإنّا نُقسِم بالله؛ لَتُقاتِلُنَّه أو لَتُخرِجُنَّه أو لَنسيرَنَّ نحنُ إليكم بأجْمَعِنا حتى نَقتُل مُقاتِليكُم ونَستَبيحَ نِساءَكم! فلما بلغ النبيَّ الخبرُ قال «لقد بلغ وَعيدُ قُريشٍ منكم الْمَبالِغ! أتُريدون أن تُقاتلوا أبناءَكم وإخوانَكم؟!» أي من الأنصار. ولكن ظلَّ التَّحريش والإيذاء سارِيَين ضدّ المسلمين، إلى أن أذن الله لهم بالقتال، وذلك قولُه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِير!﴾ [الحج 39] وذلك لأنّ المشركين هم الذين بدؤوا بالقتال، كما هو ظاهرٌ في الآية.

نشبت مَعاركُ عديدة بين المسلمين وأعدائهم من مشركين ويهود ونصارى. وهذه أهمّ مَعارك الرسول بالترتيب: أُولاها بَدر، ثم بني قَينُقاع ثم أُحُد ثم الخَندَق ثم بني قُرَيظَة ثم بني الْمُصطلَق، وهاتان القبيلتان وبنو قَينُقاع يهودٌ. ثم صالَح النبيُّ قريشَ

بالحُدَيبِيَّة، ثم بعد ذلك غزَا خَيبَر، وهم يهود أيضا. ثم في جُمادى الأولى عامَ ثمانٍ من الهجرة، أغسطس 629، أرسل النبيُّ جيشًا إلى الكَرك، جنوبيّ الأردن الحالي، لِلقاء الروم، فوقعت معركة مُؤتة وهي أكبر مَعركة عرفها العربُ؛ كانَ القتالُ فيها شَرسًا بين المسلمين والروم البيزنطِّيين. كان سببُها أن النبي أرسَل سَفيرًا إلى عظيم بُصْرَى الغَسّاني فقتلَه، فبعثَ النبيُّ ثلاثةَ آلاف رجل لواجهوا مائتَي ألف مُقاتل. كان قائد المسلمين زيد بن حارثة، فلمّا قُتلَ خَلَفَه جعفرُ بن أبي طالب، فلمّا قُتلَ خلفَه عبد الله بن رَواحَة، فلمّا قُتلَ خلفَه خالدُ بن الوليد. وقد أظهر مهارتَه الحربيّة حيث أنقَضَ أصحابَه من الإبادة ورجع بهم إلى المدينة. عجبًا أن ينجح هذا الجيش الصغير في الصمود أمام أكبرِ قُوّة عسكرية على وجه الأرض في ذلك الزمان! فإنّه لم يتجاوز قتلَى المسلمين الاثنَي عشر، بينما قُتلَ من الروم ثلاثةُ آلاف وثلاثمائة وخمسون. روى البخاري عن خالد بن الوليد أنه قال: لقد انقطعت في يدِي يومَ مُؤْتَة تسعةُ أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية! تركت معركة مؤتة أروعَ أثر في نفوس العرب النصارى، كالأنباط وقبائل لَخْمٍ وجُذام وغيرهم، فقد رأَوا في المسلمين سبيلاً للتخلُّص مِن قَهر الروم. فانتبه هرَقل لذلك الخطر وأعدّ بعد سنة جيشًا حَشَد فيه الرومَ والعرب التابعة لهم من غساسنة وغيرهم، تجهيزًا لمعركة فاصلة تقضي على جيش المسلمين. لكنّ يوحَنّى بن رُؤبَة مَلكَ أيْلَة، أتى النبيَّ قبلَ ذلك لِما رآه من قوَّة المسلمين في مؤتة، وصالَحه وأعطاه الجِزْية. وأتاه أيضًا أهلُ جَرْباء وأهل أذْرُح وأهل مِينَاء، فأعطوه الجزية. وهكذا، شيئًا فشيئا انحاز العرب النصارى إلى النبي وتنصَّلوا من غَطرسة الروم البيزنطيّين. وبعدَها فَتْحُ مكّة في رمضان من تلك السنة أي يناير 630.

قال ابن القيم: هو الفتح الأعظم الذي أعزَّ اللهُ به دينَه ورسولَه وجُندَه وحِزبَه الأمين، واستنقذ به بلدَه وبيتَه الذي جعله هُدىً للعالَمين مِن أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتحُ الذي استبشَر به أهلُ السماء وضربَت أطنابُ عِزّه على مَناكِبِ الجَوزاء، ودخل الناسُ به في دين الله أفواجا وأشرق به وجهُ الأرضِ ضِياءً وابتهاجا، خرج له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بكتائِبِ الإسلام، وجُنود الرحمن سنةَ ثمانٍ لعشرٍ مَضَينَ مِن رمضان! وبعدها وقعت معركةُ حُنَينٍ ثم غَزوةُ تَبوك بقيادة النبي، لكن الجيشان لَم يلتقيا، لتراجُع العرب النصارى عن القتال وخُذلانهم للروم الذين فضّلوا بدورِهم الفرار، ورجع المسلمون سالمين غانمين. وقد وقعت في هذه الغزوات كلّها مُعجزات عديدة تخرُج عن نطاق العَقل، نُصرةً من الله للرسول الخاتَم كما في قوله: ﴿قَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ، إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا! فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم!﴾ [التوبة 40].

وبعد هذه الْمُكابَدة التي طالت ثلاثا وعشرين سنة، تَمّت دعوةُ الرسول الذي بلَّغ رسالة ربِّه لإصلاح الإنسان والمجتمع على أساس إفراد الله بالعبادة واتّباع النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم. فدخل الناسُ في الإسلام لله، وحجَّ النبي في السنة العاشرة بأكثرَ من مائة ألف صحابي، وكانت حجَّته الوحيدة. ثم نزل قولُه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابا!﴾ [النصر 1-3]. بلغنا عن عبد الله بن عَباس، وهو ابنُ عمِّ النبي مع صِغَر سِنِّه، أنّه قال: كان عُمَر، يعني ابن الخَطّاب، يُدخِلني مع أشياخِ بَدْرٍ. فقال أحدُهم: لِمَ يَدْخُل هذا معنا ولنا

أبناءٌ مثله؟ فقال عمر: إنه مِمَّن قد عَلِمتُم! فدعاني ذاتَ يوم فأدخلني معهم، فما رُئيتُ أنه دعاني يومئذ إلا لُيرِيَهم فقال لهم: ما تقولون في قول الله ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضُهم: أُمِرْنا أن نَحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا وفُتح علينا! وسَكَتَ بعضُهم فلم يَقل شيئًا. فقال لي: أَكذلِك تقول يا ابنَ عباس؟ فقلت: لا! فقال: ما تقول؟ فقلت: هُوَ أجَلُ رسول الله، أعلمه الله به! قال ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامةُ أجَلِك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابا﴾ فقال عمر: لا أعلمُ منها إلا ما تقول![85] فما لَبِث النبيُّ إلا قليلا ثمّ انتقلَ إلى الرفيق الأعلى.

في اليوم الثامن أو التاسع والعشرين من شهر صفر في السنة الحادية عشرة من الهجرة، أحسَّ النبيُّ بصُداع حادٍّ جدّا في رأسه واتَّقدت حَرارتُه. فطال برسول الله المرضُ قُرابةَ شهر وثقُل به. ثم انتقل إلى بيت عائشة، بعد أن استأذَن نساءَه فأذِنَّ له، يمشي بين ابنَي عمَّيه الفَضلِ بن عباس وعليٍّ بن أبي طالب، عاصِبا رأسَه وقدماه تخطّان الأرضَ. فقَضى عندها آخرَ أسبوع من حياته. وحينَ حلَّ به الاحتضارُ أَسنَدته عائشةُ إليها. وكانت تقول: إنّ مِن نِعَم الله عليّ أنّ رسول الله تُوُفِّيَ في بيتي وبين سَحْرِي ونَحْرِي! وبين يديه رَكْوَة فيها ماء، فجعل يُدخل يدَيه في الماءِ ويمسَح به وجهه وهو يقول «لا إلهَ إلا الله، إنّ للمَوتِ سَكَرات!» ثم رفع يده أو أصبعه، وشَخِصَ بَصَرُه نحو السَّقْف وتحرَّكت شفتاه، فأصغت إليه عائشة وهو يقول «اللَّهُمَّ اِغفِرْ لي وَارحَمْني وأَلْحِقني بالرَّفيق الأعلَى؛ اللهم، الرفيقَ الأعلَى!»[86].

---

[85] خرجه البخاري والترمذي.

[86] صحيح خرجه البخاري والنسائي وغيرهما.

وقع هذا الحادث الْجَلَل في ضُحَى يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول في السنة الحادية عشرة من الهجرة، 18 يونيو 632، وقد تم له صلى الله عليه وسلم ثلاثٌ وستون سنة قمريّة، أي إحدى وستون سنة شمسيّة. ويوم الثلاثاء قام بتغسيلِه عمُّه العباس وابناه الفضل وقُثَم وعليٌّ ابن أبي طالب ابنُ عمّه، ولَم يُجرِّدوه مِن ثيابه. ودُفن حيثُ مات، صلى الله عليه وسلّم. قال أبو بكر: إني سمعت رسول الله يقول: «ما قُبِضَ نَبيٌّ إلاّ دُفِن حيثُ يُقبَض»[87] فرَفعوا فِراشَ رسول الله الذي تُوفِّي عليه وحَفروا له تَحتَه، ثم دُفن وسطَ ليلة الأربعاء، ونزل في حفرته عليٌّ والفضل وأخوه قُثم وشُقران مولاه[88]. هكذا مات محمّد صلى الله عليه وسلم!

امتاز نَبيُّنا بجمال خِلْقَتِه وكمال أخلاقه، فقد ثبتَ عن عددٍ من الصحابة أنَّه كان يدعو الله بقولِه «اللهمَّ كما حَسَّنتَ خَلْقي فحَسِّنْ خُلُقي»[89] لذا فاضت القلوب بإجلاله وتفانَى الرجالُ في محبَّته وطاعتِه. وهذا مُجمل أوصافه اعتمادا على روايات مَن شاهدوه: لم يكن رسول الله بالطويل ولا القصير، كان رأسه ضخمًا وكذا أطرافُه، بعيد ما بين الكَتِفَين، بينهما خاتَم النبوة، مثل بيضة الحَمامة. وكان واسع الجبين، أشْعَر الذراعين والمنكبين، سَوَاء البطن والصدر، مَسِيحَ الصدرِ عَرِيضَه، أزْهَرَ

---

[87] خرجه ابن ماجة وأبو يعلى والبزار وقل: هذا الكلام لا نعلم خرجه إلا أبو بكر، وخرجه عن أبي بكر ابن عباس وعائشة رحمة الله عليهم.

[88] خرجه ابن ماجة والبزار والآجرّي وغيرُهم.

[89] خرجه والبيهقي في 'شعب الإيمان' عن عائشة وابن حِبّان والطيالسي عن ابن مسعود بإسناد حسن.

اللون في وجهه تدوير، مَلِيح الوجه، ضَلِيع الفم، أَفْلَجَ الثنيَّتين، وفي لِحيته كثافة، أحوَر، أي شديد بياض العَينين شديد سوادهما، أَهْدَب الأشْفَار. كان شعرُه يترل إلى أُذنيه وله فَرقَة في الوسط، شديدُ السوادِ؛ ماتَ وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء. كان أسرعَ الناس في مَشيه، كأنما الأرضُ تُطْوَى له، إذا مشَى تَقَلّع كأنما يمشي في صَبَب، وإذا الْتَفَتَ اِلْتَفَت كلُّه. كان لا يضحك إلا تَبَسُّمًا فإذا سُرَّ استنار وجهه، كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا غضِب احْمَرَّ وجهه، حتى كأنما فُقِئَ في وَجْنَتَيه حَبُّ الرُّمّان. كان طَويلَ الصَّمْت عَليه الوَقارُ، وإن تكلَّم علاه البَهَاء، حُلوٌ مَنطِقُه كأنه خرَزَات نُظِمنَ يَتَحدَّرن، له رُفقاء يُحِفّون به، إذا قال استمعوا لقوله وإذا أمر تبادَروا إلى طاعَته. قال أبو جُحَيْفة: أخذتُ بيد النبيّ فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرَدُ من الثلج وأطيبُ رائحةً من الْمِسك! وقال جابر بن سَمُرة: مَسحَ خَدِّي فوجدتُ لِيَده بَردًا وريحًا؛ كأنما أخرجها من جُونَةِ عَطَّار! وقال أنس: كأنَّ عَرَقَه اللؤلؤ. وقالت أم سُليم: هو من أطيب الطيب.

وهذه أوصافُ النبيُّ المعنويّة: قال صلى الله عليه وسلّم «فُضّلتُ على الأنبياء بستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِم، ونُصِرْتُ بالرُّعْب، وأُحِلّت لِيَ الغنائمُ، وجُعِلَت لِيَ الأرضُ طَهورًا ومَسجِدا، وأُرسِلْتُ إلى الخلق كَافَّة، وخُتِمَ بِيَ النَّبيُّون!»[90] سمعتُ الشيخ إسماعيل عثمان زين اليمَني في مدرسته بمكّة يقول في معنى 'جوامع الكَلِم': الكلمات أوانٍ لِمَعانٍ مَحدودة، فخصَّ اللهُ نبيَّه بأن جعل الكلمات التي تجري على لسانه

[90] خرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة.

حاملَةً لِمعانٍ لا حدَّ لها. وهذا أحسن ما سمعتُ في معنى 'جوامع الكَلِم'. فكان النبيُّ يمتاز بفصاحة اللسان وبلاغة القول وصِحّة الْمَعاني والقَصد بلا تَكلُّف. كان ذلك سَجيَّةً فيه، ثم ازدادت بالتأييد الإلَهي الذي مَددُه الوَحي.

صحَّ عن سعد بن هشام أنّه قال: أتيتُ عائشة فقلت: يا أُمَّ الْمؤمنين، أَخبِريني بخُلُق رسول الله! قالت: كان خُلُقَه القرآنُ، أما تقرأ قولَ الله ﴿إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم 4] ؟! قلتُ: فإنّي أريد أن أَتبَتَّل -أي أن لا أتزوَّج تَديُّنًا- فقالت: لا تَفعَل، أما تقرأ ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب 21] ؟! فقد تَزوَّجَ رسول الله، وقَد وُلِدَ له![91]

وكان صلى الله عليه وسلم ذا حِلم وتَحمُّل، صبورًا على الْمَكاره شَكورًا في جميع أحواله، عَفُوًّا عند الْمَقدِرة سريعًا إلى الْمَغفِرة، لا يجزي السيئةَ بالسيِّئة، ولكن يُحسِن إلى مَن أساء إليه ويعفو ويصفح، ولا يزيده أذى الغير إلا صبرًا ولا إسرافُ الجاهل إلا حِلْما، لَم ينتقم لنفسه قَطّ، فإذا انتُهِكت حُرمَةُ الله انتقم لله فلَم يقم لغَضبه شيء. كان جوادً كريما، يُعْطي عَطاءَ مَن لا يخاف الفقر، أجوَد بالخَير من الرِّيح الْمُرسَلَة، ما سئل شيئًا قَطُّ فقال: لا! كان أشجعَ الناس، لا يخشَى إلا الله كما تشهَد له الْمَواقف، كان الصحابةُ إذا اشتدَّت المعارك احتَمَوا برسول الله فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدو منه. كان أشدَّ الناس حياءً وكان لا يُثبِت نظَرَه في وجه أحد، لا يُشافِه أحدًا بما يكره ولا يسمِّي رجلاً بلغَه عنه شيءٌ يَكرهه، بل يقول «ما بالُ أقوامٍ يصنعون كذا»[92] كان

---

[91] خرجه أحمد وقل الأرنؤوط: حديث صحيح.

[92] جاء في 'زوائد المسانيد العشرة' للبوصَيري: 4452 عن الأسود بن سريع قل: غزوتُ مع رسول الله ففُتح لهم، فتناوَل بعضُ الناس قتلَ الوِلدان، فبلغ ذلك النبيَّ فقل «ما بلَ أقوام تَجاوَز بهم القَتلُ

أعدلَ الناسِ وأعفَّهم وأصدقَهم لَهجَة وأعظمهم أمانة، وكان يسمَّى قبل نبوَّته 'الأمين'، وقد تَحاكَم إليه الناس قبل الإسلام، وقد شهد له القرآنُ بذلك في مواضعَ منها ﴿إِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُون!﴾ [الأنعام 33]. كان أرحم الناس بالناس يتفقَّد المساكين ويُجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد، ويجلس في أصحابه كأحدهم؛ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُم، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم، حَرِيصٌ عَلَيْكُم، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيم!﴾ [التوبة 128]. وبالجملة فقد حلَّى الله محمَّدا بأعظم الأخلاق، وهذه حقيقة تاريخيّة شهد بها أعداءُ الرسول، ولا يُنكِرُها إلا جاهلٌ متكبِّر.

كان محمَّد مُؤهَّلا تَمامًا لتعليم الناس الخيرَ ولتربيتِهم بأحسن صورة وأنفعِها. وهذا هو في الحقيقة الْمَقصَد الأسمَى من بِعثَته كما صرَّح به في قوله «إنَّما بُعِثتُ لأُتَمِّمَ صالِحَ الأَخلاق»[93] ولما كانت لفظَةُ 'إنَّما' أداةَ حَصْر، فمعنَى هذا: «ما بُعِثْتُ إلاّ لأتمم

حتى قتَلوا الذُّريَّة! فقل رجل: يا رسولَ الله، إنما هم أبناء الْمُشركين! فقل النبيُّ «ألا إنّ خِيارَكم أبناءُ المشركين!» 4870 وعن ابن عباس، قل: اشتَرت عائشةُ بَريرةَ مِن الأنصار لتُعتِقها واشتَرطوا أن تجعلَ لهم وَلاءَها فشرَطت ذلك، فلما جاء نبيُّ الله أخبرَته بذلك، فقل «إنَّما الوَلاءُ لِمَن أعتَق»، ثم صعِد المِنبَر فقل «ما بلُ أقوام يَشترِطون شُروطًا ليست في كتاب الله!» 5041 وعن حمزة بن أبي سعيد عن أبيه قل: خطَب رسول الله فقل «ألا ما بلُ أقوامٍ يزعُمون أنَّ رَحِمي لا تَنفَع! والذي نفسي بيده، إنّ رَحمي لَمَوصُولةٌ في الدنيا والآخرة! ألا وإنّي فَرَطُكم أيُّها الناسُ على الحَوض. ألا وسيَجيءُ قومٌ يومَ القيامة فيقول القائل منهم: يا رسولَ الله، أنا فُلانُ بنُ فلانٍ. فأقول: أما النَّسَبُ فقد عَرفتُه، ولكن اِرتَدَدتُم بَعدي ورَجعتُم القَهقَرَى!».

[93] خرجه البخاري في 'الأدب المفرد' وأحمد وصحّحه الأرنؤوط وخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي كلُّهم عن أبي هريرة.

مَكارم الأخلاق»[94]، أي أنَّ تتميم مَحاسن أخلاقِ الناس هو الهَدف الوحيد من رسالة محمَّد الذي جاء خاتِمًا لِمَوكب الأنبياء الذين جاؤوا قَبلَه لتربية البشَر.

هذا واضحٌ بيِّن لِكلِّ مَن درس الرسالات السماوية عن كَثَب. فمِن ذلك ما جاء في صحيح البُخاري عن أبي سفيان صخر بن حرب، سيِّد قُريش في عهد الرسول، أنّه قال: اِنطلقتُ إلى الشام، إذ جِيء بكتاب من النبي إلى هِرَقل، وكان دِحْيَةُ الكَلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بُصْرى، فدفعه عظيمُ بُصرى إلى هِرَقْل. فقال هرقل: هل هاهُنا أَحدٌ مِن قوم هذا الرجل الذي يَزعُم أنه نبي؟ قالوا: نعم. فَدُعيتُ في نَفَر من قُريش، فدخلنا على هِرَقل، فأَجْلسَنا يين يَديه. فقال: أيُّكم أقربُ نَسَبًا من هذا الرجل الذي يَزْعُمُ أنه نبيّ؟ فقلتُ: أنا. فأجلَسوني بين يدَيه وأجلسوا أَصحابي خَلْفي. ثم دعا بتُرجُمانه فقال: قُل لِهؤلاء أنّي سائلٌ هذا عن هذا الرجل الذي يزعُم أنه نبي، فإن كَذَبَني فَكَذِّبوه! -أي إن كذبَ عليَّ فقولوا بأنّه كذَب- وأَيْمُ اللهِ، لولا أَن يُؤثَرَ عَلَيَّ الكَذِبُ لكذَبتُه! ثم قال لتُرجمانه: سَلْهُ كيف حَسَبُه فيكم؟ قلتُ: هو فينا ذو حَسَب. قال: فَهَلْ كان من آبائه من مَلِك؟ قلتُ: لا. قال: فهل كنتم تتَّهِمونَهُ بالكَذِب قبلَ أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يَتْبَعُه أَشرافُ الناس أو ضُعفاؤهم؟ قلتُ: بل ضُعفاؤُهم. قال: أيَزيدون أم يَنقُصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: هل يَرْتَدُّ أحدٌ منهم عن دينه بعد أن يدخُل فيه، سَخْطةً له؟ قلت: لا. قال: فهل قاتَلْتُموه؟ قلتُ: نعم. قال: فكيف كان قِتالكم إيَّاه؟ قلتُ: تكون الحربُ بيننا وبينه سِجَالا، يُصيبُ منَّا

---

[94] خرجه البيهقي في السنن الكبرى والحاكم وقل: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

ونُصيب منه. قال: فهل يَغْدِر؟ قلتُ: لا. قال: فهل قال هذا القولَ أحدٌ قَبْلَه؟ قلت: لا. ثم قال لتُرجُمانه: قُل له: إني سألتُك عن حَسَبِه فيكم، فزعمتَ أنه فيكم ذو حسَب؛ وكذلك الرُّسُل تُبْعَثُ في أحساب قَومِها. وسألتُك هل كان مِن آبائه مَلِك، فزعمتَ أن لا؛ فلو كان من آبائه مَلِك، قلتُ: رجلٌ يطلُب مُلكَ آبائه. وسألتك عن أتباعه أضُعَفاؤهم أم أَشرافُهم، فقلتَ أنّهم ضعفاؤهم؛ وهم أتباعُ الرسُل. وسألتُك هل كنتم تتَّهمونه بالكَذِب قبلَ أن يقول ما قال، فزعمتَ أن لا؛ فعرفْتُ أنه لم يَكن لِيدَعَ الكذِبَ على الناس ثم يذهبَ فيَكْذِبَ على الله! وسألتُك هل يَرتَدُّ أحدٌ منهم عن دينه بعد أن يَدخُلَ فيه، سَخطةً له، فزعمتَ أن لا؛ وكذلك الإيمانُ إذا خالَط بشاشةَ القلوب. وسألتك هل يَزيدون أم ينقصون، فزعمت أنهم يزيدون؛ وكذلك الإيمان حتى يَتِمَّ. وسألتُك هل قاتلتموه، فزعمتَ أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سِجالا، ينال منكم وتنالون منه؛ وكذلك الرُّسُل يُبْتَلَون ثم تكون لهم العاقِبة. وسألتُك هل يَغدِر، فزعمت أنه لا يغدر؛ وكذلك الرسل لا تَغْدِر. وسألتك هل قال هذا القولَ أحدٌ قبلَه، فزعمتَ أن لا؛ فلو كان قال هذا القولَ أحد قبله، قلتُ أنّه رجلٌ اِئتَمَّ بقولٍ قيلَ قبلَه. ثم قال: بما يأمرُكم؟ قلت: يأمرُنا بالصلاة والزكاة والصِّلَة والعَفاف. قال: إن يَكُن ما تقول حقًّا، فإنه نَبِيٌّ. وقد كنتُ أَعلَم أنه خارجٌ، ولم أَكُن أظنُّه منكم. ولو أني أعلم أني أَخْلُصُ إليه لأَحبَبتُ لقاءَه، ولو كنتُ عنده لغَسَلتُ عن قدميه. وليبلُغَنَّ ملكُه ما تحتَ قَدَميَّ!

هرقل هذا هو إمبراطور الروم البيزنطيين في تلك الفترة، واسمُه اللاتيني (Heraclius). وُلد في كابادوكيا بتركيا الحاليّة عام 575م، أي بأربع سنين بعد مَولِد النبي محمد،

ومات بقسطنطينية، إسطنبول الحالية، سنةَ 641م، بعد النبي بِتسع سنين. كان بشمال إفريقيا قبل تصدُّره الإمبراطوريّة، فلمّا قَتل فوقاس المدعو بالطاغية (Phocas le Tyran) الإمبراطورَ موريس وأهلَه واحتلَّ مكانَه لقُرابة العشرة أعوام، رجع هِرَقل إلى قسطنطينيّة فقاتَلَه وغلبَه وحكم عليه بالإعدام، فقُطع رأسُه حينَ جيء به إليه. فتُوِّج هرَقل إمبراطورًا واعتلى عرش بيزنطيا، الروم كما كان العرب يسمّونها. ومن خصائل هرَقل العديدة أنّه هو الذي استرجع من الفُرس الصليب الحقيقي (Vraie Croix) وفيه نزلت سورة الروم والتي أوّلُها ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ، وَهُمْ مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِين. لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ؛ وَيَوْمَئِذٍ ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّه﴾ [الروم 2-5]. وهنا مسألة: فقوله ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُون﴾ لا يختصّ بالمسلمين كما ظنّه المفسِّرون، لكنه يضمُّ النصارى، إذ أنَّهم مؤمنون بالله وملائكته وكُتبه ورُسله وباليوم الآخر وبالقدَر، وهذا كمال الإيمان الذي أثبتَه الإسلام؛ فهم إذًا مؤمنون وإن لَم يُسلموا مع النبي محمّد. والمسلمون أيضًا، وعلى رأسهم النبيُّ، كانوا يتمنَّون أن يغلبَ الروم الفرسَ، لِما بين المسلمين والنصارى من قَرابَة إيمانيّة. وقد جاء النَّصرُ فيما بعد، وفرح المسلمون والنصارى بفوز هِرَقلَ على الفُرس المجوسِ عَبدةِ النار.

كان هِرَقل ذا بصيرة وعبقريّة، كما نراه من قراءة سيرتِه. فقد حكم أبناؤه الإمبراطوريّة البيزَنطيّة لأكثر من قرن. وتكفينا قصَّتُه مع أبي سفيان هذه لبيان حِكمة الرَّجل. ومَن شاء فهذا صحيح البخاري، لينظر الحديث السادس من كتاب بَدْءِ الوَحي، وهو أوّل كتاب في صحيحه، حيث هذه القصّة وزيادة، ليجد أن هرقلَ حاول عرضَ الإسلام على البيزنطيين وإقناعَهم بأنّ محمّدًا جدير بالاتِّباع، ولكنَّه

فشل. فتدارك الأمر بحكمتِه فقال: إني قلتُ مَقالتي آنِفا، أختَبِرُ بها شِدَّتَكم على دينكم، فقد رأيتُ! فسَجدوا له ورَضُوا عنه.

فقصّة هرَقل، مع كونها تُبيِّن أن الحكماء يعلمون أن التربية والأمر بالخير أهمّ ما جاء به الرُّسل، فإنّها تبيِّن كذلك أنَّ الذين كفروا بمحمّد وحارَبوه لم يكونوا يتَّهمونه في صِدق دعواه وصحَّة دَعوتِه ولكن لأمورٍ دنيويّة سياسة خاصَّة. فمن ذلك قصّة أبي الحكم عَمْرو بن هشام، المَدعو بأبي جهل. فلقد بلَغنا عن الْمُغيرةَ بنِ شُعبَة أنه قال: إن أوَّلَ يومٍ عَرفتُ فيه رسولَ الله أني كنتُ أمشي مع أبي جهل بمكة، فلقيَنا رسولُ الله فقال له «يا أبا الحَكَم، هَلُمَّ إلى الله وإلى رسوله وإلى كتابه، أدعوك إلى الله!» قال: يا محمد، ما أنت بِمُنتَهٍ عن سَبِّ آلِهتنا؟! هل تُريدُ إلاَّ أن نَشهَدَ أن قد بَلَّغتَ -أي الرسالة التي أمرك الله بإبلاغِها- فنحن نشهد أن قد بلغت! فانصرَف عنه النبيُّ. فأقبَل عليَّ فقال: واللهِ إني لأعلَمُ أن ما يقولُه حَقٌّ. ولكنّ بني قُصَيٍّ قالوا: فينا الحِجابة، فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا القِرى، فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا النَّدوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا السِّقايَة، فقلنا نعم. ثم أطعَموا وأطعمنا، حتى إذا تَحاكَّت الرُّكَب -أي تَزاحَمنا على الإطعام-، قالوا: مِنَّا نبي؟! والله لا أفْعل! انتهت القصّة ومات أبو جهل بعد سنين مَقتولا في معركة بَدر، ولما بلَغ النبيَّ نبأُ مَقتَله قال «مات فرعَونُ هذه الأمّة!»[95]

---

[95] عن عبد الله بن مسعود قل: لَمّا كان يومُ بدرٍ انتهيتُ إلى أبى جهل وهو مَصروع فضربته بسَيفى فما صنع شيئا ونَدَر سيفُه -أي سقط- فضربتُه ثم أتيت به النبىَّ فقلتُ: يا رسولَ الله، هذا عدوُّ الله أبو جهل قد قُتل! فقل «آللهِ لقد قُتِل؟» قلت: آلله لقد قتل! قل «فانطَلِقْ بنا فأرِنهُ» فجاء فنظر إليه فقل «هذا كان فرعون هذه الأمة!» خرجه لبيهَقي في 'السنن الكبرى'.

أما الحِجابة والقِرى والندوة والسِّقاية والإطعام، فأمورٌ تتعلَّق بالحَجّ، حيث أنّ مفاتيح الكعبة كانت بحوزَة بني هاشم من ذُرِّيَّة قُصيّ وكان محمّد منهم. فكانوا يُؤوون الحجيجَ، من حُنفاء ونصارى ويهود ومشركين وغيرهم، الذين كانوا يفدون إلى بيت الله الذي رفع إبراهيمُ قواعِدَه. فسلَّم لهم القرشيّون ذلك كلَّه ولكن أبَوا أن يكون منهم نبيٌّ لما في شأن النبوّة من أمور تخرج عن إطار الْمُسَلَّم على المستَوى السياسي. لقد جاء وصف ذلك في القرآن بعبارة وجيزة غايةً في الدلالة: ﴿جَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُم، ظُلْمًا وَعُلُوًّا!﴾ [النمل 14].

توضِّح السيرةُ مَنهجًا بشريًّا قائمًا في كلّ جوانبه على وَحيٍ إلَهيٍّ رَباني ﴿إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِه، تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد﴾ [فُصّلت 42]. فمَصدَرُ الشَّرع هو الله الحكيم الحميد الذي بِحَمده تكاملت حِكَمُ أَحكامِه لإحاطته بكلّ شيءٍ عِلما، وأمّا مُعلِّمُه الناسَ ومُطبِّقه المِثالي القائم على تنفيذه وترجمته إلى واقع يرونه بأعيُنهم فإنّه الرسولُ محمّد الذي ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى!﴾ [النجم 3-4] فهو الناطق بالوحي قولاً وعملا. جاء في القرآن أمرُ النبي بأن يقول لِمَن يهمُّه الأمر: ﴿قُلْ: إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي، يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم﴾ [آل عمران 31] ولكن كيف يُمكن اتِّباعُه لِمَن لا يعلَم شيئًا عنه؟! وهذه الآية واحدةٌ من بين العديدة التي تُنوِّه بمكانة النبي محمّد في الإسلام وضرورة التَّعرُّف عليه. فإذًا من البديهي أنّ دِراسة السيرة النبوية من واجبات المسلم، بل وإنّها لَحَرِيَّة بأن تكون أوّلَ ما يجبُ تعلُّمه من الدين! فكما أنّ الصحابة الذين شاهدوا الرسولَ تأثَّروا بالرجل قبل تأثُّرهم برسالَته، فكذلك الأجيال التي جاءت بعدهم. فإن كان لا يُدخَل في الإسلام إلا

بشَهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأنّ محمدًا رسولُ الله، فلا بدّ إذًا من معرفَة أكثر معلومات ممكنة عن محمّد هذا الذي أُضيف اسمُه إلى اسم الله في الشهادة. والشهادة أمر عظيم وإن كان في أتفه المسائل. فلا بدّ من أن تكون الشهادة عن علم بالرسول خاصّة، ثم من ذلك ينتقل الشاهد إلى العلم بالله كما جاء به الرسُل من عند ربِّهم.

من فوائد دراستها أيضًا معرفة التطبيق العمليّ للدين الإسلاميّ: فقد أنزل الله تعالى تعاليم الدين الإسلاميّ في القرآن الكريم ولكنّه لم يأتِ بالتفصيل على جميع الأمور، فمثلاً جاء الأمر بالصلاة ولكن لم تذكر الآيات عدد الركعات ولا حدّدت مواقيت الصلوات ولا كيفية أدائها، وإنّما قام النبي صلى الله عليه وسلّم بشرح جميع تفاصيل الصلاة بوحي من الله تعالى، وأدّاها أمام أصحابه. فعن سهل بن سعد أنه قال: رأيتُ رسول الله قامَ على الْمِنبَر فكبَّر، وكبَّر الناسُ وراءَه وهو على المنبر، ثم رفع فنَزل القهقرَى حتى سجد في أصلِ المنبَر، ثم عاد، فلمّا فرِغَ من آخر صلاته أقبل على الناس فقال «يا أيها الناس، إنّما صنعتُ هذا لتأتَمُّوا بي ولتَعَلَّموا صلاتي!»[96] وقال مرَّةً أخرى «صَلُّوا كما رأيتموني أُصلّي!»[97] فتعلَّموها منه ثم علَّموا غيرَهم ثم تناقلَها المسلمين جيلاً عن جيل إلى يومنا هذا. وكذلك الشأن في غيرها كالصوم والحج وغير ذلك من أمور الشرعية. فبدراسة سيرة النبي يستطيع المسلم فهمَ دينِه وتطبيقه عمليًّا بجميع جوانبه وتفصيله؛ هذا من الجهة العملية. أما من الناحية العاطِفيّة، فتعلُّم السيرة يغرس في القلب محبَّة الرسول ومن ثمّة اتِّباعَه. وأما من الناحية الإيمانيّة فإنّه

[96] خرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

[97] خرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن مالك بن الحويرث.

يُدخِل في النفس الإيمانَ بالله وملائكته وكتُبه ورُسلِه واليوم الآخر وبالقدَر، خيره وشرّه. وأمّا من الجانب الروحي، فإن دراسة السيرة تعلّم المسلم الصبرَ، طاعةً للهِ ومحبَّةً لجنس البشر، وعلى التوكُّل على الله والرضا بما قضاه والصدق والإخلاص والحياء والزُّهد، الخ. فشمول السيرةِ حياةَ النبيّ شُمولٌ للإسلام بشتى تفاصيله.

لذا أولى علماءُ الإسلام سيرةَ النبيّ أشدَّ الاهتمام، تبعًا للصحابة الذين جمعوا كلَّ صغيرةٍ وكبيرة في حياة النبي، وهم جيل الإسلام الأوَّل الذين شَهِدوه وعايشوه من حين بِعثَته إلى هجرته إلى حَجَّته، وفي مسجده وبيته وغزواته، في ليله ونهاره. فأخذَها عنهم التابِعون، أي الجيل الثاني، الذين قاموا بنقلها إلى رجال التدوين، من بين تابعي التابعين، وهم الجيل الثالث. تلك الأجيال الثلاثة من صحابة وتابعين وتابعي التابعين هم خير أجيال المسلمين، كما بلغنا عن النبي أنه قال «خَيْرُ الناس قَرْني، ثم الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهم. ثم إنَّ بعدَهم قومًا يَشهَدون ولا يُستَشهَدون ويَخُونون ولا يُؤتَمنون ويَنذِرون ولا يُوفُون، ويَظهر فيهم السِّمَنُ»[98]، معنى القرن هنا الجيل. هكذا نشأ علمُ السيرة النبويّة، فحفظَها أهلُ السيَر بكلّ تفاصيلها جيلاً عن جيل. ولّما كان هذا العلم بهذه المَثابة من الأهمّيّة، اعتنى النُّقّاد بتمحيص طُرُق النَّقل للتحقّق من أسانيد رواياتِها، كما يفعل علماءُ الحديث النبوي. لكن قبلَ ذلك لَم يعتَنِ جامِعو السيرة بهذه الناحية. فمثلاً محمّد ابن إسحاق، وابن شهاب الزُّهري، وعاصم بن عمر كانوا يهتمون بالجمع

[98] خرجه البخاري وغيرُه عن عمران بن حُصين. قوله: يظهر فيهم السمن، أي أنهم يحبون التوسعة في الْمَآكل والمَشارِب، والاستكثار من الأموال، ويدَّعون ما ليس لهم مِن الشرَف ويفخرون بما ليس فيهم من الخير. فهي استعارَة لبيان أحوال أصحاب الدنيا الغافلين.

من غير نقدٍ ولا تمحيص؛ لذا جاء في بعض مَروايّاتهم ما لا تصحُّ نِسبتُه إلى الرسول. ثمّ جاء بعد هؤلاء جيل التثبُّت في النَّقل، وعلى رأسهم ابن هشام الذي نقَّح سيرة ابن إسحاق ونقّاها من الروايات الواهية ومما لا صلَة له بالسيرة المحمَّدية من قَصص الأنبياء المنقولة عن أهل الكتاب وغير ذلك من أشعار العرب وأيامِهم.

ثم تداولَ العلماءِ على التأليف في السيرة المحمّديّة بشتَّى الأساليب، من بين مغازي النبي ودلائل نُبوّته ومعجزاته وشَمائله وخصائصه وحقوقه ورسائله ونَسَبه ومَنهجه في الدعوة إلى الله وما إلى ذلك. ولا زال الناس، من مسلمين وغير مسلمين يؤلّفون الكُتبَ في السيرة المحمَّدية، كلٌّ يجتهد حسْبَ ما يراه يخدُم الحقيقة في نظره. إلا أني، مع كثرة اطّلاعي على كتب السيرة، لم أر أحسنَ من كتاب 'زاد الْمَعاد في هَدْيِ خير العباد' لابن القيم رحمه الله. فإنَّه وَضع فيه أَنفَع ما جاءَ في بيان السُّـنَّة النَّبويّة، إذْ جمع فيه، إلى جانب السيرة بالمعنى التاريخي، الحَديثَ وعلمًا جَمّا من أحواله الرسول وفقهه أخلاقه وعبادته وأحكامه وحِكَمه وطبِّه، وما إلى ذلك من أمور تَهمُّ الناس جميعًا في دينهم ودُنياهم على السَّواء ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى!﴾ [الأعلى 17]، والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل.

الفِقه

ينقسم الفِقه إلى أصولٍ وفروع، وبينهما ما يسمَّى بالقواعد الفقهية. فَقِه يفقَه لُغةً فمَعناه: فَهِمَ، وهي لفظة كثيرًا ما ورَدَت في القرآن ﴿قَالُوا: يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُول﴾ [هود 91] أي ما نفهَم إلاّ القليل من كلامِك؛ مع أن شُعيبًا النَّبيَّ العَربي كان ذو فَصاحة وبلاغة قلَّ مَثيلُها حتى قيل عنه 'خَطيبُ الأنبياء'، فلمَّا أفحَم قومَه بالحُجَّة والبُرهان ونصاعة البيان لَم يجدوا غير هذا الردّ السامِج. ولَمّا أرسَل اللہ موسى قال له ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ؛ إِنَّهُ طَغَى! قَالَ: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي؛ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه 24-28] أي حتّى يفهَموا ما أقولُه لهم، ومنه ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّين﴾ [التوبة 122] أي ليتفَّهموه كما ينبغي.

عرَّف أبو حنيفة الفقهَ بأنه 'معرفةُ النفس ما لَها وما عليها'؛ وهذا أصحّ وأشملُ تعريف للفقه، وهو موافِق لقول النبي «مَن يُرِدِ اللہ به خيرًا يُفَقِّهُهُ في الدِّين!»[99] ذلك لأنّ مَن تفقّه فيه انضبطت نفسُه وفقَ الخير، وأنه لا خيرَ إن لَم يكن الدينُ مَفهومًا على وجهه الصحيح. وذلك ما حصلَ لأحد الصحابة وهو صعصعة بن مُعاوية، عمُّ الفَرَزدَق الشاعِر، قال: قَدِمتُ على النبيِّ فسمعته يَقرَأ ﴿مَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه!﴾ [الزلزلة 7-8] فقلتُ: لا أُبالي أن لا أَسْمَع غيرَها؛ حَسْبي، حسبي! أي: يكفيني هذا القَدر، لا داعيَ لأن أسمَع أكثَر! وإن كان هذا مِن باب

---

[99] خرجه البخاري ومسلم وغيرُهما عن معاوية.

الْمُبالَغة، إلاّ أنّ هاتَين الآيتين تكفيان تمامًا مَن فقِه ليطمَح في فعل الخير وليحذَر اقترافَ الشرّ. ولاحِظْ كيف ابتدأت الآية بذِكر الخير وأخَّرت الشرَّ، تقريبًا للخير وتحريضًا على فِعلِه، وإبعادًا للشرّ وتَحذيرا من ارتكابه؛ هذا هو المَعني الصحيح للفقه لأنّه يشمَل الدين كلَّه. وهناك معنًى اصطلَح عليه الفُقهاء وهو قولُهم 'الفقهُ هو العلم بالأحكام الشرعية العَملية الْمُكتَسَب من أدلّتها التفصيليّة'، ولا يَقصدون بذلك غيرَ ظاهر العبادات والْمعاملات فقط، ولا علاقة للفقه عندهم بغير ذلك، مِن إيمان أو صِدق نيَّة وإخلاص وافتقار وصَبر وخَشوع وما إلى ذلك من أمور استدرَكها فيما بعدُ الصوفيَّةُ، وبخاصَّة أبو طالب المَكي في 'قُوت القلوب' وأبو حاد الغزالي في 'إحياء علوم الدين'.

***

أصول الفقه

أصلُ الشيء أساسُه الذي ينبَني عليه، نقول: أَصَّلتُ الْمَسألةَ تأصيلاً، إذا ردَدتُها إلى أبسَط ما هي عليه في حقيقتها، أي إلى جَوهَرها الذي تتفرَّع عنه مَظاهرُ عدَّة هي كالعَوارض. الأصل هو الجوهَر والفروع هي العَوارض؛ فأصول الفقه أمورٌ جامعة ينبَني عليها الفقه.

يُدرَس في أصول الفقه مَبنَى ومعنَى الخطابِ القرآني والسُّني: كالكلام والأمر والنهي، والعامّ والخاصّ، والْمُجمَل والمبيَّن، والظاهر والمؤوَّل، والإجماع والقياس وترتيب الأدلة، الخ. وكل ذلك لاستخراج حُكم مسألة مّا يعيشها المسلم. والأحكام خمسة:

مُباح، مستحبّ، واجِب، مَكروه، مَمنوع. فمن الأوّل الأمور العاديّة مثل النظافة والنوم والأكل، والثاني كنَوافل العبادات وتحيّة الغير والاقتصاد في المعيشة، والثالث ما أمرَ الله بفعله كالصلاة والصوم، والرابع كالجَفاءُ والإسراف في الأمور، والخامس كالقَتل والسرِقة. فإذًا علمُ أصول الفقه يبحثُ في مَعرِفَة كيفيَّة اِستِخراج أحكام الشَّرع الإلَهي من نصوص القرآن والحديث وما وَرد عن الصحابة. يعتَمد هذا العلم أساسًا على العَقل، بمعنى إعمال الفِكر في استِنتاج أصولٍ كلِّيَّة تضع الأُطُر الْمَنطِقية لكيفيَّة نقل نصوص الوَحي من مَسموع ومَقروء إلى واقعٍ يعيشُه الناسُ ويرَونَه.

لا جَرَمَ أنّ حوادِثَ الدُّنيا غير مُتناهية ومُستجَدّاتُها لا تبرَح تتكاثر وتتنوَّع عبْر الزمان والمكان، ومِن شخص لآخَر، بل وفي ذات الشَّخص؛ إذْ أنّ حُكمَ الإنسان وهو في صِباه غير حُكمِه في مُراهقته أو كُهولَتِه أو مَشيبه. بل وطِوالَ حياتِه، فبين الحِين والآخَر تتقلَّب أحوالُ الشَّخص وأوضاعُه ومَصالِحُه؛ هذا من جِهَة. وفي الْمُقابل، فالقرآن ذو حَجم محدود، يضمُّه كتابٌ عددُ سوَرِه 114 وعدد آياته 6232 وعدد ألفاظه 78249، وكلُّ ما عُدَّ حُدّ! ولكن مع ذلك فإنّنا نقرأ فيه ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النّحل 89]، ومنه قولُ النبي في الحديث الصحيح «ليسَ شيءٌ يُقرِّبُكم إلى الجنة إلا وقد أمرتُكم به، ولا من شيء يُقرِّبُكم إلى النار إلاّ وقد نَهيتُكم عنه!»[100]. فكيف يكون القرآنُ مُبيِّنًا لكل شيء، والشيءُ أعمُّ العامِّ؟ أم

[100] خرجه البزار وعبد الرزاق وابن أبى شيبة والبيهقى في 'شعب الإيمان' والبغَوي في 'شرح السنّة' عن عبد الله بن مسعود وتمامُه «وإنّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فى رُوعي أنّ نَفسًا لا تَموتُ حتى تَستكمِلَ

كيف يقول النبيُّ أنّه قد أمرنا بكلّ شيءٍ يقرِّبنا إلى الجنّة ونهانا عن كلّ شيء يبَعِّدُنا عنها، وقد علِمنا يقينًا أن القرآن والأحاديث النبويَّة مَحدودة وأنّها لا يمكن أن تكون متناهيةً لانقطاع الوَحي ووفاة الرسول منذ خمسة عشر قرن؟ فمِن هنا نعلَم أنّ كلَّ أمور الدين، بل والدُّنيا معًا، كلُّها مَذكورة في القرآن. فإمَّا أن تكون مَذكورةً بأعيانها مُفَصَّلَةً، وإمّا أن يأتِيَ ذِكرُها مُجْمَلاً وحينئذ يلزَمُ إعمالُ العقل والتَّفكُّر والتَّدبُّر لاستِخراج الكُلِّـيَّات التي تضمُّ تلك التفاصيل؛ وهذا هو التأصيل المَذكور أعلاه.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا، فَقُلْ: سَلامٌ عَلَيْكُمْ؛ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ!﴾ إلى قولِه ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ، لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ. وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا، وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ، وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ إلى قولِه ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ!﴾ [الأنعام 54-65] فاللّٰه الذي يعلَمُ الغَيبَ قد أودَع في كتابه العزيز ما ينفَع الذين يؤمنون، رحمةً بهم، إلى يوم الدين. فما علينا غير النَّظَر عن كَثَب في القرآن وفي سنَّة الرسول لنستَخرج ما فيه صلاحُنا كلَّما استجدَّ أمرٌ، وذلك قولُه ﴿لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ، لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُم! وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ، إِلاَّ قَلِيلا!﴾ [النساء 83] قولُه ﴿يَسْتَنبِطُونَه﴾ من نَبَطَ الشيء: خرجَ، ومنه استنبَطَ الماءَ: استخرجه. فالمَعنى أنَّهم يستَخرِجون ما يحتاجون إليه من عِلم مِن صريح القرآن ومن صحيح السنَّة ومن النَّظر الرزين، بتجمُّعٍ وثَبات، في الوقائع قصدَ ردِّه إلى الناموس

رزقَها؛ فاتَّقوا اللهَ وأَجمِلوا في الطَّلَب، ولا يَحمِلنَّكمُ استِبطاءُ الرِّزق أن تَطلُبوه بِمَعاصِي اللهِ؛ فإنّ اللهُ لا يُدرَك ما عِندَه إلاّ بطاعتِه!».

الإلَهي الذي لا تصلُح العبادُ ولا البلاد إلا به. وإلا لانزلَق الناس في متاهات لا حصرَ لها قد نصبها الشيطانُ لهم. ولعلَّ هذه الآية أوضح ما جاء في القرآن كدليل على وجوب استعمال العَقل لتفجير ينابيع الحِكمة الإلَهيَّة الكامنة في القرآن.

لذا جاء قبلَها بآية قولُه ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ؟!﴾ [النساء 82] والتَّدبُّر هو النَّظر في أدبار الأمور، أي عواقبها؛ وهذا هو لُبُّ الفقه، أعني رُؤْيَة أثر الفِعل أو التَّرك قبلَ حُدوثه: فإن كانت عاقبتُه خيرًا فهو خير وإن كانت شرًّا لزم تَركُه. لذا حثَّ القرآنُ على التفكُّر: ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ؛ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُمْ لا تَعْلَمُون﴾ اِسألوا الذين جَمعوا بين العَقل وخَشية الله، فاستَعمَلوا نعمَةَ العَقل في مَرضاة الله وفي النصيحة لأنفسهم وللناس، وهم العُلماء بأتَمّ معنى الكلمة، ثم قال ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون!﴾ [النَّحل 43-44] وفي هاتين الآيتين تقديمٌ وتأخير؛ فلنفهمهما هكذا: (ما أرسلنا مِن قبلك إلا رجالا، نوحي إليهم بالبينات والزُّبر، وأنزلنا إليك الذكرَ لتبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكَّرون؛ فاسألوا أهلَ الذِّكر إن كنتم لا تعلمون!) فما بيَّنه الرسولُ من وَحي أو سنّة يُؤخَذ على ظاهره ولا حاجةَ إلى التَّعمُّق فيه، وما ليس كذلك فمَردُّه إلى التَّفكُّر والتَّدبُّر في ضوء ما جاء صريحًا في الكتاب أو السنَّة.

هذا ما علَّمنا النبيُّ، فقد جاء في الصحيحين أنَّه مدَح الخَيلَ وما فيها من أجْر، فسألَه الصحابة عن الحُمُر فقَال «ما أُنزِلَ عَليّ في الحُمُرِ شَيْء إلاّ هذِه الآيةُ الفاذَّةُ الجامِعَة:

﴿مَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه!﴾ [الزلزلة 7-8]»[101]

فقولُه: الآية الفاذَّة الجامِعَة أي التي قَلَّ نَظيرُها لأنّها جامعة لفقهٍ كثير في كلمات مَعدودة. ففي هذا الحديث ما يدلُّ على مشروعيَّة التمسُّك بعُموم ما جاء به النّصُّ، بشَرط العِلم أنّه لم يترل في المسألة نصٌّ بعينه. وهنا تظهَر أهَمِّيّة دِراسة القرآن بقَصد التَّفقُّه، بل إنها لواجبةٌ على مَن آتاه اللهُ عقلاً حَصيفا يُمكِّنُه من الغَوص في دلائل الوَحي ليَستَخرج لآلِئ الفَهْم وجَواهر الحِكَم: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُون!﴾ [آل عمران 79] فمَن درس الكتاب الْمُنَزَّل صار ربّانيًّا أي مَنسوبًا إلى الربّ تبارك وتعالى لشِدَّة تَمسُّكِه بدين الله ولِحُسن طاعته.

حين نقول بأنّه لا بُدَّ من العلم بأنّه لم يترَّل في مَسألة مّا نَصٌّ بعينه، إنما نعني أنّه يُشرَع الرجوعُ إلى الكلّيّات والاحتجاجُ بالعُمومات. وهذا مُقيَّدٌ بنا يُسمّيه علماء الأصول 'الإستِقراء' وهو تَتبُّع النصوص لِحَصر مسألة مّا، مِن قرأَ أي جمعَ. وهذا يستلزِم اطِّلاعًا كبيرًا على نصوص الشَّرع يُفضي بصاحبه إلى التَّبحُّر، ليُستَخرَج قانونٌ عامّ في صِنف مّا من المسائل بعد بَحث دقيق في تفاصيلها من جهة، وبعد التأكُّد من أنّه ليس هنالك ما يَمنَع ذلك البَحث لكون المسألة قد وردت في نصّ مّا. فبالاستقراء يُمكن الحُكم على مسألة لَم يرد ذِكرُها نصًّا، وبالتالي ردُّها إلى عُمومات تَجمعُها وما شاكلَها.

إذا ثبتَ هذا، أي إن تحقَّق الاستِقراء، جاز القياس؛ وهو التأصيل الذي ذكرناه أوَّلَ هذا الفصل. فالقياس هو رَدُّ الفَرع إلى أَصلِه في الحكم بعِلّة تجمعهما، أي تجعَل من أصلٍ مّا

[101] متّفقٌ عليه، وهذا لفظ مسلم.

أصلاً لفرع مّا ومن فرع مّا فرعًا لأصلٍ مّا. فالقياس لا يكون مَشروعًا إلا إذا كان مبنيًّا على ثلاثة أركان: أصل وفرع وعِلّة جامعة بينهما. مثالُ ذلك الْمُخدِّرات؛ فإنه لَم يأتِ لا في القرآن ولا في السنَّة ذكرُها، ولكنّ مسألة تَحريمها واردة في الُمجتمَع. فما حُكمُ تَناوُل الْمُخدّرات إذًا؟ فهنا لا بدّ من القياس، لأنّ الاستقراء يدلُّ على عدَم وُرود نصٍّ في هذه المسألة، فيلزَمنا أن نقيس الْمُخدّرات على شيء يُشبِهها، وذلك الخَمر، فمن هذا الوجه يكون الخمر أصلاً والْمُخدِّر فَرعًا منه، وأمّا العِلّة فالإسكار، أي إفقادُ الوَعي الذي يؤدّي إلى ارتكاب أمور لا تُحمَد عُقباها. فالقياس أن نَردَّ هذه المسألة إلى قول الرسول، والذي بلغنا عن عدد كبير من الصحابة: «كلُّ مُسكرٍ حرام»[102]. ونقضي بناءً على هذا أن الْمُخدِّرات مُحرَّمة لا يحلُّ تناوُلُها. ونقول بأنَّه حكمٌ شرعيّ لاعتماده الثابت على أصول الشريعة الإسلاميّة.

يرجع هذا الحكم ابتداءً إلى أصل أصول الشريعة الإسلاميّة، وهو إرادة الله الخيرَ لِعباد وسعادتُهم دنيا وآخرة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ؛ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يشقُّ عليه ما يضرُّكم، والعَنَتُ هو التَّعب والمشقَّة من غير فائدة ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ؛ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيم!﴾ [التوبة 128] فمِن مَحبَّة الله لنا أن بعثَ فينا أشفقَ خلقِه علينا. فالدين مبنيٌّ أساسًا على مَصلَحة الناس، وليس لله مَصلَحةٌ في ذلك كما يدلُّ عليه قولُه ﴿مَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُر﴾ [الكهف 29] ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِين!﴾ [آل عمران 97] ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُم!﴾ [الإسراء 7] وفي السنَّة

---

[102] خرجه الجماعةُ عن عائشة وفي رواية عند الترمذي وأبي داود «كلُّ مُسكر حرام، وما أسكرَ منه الفَرَقُ فَمِلءُ الكفِّ منه حرام».

الكثيرُ من ذلك، كما جاء في الحديث القُدسي، الذي أوردناه بتمامه فيما قبلُ، حيث يقول الله تعالى على لسان نبيّه: «يا عبادي، إنَّكم لَن تَبْلغُوا ضَرِّي فتَضُرُّوني، ولن تَبلُغوا نَفْعي فتَنفَعوني!»[103].

فالنَّفع والْمَصلحة إذًا عائدان إلى الخَلق لا إلى الخالق، ولكن ليس المراد بذلك موافقةَ الأهواء والرَّغَبات التي تَميل إليها أكثرُ النفوس والتي لَم تتربَّ التربيةَ الرَّبّانية التي تأخُذ بالناس إلى أَوْج الصلاح. فإنّ اتِّباع الأهواء والشَّهوات، مع كونه مُخالفًا لِمعنى الدين، فإنّه يرمي بصاحبه في مَتاهات لا حدَّ لها ولا مَخرجَ منها إلا في اتِّباع ما جاء به الرسول من عند ربِّه ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلام، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور!﴾ [المائدة 16] وإلا فلقد وَعظنا الله بقولِه ﴿عَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُم؛ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُون!﴾ [البقرة 216] فالخَيرُ ما بيَّنه الوَحي وكذا الشرّ، وليس من قَبيل الاستِحسان أو الاعتماد على العَقل بغير قَيد، لأنَّ الناس ينحَرفون عن الصواب وهم يظُنُّون أنّهم على الحقّ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنا؟!﴾ [فاطر 8] ﴿كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُون﴾ [يونس 12] ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعا!﴾ [الكهف 104]. فما جاء الدين إلا لُيُبيِّن للناس ما فيه خيرُهم فيسعَوا لنَيلِه وما هو شرٌّ لَهم فيبتعِدوا عنه؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُون!﴾ [غافر 61].

---

[103] خرجه مسلم والبخاري في 'الأدب المفرد' وأحمد وغيرهم.

فمقاصد التشريع إنّما هي مَصالحُ الناس التي بيَّن الوَحي، سواءً كان قرآنًا أو سنَّة، بأنَّها خير فحثَّ عليها ونَهى عن عَكسِها. وعلى رأس هذه المقاصِد ما يسمَّى 'الكُلِّيّات الخَمْس' وهي خَمسُ مَصالح ضرورية تُعتبَر أصولا وأهدافًا عامَّة للشريعة، وهي حِفْظُ: الدين، والنفس، والعقل، والنَّسل، والمال. فهذه ضروريّات تتوقَّف عليها سعادة الفَرد والمُجتمَع، دُنيا وآخرة. فمَن تَعدَّى إحداها ولَم يحترِمها فجزاؤُه عقابٌ في الدنيا قبلَ الآخرة. ثم تليها الحاجيات وهي ما يحتاج إليه الناس لرفع الحَرَج والْمَشقَّة عنهم ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة 6]، وذلك مُقيَّد باجتناب ما لَم يُبِحه الشَّرع.

فلمّا كان مقصود الشرع المحافظة على الخمسِ الضرورية، والتي هي الدين والنفس والعقل والنَّسل، أو العِرض، والمال؛ لَزم النَّظر في تقْييمها، أي في الْمُفاضلَة بينها لتقديم إحداها على الأخرى في كل حالَة. حينها يجب النَّظر في خطاب الشَّرع الذي جاء أمرًا أو نهيًا أو أنّه سكتَ عن المسألة رأسًا. فمثَلاً نجد أن الله يقول مرّةً ﴿تُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ، فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُم!﴾ [البقرة 54] أي ليقتُلْ بعضُكم بَعضا، ومرَّة ﴿لاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيما!﴾ [النساء 29] أي لا تتقاتَلوا، ومرَّة ﴿لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، إِلاَّ بِالْحَقّ!﴾ [الأنعام 151]. فمَن لا درايةَ له بأصول الفقه يحتار ولا يتبيَّن له حُكمُ قَتلِ النَّفس. ولا داعيَ إلى الحَيرة، بل حاصلُ هذا كلِّه أنّ الله قد حرَّم قتلَ النَّفس، وهذا نَهيٌ عامّ، ولكن استَثنى أحولاً؛ منها أن يكون دِفاعًا عن النَّفس أو عُقوبةً لِمَن قتَل، وإلاّ فإنَّه ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا، بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعا!﴾ [المائدة 32] ويدخُل في معنى الفَساد مُحاولَةُ القَتلِ نفسُها، إلى غير ذلك من أمور قد تلحَق بالعُرف مرّات كثيرة.

ومن جهة أخرى، هل إذا بلَغنا أمرٌ بشيء، سواءً كان قرآنًا أو على لسان الرسول، هل يقتضي ذلك الوجوبَ أو النَّدْب والاستِحباب؟ وهل إذا جاءنا نَهي، فمَعناه التَّحريم أو الكَراهة؟ وهل كلّ ما لم يأتِ فيه لا ذا ولا ذاك فهوَ جائزٌ مُباح؟ فجوابُه أنَّه يُرجَع إلى نصّ الأمر، إن ورَد في القرآن أو الحديث، أو إلى حُكم العُرْف بحسَب درجته في المصلَحة. وكذلك النَّهي، إن ورَد فيه نص، أو إلى العُرف بحسب درجته في المفسدة. وكذلك في الْمُباح، فإنَّه قد يصير واجبًا أو مُستحبًّا أو مُحرَّما أو مَكروها بحسَب عُرف الناس ما لَم يُخالِف ذلك العُرفُ أصولَ الشريعة كما بيَّنّاها من قبلُ. أي ما لَم يخالف العُرفُ نصًّا بيِّنًا مِن قرآن أو سنَّة، وما لَم يُعارض إحدى المَصالح الخمس الضروريّة. مع البَحث في كلّ حالَة عن دقائق ومُلابَسات المسألة.

إذا تقرَّر أن هَدفَ الشريعة الأوّلَ إنما هو سعادةُ الناس، اِتَّضح أنّه لا بدَّ من الرجوعِ إلى أحوال الناس أنفُسِهم ومُراعاتِها لتطوير الشريعة، وفقَ الضوابط التي وضعها الشرعُ ونطقَ بها القرآن والسنّة. ومعنى هذا إعمالُ العُرف، أي ما تعارَف عليه الناس تبعًا للأزمنة والأمكنة وللطبقات التي يتكوَّن منها كلُّ مُجتمَع. وقد نبَّه الله على ذلك في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن، منها قوله مُشَرِّعًا للعُرف ﴿لِتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ؛ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون!﴾ [آل عمران 104] فالَمعروف هو ما تعارف عليه الناسُ، والْمُنكَر هو ما أنكروه، أي ما لَم يتقبَّلوه، لكَونِه يضادُّ مصالِحهم التي أقرَّهم عليها شُرع الله. فمَن كان في مُجتَمعِه آمرًا بما تَعارف عليه قومُه، ناهيًا عمّا يُنكرونَه، فهو مِن الُمصلحين الُمفلحين؛ بشرط أن يكون معروفُهم مرتبطًا بالمصالح ومُنكرهم بالمفاسد التي أقرَّها الشَّرع. ولقد جاء في عاقبَة

تعطيل هذا الأصل قوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؛ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُون: كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوه!﴾ [المائدة 78-79] ونحن نرى الناسَ يُنكرونَ أمورًا كثيرةً يُنكرُها الشرعُ الإسلامي، كالإجرام والإسراف والخيانة والعُنف والأخلاق السيِّئة، كما نراهم يَحثّون على أمور قد حثّ عليها الإسلام، كالصِّدق وإعطاء الفقراء ومساعدة الضُّعفاء والأخلاق الحسنة. وهذه الأمورُ موجودة في العالَم كلِّه حيث أغلبُ الناس غير مسلمين، وقد أقرَّها الإسلام. ومن ذلك القوانين الوَضعية التي تُشرّعها الدُّول، فإنّ أغلبَها موافق للشرع الإلَهي، إلاّ ما جاء تحريمُه. فإشارات المرور، مثلاً، لا تحلُّ شرعا مخالفتُها؛ فهي أمور تَعارف عليها الناس لِمَصلحتهم، أي لتفادي الحوادث. وعليه فمَن خالفَها ثم انجرّ عن ذلك حادثٌ فإنّه مسؤول أمام الناس وأمام الله.

فإذا تعارف أناسٌ، في زمَن مّا في مَوضعٍ مّا، على أمر واطمأنَّت إليه نفوسُهم وتتابعت عليه، فهو مِن شرع الله ما دام لا يُعارضُ نصًّا في القرآن أو في السنَّة. وقد أحالَ القرآن على العُرف في مواضع عدّة، منها قولُه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ، إِن تَرَكَ خَيْرًا، الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِين؛ بِالْمَعْرُوف﴾ [البقرة 180] أي أنَّه مَن خَشيَ المَوتَ، وهو ذو مالٍ، فمِن واجبِه أن يوصيَ لكلّ أقاربِه بشَيء من تَرِكَته في حدود ما هو مَعقول مُوافقٌ لما في ذلك المجتَمَع وفي ذلك الزّمان. ومنه قولُه ﴿مَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ؛ بِالْمَعْرُوف﴾ [النساء 6] أي لا يتعدَّى حُدودَ العُرف السائر.

وكذلك الأمر في عِشرَة النساء، فقد أحال القُرآنُ على العُرف في مَواضعَ عدّة، منها قولُه: ﴿آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوف﴾ [النساء 25] ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوف﴾ [النساء 19]

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوف﴾ [البقرة 228] ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوف﴾ [البقرة 241] ﴿يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوف﴾ [البقرة 232]، كما نرى فإنّ هذه مَسائل قابلَة للتطوُّر طِبقًا لما يُفرِزُه كلُّ مُجتمَع، وأكثرُها في الأحوال الشخصيّة كالزواج والطلاق والمواريث؛ لذا أناط الحكمَ بما هو مَعروف بين الناس في زمان مّا ومكان ما. ومن ذلك ما بلغنا عن عائشة أنّ هندَ بنتَ عُتبةَ ذَهبت إلى النبي تشتكي زَوجَها فقالت له: إنَّ أبا سفيان رَجُلٌ شَحيح، وليس يُعْطِيني ما يَكفيني وَوَلَدي؛ إلاّ ما أَخذتُ منه، وهو لا يَعلَم! فقال لها رسولُ الله «خُذِي ما يكفيكِ وبَنيكِ بالْمَعروف!»[104] فبيَّنَ لها أنّ أخذَها ليس بسَرِقَة ولكن لا يجوز لَها أن تتعدَّى حدودَ المَعقول الساري في مُجتمَعها بخاصَّة. وما من شكّ أن مصاريف الناس في المدينة في عهد الرسول أقلّ بكثير من مصارفِنا في هذا البَلَد وهذا الزمان.

فَلَو حدَّد الرسول المَبلَغ الذي يجوز لَها أخذُه لأَحرَجَ المسلمين إلى آخر الدَّهر. ولكنّ الله يأبى ذلك لأنّه بنَى دينَه على اليُسر والسُّهولَة رحمةً بخَلقه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَج﴾ [الحج 78]. قال النبي: «إنَّ أعظمَ المسلمين في المسلمين جُرْمًا: مَن سَأَلَ عن شيءِ لم يُحرَّم على الناس، فحُرِّمَ عليهم مِن أجلِ مَسألتِه!»[105] فكلّ ما سكتَ عنه الشَّرع فهو مُباحٌ ما دام لا يعارضُ أصولَ الدين؛ وهذا أصلٌ عظيم يُدخِلُ العُرفَ في الشريعة ويقضي بأن الأصل في الأمور الإباحة، إلا ما جاء تحريمُه نصًّا أو قياسا. وقد نهى الله عن هذا: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ

[104] خرجه أبو داود بهذا اللفظ وهو عند البخاري ومسلم والنسائي وغيرهم.

[105] خرجه البخاري ومسلم وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص.

لَكُمْ تَسُؤْكُم، وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُم، عَفَا اللَّهُ عَنْهَا!﴾ [المائدة 101] أي سَكَتَ عنها، فلم يَذكرْها لَكم ولَن يؤاخِذَكم بها. وقال النبيّ: «دَعُوني ما تركتُكم، فإنما أَهلكَ مَن كان قبلَكم كُثرةُ سؤالِهم واختلافُهم على أنبيائهم! فإذا نَهيتُكم عن شيء فاجْتَنِبوه، وإذا أمرتُكم بأمرٍ فائْتوا منه ما استطعتم!»[106]. فالناس أدرَى بأمورهم ما داموا في إطار الدين، ولا داعيَ إلى التشدُّد والتزمُّت والتَّنطُّع، فليس ذلك من الدين في شيء، بل هو مِن حَظّ الشيطان والنَّفس الأمارة بالسوء.

يجرُّنا الكلامُ عن العُرف إلى مسألة أساسيّة في أصول الشَّرع، فنقول: ممّا لا خِلاف فيه أن القرآن مَنبَعُ الشريعة وكذا السُّنّة ثم القياس، عند فَقْد النص في أحدهما، وهناك أمر رابع وهو ما سمّاه الْمُنظِّرون في أصول الدين 'الإجماع'. وقد اختُلِف في الإجماع هل هو حُجّة أم لا؟ وإن كان حجَّة، فما طبيعتُه وما هي ضوابِطُه. الصوابُ أن الإجماع حجَّة وبُرهان واجبٌ العمَلُ به، ومن بينِ ما يدلُّ على ذلك قولُ رسول الله «لا يجمع الله أمتي على ضلالة أبدا و يد الله على الجماعة»[107] ومَفاد هذا أن أمَّة النبيّ إذا اجتمَعت على أمر مَّا فإنَّه لا يكون ضلالَة أبدًا، بل هو من هُدى الله و﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة 120].

ولكن ما الْمَقصود من قوله 'أمَّتي'؟ فجوابُه أنّ أمّةَ النبيّ تضمُّ البشَرَ جميعًا: ﴿قُلْ: يَاأَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعا!﴾ [الأعراف 158] وقال صلى الله عليه وسلّم «كان

---

106 خرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة.

107 خرجه الحاكم عن ابن عباس وحسّنه ووافقه الذهبي، وله شاهد عن أبي بصرة الغفاري عند الطبراني وأحمد وقل الأرنؤوط: صحيح لغيره.

النبيُّ يبعثُ إلى قومهِ خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى الناسِ عامَّةً»[108]. الناس كلُّهم مُرادون بالدّعوة المُحمَّديّة، فمَن بقيَ على كُفرِه لَم يخرُج من أمَّة الدَّعوة، ومَن اتَّبع الرسولَ دخلَ في أمَّة الإجابة. الحاصل أنّ الناس كلُّهم أمَّة النبي محمَّد، شاؤوا أم أبوا. فقوله «لا تَجتَمِع أُمَّتي على ضَلالة» يعمُّ البشريَّة جَمعاءَ. وهذا مُلاحَظ، فمِن الْمُستحيل قَطعًا أن يسكُتَ الناسُ كلُّهم أجمعون عن مُنكر، بل من رحمة الله واستجابتِه لنبيه أن جعل في البشريَّة ذلك الوازعَ الذي يمنَعها من الوقوع في الشَّر جُملَة. فإن كان الأمر هكذا فالعُرف حُجَّة، ليس في الْمُجتمعات الْمسلمة فحسب، بل وفي كل بُقعة من بقاع الأرض. هذا هو الإجماع من جِهة طبيعتِه ومن جهة كونه حجَّة. والحقيقة التي تلوح من خلال ما بيّنّاه أن الإجماعَ هو العُرْفُ بعينه. ومُقتضى ذلك أنّ التَّشريع ما زالَ ساريًا وأنَّ الوَحيَ ما فتئَ فعّالا، وهذا من فضل الله ورحمة بعباده، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء 26].

وكما قلنا فإنّ للإجماع، أي العُرف، ضوابطَ. أوَّلُها أن نُميِّزَه عن العادة، إذ ليس في العادة حجَّة، بل العكس تمامًا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ! قَالُوا: حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا! أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ؟!﴾ [المائدة 104] فلا حجَّةَ في العادة، بل لا بدَّ مِن اتّباع الحقّ الذي يتبيَّن في حينه، وإلاّ فكم من حقٍّ أصبحَ باطلاً، فضلاً عمّا كان باطلاً من أوّل أمره. الضابط الثاني أن يكون العُرف عامًّا شاملاً مَعلومًا لدى الناس مَعمولاً به، أي عُموميًّا كما يُقال الآن.

[108] خرجه البخاري ومسلم والنسائي وغيرهم عن جابر بن عبد الله.

فما كان نادرًا أو استِثنائيًّا فإنّه لا يُعوَّل عليه. الضابط الثالث أن لا يُخالفَ العُرفُ نصًّا صريحا في القرآن أو صحيحا في السنَّة، ولا يتبيَّن ذلك إلا بعد الاستِقراء كما مرَّ بيانُه. الضابط الرابع أن يكون العرف سابقا غير لاحق، ومثال ذلك: أن يَستدينَ أحدٌ من غيره مائةَ دينار، فلا يستَطيع تسديد ما عليه إلا بعدَ عشرين سنة، فعليه أن يردّ له المبلَغ ذاتَه، والذي هو المائةَ دينار، دونَ اعتبار تغيُّر قيمة تلك العُملَة في تلك المُدّة، سواءً زادت أو نقصت. الضابط الخامس: ألاّ يوجد تصريحٌ مَشروع يخالف العرف، ومثالُه أن يكون أمام إشارة المُرور ضابطُ شُرطة، فإذا مَنع من المرور في الضوء الأخضر وجب التوقُّف. فاحترام إشارة المُرور واجبٌ شرعا، وكذا احترام الشّرطي إذا ألغَى فعاليَّة الضَّوء لأمور مَشروعة، وعلى رأسها الحِفاظ على الأنفُس من خلال تنظيم مرور السيارات والمارَّة.

هذه جُملَةٌ من الأمور التي يدرُسها علمُ أصول الفقه، وهو ميدان يدقُّ على أفهام كثير من الناس، وذلك لِجمعه بين العَقل والنَّقل. أي لإعمالِه العَقلَ النَّقديَّ والذاكرة الحافظة والخِبْرَة بأحوال الناس في حاضرِهم وماضيهم وفي حَواضِرهم وبَواديهم، إضافةً إلى التبحُّر في نصوص الشَّريعة من قرآن وسنَّة وآثار مَن سَلَف في القرون الثلاثة الفاضلة، فما دونَها من أزمنة ازدهار واغترار وانحطاط واعتِبار. لقد طال بنا القولُ وفي هذا كفاية، فلْنَنتقل قبلَ الْخَوض في علم الفقه، إلى فَنٍّ مُمتِع ينحصرَ بين أصول الفقه وفروعِه.

***

القواعد الفقهيّة

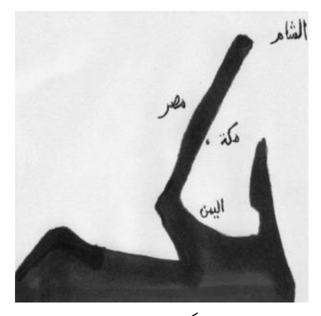
قَعَدَ يَقعُد لُغةً أي جلَسَ على قاعِه وأخفى رجلَيه أي قوائمَه، فهو قاعد غير قائم. ومنه ﴿يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة 127] أي ما وَقَع من الكَعبة. ومعناه أن الكَعبة كانت مَوجودَة قبل إبراهيم، عليه السلام، ولكنَّ أحجارَها وقعَت على القا ع في غابر الدُّهور، فتعطَّلت عن الظُّهور وخَفيَت وغابت عن الأنظار، وظلَّت ما شاءَ الله في الانتِظار. ثم جاءَ إبراهيم ورَفعَ القواعد أي أظهرَها وأقام الجُدران وسقَّف البيت الحَرام، الذي هو في الحقيقة أوَّلُ بيت بُني لله منذ آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ، مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِين، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَات: مَقَامُ إِبْرَاهِيم!﴾ [آل عمران 96-97] وبكَّة هي جزيرة العَرب التي بين اليَمَن والشام، أي بين اليمين والشمال، وكذا بين المَشرق والمَغرب؛ بحيث أنَّها أَوسَطُ العالَم. وفي اللغة بكَّ يَبُكُّ بَكًّا أي ضمَّ الأجزاءَ وجَمع ما تفرَّق منها. والحِجاز هو أوسَط بكَّة، ومكَّة أوسط الحجاز، والكَعبة أوسط مكَّة؛ فهي سُرَّة العالَم.

فائدة: وهنا إحدى آيات القُرآن التي لَم يطَّلع عليها الناسُ قبلَ زماننا هذا؛ فاسمُ 'بكَّة' مكتوبٌ على وجه الكرة الأرضيّة كما كشفت عنه الأقمارُ الصِّناعية حيث تبيِّن الصُّوَر الْمُلتَقطة مِن فوق المحيط الهندي، انطلاقًا من جهة الجنوب الشرقي إلى جهة الشمال الغربي، أنّ البحرَ قد خطَّ كلمةَ 'بكَّة' بحروف عربيّة وهي 'ٮكه' بغير نقط، وهو الأصلُ قبل الإعجام كما مرّ بيانُه، أي هكذا (ان اول ٮٮٮ وصع للٮاس للدى

ٮكه)[109] = ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾. وهي المنطِقة التي تمتدّ من شمال خليج العرب وبحر عدَن وساحل اليمن إلى شمال البحر الأحمر ثم بحر الصومال من ساحل إفريقية الشرقية.



بكّة وسطَ الصورة الأرضيّة بين قارتي إفريقيا وآسيا والمحيط الهندي.



إذا أدرنا الصورةَ بقدر 45 درجة نحو اليمين أعطتنا اسمَ بكّة بخط عربي.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد! وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ، مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيم﴾ [لقمان 26-27] ﴿قُلْ: لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدا!﴾ [الكهف 109] فهذه بكّة، مخطوطة بِمِداد البحر، وفي بطنها مكَّة حيثُ المسجدُ الحرام حيثُ الكعبة أوّلُ بيت وُضع للناس حيثُ الرُّكنُ اليماني حيث الحجر الأسود الذي هو «يمينُ الله في الأرض!»[110]. هذا

---

[109] أشكر هوغو كارترايت الذي استطاع أن ينقلَ القرآن كاملا بغير نَقْط وأعطاني نسخةً منه.

[110] والأخبار الدالّة على ذلك كثيرةٌ جدًّا. فعن عبد الله بن عُمر أنه قل: ما تَركْنا اِستلامَ هذَين الرُّكنَين، اليمانِّي والحجَر، في شدَّةٍ ولا رَخاءٍ مُنذُ رأيتُ رسولُ اللَّه يَسْتَلِمهُما. خرجه البخاري وغيرُه.

ممّا نتبيَّن به أنّ القرآن حُجَّة محمّد الباقية على مرّ الدَّهر والتي لن تزال أسرارُها تظهر وآياتُها تبهَر، لِيعلَم الناسُ أنَّه نَبيّ مُرسَلٌ وليُصدِّقوه وليتَّبعوه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقّ!﴾ [فصلت 53].

القواعد جمع قاعدة، وهي الأساس الذي يبن الأصل الخَفيّ وما ارتَفَع وظَهر للعِيان. لذا سُمِّيَ دُبر الإنسان أُسًّا وأُستًا وقاعًا لما هو عليه من جَمع يبن أصل البشريَّة ومَصيرِها. هذا من جهة اللُّغة، أمّا اصطِلاحًا، فالقاعدة قَضيَّة كُلِّيَّة تَنطبقُ على جُزئيات يجمعها بابٌ واحد، فهي ألفاظ قليلة تشمَل جُزئيات كثيرة في نفس المَوضوع. فالفرق بينها وبين أصول الفقه أن الأصول من عالَم الفِكر الذي لا تحدُّه العبارة، والقواعد سبيلٌ قريب للتَّعبير عن تلك الدوائر الْمَعرفيَّة التي لا حَصرَ لها في الحقيقة.

أكبر فوائد القواعد الفقهية تَثبيت الْمَلَكة الفِقهيَّة والقدرة على استعمال القياس، بحيث لا يبقَى سوى البَحثُ عن العلَّة، أي السبَب الذي جاء من أجلِه الحُكم إيجابًا أو سَلْبا،

وأخرج ابن حبّان، في باب ذكر فضل مكّة من صحيحه، عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله «ليبعثنَّ الله هذا الرُّكن يومَ القيامة، له عينان يبصر بهما ولسان ينطِق به ويشهد لِمن استلمه بحق» وهو عند ابن خُزيمة وأحمد، وحسَّنه الأرنؤوط. وأخرج الحاكم عن عبد الله بن عَمرو أن النبي قال «يأتي الركنُ يوم القيامة أعظمُ من أبي قُبيس، له لسانٌ وشفتان يتكلّم عمّن اِستلمه بالنيّة؛ وهو يمين الله التي يُصافح بها خلقَه»، وأخرج ابن ماجة عن أبي هريرة أن النبي قال «مَن فاوَض الرُّكنَ الأسود فإنما يُفاوِض يدَ الرحمن». وورد عن أبي سعيد وعن عليٍّ وعبد الله ابن عباس موقوفًا بسند صحيح أنّه قال «الركن هو يَمين الله؛ يُصافِح بها عبادَه»، وابن عباس هوَ حَبر الأمّة وترجمان القرآن بشهادة النبيّ، وهذا كلامٌ لا يستحقّ أن ينبَع إلا من مشكاة النبوَّة، فحكمُه حكمُ الرّفع، والله أعلَم.

حتى إذا ظَهرت العلَّة قِيسَ على الأصل الوارد بالنَّص. فهي تُقرِّب إلى البَديهة أسرارَ الدين، وتُيسِّر الإحاطةَ بمقاصد الشريعة في تقرير الأحكام الفقهية. وذلك لِوَجازة ألفاظِها وشُمول معانيها، مع سُهولة تراكيبها، بحيث يُمكن حِفظُها واستِعمالُها عند الحاجة وفي كل حالة، بخلاف الفروع الفقهية التي لا تدخل تحت الحَصر. ويُتفادى بها الاضطِرابُ في المسائل الفقهية، لأن القواعد الفقهية سائرة على منهج واحد، فتسير الترجيحات تَبعًا لها من غير اضطِراب على منهج واحد. فهي كالأمثال التي يصل بها عامَّةُ الناس إلى الحُكم في مسألَة بردِّها، في ألفاظ يسيرة مَفهومة، إلى أصل الأمر.

من أجمَع ما جاءَ في القواعد الفقهيَّة ما يسمَّى بـــ'رسالة القَضاء' التي بعثَ بها الخليفةُ عمر بن الخطاب إلى أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، لَمّا عيَّنَه قاضيًا على اليمَن، وهذا نَصُّها: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدِ الله عمرَ أميرِ المؤمنين إلى عبد الله بن قيس؛ سلامٌ عليك. أما بعد، فإن القَضاء فريضة مُحكَمَة وسُنَّة مُتَّبَعة. فافهم إذا أُدلِيَ إليك، فإنه لا ينفع تكلُّمٌ بحقٍّ لا نَفاذَ له. آسِ بين الناس في مجلسك؛ حتى لا يطمَع شريفٌ في حَيفِك ولا يَيأسَ ضَعيفٌ مِن عَدْلِك. البَيِّنَةُ على مَن اِدَّعَى واليَمينُ على مَن أَنكَر! والصُّلْحُ جائِزٌ بين الناس، إلاَّ صُلْحًا أحلَّ حراما أو حرَّم حَلالا! ولا يَمنعَنَّك قَضاءُ قَضيتَهُ بالأَمسِ فَراجَعتَ فيه نَفسَك وهُدِيت لِرُشْدِك أن تَرجِعَ إلى الحقّ؛ فإن الحقَّ لا يُبطِلُه شَيءٌ! واعلم أن مُراجَعَة الحقّ خَيرٌ مِن التَّمادِي في الباطل! الفَهْمَ الفَهْمَ فيما يَتلَجْلَجُ في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنّة. واعرَفْ الأشباهَ والأمثال، ثم قِسْ الأُمورَ بعدَ ذلك، ثم اعْمِدْ لأحبِّها إلى الله وأَشبَهِها بالحقِّ فيما ترَى! اِجعَل لِمَن اِدَّعى حَقًّا غائِبًا، أمدًا يَنتهي إليه! فإن أَحضَرَ بَيِّنَةً أَخَذ بِحقِّه، وإلاّ استَحلَلْتَ عليه القضاءَ!

والمسلمون عُدولٌ في الشَّهادة إلا مَجلودًا في حَدٍّ، أو مُجَرَّبًا عليه شَهادَةُ زُورٍ، أو ظَنينًا في وَلاءٍ أو قَرابَة! إنَّ الله تولَّى منكم السرائرَ ودَرَأَ عنكم بالبِّينات! وإيّاكَ والقَلقَ والضَّجَرَ والتأذِّيَ بالخُصومِ في مَواطِن الحقِّ، التي يُوجب اللهُ بها الأَجْرَ ويُحسنُ الذُّخْر! فإنه من صَلَحت سَريرَتُه فيما بينه وبين الله، أَصلَحَ اللهُ ما بينَه وبين الناس! ومَن تَزيَّن للدنيا بغَير ما يَعلَم اللهُ منه، شَانَهُ الله! فإنَّ اللهَ لا يَقبَل مِن عِباده إلا ما كان خالِصًا! فمَا ظَنُّكَ بثَوابٍ عند اللهِ في عاجِل رِزقِه وخَزائِن رحمته؟! والسلام[111].

تلك مجموعة من القواعد الفقهيَّة التي تُعين القاضي على أداء واجبه، والذي هو ردُّ الحقّ إلى صاحبه. وجماعُ ما هنالك قولُه: 'واعرَفْ الأشباهَ والأمثال، ثم قِسْ الأُمورَ بعدَ ذلك، ثم اعْمِدْ لأحبِّها إلى الله وأَشبَهها بالحقِّ فيما ترَى!' معنى هذا أنّ القاضي، فمَن دونَه من الناس عامَّة، مَأمورٌ بأن يَجتهد، أي بأن يُعمِلَ فكرَه ليَقَع على حُكمِ الله في كل مسألة تُواجهُه. فإذا اطمأنَّ قلبُه فوافق عقلَه، فيما وصلَ إليه بالبحث الدقيق، مِن ردِّ الواقِعة إلى دين الله، وذلك هو ظَنُّه؛ فما عليه أكثر من ذلك. فما الْمُؤمِن بمُطالَب إلا بالاجتهاد وبلوغ ظَنِّ الصواب، لا عين الصواب ب، فإنّ ذلك لا يعلَمُه إلا الله تعالى. لذا قال عمرُ لأبي موسى: 'ولا يَمنعنَّك قَضاءُ قَضيتَهُ بالأَمسِ، فَراجَعتَ فيه نَفسَك وهُدِيت لِرُشْدِك، أن تَرجعَ إلى الحقّ؛ فإن الحقَّ لا يُبطِلُه شَيءٌ! واعلم أن مُراجَعَة الحقّ خَيرٌ مِن التَّمادِي في الباطل!' أي أنّك إذا حكمتَ ثم تبيَّن لك أنَّك مُخطئٌ في حُكمِك ذاك، فارجِع عنه واحكُم في نفس المسألة بما ظهرَ لك من الحقّ.

[111] محمد حميد الله، 'مجموعة الوَثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة' ص 428، دار النفائس.

وهنا مسألة أساسيّة، يجب أن لا تغيب عن ذِهن مسلمٍ قطّ، وهي أنّ: علم الفقه، وكغيرِه من العلوم الشَّرعيَّة قاطبةً، ظنِّيٌّ، أي أنّه لا يَخرُج عن كونه تَخمينًا وحَدْسا في طَلَب حقيقة الأمور. وذلك لكون هذه العلوم كلِّها مبنيّةً على أخبار وأقيسة. فهي مَظنونات لكنَّها تظلُّ علمًا لكونِها متعلِّقةً بحقيقة لا تتعدّاها، أي لتعلُّقِها بيقين جامع وهو الوَحي المقطوعُ بصحَّته بدون أدنَى شكّ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيه﴾ [البقرة 2] ولكنّ العلوم المتعلّقة به تظلُّ محدودةً بغَلَبَة الظَّنّ؛ وهذا كافٍ للعمَل بها، والعبدُ غيرُ مُطالَب بأكثر من ذلك. وهذه الحقيقة ليست خاصّةً بعلوم الذين، بل إنّها تشمَل علومَ البشَر كلِّها؛ فالرياضيّات والفيزياء والطبّ وغيرها، كلُّها ظَنِّيَّة في حقيقتها ولكنّها فعَّالة إلى حدٍّ مّا؛ وهو المَطلوب.

وعليه، فما على مسلِمٍ أن يُدرك الحقَّ في نفس الأمر ولا أن يصل إلى اليقين ولا أن يُقلِّد غيرَه من دون أن يَعلَم مَوضِع ما جاء به من الشريعة. بل على كل فردٍ أن يجتَهد في تطبيق الدين على كل مُقتضيات حياتِه، وذلك بإرجاع مسائلِه كلّها إلى موضعها من دين الله. وأقرب سبيل وأيسرُه إلى ذلك: القواعدُ الفقهيَّة؛ فهي كالأمثال والأشباه التي بها يبلُغ عامَّة الناس لُبَّ مسائلِهم، أي عِلَلَها التي تربطُها بمَقاصد الشريعة. وهذه نُبذة من القواعد الفقهيَّة، مع اقتراحات صيَغٍ أضبَط ممّا هي عليه من حيث المباني والمَعاني، وبيان بعض مصادرها من القرآن أو الحديث مع بيان مجالات تطبيقها:

'الأمورُ بِمقاصِدها' لقوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات وإنّما لكل امرئٍ ما نَوى». وهذه القاعدة خاصَّة بما بين العبد وربِّه، أمّا فيما بين الناس فالذي يُعتبَر إنّما هو ما وَقع لا ما قُصِد. قال رسول الله «إني لم أُومَر أن أَنقُبَ عن قُلوب الناس

ولا أشُقَّ بُطونَهم!»[112] وقد قال عمر بنُ الخطاب: مَن أظهر لنا خيرًا أَحبَبناه ووَالَيناه عليه، وإن كانَت سَريرَتُه بخِلاف ذلك. ومَن أظهرَ لنا شَرًّا أَبغَضْناه عليه، وإن زَعَم أنّ سريرَتَه صالِحَة!

'اليقين لا يُزال بالشكّ' ودليلها قول النبي «إذا شكّ أحدُكم في صلاته فلم يَدْرِ كَم صلّى، أثلاثًا أم أربعا، فليطرَحْ الشكَّ ولْيَبْنِ على ما استَيقَن»[113] فالشّكّ لا يؤثّر على ما ثبتَ، ومنه قوله ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرا﴾ [النور 12] أي: كان عليكم أن لا تقبَلوا قولَ مَن اتَّهم أحدَكم باطلاً حتى تتأكَّدوا من دَعواه، وإلاّ فواجب المؤمنين أن يُحسنوا الظَّنّ بعضهم ببعض؛ وهذا يقين وضدّه شكّ.

'الْمَشقَّة تَجلِب التَّيسير': الأصل في هذه القاعدة آيات كثيرة منها ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرا﴾ [الشرح 6]، وقالت عائشة: ما خُيِّر رسولُ الله بين أمرين، أحدُهما أيسر مِن الآخر، إلا اختار أيسرَهما، ما لم يكن إثما. فإن كان إثما كان أبعد الناس منه[114].

---

[112] خرجه الجماعة عن أبي سعيد الخُدري، وهذه رواية مسلم: قال: بينما نحن عند رسولِ الله وهو يَقْسِم قَسْما، أتاه ذو الخُوَيصِرة، وهو رجل من بني تَميم، فقال: يا رسولَ الله اِعدِلْ! فقال رسولُ الله «ويلَك، ومَن يَعْدِلُ إذا لم أَعدِل؟! ألا تأمنوني، وأنا أمينُ مَن في السماء، يأتيني خبَرُ السماء صباحًا ومساء؟! أوَلستُ أحقَّ أهل الأرض أن يتقَي الله؟!» ثم ولَّى الرجل، فقال خالدُ بن الوليد: يا رسول الله، ألا أَضرِبُ عُنُقَه؟ فقال «لا، لعلّه أن يكونَ يُصلّي» قال خالد: وكَم مِن مُصَلٍّ يقول بلِسانه ما ليس في قلبه! فقال رسول الله «إني لَم أُومَرْ أن أُنَقِّبَ عن قُلوب الناس، ولا أُشقَّ بطونَهم!».

[113] خرجه الجماعة عدا البخاري عن أبي سعيد الخُدري.

[114] خرجه البخاري وغيرُه.

ومثلُها 'إذا ضاق الأمرُ اِتَّسَع'، و'الضَّرورة تُبيحُ الْمَحظورة': أي أنَّ الأمر الذي لا يُمكن دَفعُ شرِّه إلا بارتكاب ما لا يُبيحه الشَّرع عُمومًا فهو جائز، ﴿فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام 119] ولكن بشرط أن لا يتجاوزَ شرُّ الاستباحة شرَّ الحَظْر، وأن لا يكون ذلك إلا استثنائيًّا، حتى إذا زال الاضطرارُ زالت الرُّخصة ﴿مَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة 173] الباغي هنا هو الذي اعتَمَد الوُقوع في ذلك الاضطِرار، والعادي مَن تعدَّى ما تُبيحُه الضرورة التي أصابَته.
'العادَة مُحْكَمَة' أي سارية المَفعول، والصواب أن يُقال: العُرف، لا العادة، كما بيّناه أنفا. ودليله حديث هِند بنت عُتبة التي قال لها رسول الله «خُذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[115]. وصحَّ عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: ما رأى المسلمون حَسَنًا فهو عندَ الله حَسَن، وما رَأَوه سَيِّئًا فهو عند الله سَيِّئ. فالحديث والأثر يدلاَّن على أنه يُرجع إلى العُرف السّائر في الأمر الذي لم يأتِ فيه نصٌّ بيِّن. بالضوابط الواردة أعلاه.
'دَرءُ الْمَفاسِد أولى مِن جلب الْمَصالِح' ومعناها أن يُبتَدَأ بإزالَة الشّر قبل الشروع في الخير. ومنه ما صحَّ عن عائشة حيث قال لها النبي «لو لا أنّ قَومَكِ حَديثُو عهد بجاهِليَّة لأَنفَقتُ كَنزَ الكَعبَة في سبيل الله، ولَجعلتُ بابَها بالأرض، ولأدخلت فيها الحِجْر!»[116] فما منعَه من ذلك إلا ما خَشيَه من رَدَّة فعل القُرَشيِّين الذين يَعتبِرون ذلك مُخالِفًا لِملَّة إبراهيم. ومثلُها 'الضَرَر يُزال'؛ وفي هذا ما يعضُد القاعدة التي قبلَهما: 'العُرفُ مُحْكَم'.

---

[115] خرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن عائشة.

[116] خرجه مالك والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عائشة.

'الأصل في العبادات الْمَنع'، كما أشرنا إليه في القاعدة الأولى. ولذلك جاء التَّحريم مُقارنًا للعبادات، لذا سمّى الله مسجد مكّة الذي يضمُّ الكعبة 'الْمَسْجِدَ الْحَرام' في مواضعَ من القرآن، ومنه تكبيرَةُ الإحرام في الصلاة وغيرها. وذلك لأنّ العبادة لا تكون إلا بإذن الله وبالكيفيَّة التي يَشرعها هو تعالى، لا كما يشتهيه الناس ولو بنيّة حسَنة ﴿مَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً!﴾ [الأنفال 35] الْمُكاء: التّصفير، والتَّصدية: التصفيق، وليس هذا بصلاة يرضاها الله تعالى. فكلّ أمرٍ أريد به التَّعبُّدُ لله ولَم يأتِ بيانُه في القرآن أو السنَّة فهو بدعَة. والبِدَع كلها مُحرمة لقول النبي في الحديث الصحيح عن عائشة «مَن أَحدَثَ في أمرنا هذا ما لَيْسَ منهُ فهو رَدّ!»[117] وفي رواية «مَن عَمِلَ عملاً ليس عليه أمرُنا، فَهو ردّ!»[118] والعَمل هنا خاصّ بالعبادات، كما يبيِّنه قولُه صلى الله عليه وسلَّم «إنّ شرَّ الأمور مُحدَثاتُها، وكل محدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار!»[119]. والإحداث مَعناه اختِراع ما لم يأذَن به الله ﴿قُلْ: أَرَأَيْتُم مَا أَنزلَ اللَّهُ لَكُمْ مِن رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالا؟ قُلْ: آللَّهُ

---

[117] خرجه البخاري ومسلم وأبو داود عن عائشة.

[118] خرَّجه مسلم وأحمد عن عائشة وعلّقه البخاري.

[119] خرجه مسلم والنسائي والترمذي عن جابر، وهذه رواية أبي داود «أُوصيكم بتَقوَى الله والسَّمعِ والطاعة وإن عَبدًا حَبَشيًّا، فإنه مَن يَعِشْ منكم بعدي فسيَرى اختلافًا كثيرًا؛ فعليكم بسُنَّتي وسنّةِ الخلفَاءِ الراشِدينَ الْمَهديِّين، تَمسَّكوا بِها وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذ! وإياكم ومُحدثاتِ الأمور؛ فإنّ كلَّ مُحدثَةٍ بِدعَة وكلَّ بدْعَةٍ ضَلاَلَة!» و خرجه البخاري عن ابن مسعود أن النبي قل «إنّ أحسنَ الحديثِ كِتابُ الله وأحسنُ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّد، وشَرُّ الأمُورِ مُحْدَثاتُها!».

أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ؟!﴾ [يونس 59] ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ؟!﴾ [الشورى 21]. فهذا حرام لا يحلُّ فِعلُه، ولا تنفَع معه النيّة وإن كانت حَسنةً، فإنّها لا تُخرج ذلك الأمر الْمُحدَث عن كونه بدعة وضلالَة وأنّه مَردود على صاحبه. ولا حُجّةَ في شُيوع بِدعة مُحدَثة وانتشارها بين الناس، فإنّ ذلك لا يكون دليلا على مشروعيتها أبدا.

'الأصل في العادات الإباحة'. وهذا يعمُّ كلَّ الْمَصالَح الْمُرسَلَة، أي التي لم يُقيَّدها نَصٌّ شَرعي مَحدود، أمرًا أو نَهيا. ولَمّا كان الدين مبنيًّا على مَصالح الناس، جاز لَهم أن يُحدِثوا ويختَرعوا ما بدا لَهم من أمور تُفيدُهم ما لَم تُخالِفه، وليست من البدعة في شيء. ودليلُه قول النبي «إذا كان شيءٌ مِن أَمر دُنياكم فأنتم أَعلَمُ به، وإذا كان شيءٌ مِن أمْر دينكم فإلَيّ!»[120]. فالْمَصلحة المرسلة جائزة، بل وضروريَّة. لكن يجب التثُّبت من كونها مَصلَحةً بالْمَعنى الشَّرعي أي لا تخالفُ ثوابِتَ الوَحي؛ أي أنَّها لا تَمنَع خيرًا ولا تجلِبُ شرّا.

'الوِلاية الخاصَّة أقوى من الولاية العامة'. وذلك أن الوَلي، أي القَريب من جهة الرَّحم كالوالِد والأم والجدّ والخال، أولَى بقريبه من الحاكم والقاضي والْمُدرِّس وغيرهم، لأنَّهم أقارب من جِهة الدَّم والرَّحم والله يقول ﴿أُولُو الأَرْحَامِ؛ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال 75-الأحزاب 6]. لذا لَم يَحِقَّ لهؤلاء أن يتصرَّفوا، عند وجود الوَلي الخاصّ الذي أهَّلَه الله بالصِّلَة الطبيعيَّة وأيَّده بالسُّلطة الشَّرعيَّة، في حُقوق الأيتام

[120] صحيح خرجه أحمد عن أنس وابن ماجه وابن حبان عن عائشة وابن خُزيمة والدارقطني عن أبي قتادة، وأصلُه في مسلم.

أو المجانين أو غيرهم من مَعطوبين لأنَّهم لا يهتمّون بجلب مصالح هؤلاء ولا دَرْءِ ما يسوؤُهم مع الشَّفَقة، فجعل النظر في أمورهم وأموالهم إلى الآباء والأجداد لأنهم أقوم بذلك من غيرِهم.

ومن القواعد قولُهم: 'لا قِيَاسَ في مُقابل النَّص'، 'الحُكم للغالبِ والنادِرُ لا حكمَ لها'، 'لا عِبرَةَ بالظَّنّ البيِّنِ خَطَؤه'، 'البينة على الْمُدَّعي واليمين على من أنكر'، 'لا عُقوبةَ إلاّ بيقين'، 'الرِّضا بالشيء رضًا بما تولَّد عنه'، 'العِبْرة بما ثبتَ بالشَّرْع لا ما ثبت بالشَّرْط'، 'ما حَرُمَ استعمالُه حَرُم أخْذُه وإعطاؤه'، 'ما لا يُدْرَكُ كُلُّه لا يُترَكُ كُلُّه'، 'فاقِدُ الشيءِ لا يُعطيه'، 'الجزاءُ مِن جنس العَمَل'، 'ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجب'، 'الواجب لا يُترَك إلا لأوجَبَ منه'، الخ.

وبالجُملة فإنّه يُمكِن إلحاقُ كلِّ حِكمة أو مَثل بالقواعد الفقهيّة. فمن ذلك: أَحصَنُ جُـــنَّة لُزومُ السُّـــنَّة، الأَخلاق أنفَس الأعلاق، الخِلافُ للشَّرّ غِلاف، طُلوعُ العُقوق أُفولُ الحُقوق، العَفاف في الكَفاف، مَن لَزِمَ السِّلْمَ سَلِم، إفراطُ السَّخاوة رَخاوة والعَطيَّة بلا رَوِيَّة خَطِيَّة، لِكُلِّ حادِث حَديث، الْمُداراة تُغني عن الْمُباراة، الناس عبيد الخواطر وما كلُّ خاطِر بعاطِر، لسان النصيح سَهلٌ فصيح، كفى بالنَّهْي ناهيا، أدهى الْمَصائب الْمَعايب، الإنصاف خَير الأوصاف، مَن أَفرَط أَورَط، مَن قَصُرَ أَمَلُه طالَ عملُه، ليكن الإقدامُ توكُّلا والإحجامُ تَأَمُّلا. وما إلى ذلك من عِبارات هي في الحَقيقة من الحِكَم النافعة لكلّ مَن أراد خيرًا لنفسه والناس، سواءً كان مسلِمًا أم لا.

***

فروع الفقه

مرّ معنا أن أصولَ الفقه وقواعدَه تَبحثُ في الأُطُر الشاملة التي تُدير أحوال المسلِم، أما فروع الفقه في الاصطِلاح فهي: العلم بالأحكام الشرعيّة العَمَليّة الْمُكتَسَب مِن أَدلَّتها التفصيلية. الأدلة جمع دليل، وهو ما يقود إلى ما يُبتغَى. والتفصيلية هي الجُزئية الخاصة بكل مسألة فقهية، مثل آية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ...﴾ [المائدة 3] الدالَّة على تحريم ذلك. فإذًا علمُ فروع الفقه يدرُسُ تطبيقَ النصوص الشرعية المتعلِّقة بالعبادات والتَّصرُّفات اليوميّة وفقَ النِّظام الشامل الذي وَضعه الله لعباده، والذي جاءَ مُفصَّلا في القرآن والسنَّة، أو ما يُستَوحَى منهما بالقياس الصحيح. فهو تَحصيلُ كيفيَّة العبادات والْمُعاملات بالتَّفصيل وَفق ما جاء به الشَّرعُ. وقد بيَّن أبو حامد الغزالي أنّ هذا الحَصر لَم يكن ي بداية الإسلام، وإنّما هو تصرُّفٌ من فُقهاء رَسميِّين أَحدَثوه في بداية العَهد العباسي، ثمَّ كُرِّس فخَصُّوه بالفَتاوَى الُمستخرَجة من دلائلها وعِلِلها.

أمّا طِبقًا لِما تقدّم بيانُه في مَعنى الفقه الأصلي، أي في القرآن والسنَّة، فإنه يشمَل جميعَ الأحوال والأعمال، الخَفيَّة منها والظاهرة. نعني بالخَفيَّة أعمال القُلوب كالإيمان والرياء، والوجْدانية كالْمَحبَّة والخَوف، والأخلاقية كالعِفَّة والشجاعة، وكذا الأمور النفسانية كالنيَّة والظَّنّ، وما إلى ذلك. وتلك كلُّها شؤونٌ غير مَلموسة، قد يعلَمها الناسُ من خلال آثارها، وقد لا يعلمُها أحدٌ إلا الله. أمّا الأعمال الظاهرة، فمنها

العِبادات كالصلاة والصوم وغيرهما، والْمُعامَلات كالأطعمة والبيع والزَّواج وما يتعلَّق بها من قريب أو بعيد كالقَضاء والسياسة.

فمَجال علم الفقه هو معرفةُ ما للإنسان من حُقوق وما عليه من واجبات في كلّ آن وحين؛ بقَصْد دَفع الشَّر وجَلب الخير في الحياة وبعدَ الْمَمات. علمًا بأنّ الدُّنيا دار عمَل وجزاء وأن الآخرة دار جزاءٍ فقط. فالفقه في الحقيقة يعمُّ البَحث في نصوص التَّنزيل والسنَّة وآثار القرون الثلاثة الفاضِلة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى البَحث في دقائق النفس الإنسانيَّة سواءً الخاصَّة أو طِباع الناس عُمومًا وفي كل عَصر ومِصر.

فموضوعه تصرُّفات الْمُكَلَّف، أي الإنسان العاقل القادر من جِهة كونه مُخاطَبا بالشَّرع، وُجوبًا أو نَدْبا وما يَحِلّ له وما يَحرُم عليه. وكلّ ذلك راجع إلى بيان الحالَة التي يكون فيها الإنسان وما يُقيِّدها أو يُطلِقها من خطاب شَرعي يَجبُ علمُه ومُراعاتُه. ومَن لَم يكُن مُكلّفا، كالْمجنون والصبِيّ وفاقد الوَعي، فإنّ أمرَه راجع إلى الوَلِيّ الذي يكفُله. بدراسة الفِقه تحصُل مَلكة إدراج الأفعال في إطار الشرع، أي القيام بها وفقَ ما يُرضي الله تعالى. فهو علمٌ عَمَلي، ولكنَّه ليس بقَطْعيِّ الثُّبوت، أي أنّه مَبني على الظنّ لا على اليقين. لذا كانَ مَحلاًّ للاجتِهاد، واختَلفت فيه مَذاهبُ الفُقهاء.

الاجتهاد في الفِقه هو بَذْل كلِّ مُكلَّفٍ كلَّ جُهدِه العَقلي لِمُوافقَة حُكمِ الله في مسألة يواجِهها. فعلى كلّ مَن له عَقل أن يَجتَهد ولكلّ مسألة اجتهادها الخاصّ. لكنّ هذا اللَّفظ قد حُرِّف أيضًا إلى مَعنىً آخَر، فصار الاجتهادُ خاصًّا بطبقة من العلماء دون غيرهم من الناس. ثم انقسم الفقهاءُ طائفتَين: أهل الرأي، وعلى رأسهم أبو حنيفة النُّعمان بالكوفة، وأهل الحديث وعلى رأسهم مالك بن أنس بالمدينة. ثم جاء من بعد

مالك محمد بن إدريس الْمُطَّلبي الشافعي فمزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب وخالف الطائفتَين وأسَّس مَذهَبه بِمصر. ثم جاء أحمد بن حنبل وكان من المحدِّثين فاختصَّ أتباعُه بمذهبِه في الفقه والعَقيدة. ومع كَثرة المجتهدين عبر العُصور إلا أنّ الحكومات المتتالية حملَت المسلمين على تقليد هؤلاء الأربعة دون غيرهم، بل وسدُّوا في آخِرِ الْمَطاف بابَ الاجتهاد بالكلِّيَّة، وهم يدَّعون زُورًا تفاديَ الفساد.

التَّقليدُ هو قَبول قولَ الغير مِن غير حُجَّة، أي من دون البَحث عن البرهان الشَّرعي الذي جعلَه يقول ما قال في مسألة مّا. ولكن هذا لا ينطبق على الرسول بل العمل بقولِه طاعةٌ واجبة: ﴿قُلْ: يَاأَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا... فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ!﴾ [الأعراف 158] فهو اتِّباعٌ لا تقليد. أما التقليد فليس من الفقه في شيء، بل هو مذمومٌ لِمُخالفتِه الأصليّة لِما أنزلَه الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ! قَالُوا: حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا!﴾ يكفينا دينُ آبائِنا ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ؟!﴾ [المائدة 104] أي أتقتدون بآبائكم ولَو كانوا جُهّالاً لا علمَ لهم بشيء مِن سُبُل الهُدى والرشاد؟! بل هذا ما لا يقبَلُه العقل! لذا نهى هؤلاء الأئمة الأربعة وغيرُهم من العلماء الرَّبَّانيّون الناسَ عن تقليدهم. ولم يوجب الله تقليد أحد من الصحابة فمَن دونَهم فضلا عن آحاد العلماء. بل واجبُ كلّ مسلِم اتِّباعُ ما جاء به الكتابُ والسنَّة. وإن جاز الأخذ بأقوال المجتهدين في زمَن لم تكُن دواوين الأحاديث والأخبار الصحيحة مَوجودةً، فهذا عُذر قد سقط منذ أن دوَّن أهلُ المعرفة بالسُّنن حديثَ رسول الله وأغنَوا الناس عن الأخذ بأقوال أناسٍ مثلهم.

يقول أبو محمد عليٌّ ابنُ حَزم القُرطُبي مُبيِّناً لِمعنى التقليد ومُحدِّدًا لزمان حُدوثه بدقّة: بِدعةُ التّقليد إنّما حَدثت في النّاس وابتُدئَ بها بعد أزْيَد من مائة وثلاثين عاما بعد وَفاةِ رسول الله. و لم يكن قطُّ في الإسلام، قبلَ الوقت الذي ذكَرنا، مسلِمٌ واحِدٌ فصاعِدًا على هذه البِدعة ولا وُجِد فيهم رَجلٌ يُقلِّد عالِمًا بعينِه، فيَتَّبِعَ أقوالَه في الفُتْيا؛ فيأْخُذَ بها ولا يُخالِف شيئًا منها[121]. يشير ابنُ حَزم إلى حادثة وقعت عامَ 757 وهي أن أبا جعفر المنصور، ثاني خلفاء العباسيِّين، دعا في حجِّه تلك السّنة بعضَ علماءِ السُّنّة لِيُصبحوا أئمَّةً يُضاهون أئمَّة أهل البيت. وذلك رجاءَ أن يتملَّص من قبضةِ الفُرس الذين ابتَدعوا الإسلامَ الشِّيعيَّ القائمَ على الإمامة بالوِراثة كأساس يقوم عليه الدينُ. والفُرس هم الذين أَوْصلوا بني العباس إلى الخلافة، وهَيمنوا عليهم في بداية دولتهم.

يدلُّنا التاريخ على أن العباسيّين لَم يُحصِّلوا الخِلافة ولا وَصلوا إلى سُدّة الحكم إلا بمساعدة الفُرس الذين قَضَوا على الخلافة الأمويَّة، وذلك بقيادة أبي مسلم الخُرَساني. فلمّا اشتدّ ضَغطُهم وتأثيرُهم على السياسة العباسيّة استعمَل أبو جعفَر الْمَنصور حيلةً للتملُّصَ منهم ولِحمايَة مُلكِه، فعزَّزَ العربَ حَملَةَ السُّنة لِيُقاوِم بهم الفُرسَ دُعاةَ التَّشيُّع. ولا يمنع هذا من أن يكون هناك سببٌ آخر، دنيوي كالأوّل، وهو وَضعُ نِظام تشريعيّ مُوحَّد يكون قَانونًا يَضبِطُ الرعيّةَ عبرَ بلاد الإسلام. ولَمّا غلبَت فكرةُ الإمامة الشّيعيَّة على المنصور، رأى من البديهي تنصيبَ أئمّة من أهل السنّة يقابلون أهلَ البيت. فبدأ بِمالك بن أنس، أجلِّ علماءِ المدينة، بل والحِجاز قاطبةً، حينئذ.

[121] 'الإحكام في أصول الأحكام' 303/2، الكتب العلمية.

قال ابنُ سَعد: أخبرنا محمد بن عمر قال: سمعت مالك بن أنس يقول: لَمّا حَجَّ المنصورُ دعاني، فدخلتُ عليه فحادَثته وسألني فأجبتُه، فقال: إنّي قد عَزَمتُ أن آمُرَ بِكتُبك هذه التي وضعتها، يعني الْمُوَطَّأ، فتُنسَخَ نُسَخًا، ثم أبعثَ إلى كُلّ مِصرٍ مِن أمصارِ المسلمين بنُسخَة وآمُرَهم أن يَعمَلوا بما فِيها، لا يتعدَّوْه إلى غيره، ويَدَعوا ما سِوَى ذلك مِن هذا العِلم الْمُحْدَث؛ فإني رَأيتُ أَصلَ العِلم رِوايةَ المدينة وعِلمَهم! فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، لا تَفعَلْ هذا؛ فإنّ الناسَ قَد سِيقَتْ إليهم أَقاويلُ وسَمِعوا أحاديثَ ورَوَوْا رِوايات، وأَخذَ كلُّ قَومٍ بِما سِيقَ إليهم وعَمِلوا به ودَانُوا به، مِن اختِلافِ الناس وغَيرِهم، وإنّ رَدَّهم عَمّا اعتَقَدوه شَديدٌ؛ فدَعِ الناسَ وما هُم عليه، وما اختارَ أهلُ كلِّ بَلَد منهم لأنفُسهم! فقال: لَعَمري، لو طاوَعتَني على ذلك لأَمرتُ به![122].

لكنّ رَفضَ مالكٍ لم يُثنِ أبا جعفر المنصور من إحداث التَّقليد ونشرِه في البلاد. فأعداد هائلة مِن طلبة الدنيا قصدوا مالكا؛ ليُصبحوا علماءَ بدورهم ويَحتلّوا الْمَناصب الرسميّة. قال سفيان الثوري لتلاميذه، وهو مَن هو عِلمًا ووَرَعا: لولا أن للشيطان فيه نصيبا ما ازدحَمتُم عليه! يعني العلم. فما يطلب أكثرُ الناس العلمَ إلا طلبًا للدنيا، فازدَحموا وتنافسوا لينالوا الشرفَ ومناصب العُلماء، إلا مَن رحم الله. وكذلك كان، ففي نفس سنة 757م نشأ التقليدُ وتحزّب الناس وتعصّبوا، وأُحدِثَت هيئاتٌ رسمية تُشرف على أمور الدين، وأُضفِيَت على بعض العلماء قداسةٌ ليست من الإسلام في شيء، وتشيَّع لهم الناسُ، كما فعل الرافضةُ بأهل البيت حين غَلَوا فيهم

[122] 'الطبقات الكبرى، القسم المتمم' ص440، مكتبة العلوم، المدينة.

وادَّعَوا فيهم العِصمةَ وسلّموا لَهم أمرَ دينهم ودنياهم. فقام الناسُ يدْعون إلى أئمَّة السُّنة؛ من ذلك قولُ إسماعيل بن عياش، وكان من أهل الشام: كان الناسُ -يعني أهلَ الشام- يقولون في سنَة أربعين ومائة، أي 757: الأوزاعيُّ هو اليومَ عالِمُ الأمَّة!

فأوّلُ مَذهبٍ فِقهي رَسمي ظَهر في الإسلام المذهبُ المالِكي، وذلك قبل نشأة الْمذهب الحنفي، وإن كان مالك بن أنس، الْمُتوفَّى عامَ 795، أصغرَ سنًّا من أبي حنيفة النُّعمان بن ثابت الْمُتوفَّى عامَ 767. أمّا مؤسِّس المذهب الحنفي فليس أبا حنيفة، بل هو القاضي أبو يوسف يعقوب الكوفي تلميذُ أبي حنيفة، وذلك بعد أن ولاّه الخليفةُ العباسي المهديُّ القضاءَ عام 783. قال ابن حَزم: مَذهبان انتَشَرا في بَدءِ أمرِهما بالرِّياسَة والسُّلطان: مذهبُ أبي حنيفة؛ فإنّه لَمّا وُلِّيَ قَضاءَ القُضاةِ أبو يوسُف يَعقوب، صاحبُ أبي حَنيفة، كانت القُضاة مِن قِبَله، من أقصَى الْمَشرق إلى أقصَى إفريقِيّة. فكان لا يُوَلِّي إلاّ أصحابَه والْمُنتَسِبين لِمَذهَبه. ومَذهَب مالكٍ عندنا بالأندلس؛ فإن يَحيى بن يحيى الليثي الْمَصمودي كان مَكينًا عند السلطان مَقبولَ القول في القُضاة، فكان لا يُولَّى قاضٍ في أقطار بلاد الأندلس إلا بِمَشورَتِه واختياره، ولا يُشير إلاّ بأصحابه ومَن كان على مذهبه. والناس سِراعٌ إلى الدنيا؛ فأقبلوا على ما يرجون بلوغَ أغراضهم به. على أنّ يَحيَى لَم يَلِ قَضاءً قطُّ ولا أجابَ إليه، وكان ذلك زائدًا في جَلالته عندهم وداعياً إلى قَبول رأيه لَديهم... وكذلك جرَى الأمر في إفريقية لمّا ولِيَ القضاءَ بها سُحنونُ بن سعيد. ثم نشأ الناسُ على ما انتشر![123].

---

[123] نقله بسنده ابنُ سعيد المغربي في 'الْمُغرب في حُلي الْمَغرب' 164/1، دار المعارف.

قام حُماةُ المِلَّة لِصدّ هذه الهَجمة ولردِّ هذه البدعة؛ منهم عبد الرحمن بن مهدي، قال 'أئمةُ الناسِ في زمانِهم أربعة: سفيان الثوري بالكوفة ومالك بالحجاز والأوزاعي بالشام وحمّاد بن زيد بالبَصرة!' وهذا تقسيم جُغرافي دقيق قصدَ به التقليلَ من بدعة التقليد ليبقى أمام الناس الخيارُ. وابن مهدي عظيمُ القدر عند أصحاب الحديث وشهادتُه مَقبولة، فإنه قد أخذ عن مالك والثوري، وكان يُجلُّ الأوزاعيَّ كثيرًا وإن لَم يلتَقِ به. لا شك أن هؤلاء الأربعة ذَووا نصيب وافِر من العلم بالكتاب والسنَّة والآثار، وعلى درجة عالية من العقل والورع. لكنّهم لم يكونوا مَعصومين ولا كانوا أعلَم الناس ولا أعقلَهم ولا أورَعهم إطلاقا. لا يوجَد في الناس مَن هو خيرُهم جميعا، ففضلُ الله أوسع من ذلك ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم!﴾ [يوسف 76].

لَم يُخلِ الله الدُّنيا قبلَ هؤلاء وفي زمنهم ومِن بعدِهم من فُقهاء أجلاَّء علمًا وعملا. لكن لم تُنقل عنهم مَذاهبُ لقلّة التلاميذ؛ كما قال الشافعي عن الليث بن سَعد المصري 'كان اللَّيث أفقهَ من مالكٍ إلا أنّه ضيَّعه أصحابُه!'، أو لِمنع الحُكام من ذلك، كما وقع لأبي عَمرٍو الأَوزاعي الذي عارض الحُكمَ العباسيّ. الحاصل أنه حدثَ نوعٌ من الغَربلَة التِّلقائيَّة، إن صحَّ التعبير، فاندَثرت المذاهب التي قلَّ أنصارُها وبقيت تلك التي حظِيت بما أعانها على البقاء والانتشار؛ وتلك هي الْمذاهبُ الأربعة: الحَنَفي والمالكي والشافعي والحَنبَلي.

فلا تَظُنَّ أن لأئمّةِ المذاهب السنّية يدًا في بدعة التَّقليد، بل الصحيح الذي لا شكَّ فيه أنهم بَريئون منها. فإنّ مالكًا لَم يسمَع قطُّ بشيء اسمُه 'المذهبَ المالِكي' وقد نَهَى المنصورَ، كما رأينا، وأخبره بأنّه لا يصلحُ لا هو ولا غيرُه لأن يكون مرجعًا للناس

كافّة، وقد تركها كلمةً تشهد له بالبراءة التامَّة من التقليد والمقلِّدة، فقال: كلُّ أَحَدٍ يُؤخَذُ مِن قولِه ويُترَك، إلاّ صاحبَ هذَا القَبْرِ! وأشار إلى قبر النبيّ عن يمينه في المسجد النبوي، حيث كان معلِّما. وقال الشافعي: إذا وَجدتُم في كتابي خِلافَ سُنّةِ رسول الله، فقولوا بسنّة رسول الله ودَعوا ما قُلتُ! وعن أبي داود السِّجِسْتاني، صاحِب السُّنن، قال: قلتُ لأَحمَدَ بنِ حَنبَل: الأَوْزاعِيُّ هو أَتْبعُ مِن مالِك؟ قال: لا تُقَلِّدْ دينَك أحدًا من هؤلاء؛ ما جاء عن النبيِّ وأصحابِه فخُذْ به، ثم التابعيُّ بعدُ الرجلُ فيه مُخَيَّر!

فرحِم الله القومَ وبرَّأهم مِن أصحابِ الأهواء الذين ينتسبون إليهم زورا. ثم يومَ القيامة يظهَر الحقُّ وتَبطُل دعاوَى الكاذبين ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا!﴾ [البقرة 166] وهم أيضا بريئون من ذَمِّ أعدائهم، فكم مِن مُقلِّد يتعصَّب وتأخُذُه حميَّةُ الجاهليَّة وهو يظنُّ أنَّه يَذُبّ عن الدين الذي جاء به النبيُّ من عند الله، وهو في الحقيقة يهدمُه وهو لا يشعُر، وكما قيل: يصنعُ الجاهلُ بنفسه ما لا يصنَع العدوُّ بعدوِّه! لذا نَجِد كلَّ مُقلِّد يذمُّ مَن خالَف إمامَه؛ فالحنفيُّ يذمّ الحَنابلة، والمالكيُّ يذمّ الشافعيَّةَ، والحنبليُّ يذم الأحنافَ، والشافعيُّ يذمُّ المالكيَّة، وهكذا، إلاّ مَن رحم الله. ثم ما كان دينُ الله بِمَحلٍّ للسبّ والشَّتْم. حاشَى لله، فقد نهَى القرآنُ عن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ!﴾ [الحُجُرات 11] وقال النبي «الْمسلمُ مَن سَلِمَ الناسُ مِن لِسانه ويده»[124]. لَم يَكُن النبيُّ سَبَّابًا ولا فَحَّاشًا ولا لَعّانا، ولا كان يفضَح الناسَ. لكن إذا رأى شيئًا يخالفُ

[124] متواتر عن عدد من الصحابة وهو في جميع دواوين السنَّة. قل السخاوي في 'المقاصد الحسنة': مُتّفَق عليه عن ابن عمرو وأبي موسى وعند مسلم عن جابر، وفي الباب عن أنس بزيادة «والمؤمن من أمنه الناس»، وعن بلال وعمرو ابن عبسة وفضالة ومعاذ والنعمان بن بشير وأبي هريرة وآخرين.

الصوابَ قال «ما بَالُ أقوامٍ يقولون كذا وكذا، أو يقولون كذا وكذا؟»[125] دون ذِكر اِسمِ أحَدٍ، ثم يُبيِّن الصوابَ للجميع. فليس من آداب الدين الشَّتم ولا الفُحش، ولكن إذا أراد المسلم أن يُعاتِب بحقّ، فليقتَدِ برسول الله وكفاه!

أقلُّ ما يُقال أنّ الْمُقلِّدة ليسوا بِمُتَّبِعين للدين كما ينبَغي، وكذلك علماؤُهم، الذين يَتناقلون مَذاهبَ يفرِضونها على الناس ويُشرِّعون دينًا غيرَ الذي أذِن به الله وجاء به الرسول، فإنّهم ليسوا بفُقهاء عند الله. بل هؤلاء جميعًا من عامَّة الناس الذين لا خيرَ في مُوافقَتهم؛ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ، يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّه! إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُون!﴾ [الأنعام 116] أي يقطعون بأمور تخمينًا ولا عِلمَ لهم بها. قال ابنُ فارس: الخَرْص هو الحَزْر. والخرَّاصُ: الكذّاب. وهو مِن هذا، لأنّه يقول ما لا يعلم ولا يَحقّ. ومنه قولُه ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ، وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّون. فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُون: هَذَا مِنْ عِندِ اللَّه! لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا؛ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُون! وَقَالُوا: لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَة! قُلْ: أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا، فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُون؟! بَلَى، مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون!﴾ [البقرة 78-80].

فالتَّمذهُب ليس من الدين، بل هو مُناقضٌ تمامًا له لأنّه تفرقَة، وحاصلُه أنَّه تَقليدٌ للآباء ولآراءِ الغير بناءً على ظَنّ في غير محلِّه ﴿وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ

---

[125] تقدّم تخريجه عن الأسود بن سريع وعن ابن عباس وعن أبي سعيد الخُدري.

السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورا!﴾ [الفتح 12] أي هالِكون. وذلك لأنهم خاطئون آثِمون، قلّدوا دينَهم غيرَهم، وهذا معنى التقليد لُغةً؛ فيقال: تَقَلَّدَ السَّيف أي علّقه بجنبه، والقِلادة ما يُعلَّق في العُنُق. الحاصل أنَّهم علّقوا دينَهم بأُناس أفاضوا عليهم قَداسةً تناقض التوحيدَ من أصلِه، وكأنَّ ﴿لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّه!﴾ [الشورى 21]. فانجرَّ عن ذلك الفُرقة والحُرقة ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا، لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْء!﴾ [الأنعام 159] أي أنت، أيّها النبيُّ، بريءٌ منهم. تقول العرب: إن فعلتَ كذا فلستُ منك ولستَ مني! أي كلٌّ واحد مِنّا بريءٌ مِن الآخر. قال فخر الدين الرازي في تفسير الآية: أنت منهم بريءٌ وهم منك بُرآء، وتأويله: إنك بعيد عن أقوالهم ومذاهبهم، والعقاب اللازم على تلك الأباطيل مَقصورٌ عليهم ولا يتعداهم. وقال عبد الرحمن الثعالبي: أي لا تَشفَع لهم ولا لهم بِك تعلُّق، وهذا على الإطلاق في الكفَّار وعلى جهة الْمُبالَغة في العُصَاة. وقال عبد الرحمن السَّعدي: دلّت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتِماع والائتِلاف، وينهَى عن التفرُّق والاختِلاف في سائر مسائله الأصليّة والفرعية. فأمرَ اللهُ النبيَّ أن يتبرَّأ مِمّن فَرّقوا دينَهم وأنّه ليس منهم وليسوا منه، لأنهم خالفوه. وقال أبو جعفر الطبري: الصوابُ أن قوله ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْء﴾ إعلامٌ من الله لنبيّه محمد أنه مِن مُبتَدِعَة أُمّتِه، الْمُلْحِدة في دينه، بَريءٌ. وقال القُشَيري: اِتّفَقوا بأَبدانِهم وَافترَقوا بقُلوبهم؛ فكانوا مُجتَمعين جَهْرًا بجَهر، مُتفَرِّقين في التحقيق سِرًّا بِسرّ. فلا شيءَ يجمعُك، يا محمّد، وإياهم؛ فشِقُّكَ شقُّ الحقائق وشِقُّهم شِقُّ الباطل، ولا اجتماع للضدين. وأقوال المفسِّرين كثيرة في بيان معنى هذه الآية وغيرها

التي تُبيِّن حقيقةَ هذه الظاهرة الْمَقيتة والتي هي التَّقليدُ الأعمى الذي ينجرُّ عنه التفرُّق والتباغُض ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ!﴾ [البقرة 217].

فواجب كلِّ عاقِلٍ ناصِحٍ لنَفسه أن يتمسَّك بما جاء به محمَّد من عند الله، وأن يتبرَّأ من هؤلاءِ الذين ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون!﴾ [الروم 32] قال النبي عليه الصلاة والسلام «عليكم بِسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الراشِدين الْمَهديِّين؛ تَمسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذ! وإيّاكم ومُحْدَثاتِ الأُمورِ؛ فإنَّ كلَّ مُحدثَةٍ بِدْعةٌ وكلَّ بدْعَةٍ ضَلاَلَة!»[126]. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

[126] خرجه أبو داود والترمذي عن العِرباضِ بن ساريَة.

علم الكلام

مُجرَّدُ اسم هذا العِلم يدلُّ على طابعه السِلبيّ. وذلك لكَونه ردَّةَ فعل أمام افتِراق الأمَّة لأسبابٍ داخليّة، من انقِسامات سياسيّة وفِكريّة، أو لأسباب خارجية كهَجمات أهل الكتاب والفُرس لنَقض عُرَى الإسلام. نشأ هذا العلم لسبَبين: أحدهما تفهيمُ أصول الإسلام، ولكن بطريقة غير التي جاء بها النبي، والآخر مُحاولة الدفاع عنه. وفي كلتا الحالَتين بِمُجرَّد الكلام، لا غير؛ لذا سُمِّيَ بعلم الكَلام. وهو شبيه إلى حدٍّ بعيد جدًّا بِما يسمِّيه الْمَسيحيّون 'ثيولوجيا'. وهذه اللَّفظة مُركّبة مِن (theos) الرَّب و(logos) الكلام؛ فمعناها 'الكلام عن الرَّبّ'. وذلك علم الكلام، فموضوعه دراسةُ الله تعالى لإثبات ما يجبُ اعتِقادُه فيه ودَفعِ ما لا يجوز اعتِقادُه. وذلك بالاعتماد على العَقل والْمَنطق لإيراد الحُجَج الإيجابيَّة أو السِّلبيَّة عند الحاجة.

وحاشَى لله أن يكون مَوضوع دراسة بالعَقل والْمَنطق والقياس، بل المطلوب أن يكون مَقصَد عبادة وإخلاص. أما غير هذا فلا مُستَنَدَ له لا في القرآن ولا في السنَّة. كيف والقرآن يناقضُه من أوّل الأمر: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيم... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير﴾ [الشُّورى 11] لم يقل: ليس مِثلَه شيء، بل أدخَل كاف التشبيه على الْمَثيل فقال: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لينفيَ الكيفيَّة نفيًا مُضاعَفا؛ فلا شبيهَ ولا مثيل؛ وهو مع ذلك سميعٌ وبصير. فإذًا سمعُ الله وبصرُه وكذا صفاتُه الواردة في القرآن والسنَّة لا تُقاس بصفات الخَلق؛ وهذه حقيقة الإيمان. يقول الأمير عبد القادر:

قد قيَّدتكم عوائدُ وثَـــبَّطكم	تقليدُ مَن يمشي صَوبَ غُمّة التلف
يا من غدا عابدا لفكره أَفِـــق	فأنت يا غافلا على شفى جرف
جعلت عقلك هاديا ونور هدى	أضلك العقل أيقن أنت في تلف
نحتت ربا كما تهوى فُتنتَ به	تظل تعبد ما خلقت في شغف
تقول ليس كذا وليس هو كذا	الحق في طرف وأنت في طرف
وكيف تنكر وصفَه، حقيقتَه؛	نفيتَ ما أثبت القرآن في صحف
لا شك أنك يوم الحشر تنكره	إذا تجلّى لجمع الخَلق في الْموقِف
عليك بالشرع فالزم طريقته	فحيثما ما سار سر وإن يقف فقف

لقد نهى القرآنُ عن إقحام العقلَ في وصف الله تعالى: ﴿لا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ!﴾ [النحل 74] منعًا للإشراك أو التشبيه به تعالى، لأنّ مَن يضرب الأمثال يُشبِّه الصفةَ بالصِّفة والحالَ بالحال؛ ولو كان ذلك بقصد الدفاع عن الدين: ﴿مِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيد!﴾ [الحج 3] فنهى عَن الخِصام في الله، أي الدّفاع عنه تعالى بالجَهل وبالهوى وبالحَمِيَّة والعَصبيَّة. بل يكفي المؤمنَ الصادِقَ ما جاء من أوصافٍ لِلّه في القرآن والحديث. وذلك بدون تأويلٍ ولا تشبيهٍ ولا تَعطيل، بل بأخذ تلك النصوص كما هي وتسليم حقائقَها إلى صاحبِها سبحانه وتعالى. ذاك الذي يجب الْتِزامُه في الدفاع عن الدين ونُصرة الله؛ ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِذْ قَالُوا... قُل: اللَّهُ! ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُون!﴾ [الأنعام 91].

وقد ذمَّ هذه الجَدليَّة العَقيمة جماعةٌ من أساطين العُلماء وعُقلاء الأمّة، بل وأنكروا أن يكون علم الكلامُ علمًا بالمرَّة. فمن هؤلاء أبو حامد الغزالي الذي يقول: إن قُلتَ لِمَ

لَم تُورِدْ في أقسام العلوم الكلامَ والفلسفةَ وتُبيِّن أهما مَذمومان أو مَحمودان؟ فاعلَم أنّ حاصلَ ما يشتمل عليه علمُ الكلام من الأدلّة التي يُنتفَع بها؛ فالقرآنُ والأخبار مُشتملةٌ عليه. وما خرج عنهما فهو إمّا مُجادلة مَذمومة، وهي من البِدَع. وإما مُشاغَبَةٌ بالتَّعلُّق بِمُناقَضات الفِرَق وتطويلٌ بنَقْل الْمَقالات التي أكثرُها تُرَّهاتٌ وهَذَيانات تَزدَريها الطِّباعُ وتَمُجُّها الأسماع. وبعضُها خَوضٌ فيما لا يَتعَلَّق بالدين، ولَم يَكُن شيءٌ منه مَألوفًا في العَصْر الأوَّل. وكان الخَوض فيه بالكلِّيَّة مِن البِدَع، ولَكن تَغيَّر الآنَ حُكمُه، إذْ حَدَثَت البِدعَة الصارِفَة عن مُقتَضَى القُرآنِ والسُّنّة، ونَبَغَت جَماعةٌ لَفقّوا لَها شُبَهًا ورتَّبوا فيها كَلامًا مُؤلَّفا؛ فصار ذلك الْمَحذُور، بِحُكمِ الضَّرورة، مَأذونًا فيه. بل صار مِن فُروض الكِفايات؛ وهو القَدْرُ الذي يُقابَلُ به الْمُبتَدِعُ إذا قَصَدَ الدَّعوَة إلى البِدعَة. وذلك إلى حد محدود...[127]

عِلمًا بأنَّ الغزالي نفسَه قد وقع قبل ذلك في تلك الوَرطة. فإنّنا نَجده يقول مثلاً: ...النَّظَر في ذات الله تعالى، وفيه عَشْر دَعاوَى. الدَّعْوَى الأُولى: وُجودُه تَعالى وتَقدَّس. بُرهانُه أنّا نَقول: كُلُّ حادِثٍ فَلِحُدوثِه سَبَب، والعالَمُ حادِث؛ فَيَلزَم مِنه أنّ له سَبَبا. ونعني بالعالَم كلَّ مَوجودٍ سِوَى الله تعالى، ونَعني بكُلِّ مَوجودٍ سِوى الله تَعالى الأجسامَ كلَّها وأَعراضَها. وشرحُ ذلك بالتفصيل: أنّا لا نَشُكُّ في أَصْل الوُجود، ثم نَعلم أنّ كلَّ مَوجودٍ إمّا مُتَحَيِّزٌ أو غيرَ مُتحيِّز، وأن كلَّ متحيزٍ إن لَم يَكن فيه اِئْتِلافٌ فنُسَمِّيه جَوْهَرًا فَرْدًا، وإن اِئتَلَف مِن غيره سَمَّيناه جِسْما. وأنّ غيرَ

[127] 'إحياء علوم الدين' 22/1، دار المعرفة.

الْمُتَحَيِّز إما أن يَستَدعِيَ وُجودُه جِسْمًا يَقومُ به، فنُسَمِّيه الأَعْراض، أو لا يَستَدعيه، وهو: الله سُبحانَه وتعالى، فأما ثُبوت الأجسامِ وأعراضِها فمعلومٌ بالْمُشاهَدة. ولا يلتفت إلى مَن ينازِع في الأعراض، وإن طال فيها صياحُه وأخذَ يلتمِس منك دليلاً عليه، فإن شَغَبَه ونِزاعَه وَالْتِماسَه وصياحُه: إن لم يكن مَوجودا، فكيف نشتغِل بالجواب عنه والإصغاءِ إليه؟ وإن كان موجودًا فهو لا مَحالةَ غيرُ جسمِ الْمُنازِع، إذْ كان جِسمًا مَوجودًا مِن قَبل ولَم يكن التنازعُ موجودا! فقد عرفتَ أن الجِسم والعَرَض مُدرَكان بالْمُشاهَدة. فأمّا مَوجودٌ ليس بِجِسمٍ ولا جَوهرٍ مُتحيِّز ولا عَرَضَ فيه، فلا يُدرَك بالحِسّ. ونحن نَدَّعي وُجودَه وندَّعي أنّ العالَمَ مَوجودٌ به وبِقُدرتِه؛ وهذا يُدرَك بالدَّليل لا بالحِس[128] ثم راح الغزالي، على غِرار أقرانه، يبرهن على وُجود الله! هذه عَـــيِّنة صغيرة تُظهِر حقيقةَ ما سمَّوه ’علم الكلام‘؛ هو كلامٌ بلا شكّ ولكنَّه مُشكِلٌ غيرُ واضح، قد اختلطت فيه مسائلُ الدين بمسائل الفلسفة، والْمَنطق منها خاصّة، وليس وراءَه نَفعٌ ولا طائل. لذا ظَلّ أصاحبُه ينجرّون وراءَ مُقدِّماتٍ ونتائجَ في مسائلَ تتعدّى طَور العَقل! وإلا فكيف يحتاج الله إلى برهان على وجوده؟!

بل تفنَّنوا في أنواع البراهين إلى أن أحدثوا ما سمَّوه ’دلالة اللزوم‘، ويعنون بها لُزومَ الْمُسبَّب لسبَبِه وارتباطَه به حَتمًا، وضربوا لله مثلاً فقال قائلُهم: أليس البَعرة تدلُّ على البَعير والأثَرُ يدل على الْمَسير؟ فسماءٌ ذاتُ أبراج وأرضٌ ذات فِجاج، ألا تدلُّ على اللطيف الخبير؟! سبحانَ ربّي وتعالى عمّا يقولون علوًّا كبيرا؛ وما أركّ هذه التعابير وما

---

[128] ’الاقتصاد في الاعتقاد‘ ص 24، الكتب العلمية.

أعرَض هذه الدَّعاوَى! كيف يحتاج الله إلى دليل يُبيّن وجودَه وهو يقول ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور 35]؟! وهذه جُملة اسميَّة مُفيدة لا تحتاج إلى توضيح ولا زيادة، حاصلُها أن الله هو عينُ النور. والكلُّ يعلَم أن الأشياء لا تُدرَك إلا إذا أصابَها النور. فما دام الله هو كاشفُ الأشياء؛ كيف يتجرّأ أحدٌ على محاولَة الدّلالة عليه؟ بل العكس تمامًا، فالله هو الدالُّ على الوجود، ومَن ظنَّ أن الوجود دّالّ على الله فقد ضلّ سواءَ السبيل وشطّ به عقلُه. ولعلَّ أحكمُ ما جاء به شاعرٌ قطُّ قول أبي الطيّب الْمُتنبّي:

وليسَ يصحُّ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليل!

قال ابن عطاء الله السَّكَندَري دَلَّ اللهُ بوُجود آثاره على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثُبوت أوصافه وبوجود أوصافه على وجود ذاته، إذ مُحالٌ أن يقوم الوصفُ بنفسه. فأربابُ الجَذْبِ يَكشِفُ لَهم عن كَمال ذاتِه ثم يَرُدُّهم إلى شُهود صِفاتِه، ثم يُرجِعُهم إلى التَّعلُّق بأسمائه ثم يردُّهم إلى شهود آثاره. والسالكون على عَكس هذا. فنهاية السالِكين بداية الْمَجذوبين، وبداية المجذوبين نهاية السالكين. مرادُ السالكين شُهودُ الأشياءِ لِلَّه ومُرادُ المجذوبين شَهادةُ الأشياء بالله. السالكون عاملون على تحقيق الفناء والْمَحو، والمجذوبون مسلوكٌ بهم طريقُ البقاءِ والصَّحو. لكن لا بمعنى واحد، فربما الْتَقَيا في الطريق؛ هذا في ترقِّيه وهذا في تَدلِّيه[129].

لا يلزَم الدّلالة على وُجود الله تعالى ولا يُلزِمنا جاحدٌ بالرّدِّ على تُرّهاته فننجرَّ معه في مَتاهات لا قعرَ لها. بل يكفينا قولُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا: مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى

---

129 'الحِكَم العَطائية' حكمة رقم 218.

بَشَرٍ مِن شَيْءٍ! قُلْ: مَنْ أَنزلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا، وَعُلِّمْتُم مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ؟! قُلِ: اللَّهُ! ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ!﴾ [الأنعام 91]، فلا كلام ولا خِصام مع أقوام عديمي الأحلام لَم يكتفوا بما جاء في القرآن من آياتٍ وبراهين عِظام. وصدق أبو العَتاهية إذ قال:

ألا إنَّـــنا كُـــلُّنا بائِـــدُ ... وأيُّ بَني آدَمَ خالِـــدُ؟

وبَدْؤُهم كان مِن رَبِّـــهِمُ ... وكُـــلٌّ إلى ربّـــهِ عائدُ

فيا عَجَبًا، كيفَ يَعصي الإلَهَ ... أَم كيفَ يجحَدُه الجاحِدُ

ولله في كـــلِّ تَحريكَـــةٍ ... وفي كلّ تَسكينَةٍ شاهِـــدُ

وفي كلِّ شيءٍ لَـــهُ آيـــةٌ ... تـــقول بأنَّـــهُ الواحِدُ!

ليس الإسلام بالدين العسير ولا بالأمر الغامض الذي يحتاج إلى كثير جُهد. فقد عرَّفه الله بقوله: ﴿مَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ، مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى، وَهُوَ مُؤْمِنٌ؛ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرا! وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفا؟!﴾ [النساء 124-125] فلا أحدَ أحسنُ دينًا من إبراهيم أبي الأنبياء الذي كان إيمانُه مجرَّدا من كل تكلُّف أو تفلسُف. فالإسلام هو ما جاء به إبراهيمُ بكلِّ بساطة. والْمُسلِم مَن آمَن بما جاء به القرآنُ والسنَّة، سواءً علِمَ تفاصيلَ ذلك أو لَم يعلَمها، والتزم الشريعة التي بيَّنها النبيُّ محمّد.

والحمد لله، فقد بيّن الرسول للناس طُرقَ الهُدى وسبُلَ السلام كما هو واضح لِمَن درس القرآن والحديث. وقد بلَغنا عن العِرباضِ بنِ ساريةَ أنّه قال: وَعَظَنا رسولُ الله مَوعِظَةً، ذَرَفَتْ منها العُيونُ ووَجِلَتْ منها القُلوب. قُلنا: يا رسولَ الله، إنّ هذه

لَموعِظَةُ مُوَدِّع، فماذا تَعْهَدُ إلينا؟ قال «قد تَرَكتُكُم على البَيضاء، ليلُها كَنهارِها. لا يَزيغُ عَنها بَعدي إلاّ هالِكٌ! ومَن يَعِشْ مِنكم فَسيَرَى اختِلافًا كَثيرا، فعليكم بِما عَرفتُم مِن سُنَّتي!»[130] قولُه «البَيضاء، ليلُها كَنهارِها» أي الطريق البيضاء التي تُرى بوُضوح ليلاً ونهارا، إشارةً إلا سُهولَة الاستقامة عليها في شتّى الأحوال وشِدّة الأهوال. وذلك ما جاء في القرآن من أمرِ الله رسولَه، ومَن يتّبعونَه إلى يوم الدين، بقَوله: ﴿قُلْ: هَذِهِ سَبِيلِي، أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي!﴾ [يوسف 108] والبَصيرة هي نورُ القَلب الذي تُرى به بَواطِنُ الأمور بِوُضوح. وأمور الدين من الغيبيّات التي لا علمَ للناس بها إلاّ عن طريق الوَحي الإلَهي.

وبحَمد الله، قد استُنبطت في الإسلام علومٌ شَرعيّة تُفصِّل، مِن غير جِدال علمِ الكَلام، أصولَ الإيمان كما جاء به القرآن وسنَّه الرسولُ بالبيان. وهي العقيدة أو أصول الدين أو الفقه الأكبر. قال أبو حنيفة: الفِقهُ الأكبر في الدين خَيرٌ من الفِقه في العِلم، ولَأن يفقَهَ الرجُلُ كيف يَعبُد ربَّه خيرٌ له مِن أن يَجمَع العِلمَ الكثير! ومرَّ سيّدُ الطائفتين الجُنَيدُ على قوم يَخوضون في علم الكلام، فقال: ما لِهؤلاء؟ فقيل: قومٌ يُنَزِّهون اللهَ بالأدِلّة عن صِفات الحُدوث وسِمات النَّقص. فقال: نَفْيُ العَيبِ حَيثُ يَستَحيلُ العَيْبُ: عَيْبٌ! فعاب عليهم خَوضَهم في تلك الغيبيّات ولَو بِحُجَّة الانتصار لله. لأنّ التتريه الشَّرعي ليس بالجدال ولكن بقولنا: سُبحان الله! كما جاء في القرآن ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

[130] خرجه ابن ماجه وأحمد عن العِرباض بن سارية وصحَّحه الأرنؤوط.

الْعَالَمِين!﴾ [الصافّات 180-182] فابتدأ بتَقديس ذاتِه العليَّة عمّا وصفه به الذين لا يعلَمون، وثَـــنّى بتَزكية الأنبياء الذين أرسلَهم بآيات الحق وبراهينه إلى الخَلق، وختَم بالتَّحميد على هذا الخير الذي جاد به على أوليائه.

وبذلك أمر الله رسولَه محمَّدا حين طلب منه قومُه مُعجزات لا يستطيعُها أيُّ بشَر: ﴿قَالُوا: لَن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعا! أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجيرا! أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفا! أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا! أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُف! أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء؛ وَلَن نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتَابًا نَقْرَؤُه! قُل: سُبْحَانَ رَبِّي، هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولا؟!﴾ [الإسراء 90-93] سبحانَ اللَّه، هل اتَّخذتُموني نِدًّا للَّه؟ تعالى ربيّ عن ذلك علُوًّا كبيرا؛ فإنه لا قادرَ على شيءٍ مِن ذلك إلا هو سبحانَه، الذي لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء. أمّا أنا فلستُ سوى بَشَر؛ أتَّبِع ما يوحيه إليّ ربي، لا أكثَر!

وبحَمد الله، فقد رجع كثيرٌ من أهل الكلام الْمُسلمين عن مناهجهم العقليّة المجردة إلى منهج الكتاب والسنة، ومن هؤلاء، مثلاً، فخرُ الدين الرازي، وهو من كبار الفلاسفة والْمُتكلِّمين. فإنّه يقول بعد عُمر طويل قضاه في بُحوثه:

نِهايَـــةُ إقْـــدامِ العُـــقول عِـــقالُ	وأكثَـــرَ سَعْـــيِ العالِمين ضَلالُ
وأرْواحُنا في وَحْشَةٍ مِن جُسومِـــنا	وحاصِلُ دُنـــيانا أَذًى ووَبـــالُ
فلَم نَستَفِدْ مِن بَحثِنا طُولَ عُـــمْرِنا	سِوَى أن جَمَعنا فيه: قيلَ وقالوا!

ثم قال: ولقد تأمَّلتُ الطُّرُقَ الكَلاميَّة والْمَناهِجَ الفَلسَفيَّة، فما رأيتُها تُشفي عَليلاً ولا تَروي غَليلا! ورأيتُ أنّ أقربَ الطُرُق طَريقَةُ القُرآن؛ أقرأُ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى

الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه 5]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّــيِّب﴾ [فاطر 10]، وأَقرأُ في النَّفْي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشُّورى 11]... ومَن جرّب مِثلَ تجربتِي عَرَف مثْلَ معرفتِي!

ثم إذا وقع المسلمُ في مَعصيَةٍ أو خطَأٍ أو توانٍ فما عليه إلاّ أن يفزَع ويرجِع إلى ربِّه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ؟!﴾ [التوبة 104] ويقول في [الزُّمُر 53-55]: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ فأكثَروا مِن كِبار الْمَعاصي وأفرطوا في عِظام الجِنايات وتجاوزا الحدَّ في الخَطايا ﴿لا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ لا تيأسوا من عَفْو الله ومَغفرَته ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعا، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم! وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُم﴾ اِرجعوا إليه عن كلِّ ما اقتَرَفتم مِن ذُنوب ﴿وَأَسْلِمُوا لَه﴾ وجدِّدوا إسلامَكم واعقِدوا مع ربِّكم عهدًا جديدا مَبنيًّا على اتِّباع الرسول محمَّد والإخلاص لِلّه تعالى ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُون!﴾ فبابُ التَّوبة مَفتوح، ولكن ليس أحدٌ بمَأمَن من الْمَوت الذي قد يصيبُه بغتةً في أيَّة لَحظة، فأسرِعوا بالتَّوبة ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ﴾ وأحسن ما أنزل إلى الناس منذ ذلك العَصر هو القرآن، لا أن يكون بعضُ القرآن أحسن من بعض، لأنه حسنٌ كله -كما هو واضح في قوله ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾ [الزمر 23]- إذًا ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُم مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُون!﴾ فالعذاب قد يكون في الدنيا قبل الآخرة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا! وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ!﴾ يَقيهم ويَستُرُهم ويدفَع عنهم عذابَ الدّنيا قبلَ الآخرة [الرعد 34] والعياذُ بالله.

الحاصل أنّ الْمُسلم هو ذاك الذي اتَّخذَ اللهَ ربًّا على أساس أنَّه يطيعه في كلِّ صَغيرةٍ وكبيرة. فإن زلَّ ووَقع في الخطيئة، ولا عِصمَةَ لأحد، رجَع إلى ربّه مِن حينِه. بِذا أمرنا

النبيُّ فيما بلغنا عن البراء بن عازب، قال: قال رسولُ الله «يا فُلان، إذا أوْيتَ إلى فِراشِك، فقل: اللَّهمَّ، أسْلَمْتُ نَفْسي إليك ووجَّهْتُ وجهي إليك وفوَّضْتُ أمْري إليك وألْجَأْتُ ظَهْري إليك؛ رَغْبةً ورَهْبةً إليك. لا مَلْجأَ ولا مَنجَى منك إلا إليك؛ آمَنتُ بكِتابك الذي أنزلتَ وبنبيِّك الذي أرسلتَ! فإنَّكَ إنْ مُتَّ في ليلتك مُتَّ على الفِطْرَة، وإن أصبحتَ أَصَبْتَ خَيرا!»[131] لكنّ دين الناسَ على خَطر، فالأهواء مُحدِقة والأدواء مُصيبة، ولا أحدَ على يقين من النَّجاة. وأدهَى ما يصيبُهم اختِلافُهم في الدين! والاختلاف ظاهرة سائرة عبر العصور، لم يَنجُ منها قومٌ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض، مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَات، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُس. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ؛ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا: فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَن كَفَر. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيد!﴾ [البقرة 253]. ولا بدَّ من الاختلاف بين الناس، فلكلّ إنسان أَرَبٌ يخصُّه وغَرَضٌ يدفَعه ويؤُزُّه، وهذه حِكمَة الله السارية في جَميع خَلقه ليتيسَّر لهم مَعاشُهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَة! وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِين، إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّك؛ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُم!﴾ [هود 118-119]. فلا جَرَم أن يحِقَّ بالمسلمين ما أصاب غيرَها من الأمَم. وقد نَبَّأ النَّبيُّ بانقسام أُمَّتِه تبَعًا لأهل الكتاب، فمِن ذلك ما بلغنا عن أبي سعيد الخُدري أنَّه قال «لتَتَّبعُنَّ سَنَن مَن كان قبلَكم: شِبْرًا بشِبر وَذِرَاعًا بِذِراع؛ حتى لو دَخَلُوا جُحْرَ ضَبّ لَتبعتُموهم!» قلنا: يا رسولَ الله، آليهود

[131] خرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن البَراء وله شواهد

والنصارى؟ قال «فَمَن؟!»[132]، والسَّنَن هو السبيل والطريقة، والضَّبُّ هو الوَزَغُ العريض المشوّك الذنب المعروفُ عند العرب، والجُحر غارُه الذي يَأوي إليه.

ومِن ذلك هذا الحديث الذي هو أصلٌ في فَهم الدين، وبِمَعنًى أوسع ممّا يراه جُمهور العلماء، وهو قول النبيِّ «تَفرَّقَتِ اليهودُ على إحدى وسبعين فِرْقَة والنَّصارى على اثنتين وسبعين، وستَفْتَرِقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة: ثِنتين وسبعين في النار، وواحدة في الجنة؛ وهي ما أنا عليه وأصحابي!»[133] فراحت كلُّ فِرقة تتأوّله بمجرَّد الهَوى، لاعتبار نفسها 'الفرقةَ الناجية'. فمن ذلك ما قاله نعمة الله الجزائري الشيعي، فإنّه يقول: الحديث مُتَّفقٌ عليه من علماء الإسلام، لكن الترمذي، مِن العامَّة -يعني: ليس منّا نحن الذين اختصَّنا الله باتّباع أهل البيت، بل الترمذي من أهل السنَّة؛ كذلك يُسمّيهم الشيعةُ احتِقارًا لَهم-، نقله في صحيحه بزيادةٍ هي: قيل: ومَن هم؟ قال «الذين هُم على ما أنا عليه وأصحابي»[134]، وأمّا الشيعة فزادت في روايته "افترقت أمّةُ موسى على إحدى وسبعين فِرقة، كلُّها في النار إلا واحدة، وهي التي اتَّبعت وَصيَّهُ يُوشَع. وافترقت أمّةُ عيسى على اثنتين وسبعين فرقة، كلّها في النار إلا واحدة، وهي التي اتّبعتْ وصيَّة شَمعون. وستفترق أمَّتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة، كلُّها في النار إلا واحدة، وهي التي

---

[132] خرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي سعيد.

[133] الحديث ثابتٌ صحيح خرجه أبو داود وابن ماجة والترمذي عن أبي هريرة وقل الترمذي: وفي الباب عن سعد وعبد الله بن عمرو وعوف بن مالك قل أبو عيسى حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح. قلتُ وخرجه الثقةُ عن عددٍ من الصحابة عير هؤلاء منهم أنس وغيرُه.

[134] قل أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن غريب مفسرٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

تَّبع وَصيِّي عَليًّا عليه السلام..." ولا شك لأحد أنّ هذا الدين الذي عليه الفِرقة الإماميّة قد أخذوه من أئمتهم الطاهرين أولادِ عليٍّ عليه السلام، وهم أخذوه عنه، كما يشهَد به كُتب المسلمين؛ فهم الناجية دونَ غيرهِم[135]. رواية الجزائري مَردودة لأنّها عديمة الإسناد لا يُعلَم لها رواة، وهذه ظاهرة فاشية عند الشيعة، بخلاف أهل السنَّة الذين يُسنِدون كلّ حديث وينقدونه قدرَ الاستِطاعة للتأكُّد من ثُبوته. ولنتذكَّر قولَ ابن المبارك 'لولا الإسناد لقال مَن شاء ما شاء'. قد أورد الكُليني في 'الكافي' وهو أهمّ مرجع حديثي عند الاثناعشرية، أثرًا موقوفا على محمد الباقر و لم يرفَعه إلى النبي، حسّنه المجلسي وضعّفه البهبودي، ولا ذكرَ فيه ليوشع ولا شمعون ولا علي. فمِن أين جاء الجزائري بقصَّة الأوصياء والتي هي أصل التشيُّع؟!

هكذا، كلُّ فرقة تدَّعي أنّها على الحقّ دونَ غيرها من الفِرَق، والتي لا ترى لها مَآلاً سوى جهنَّم والعياذُ بالله. وما هذا إلا كَذب على الله ورسوله، وهو ظُلمٌ عظيم؛ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، أَوْ كَذَّبَ بآيَاتِه؛ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِنَ الْكِتَاب. حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا: أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّه؟ قَالُوا: ضَلُّوا عَنَّا! وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِين. قَال: ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ، مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ، فِي النَّارِ! كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا! حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا، قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ: رَبَّنَا، هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا؛ فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ! قَال: لِكُلٍّ ضِعْفٌ، وَلَكِن لا تَعْلَمُون! وَقَالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ: فَمَا

[135] 'نور البراهين' 1/61–62، المكتبة الشيعيّة.

كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُون! إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا، لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاط!﴾ [الأعراف 37-40] أي في ثُقب الإبرة التي تُخاطُ بها.

لقد تكلَّف علماء الكلام، منذ أوّل عهدهم وإلى يومنا هذا، ردَّ مجموع طوائف المسلمين إلى الثلاث والسبعين. ولا معنى لذلك لأنّ الأهواءَ لا حصرَ لها كمًّا ولا كيفا. بل معنى حديث الثلاث وسبعين فرقة، فيما يبدو لي، أنّ الناسَ قد ضَلُّوا جميعًا قبلَ بِعثة النبي موسى وتفرَّقوا إلى أن بلَغوا السبعين نِحلَة. والعددُ سبعون في لغة العرب ليس للتحديد بل هو عبارة عن الكثرة الكبيرة كقوله ﴿سِلْسِلَة ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعا﴾ [الحاقّة 32] وقوله ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّة﴾ [التوبة 80] وكقول النبيّ «أَلا مَن قَتلَ نَفسا مُعاهَدَة له ذِمَّةُ الله ورسوله، فقد أخْفَرَ بِذِمَّةِ الله، فلا يُرِحْ رائحَةَ الجنة؛ وإنَّ رِيحها لَيُوجَدُ مِن مَسيرة سَبعين خريفا!»[136]. الحاصل أن الناس ظلّوا يفترِقون، تَباعا لأصحاب الأهواء الذين ما فتئوا يغُرّون غيرهم. إلى أن بعث الله موسى، فاتَّبعَه مَن

[136] خرجه الترمذي عن أبي هُريرة وقل: حسن صحيح. والخريف الزمان الفاصل بين الصيف والشتاء، والمراد به هنا السنة، فمن أتى عليه سبعون خريفا فقد انقضَى عليه سبعون عاما. وقولُه «أَخْفَرَ بِذمَّةِ الله» أي نقضَ خَفرَ الله إيّاه إي إجارتَه وحمايتَه، فمعنى أخفر الذِّمَّة أي نَقضها وغدر بمَن أُعطيَها. وعن عن أبي هُريرة أن النبي قل «مَن صام يوما في سبيل الله بعَّد الله وجهَه عن النار سبعين خَريفا» خرجه الترمذي والنسائي. وعن أبي هريرة قل: كُنّا مع رسول الله إذْ سَمِع وَجبَةً، فقل «أَتَدْرُونَ ما هذا؟ قلنا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قل «هذا حَجَر رُميَ به في النار منذُ سبعين خَريفا فهو يَهوي في النار؛ الآنَ حيث انتهى إلى قعرها: فسمعتم وجبَتَها!» خرجه مسلم. الوجبَة هي الوَقعَة.

اتَّبعَه مِن بني إسرائيلَ وكوَّنوا الفرقَة النّاجيَة في مُقابل السبعين؛ فأصبحت الفرَقُ إحدى وسبعين، مِن بينهم فرقة ناجية، وهم أتباعُ موسى. ولكنَّهم لم تزَل تَتجارَى بهم أهواءُ الفرقِ الضالَّة من جرّاءِ مُخالطتهم إلى أن الْتَحقَ أكثرُهم بهم، وبقِي قلّةٌ من أتباع موسى العاملين بالتوراة على الحقِّ؛ وذلك قولُه في رواية «افتَرقَت اليهود على إحدَى وسبعين فِرقة، فواحِدَةٌ في الجنة وسبعون في النار». لَم تزَل تلك الفِرقَةُ على الحقّ إلى أن أرسَل الله إليهم عيسى بنَ مريم ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَة﴾ [الصف 14] فكل مَن بقِيَ على يهوديّته بعد مَجيء عيسى فقد كفَر. فأصبح عددُ الفرقُ اثنتين وسبعين وهي: الفرقُ الضالّة مُنذ القِدم، واليهودُ الذين لم يتَّبعوا عيسى. وأصبح أتباعُ عيسى، أي النَّصارى، هم الفرقة الناجية. ثم لم يزل أصحاب تلك الفرقة تَتجارَى بهم الأهواءُ إلى أن التَحقَ أكثرُهم بالفرقِ الإحدى والسبعين الضالَّة، وبقِي أتباعُ عيسى بن مريم العاملون بالإنجيل على الحقِّ؛ وذلك قوله في رواية «وافترقت النصارَى على ثِنتين وسبعين فِرقة، فإحدَى وسبعون في النار وواحدةٌ في الجنة». ثم لَم تزَل تلك الفِرقَة بخير إلى أن بعثَ الله محمّدًا إلى الناس كافَّة؛ فكل مَن بقِيَ على نصرانيّته ولم يتَّبع محمَّدًا فقد كفر. وهكذا نشأت الفرقةُ الثالثة والسبعون، وهم المسلِمون ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيل!﴾ [الأعراف 157] ثم لَم يزل عددٌ كبير من المسلمين يلتَحِقون بالفِرق الاثنتَين والسبعين الضالَّة؛ وذاك قولُ النبي «لَتفترِقنَّ أمّتي على ثلاث وسبعين فِرقة»[137].

---

[137] خرجها والتي قبلَها أبو داود والترمذي والمروزي وأبو يعلى وابن حبان والآجري في كتاب الشريعة والبيهقي في السنن وفي الاعتقاد وابن حنبل وابن ماجه عن أبي هريرة وأنس ومعاوية وأبي أمامة

وقد انحَرف فِعلاً جمٌّ غفير من المسلمين وحادوا عن سواءِ السبيل إلاّ أقلَّ القليل، وهم الفرقة الناجية. فالتفرُّقُ إنَّما هو في المِلَل لا في المذاهب العَقائدية.

يدلُّ عدَمُ ضمِّ النبيِّ لليهود والنصارى إلى الفِرق السبعين على أنَّهم ليسوا كسائر الناس. إيمانُهم كأهلَ كتاب يُضفي عليهم حُرمةً شَرعيّة ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين!﴾ فلا يُباح للمسلم أن يَكفُر، أي يَجحَد ويُنكِر، إيمانَ اليهودِ والنصارى. كيف وهم يُشاركوننا في أصول الإيمان الستَّة وهي: الله، الملائكة، الكُتب، الرسُلِ، اليومِ الآخر، القَدَر؟! تعريتُهم من الإيمان كُفرٌ بالقرآن، لذا أَحبَط اللهُ أعمالَه وأبطَل طاعاتِه وألغاها كما ألغى هو إيمانَ أهلِ الكتاب. وهذا فَهمٌ قد غاب عن جُمهور علماء الأمّة وعامَّتهم وفاتَهم ما فيه من خير عَميم. ودليلي في الآية نفسها: ﴿طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُم... وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُه﴾ [المائدة 5] قال الطبري: ذُكر أنّ قوله ﴿مَن يَكْفُرْ بِالإِيمَان﴾ عنَى به أهلَ الكتاب، وأنه أُنزل على النبي من أجل قومٍ تَحرَّجوا نِكاحَ نساءِ أهل الكتاب لَمّا قيل لهم ﴿أُحِلَّ لَكُم... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُم﴾ ثم أورَد بسنَده عن قَتادة أنه قال: ذُكر لنا أنّ ناسًا مِن المسلمين قالوا: كيف نتزوّج نساءَ أهلِ الكتاب وهم على غيرِ ديننا؟! فأنزل الله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين!﴾ فأحلّ الله تزويجهن على عِلم... لكنّ الطبريَّ ردّ هذه الحقيقة

وسعد بن أبي وقاص وابن عَمرو وابن مسعود وعمرو بن عوف وأبي الدرداء وواثلة.

فقال: ﴿مَن يَكْفُرْ بِالإِيمَان فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُه﴾ أي مَن يأبَ الإيمانَ بالله ويمتنع من توحيده والطاعة له، فيما أمره به ونهاه عنه، فقد حبط عملُه. وذلك أن الكفر هو الجحود في كلام العرب، والإيمان التصديقُ والإقرار. ومَن أبَى التصديق بتوحيد الله والإقرار به، فهو من الكافرين؛ فذلك تأويل الكلام على وجهه[138]. ووافقَه جُمهورُ المفسرين على هذا الفهم الخاطئ فقيل: ﴿مَن يَكْفُرْ بِالإِيمَان﴾ كُفرٌ بعد الإيمان، وقيل: كُفر بالقرآن، وقيل: كُفر الشريعة، الخ. وهذا كلُّه لا يصحّ لا من جهة اللغة ولا من جهة موضوع الآية. بل هو من قَبيل لَيِّ أعناق النصّوص الذي لا خيرَ فيه، ومن قَبيل التعنُّت الذي لا يزيد إلا تفرقةً بين المسلمين وبين أهل الكتاب الذين ليسوا كفارًا بل في ضلال ﴿قَالُوا: كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا! قُلْ: بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين!.. فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ؛ فَقَدِ اهْتَدَوْا. وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاق!﴾ [البقرة 135-137] والشِّقاق بيس كفرًا بل هو الافتراق، وهو هنا الابتعاد عن الهُدى لا مُطلَق الكُفر. والشقاق هو بعينه ما وقع فيه المسلمون مِن تَمَذهُب وتحزُّب ومُعاداة للغير لا لشيء سوى اتّباع الأهواء، سواءً كان ذلك عنادًا أو عن جَهل. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم! أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ؛ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار!! ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ. وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيد!﴾ [البقرة 174-175].

---

[138] 'جامع البيان في تأويل القرآن' 9/592-594، مؤسسة الرسالة.

ومهما ازداد تفرُّق الناس وكثُرت الأهواء والضلالات فيهم فستَبقى الفرقَة الثالثة والسبعون على الحقِّ إلى أن يأتِيَ أمرُ الله كما قال رسول الله «لا تزال مِن أُمّتي أمّةٌ قائمةٌ بأَمر الله، لا يضرُّهم مَن خَذلَهم ولا مَن خالَفهم حتَّى يأتِيَهم أمرُ الله وهم على ذلك!»[139] فالفِرق الثلاثُ والسبعون قد ضمّت البشريَّة جَمعاء، كما دلّ عليه قولُ الله لرسوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ 28] أي إلى كلِّ مَن عاصَرَك ومَن يأتي مِن بعدِك إلى يوم القيامة. لذا وصفَ النبيُّ هؤلاء جميعًا بأنّهم أمّته فقال «لا يزال مِن أُمّتي» أي من أمّة الدَّعوة، وهم البشريَّة «أمّةٌ قائمةٌ بأَمر الله» أي أمّة الإجابة، وهم المتمسّكون بالقرآن والسنّة بصِدق.

يستَلزمُ 'حديث الافتِراق' أنّ على يَرأَسَ كلَّ فرقة ضالّة عُلماءَ ضالّين يُضلّون كلَّ مَن استَمع إليهم باختِراع شِبْهِ علوم كثيرة ضارَّة لا خيرَ فيها، وإلا ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاس: كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ! وَلَكِن﴾ إنما يقول لهم ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ تُربّون الناسَ بصِغار العلوم قبلَ كِبارها ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ!﴾ [آل عمران 79]. لكنّ العلماء الرَّبانيّين أقلُّ الناس عَدَدا، وذلك مِن مشيئة الله كما يدلُّ عليه القرآن: ﴿تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ؟!﴾ [الفرقان 44] ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ!﴾ [العنكبوت 63] ﴿أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام 103] ﴿أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام 111] ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [هود 17] هذا حالُهم: ﴿أَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورا!﴾ [الإسراء 89]... قال النبيُّ «يقول الله

---

[139] خرجه البخاري ومسلم عن مُعاوية بن أبي سفيان، وله شواهد عن ثوبان ومعاوية بن قُرة عبد الله بن عمرو وسلَمة بن نُفيل.

يوم القيامة: يا آدَم! فيقول: لَبَّيك، ربِّ وسَعْدَيك! فيُنادَى بصوت: إن اللهَ يأمُركَ أن تُخرِجَ من ذُرِّيتِك بَعْثًا إلى النار! فيقول: يا ربّ، وما بَعثُ النار؟ قال: مِن كُلِّ أَلفٍ، تِسعُمِائَةٍ وتِسْعَةٌ وتِسعون!»[140]. حاصلُه أن لن يدخُل الجنَّة سوى واحدٍ من الألف! لذا ظلَّ الناس ينقسمون اتّباعًا للهَوى وانقيادًا لِمَن غَوى حتى بلغت الفرق التي تنسُب نفسَها إلى الإسلام عددًا لا حصرَ لَه، وذلك لأنّ الانشقاق عن الأصل يجرّ إلى انشقاقات لا حدّ لها. ولنذكر فيما يلي أهمَّ الفِرَق التي حدثت في الْمِلَّة الإسلاميّة، والتي لا سببَ لحدوثها في الحقيقة غيرَ السياسة والرَّكض وراءَ حُطام الدنيا مِن لَذّات لا يصِلون إليها إلا بالمال والجاه والسلطة.

الْمُرْجِئَة: وهم أوَّل مَن ابتدَعوا في الدين وانفصَلوا عن جماعة المسلمين. اشتُقَّ اسمُهم من الإرجاء، وله معنيان، أحدُهما الأمَل والآخَر الإمهال. فهم قومٌ يُقدّمون الرَّجاء على الخَوف، وهذا مُخالف لأصول الدين التي جاء بها القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اِتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوا...﴾ [لقمان 33]، ﴿اُدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعا﴾ [الأعراف 56]. وكذلك التَّمنّي من غَير عمَل فإنّه لا ينفَع: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَاب؛ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِه!﴾ [النساء 123] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم! وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينا!﴾ [الأحزاب 36] وغيرها ذلك من آيات وأحاديث دالّة على وجوب الخَوفِ من الله والعَمَلِ اقتداءً برسول الله. فلمَّا أنكَر الْمُرْجِئَةُ هاذَين الأصلَين، أخَّروا الطاعة وقَدّموا

---

[140] خرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخُدري.

النيَّة وقالوا: لا تَضُرُّ مع الإيمان مَعصيَةٌ كما لا تَنفَع مع الكُفر طاعة! وهذا مَردود قَطعا، فمُجرَّد الإيمان لا ينفَع بل لا بدّ من دليل على ذلك. فمَن قال: أُضيفُ إلى إيماني بالله حُبّي له. فقد أجابَه محمود الورّاق بقوله:

تَعصِي الإلهَ وأنتَ تُظهِرُ حُـبَّهُ	هذا مُحالٌ في القِـياسِ بديعُ
لو كانَ حبُّكَ صادِقًا لأَطعتَـهُ	إنَّ الْمُحبَّ لِمَن أحبَّ مُطيعُ
في كلّ يومٍ يَـبتديك بـِنعْمةٍ	منه، وأنت لشُكر ذاك مُضِيعُ!

فمَن أقرّ بنعمة الله شكرَه عليها، وقال في نفسه: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي: أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل 40] فكلّ نعمة إنّما هي امتحانٌ: فإمّا أن يُشكَر الله عليها وإمّا أن يُكفَر. فمَن لَم يشكُر فقد كَفر لا مَحالةَ وكان مصيرُه العذاب، وإلاّ ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُم؟!﴾ [النساء 147] ثم لا دليلَ على الشّكر إلا العَمل بتَعاليم الدين كما جاءت ﴿قُل: اِعْمَلُوا! فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُم﴾ [التوبة 105]. لذا كان الْمُرجئة أكثرَ الفِرق عَددًا، لأنَّ عامّة الناس غير مُسلمين لكنَّهم لا يعمَلون. أوَّل ظهور الْمُرجئة في الإسلام كان في عهد أبي بكر حيث رفض عددٌ من المسلمين إيتاءَ الزكاة؛ فحاربَهم أبو بكر والمسلمون على أنَّهم مُرتدّون عن الإسلام. ليس في الإسلام فقط، بل هذه الفرقة أقدم الفرَق الضَّالّة في تاريخ البشريّة جمعاء، وهي أكثرها انتشارًا وهي آخر الفِرَق بقاءً على وجه الأرض، وذلك لسذاجتِها؛ يقولون: الإيمان في القَلب، والله يجازي على النيّات!

الخوارج هم ثاني الفرق ظُهورا. وهم قومٌ يَرَون وُجوبَ الخروج على الحاكِم إذا خالف الكتابَ والسُّنة، فيما يرَونَه. وأصلُ نِحلتهم تبرُّؤ جماعةٍ مِن علي بن أبي طالب حين قبلَ التَّحكيم الذي طالبَه به مُعاوية، فقالوا: لا حُكْم إلا لِلَّه! فقال علي مَقالتَه

الشهيرة: أجل، كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بها باطِل! إن النبيّ وصف أُناسا، وإني لأعرِفُ صِفتَهم؛ يقولون الحقَّ لا يُجاوِزُ هذا منهم -وأشار إلى حَلْقِه- هم أَبغَضُ خَلْقِ الله إلى الله![141] فرَفَضوا أن يُمثِّل أبو موسى الأشعري عليًّا وأن يمثِّلَ معاويةَ عَمرو بنُ العاص، ليُقرِّرا أيّهما أَحقُّ بالخِلافة. طَعنوا في الخَصمَين والحَكمَين وعُثمان فمَن دونهم من الصحابة، وانشقّوا عن جماعة المسلمين. من خصائص الخوارج أنّهم يُكفِّرون مَن ارتكَب مَعصيةً كبيرة، فهم على نَقيض المُرجئة من وجوه كثيرة. وأكثر فِرَق الخوارج انقَرَضت. وأكثَر الخوارج وُجودًا في زماننا الإباضيَّة، وهم قومٌ ينتسبون إلى عبد الله بن إباض التَّميمي. من الْمُلاحَظ أن الإباضيين يُنكرون كونَهم خوارج وينفون عن أنفسهم هذه النسبة، والصحيح أنهم خوارج ولكنّهم ليسوا غُلاة. وهم يتَّفقون مع الخوارج في مسائل عديدة كتعطيل الصفات والقول بخلق القرآن وتجويز الخروج على أئمة الجور.

الشِّيعة: كان يُقال لهم أوَّلَ ما ظَهروا: الرَّوافِض أو الرَّافِضَة. ذلك لأنهم رفَضوا خِلافَةَ أبي بكر وعُمر وعُثمان. أمّا أصلُ كلمة شيعة، فمِن شاع الشَّيءُ شُيوعًا أي ظَهَر وانتَشَر وذاع، ومنه ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ [النور 19] أي أن تَنتَشِر الأخلاقُ السيِّئة. شاع وفَحُش: يدلاّن كلاهما على تَجاوُز الحدّ والتَّعميم. وهُناك معنًى آخر، وهو الْمُعاضَدَة والْمُساعَفة، يُقال: شيَّع فُلانٌ فلانا، أي رافقَه ومنه الاتِّباعُ في السَّير، كَتشْييع الجنازة وهو السَّير وراء النَّعش إلى الْمَقبَرة. ومنه اتِّباع الغَير والتَّحَزُّب كما في قولِه ﴿وَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلان؛ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّه﴾ [القصص 15] ﴿إِنَّ

---

[141] خرجه بهذا اللفظ الآجُرِّي في 'الشريعة' وهو عند مسلِم وغيره.

الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا، لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ!﴾ [الأنعام 159] وذلك لأنَّهم ليسوا بأتْباع للرَّسول الْمُخاطَب هنا، ولَكنَّهم أتباعُ بعضِهم بَعضا. حاصلُه، مِن حيثُ اللُّغة، أنَّ الشِّيعة قومٌ يتَّبعون أئمّةً بغير حجّة ومِن غير استِناد إلى الوَحي، وأنّه لا دافِعَ لَهم غيرَ نَشرِ مَذهَبِهم والإكثار من أَتباعِهم ومُساعديهم.

أوّل ما ظهرَت الشِّيعة في خِلافة علي بن أبي طالب. وكُتُبُ التاريخ والسِّيَر تَنسُب حُدوثَها إلى عبد الله بن سبأ، أحدِ يهود صنعاء اليَمن أظهرَ الإسلام في خلافة عُثمان بن عفّان. والظاهر أنّه هو الذي عمِلَ على قَتْل عثمان. أظهر الْمَيل إلى عَليّ، وغرضُه في الواقع إيقاع الفِتنة بين المسلمين. نَقل إلى الإسلام عقائد يهودية، كالقول بالرَّجعة بعد الموت، والعِصمَة التي تَقضي أنّ أئمَّتهم لا يُخطئون أبدا، وتَمَلُّك الأرض، والقُدرة على أشياء لا يقدِر عليها أحدٌ من الخلق، كإيقاف الشمس عن السَّير، ومن ذلك القَول بالبِداء، وهوَ أن يبدوَ لله علمٌ أو رأيٌ لَم يكن عنده مِن قبل. هذه أمور يُقِرُّها علماءُ الشيعة ويدافعون عنها ببراهينهم الخاصّة إلى يومنا هذا. كان ابنُ سبأ يقول بأن يوشَع بن نون كانَ وَصِيَّ موسى، وإذْ لا بدّ من وَصيّ في الدين -حسب زَعمه- فلا وصيَّ لِمُحمّد غير علي بن أبي طالب. ولَمّا الْتقى بعليٍّ قال له: أنت أنت! وغلا فيه إلى حدِّ التأليه. فهمَّ عليٌّ بقتلِه، لكن عبد الله بن عباس نصحه بإجلائه، فنفاه إلى الْمَدائن بالعراق. وكان قبل ذلك قد انتقل إلى مِصر والكوفة والبصرة، حيث بثَّ سمومَه. قد لقيتُ، أنا شخصيًّا، مِن الشيعة مَن يُنكرُ ويجحدُ حقيقةَ وُجود هذا الرجُل، بدَعوى أنَّه شخصيّة مُختَرَعَة من قِبَل أهل السنّة الذين يحتالون بكل الوسائل لِمُحاربة الشيعة الْمظلومين، حسب قولِهم. الواقع أنّ أصل انشِقاق الشيعة لا يقوم على شيء

سوى الإمامة، أي على مسألة سياسيّة مَحضة. وذلك أنّهم يجعلون عليًّا أحقَّ بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان. هذا ما تتَّفق عليه فِرَق الشيعة برُمَّتها. وإذ لا حصرَ لهم من حيث العَدد، فلنذكر منهم بعضَ الفِرق كالزّيديَّة والإسماعيليّة والقَرامطة، وبخاصَة الإماميَّة الاِثْناعَشْرِيَّة، وتأتي هذه التسمية من قولِهم أن عدد الأئمّة اثنا عشر؛ أوَّلُهم عليّ وآخرُهم 'صاحبُ السِّرداب' بسامَرّاء.

اقتِصَرنا على ذكر هذه الفِرقَة لكونهم: أوّلاً أكثرَ الفِرَق الشيعية أتباعا، ثانيًا لكونهم القِسم الْمُقابِل لأهل السنة في فكرهم وآرائهم المتميِّزة. ثم هم ثالثًا منذ زمَن، وخاصَّة في هذا الزمان، يعملون على نشر مذهبهم ليَعُمَّ العالَم الإسلامي، بل العالَم كلَّه، إن أمكنهم ذلك. ذاع أمرُهم بعدما اجتاح تَيمورلَنك عام 1382 إيرانَ وأخضعَ أهلَها لسَيطرته إلى عام 1411، ثم حصل النّزاع بين خلفاءِ تيمور والتُّركْمان. استمر ذلك إلى عام 1501، ثمَّ ظهر الصَّفَويُّون. وهي دَولة أسَّسها الشَّاه إسماعيل الصَّفَوي الذي فَرض التَّشيُّعَ الاثناعَشريّ على فُرْسِ إيرانَ قَهرا، وقد كان مُعظَمُهم ينتَمون إلى السنَّة. فجعل التشيُّعَ مذهبَ إيران الرسمي. وهذه قائمة أئمَّتِهم الاثنَي عشر بالتسلسل الزماني: أوَّلُهم عَلي بن أبي طالب، ابن عمّ الرسول وزَوج فاطمة بنتِه ورابع الخلفاءِ الراشدين، وقد اغتالَه أحدُ الخوارج وهو عبد الرحمن بن مُلجِم الكندي بضربة على رأسه بسيف مسموم في مسجد الكوفة سنة 660. ثم ابنُه الحسَن، ويُلقبونه بالْمُجتَبَى، 670. ثم أخوه الحُسَين، ويلقبونه بالشهيد، وإن كانوا هم السبَب في قَتلِه، 681. ثم ابنُه علي زين العابدين 714، ويلقبونه بالسَّجَّاد. ثم ابنُه محمد، ويلقِّبونَه بالباقِر، 732. ثم ابنُه جَعْفَر، ويلقِّبونه بالصادِق، 765. ثم ابنُه موسى، ويلقبونه بالكاظم، 799. ثم ابنُه علي، ويلقبونه

بالرِّضا، 818. ثم ابنُه محمد الجواد، ويلقبونه بالتَّقِيّ، 835. ثم ابنُه علي الهادي، ويلقبونه بالنَّقِيّ، 868. ثم ابنُه الحسن العسكري، ويلقبونه بالزكي، 874. ثم ابنُه محمد المهدي الْمَولود عام 869 والْمَجهول الوفاة، بل لَم يَمُت حسَبَ مُعتَقَدهم؛ قد أخفاه الله إلى يوم لا يعلمه إلا هو. فهم ينتظرون رَجعَتَه، ويلقِّبونه بالحُجّة وبالقائم الْمُنتَظَر.

وإن كان عبد الله بن سَبأ ظهر في عهد عثمان، فإنّ بدعَتَه لَم تظهر إلا بعد وفاة علي، ممّا أدّى بنا إلى القول بأنّ الخَوارج ظهَروا قبلَ الشيعة. أمّا الإثنى عشريّة، فإنّي لم أجد لَهم ذِكرًا قبلَ النِّصف الثاني من القرن الثالث من تاريخ الإسلام. يقول شاه غلام الدهلوي: إن زمن ظهور الإمامية الاثني عشرية كان عامَ 255 بعد الهجرة.[142] ويبدو أنه عيَّن هذا التاريخ لأنّه فيه وُلد إمامُهم الثاني عشر الذي لَم يَمُت والذين هم في انتظار رَجعتَه قبلَ يوم القيامة. قال ابن تيمية: لَم يَكن أحدٌ يقول بإمامة هذا الْمُنتَظَر، ولا عُرف مِن زمن عليٍّ ودولة بني أمية أحدٌ اِدَّعى إمامةَ الاثني عشر[143].

الْمُعْتَزِلَة: ظَهرت هذه الطائفة أواخرَ العَهد الأُمَويّ ثم انتَشرت في العَهد العباسي. برزوا كتيّار فِكري على يد واصِل بن عَطاءِ الغزّال الذي كان تلميذًا للحَسَن البَصْرِيّ، ثم اعتزل حلقتَه لِمُخالَفته له في أمور إيمانيّة هامّة. اعتمدت هذه الطائفة على العقل الْمجرَّد، مما أدّى بها إلى الانحراف عن فهم الوَحي كما ينبغي وعن حقيقة الدين. مِن مَقولاتهم أن الإنسان حُرٌّ مُختار مُطلقا، وأنّه هو الذي يَخلُق أفعالَه بنفسه، وأنّه لذلك صحَّ تَكليفُه مِن قِبَل الله، وإلا فلا مَعنى، عندهم، للدين أصلا. ومنها نَفْيُ

---

[142] 'مُختصر التُّحفَة الاثني عشرية'، ص21.

[143] 'منهاج السنة النبوية' 179/8، مؤسسة قرطبة.

الصّفات عن الله، لأنّ التّوحيد عندَهم يوجِبُ أنّ ذات الإلَه مُجرَّدة غير مُركَّبة. وقد بَنَوا على مَقالِتِهم هذه أمورًا عدّة، منها أن القرآن مَخلوق وأنَّه ليس كلامَ الله، لأنّ الكلام صفة، والصفات تُنافي التّوحيد. وهذا مَردود بنصّ القرآن: ﴿كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيما﴾ [النساء 164] وهو تصريحٌ بالكلام مؤكّد بالْمَصدر 'تكليما'، وغيرها من آيات لا حصر لها. ولَهم أقوال غيرها كثيرة، من أهمِّها ما سمَّوه 'الْمَنزِلة بين الْمَنزلتَين' ومعناها أن مُرتكِب الكَبيرة، أي الخَطيئة الخَطيرة، ليس مؤمنًا ولا كافرا، ولكنه فاسِق؛ وتلك هي الْمَنزلة بين المنزِلتين. هذه حالُه في الدنيا، أما في الآخرة فإنهم لا يُدخلونه الجنّةَ لأنّه لم يعمل بعَمل أهل الجنة، بل هو عندهم خالد مُخَلّد في النار. ولا مانع عندهم مِن تسميته مُسلمًا طالَما يُظهرُ شعائرَ الإسلام. إلاّ أنّهم لا يسمّونَه مُؤمنا، لِما جاء في القرآن مِن تفريق بين المسلم والمؤمن. وذلك لظَنّهم الخاطئ أن الْمُؤمن أرفَع درجةً من الُمسلم. وليس الأمر كذلك بدليل قوله: ﴿أَخرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنين، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِين﴾ [الذاريات 35-36] أُخرجَ المؤمنون، وكانوا كثيرين، ولكنّ المسلمين كانوا لا يتجاوزون بيتًا واحدا، وهو بيت لوط إلاّ امرأته. وكذلك الحال في العالَم منذ أقدم العصور وإلى آخر الدّهر؛ فالمسلمون أقلُّ القليل. فدلّ هذا على فضل الإسلام على الإيمان وأن كلَّ مسلم مؤمن وليس كلُّ مؤمن بمسلم. وهذا لا يُعارضه ﴿قَالَت الأَعْرَابُ: آمَنَّا! قُلْ: لَمْ تُؤْمِنُوا، وَلَكِن قُولُوا: أَسْلَمْنا! وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُم!﴾ [الحجرات 14]. فاحتجّ الجمهور بهذه الآية لِدَعوى أنّ الإيمان أعظم من الإسلام، قال ابن كثير: وقد استُفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخصُّ من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة

والجماعة[144]. وهذا خطأ، فالآية ليست في بيان المفاضلة بين الإيمان لله والإسلام له تعالى، إنما هي للمُفارقة بين الإيمان بالله والاستسلام لرسوله. فهؤلاء الأعرابُ لَم يُسلِموا لله بل للنبيّ خوفًا من السيف. قال الطبري: ذُكر أن هذه الآية نزلت في أعراب من بني أسد... قال قتادة: ﴿قَالَت الأَعْرَابُ: آمَنَّا! قُلْ: لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ لَعمري ما عَمَّت هذه الآيةُ الأعرابَ، إنّ منهم مَن يؤمن بالله واليوم الآخر، وإنما أُنزلت في حيٍّ من أحياء الأعراب اِمتنُّوا بإسلامهم على نبيّ الله، فقالوا: أسلمنا ولم نُقاتِلْك كما قاتلَك بنو فلان وبنو فلان! فقال الله: لا تقولوا: آمنا، ولكن قولوا: أسلمنا، فالإيمانُ لَم يدخُل بعدُ في قلوبكم! وقال ابن جُبَير: اِستسلَموا للنبيِّ خوفًا من السَّبْي والقَتل. وقال مُجاهد مثلَه. قال ابن زيد: استسلموا ودخلوا في السِّلْم مع رسول الله وتركوا مُحاربتَه وقِتالَه[145]. وبالجملة فقد خالَف الْمُعتزلة القرآنَ في مواضع لا حَصرَ لها، ثم ذهبوا يسَمّون أنفسَهم 'أهلَ العَدل والتَّوحيد'! وصدق أبو الطيب إذ يقول:

ومَن جهِلت نفسُه قدرَهُ رأى غيرُه منه ما لا يَرى!

تعترضُنا هنا مسألة أحدثَها علماءُ أهل السنَّة وسمَّوها 'الاستثناء في الإيمان'، وذلك قولُ أحدِهم 'أرجوا أن أكونَ مؤمنًا إن شاء الله'. لكنّهم لا يستثنون في الإسلام ولا يعترِضون على مَن يدَّعي أنّه مسلمٌ وإن لَم يكن كذلك كما هو شأن أكثر المنتَسبين إلى الإسلام. فهذا لا يُقلِقُ الفقهاءَ ولا المتكلِّمون ولا يُلقون إليه بالاً ولا يتورَّعون عنه. وهو خطأ فادِح وقلبٌ للأمور رأسًا على عَقب. وإن كان لا بدّ من الاستثناء فالإسلامُ

---

[144] 'تفسير القرآن العظيم' 389/7، دار طيبة.

[145] 'جامع البيان في تأويل القرآن'، 315/22.

أحقُّ بذلك من الإيمان. الإيمان أعمُّ من الإسلام، فكلّ مسلم مؤمنٌ وليس كلّ مؤمن مسلما، وقد بينّا في مواضع من هذا الْمُصنَّف وغيره أن أهل الكتاب مؤمنون وإن لَم يدخلوا في الإسلام، فالنَّصراني يقول بأنَّه مؤمن، كما هم عليه الموارنة والأقباط وغيرهم من نصارى العرَب، واليهودي كذلك يقول بأنَّه 'مامِنٍ' أي 'مؤمِن' بالعِبريّة، ولكنَّهم لا يدَّعون الإسلامَ لعلمِهم بأنَّه أخصّ من مجرَّد الإيمان. وذلك الصوابُ كما يدلُّ عليه القرآن في مواضع كثيرة منها أمرُ النبي محمَّد بأن يُعلن إسلامَه ﴿قُلْ: إنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين، لا شَرِيكَ لَه، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِين﴾ [الأنعام 162–163] فهو أوَّل المسلمين لأنّ الله أمره بذلك ﴿قُلْ: إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِين﴾ [الزمر11–12] فما أُمرَ رسولُ الله من قِبَل ربِّه إلا بأعلى مقام وأكمل خِصلة، أي الإسلام والذي هو فوقَ الإيمان، وبذلك تواصَى الأنبياءُ عليهم السلام ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ: يَا بَنِيَّ، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ؛ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُسْلِمُون﴾ [البقرة 132] والدينُ هنا إنّما هو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلام﴾ [آل عمران 19] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين﴾ [آل عمران 85] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفا؟!﴾ [النساء 125] فلا أحسَن ولا أعلى من الإسلام، وبذلك أُمرَ كلُّ مؤمنٍ ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُسْلِمُون!﴾ [آل عمران 102] فالإيمان شرطٌ في الإسلام. والإسلام هو كمالُ الدين لاشتمالِه على إيمانٍ وعمل وانتماء ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ: أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ! وَقُل لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ: أَأَسْلَمْتُم؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ [آل عمران 20].

لولا ذاك ما ورد في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تسعًا وثمانين مرّة، فأُتبعها أوامرُ ونواهٍ خاصَّة بالإسلام وضروريّة لبناء الإسلام في ذوات الأفراد والجماعات، ذلك أنّ الإيمان أصلٌ يقوم عليه الإسلامُ ويتفرّع منه، ولا شكّ أن الفرعَ هو المطلوب بدليل قولِه ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اُدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة 208] فقد أقرَّ إيمانَهم دون إسلامهم. قال الطبري: اختلف أهلُ التأويل في معنى 'السِّلم' في هذا الموضِع؛ فقال بعضُهم: معناه 'الإسلام'-وأورد ذلك بأسانيده عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحّاك والسُّدّي وهم أئمّة التفسير. وذكر عن الربيع بسنده أنّه 'الطاعة'. ثم قال الطبري-: وأولى التأويلات بقوله ﴿اُدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾، قولُ مَن قال: معناه 'ادخلوا في الإسلام كافة'[146]. ولا فرقَ بين القولين، فالإسلام طاعة الله تعالى ليس غير ذلك. يفيدنا هذا أنّ الإيمان شرطٌ في الإسلام وأن الإسلام هو الغاية من بعثة الرسول، وهو الدخول في دين الله على الوجه الصحيح؛ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفا!؟﴾ [النساء 125] فالإسلامُ بالإحسان تَمامُ الدين.

لكنّ جُلَّ علماء أهل السنّة، وبعد أواسط القرن الثاني، تورَّعوا عن الاتِّصاف بالإيمان، ظنًّا منهم خطأً أنّه أَرفع من الإسلام. وكأنّ مرتكب الذّنب لا إيمانَ له بالمرّة عندهم. وهذا موضع عَطَبهم وسوء فهمهم، وإلا فالأدلّة الواردة لا تنفي مُطلَق الإيمان بل تَمامَه، وذلك قولُ النبيّ «إذا زنَى الرَّجلُ خرَج منه الإيمانُ وكان عليه كالظُّلَّة، فإذا أَقلَعَ رجَعَ إليه الإيمان»[147]. وهذا في غاية الوضوح، فإن الذّنبَ والإيمان لا يجتمعان

[146] 'جامع البيان في تأويل القرآن'، 4/451-453، مؤسسة الرسالة.

[147] خرجه أبو داود والترمذي وغيرهم عن أبي هريرة، وصححه ابن حجر في 'الفتح'.

في قلب المؤمن، فالإيمان يخرُج من قلبِه طالَما هو في معصية ربِّه، فإذا خرجَ من ذنبه وتاب إلى ربِّه رجع إيمانُه.

لكنّ القوم لم يفقهوا هذا المعنى. نقل ابن تيمية عن المَروزي أنّ أحمد بن حنبل سُئل عن قول النبي «لا يَزني الزاني حين يزْني وهو مؤمن، ولا يسرِق السارقُ حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرَب الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمن ولا ينتهِب نُهبَةً ذاتَ شَرف، يرفعُ الناسُ إليه فيها أبصارَهم حين ينتهِبُها، وهو مؤمن»[148]، فقال: مَن أتى هذه الأربعة أو مثلَهنّ أو فوقَهن فهو مسلم ولا أُسمِّيه مؤمنا، ومن أتى دون ذلك أسميه مؤمنًا ناقصَ الإيمان. قلت -والقائل ابنُ تيميّة: أحمد بن حنبل كان يقول تارةً بهذا الفَرق وتارة كان يذكُر الاختلافَ ويتوقَّف، وهو الْمُتَأخَّر عنه. قال الأثرَم: سمعتُ أبا عبد الله -ابن حنبل- يُسأل عن الاستِثناء في الإيمان: ما تقول فيه؟ فقال: أمّا أنا فلا أَعيبُه فيمَن يقول أنّ الإيمانَ قولٌ وعمل ويزيد وينقُص فاستثنى مَخافةً واحتياطا، ليس على الشك؛ إنما يَستثني للعمل... قلت لأبي عبد الله: وكأنك لا ترى بأسًا أن لا يُستثنَى. فقال: إذا كان ممن يقول الإيمان قول وعمل يزيد وينقص؛ فهو أسهل عندي[149]. فأحمد بن حنبل، وإن كان يستثني في أوّل أمره، فقد مال إلى ترك ذلك في آخرِه، وهذا الذي تجبُ نسبتُه إليه لأنّه ينسخ الاستثناءَ في حقّه.

حقيقةُ المسألة أنَّه لا يُشترطُ في الإيمان ما يشترَط في الإسلام، كما يبيِّنه ما بلغنا عن الرجل الذي أتى النبيَّ بجارية سوداءَ، فقال: يا رسولَ الله، إنّ عليَّ رقَبةً مؤمنة! -أي

---

[148] خرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة.

[149] 'مجموع الفتاوى' 7/254-255، دار الوفاء.

وجب عليه أن يُعتقَ نفسًا مؤمنة، وما كان يملك غير تلك الأمة- فقال لها رسول الله «أينَ اللَّه؟» فأشارتْ إلى السَّماء بإصبَعها، فقال «فمَن أنا؟» فأشارت إليه وإلى السماء، تعني: أنت رسولُ الله. فقال النبيُّ «اِعتِقها، فإنَّها مؤمنة!»[150] وقد تكون الأمةُ كتابيّةً لَم تدخُل في الإسلام بعدُ، فإني أعرفُ عددا من نصارَى ويهود يقرُّون بوحدانيّة الله وبنبوَّة نبيِّنا ولكنَّهم ليسوا بمسلمين ولا هم براغبين في الإسلام أصلاً. قال الخطَّابي: إنما حكم النبيّ بأنها مؤمنة بهذا القدر من قولها، وهذا يكفي في ثبوت الإيمان، دون الإقرار بالشهادتين والتبرُّؤ من سائر الأديان...، وهذا القدر يَفي عِلمًا بذلك[151].

وأخيرًا اسمَع ما جاء في فضل الإسلام: ﴿وَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ: رَبِّ، أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي!﴾ ينبَغي لكلّ مَن نَضُجَ عَقلُه ونَصَح لنَفسه أن يكون وَصلةَ خَير بين والدَيه وأولاده، داعيًا ربَّه أن يُلهِمَه شكرَ نعَمِه تعالى بالعمَل الصالِح الذي يُرضي مولاه، فيتوب ويُعلِنُ إسلامَه مِن جديد بلا استِثناءٍ بل بالتَّوكيد ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِين!﴾ فذاك المُسلِم الحقُّ الذي جاءَ ربَّه بالإيمان والإسلام والإحسان فاستجاب الله لَه ووعدَه التَّجاوزَ عن الخطايا وجَزيلَ الجزاء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ،

---

[150] خرجه أبو داود والنسائي عن أبي هريرة، وله شاهد عند مسلم وأحمد عن معاوية بن الحكم صاحب الجارية.

[151] ذكره ابن الأثير في 'جامع الأصول في أحاديث الرسول' 231/1، دار البيان.

وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُون!﴾ [الأحقاف 15-16]. ومع هذا كلِّه فإني لأعلَم يقينًا أن ما بيّنتُه هنا لن يقبلَه دُعاةُ السَّلفيّة وأدعياءُ السنَّة مع أنَّه الحقّ الذي جاء به القرآن وأثبتته السنَّة؛ بل الإسلام أرفَع من الإيمان والاستثناءُ فيه بدعَة. ولا تضييقَ ولا ضيرَ علينا إن خالَفنا العلماء أيًّا كانوا، غفر الله لنا ولَهم. فالحجَّةُ ما بلَّغنا النبيُّ والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَع وإلاّ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلال!؟﴾ [يونس 32].

وكَم مِن عائِبٍ قوْلاً صَحيحًا ... وآفَـتُه مِنَ الفَهمِ السَّقيمِ

ولكِن تأخُـذُ الآذانُ مِـنهُ ... على قَدَرِ القَرائحِ والعُلُومِ!

***

كبائر الذنوب

الذَّنْبُ أو الإثم، والحَوبة والحِنث والجُرم، ألفاظٌ تقعُ على فعل شرٍّ أي فَوضى وأذى للنَّفس أو للغير. ولَمّا نَهَى اللهُ عن ذلك كانَ ارتكابُها مُخالَفة ومعصيَة وخطيئة تستلزم العقوبة التي تعقُبُها أي تأتي إثْرَها ﴿...أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَاب!﴾ [آل عمران 11] ومنه العَذاب ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَه؛ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيها، وَلَهُ عَذَابٌ مُهين!﴾ [النساء 14]. وقد يكون الذّنبُ تركَ واجبٍ أمرَ الله به، أو ارتكابَ مَحظور حرَّم الله فِعلَه. مِثالُ الأوّل ﴿قُلْ: أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوه، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُون﴾ [الأعراف 29] ومثال الثاني ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْه، نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلاً كَرِيما﴾ [النساء 31]. أمّا قوله ﴿أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينِ﴾ قد فسّره الطبري بأنّه أمرٌ بالتوجُّه بالصلاة إلى الله، لا أحدَ سواه، وبجَعل الدعاء والعمل للّه مع إخلاص الدين والطاعة، وأن لا يُخلطَ ذلك بشرك[152]. قد بيّنا في كتاب 'فهم الصلاة' أنّ أوّل ما نُبِّئَ محمَّد، أُمرَ بالصلاة، وذلك قولُه ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّك... أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى... كَلاَّ، لاَ تُطِعْه! وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب!!﴾ [الفلق 1-10] فأوَّل ما جاءه الوَحي كلَّفه بالصلاة.

بلغنا عن الحسن البَصري أنّ عثمان بن أبي العاص قدمَ مع وَفْد ثَقيف على النبي فأنزلَهم المسجدَ ليكونَ أرقَّ لقلوبهم، فاشترطوا عليه أن لا يُحْشَروا ولا يُعْشَروا ولا يُجْبَوا ولا يُستعمَلَ عليهم غيرُهم، فقال النبي «إنّ لكم أن لا تحشَروا ولا تعشَروا ولا يُستعمل عليكم غيرُكم. ولا خيرَ في دين لا ركوعَ فيه» فقال عثمان "يا رسولَ الله، علِّمني القرآن واجعلني إمامَ قومي"[153]. قولُه: يُحْشَروا بمعنى يُجمَعوا أي للجهاد، ويُعْشَروا أن تؤخذ عُشور أموالهم صدقةً، وأما: يُجبَوا، من الجِبايَة أي دَفع الخَراج. طلب وَفدُ ثقيف أربعةَ شروط وهي: تركُ الجهاد وتوزيع الصدقة بينهم وترك الخراج وأن يكون أميرهم منهم، فوافقَهم النبيُّ عليها، ثمّ أكَّد عليهم الصلاةَ فقال «لا خيرَ في دِين ليس فيه رُكوع» أي لا فائدةَ في دين لا صلاةَ فيه.

الصلاةُ عمادُ الدين الذي يقوم عليه ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِه، وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُون﴾ [الأنعام 92]، فقد بلغنا عن مُعاذ بن جبل قال: كنتُ مع النبي في

---

152 'جامع البيان' 380/12.

153 خرجه ابن أبي شيبة وأحمد والطيالسي والطبراني في 'الكبير'، وحسَّنه الأرناؤوط.

سَفَر، فأصبحتُ يوما قريبًا منه ونحن نَسيرُ، فقلتُ "يا رسولَ الله، أخبِرْني بعَمل يُدخِلُني الجنةَ ويُباعِدُني عن النار" فقال «لقد سألتَني عَن عَظيم، وإنه ليَسيرٌ على مَن يسَّرَه الله عليه! تَعبدُ اللهَ ولا تشركُ به شيئا، وتقيمُ الصلاة وتُؤتِي الزكاةَ وتصومُ رمضانَ وتَحُجُّ البيت!» ثم قال «ألاَ، أدلُّك على أبواب الخير؟! الصَّومُ جُنَّة، والصدقةُ تُطفِئُ الخطيئةَ كما يطفِئ الماءُ النار. وصلاةُ الرّجُل من جَوْف الليل!» ثم تلا قولَه ﴿تَتجَافَى جُنُوبُهُم عَنِ الْمَضَاجعِ، يَدْعُونَ رَبّهمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون﴾ [السجدة 16] ثم قال «ألا أُخبِرُك برأس الأمر كلّه وعَمودِه وذِرْوَةِ سَنامِه؟! رأسُ الأمر الإسلام، وعَمودُه الصلاةُ، وذِروةُ سَنامه الجهاد» ثم قال «ألا أُخبرك بمِلاك ذلك كلِّه؟! فأَخذَ بلِسانه وقال «كُفَّ عليك هذا!» فقلتُ "يا نبيَّ الله، وإنَّا لَمُؤاخَذون بما نتكلَّم به؟" فقال «ثَكِلَتْك أمُّك يا معاذُ، وهَل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلاَّ حَصائِدُ أَلسِنتِهم؟!»[154] هذه العِبارة جدُّ بديعة وغاية في قوّة التعبير، كأنّ الناسَ يأتون يومَ القيامَة وآثامُهم القوليّة مُعلَّقةٌ بألسِنتِهم فيَكُبُّهم ثِقَلُها في نار جهنّم!

وقد جاء الأمرُ في القرآن بإقامة الصلاة اِثنتَي عشرة مرة، فلا جرمَ أن يكون الوعيد على تركها شديدا: ﴿...مُنيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِين!﴾ [الروم 31] ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ؛ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّا!﴾ [مريم 59] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبين. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: اِرْكَعُوا! لاَ يَرْكَعُون؛ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِين!﴾ [المرسلات 47-49] ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُون!﴾ [الماعون

[154] خرجه التِّرمذي في الإيمان وصحّحه، ورواه ابن ملجه وأحمد وصححه الأرناؤوط.

5-4] ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ؟ قَالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّين!﴾ [المدثر 42-43]. فالغيّ والويل وسقر أنواع من العقاب الشديد الذي ينتظر تاركي الصلاة.

ولَمّا صرَّح القرآن بكُفر تارك الصلاة، زاد النبيُّ ذلك بيانًا في أحاديثَ كثيرةٍ جدًّا. منها قوله الذي لا يحتَمل أدنى تأويل «إنّ بين الرّجُلِ وبين الشركِ والكُفر تركَ الصلاة»[155] و«بيننا وبينهم تركُ الصلاة، فمَن تركها فقد كفر» و«إنّ العَهدَ الذي بيننا وبينهم الصلاة؛ فمن تركَها فقد كفر»[156] و«أوّل ما تَفقِدون من دينكم الأمانة وآخِر ما تفقِدون الصلاة»[157]، قال أحمد "كلُّ شيء ذَهبَ آخرُه لم يَبق منه شيء". وقال عمر "لا حَظَّ في الإسلام لِمَن ترك الصلاةَ"[158].

وقد صرَّح الصحابةُ جميعًا أن لا دينَ بغير صلاة. قال عليٌّ "مَن لَم يُصلِّ فهو كافِر"[159] وقال ابن مسعود "مَن لم يُصلِّ فلا دينَ له"[160]، وقال عبد الله بن شَقيق التابِعي "لم يكن أصحابُ رسول الله يرون شيئًا من الأعمال تركُه كفرٌ غيرَ الصلاة"[161]. وهذا إجماعٌ صريحٌ قائمٌ دائم، كما قرَّره محمد بن نصر الْمَروَزيُّ: دلَّ كتابُ الله وسُنَّةُ رسوله على

---

[155] خرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، عَن جاير بن عبد الله.

[156] خرجه النسائي والترمذي وابن ماجه وأحمد عن بريدة بن الحُصيب.

[157] نقله الهيثمي عن ابن مسعود وقل: خرجه الطبراني، وصحَّحه.

[158] خرجه مالك والمروزي في والخلال في ’السنَّة‘ والآجُرِّي في ’الشريعة‘.

[159] خرجه المروزي وابن أبي شيبة في والخلال والآجرِّي.

[160] خرجه والمروزي والخلال وابن بطّة في ’الإبانة‘ وابن أبي شيبة

[161] خرجه الترمذي والحاكم.

تعظيم قَدْر الصلاة وإيجابِ الوَعد بالثواب لِمَن قام بها، والتغليظِ بالوَعيد على مَن ضيَّعها، والفرقِ بينها وبين سائر الأعمال في الفضل وعِظَم القَدْر. وجاءت الأخبارَ عن النبي في إكفار تارِكها وخروجه مِن الْمِلّة وإباحة قتال مَن امتنع من إقامتها، ثم جاءنا عن الصحابة رضي الله عنهم مثلُ ذلك. و لم يَجِئْنا عن أحد منهم خلافُ ذلك![162].

فقدرُ الصلاة عظيمٌ ولكن الدين غيرُ مَقصور عليها، فالزكاة والصوم والحجّ من الفروض التي لا يجوز تركُها. ويدل عليه أهميّتها: ﴿لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْت، مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِين﴾ [آل عمرا 97] قولُه ﴿مَن كَفَر﴾ قال الطبري: مَن جَحد ما ألزمه الله مِن فرض حَجّ بيته، فأنكره وكفر به؛ فإن الله غنيٌّ عنه وعن حجه[163]. فالكفر هنا ليس بعامّ ولكنَّه مختصٌّ بفريضة الحج، ولو كان تاركُها مقرًّا بها لَحجَّ. وتلك حال كثيرٍ مِمّن يصلّون ويصومون ويتصدّقون، لكنّهم لا يحجّون مع قُدرَتهم على الحجّ. لا يعني تركُهم كُفرًا مُطلَقًا وأنّهم لا يؤمنون بالله، وإنّما أنكروا رُكنًا من أركان الدين مع مُحافظتهم على غيره. وكذلك الصلاة، فنسبةُ المصلّين في مجموع المنتسبين إلى الإسلام قليلةٌ مقارَنةً بتاركي الصلاة، ولكنَّ تَركهم لا يمنعهم من أنّهم يصومون ويتشهَّدون ويستغفرون ويدعون الله ويصلُّون على نَبيّه. وقد بيَّنّا في غير هذا الموضع أن المسلمين قاطبةً جاهلون لِمعنى الزكاة الشرعي وأنهم جميعًا مطالَبون بها، أغنياءَ كانوا أم فُقراء، وذلك في كل لَحظة من حياتهم ﴿قُل: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِد، فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوه! وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ

---

[162] 'تعظيم قدر الصلاة' 925/2 مكتبة الدار، المدينة.

[163] تفسير الطبري 47/6.

الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُون!﴾ [فصلت 6-7] في قوله ﴿وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أقوال، فعن عبد الله بن عمر أن معناه: لا يُزكّون أعمالَهم، وقال قتادة: لا يؤمنون بالزكاة، وقال ابن عباس: الذين لا يُعطون اللهَ الطاعةَ التي تُطهِّرهم وتزكِّي أبدانَهم، ولا يوَحِّدونه. وقال آخرون أن معنى ذلك: الذين لا يُقرّون بزكاة أموالهم التي فرضها الله فيها ولا يُعطونَها أهلها[164]. وهذه معانٍ متقاربة، ترجع إلى كون تاركي الزكاة مشركين، أي مخلّطين بين الإيمان والكُفر وأن دينَهم غير خالص وأن توحيدهم مَشبوه. والحكمُ ذاتُه ينطبق على تاركي الصلاة أو الحجّ وإن كانوا قائمين بغير ذلك من أوامر الله تعالى التَّعبُّديّة.

هذه وغيرُها شُعَب من الإيمان، والواقع أن لا أحدَ قادرٌ على القيام بكلّ شعائر الدين كما يبغي. فالمؤمن، أيُّ مؤمن كان، لا مَحالةَ يخلِط بين الإيمان والكفر في غالب أحواله، كما بيّنه إبراهيم لقومه: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَال: أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ؟! وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئا، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْما، أَفَلا تَتَذَكَّرُون؟! وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُم، وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانا؟ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون؟﴾ والجواب: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْم؛ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُون!﴾ ثمّ أيّده القرآن ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا، آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ؛ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيم!﴾ [الأنعام 81-83] ﴿يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْم﴾ أي يَخلِطوا إيمانَهم بشِرك، كما في قوله ﴿إِنَّ

---

[164] تفسير الطبري 430/21.

الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان 13] والشرك كُفرٌ بلا شكّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء، وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّه فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيما!﴾ [النساء 48].
الآن وقد اتَّضح لك هذا، فاعلَم أن جُمهورَ علماءِ أهل السنَّة والجماعة، من حنابلة وأشاعرة، مُفسِّريهم ومحدّثيهم وفقهائهم ومتكلِّميهم ومُتصوِّفتِهم، قد ردّوا ظاهر الآيات التي سقناها وكذا أحاديثَ جاءَ فيها كفرُ مَن وَبق فاقترَف ذنبًا كبيرا، فتأوّلوها وحملوها على التشبيه له بالكفار لا على حقيقتها. فإنّا نجد مثلاً أحدَ كبار الحنابلة وهو ابن قُدامة المَقدسي يقول في حديث «سِبابُ الْمُسلِم فُسوق وقتالُه كفر»[165] و«كفرٌ باللّٰه تَبرُّؤٌ مِن نَسَبٍ وإن دَقَّ»[166] و«مَن قال لأخيه "يا كافِر!" فقد باءَ بها أَحَدُهُما»[167]: الأحاديث المتقدمة تُؤخَذ على سبيل التغليظ والتشبيه له بالكفار، لا على الحقيقة[168].
وعجيبٌ غريب أن يُورد أحدٌ هذه النصوص، الْمُتضافِرةِ المتظاهرةِ على نفس المَعنى، ثم يُخرجها كلَّها من نِطاق الأَحكام الدقيقة الْمُلزِمة إلى فضاء الوَعْظ وترقيق القُلوب! وهذا الفَهم غلَط ولا رَيب، ولو كان صوابًا لسقط مَدلول نصوص الأحكام برُمَّتها ولساغ لكلّ مَن شاء أن يُحيلها عمّا أراده اللّٰهُ منها، ولَتعطَّل الدينُ جُملة. يقول اللّٰه ﴿اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُم؛ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا!﴾ [التغابن 16] فلا سبيل إلى تقوى اللّٰه إلا بالسَّمع وبالطاعة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، وَاحْذَرُوا!﴾ أن تسمَعوا وتُطيعوا غير

---

[165] خرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد عن ابن مسعود
[166] خرجه أحمد عن ابن عَمرو والدارمي بسند صحيح عن أبي بكر موقوفًا.
[167] خرجه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي، عن عبد الله بن عمر.
[168] 'المغني'، بفصلين قبل صلاة الجنائز، 353/4، موقع الإسلام.

الله ورَسوله ﴿فَإِن تَوَلَّيتُمْ﴾ وذَهبتُم تبحَثون عن معنَى ما بلغَكم عن الله ورسوله في غير القرآن والسنّة ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِين!﴾ [المائدة 92] أي بصورة لا تَفتَقِر إلى زيادة بيانٍ من أحد بعدَه! ومُبين على وزن مُفعِل مِن بانَ أي ظهرَ واتَّضَح وتميَّز، وعليه فمعنى ﴿الْبَلاَغ الْمُبِين﴾ إنما هو إيصالُ خِطاب الله الذي يُظهِر الهُدى ويوضِّح السبيل ويفرِّق بين الحقَّ والباطل ويميِّز ويباعِد بينَهما.

تِلكَ رسالَة الله إلى الناس؛ تُظهِر حقائقَ الأمور بوُضوح تامّ كي لا تلتَبس على أحد بعد أن بيَّنها رُسُلُه ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِين: لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُل!﴾ [النساء 165] وتلك بالذات هي وَظيفةُ رَسول الله؛ فواجبُه إيصالُ رسالةِ ربِّه إلى الناس ليَفهموها عنه جميعا، كما قال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ: لِيُبَيِّنَ لَهُم!﴾ [إبراهيم 4] بنفسه هُوَ، مِن غير حاجة إلى غيرِه. فالنبي مُبلِّغٌ عن الله ومبيِّنٌ لِما يُريده تعالى من عباده، كما هو ظاهر في قوله صلى الله عليه وسلم «إنّه لم يكن نَبيٌّ قَبلي إلاّ كان حقاًّ عليه أن يَدُلّ أُمَّته على خَيرِ ما يَعلمه لهم، ويُنذِرَهم شَرَّ ما يعلمه لهم!»[169]. وإنّ محمدا رسولَ الله لأعلَمُ وأفهَمُ وأصدقُ وأشفَقُ وأنصَحُ وأفصح مَن بلّغ عن الله تعالى! فلا حاجة بنا إلى مُترجمين عنه، بل ما على الناس إلا الاستماع والطاعة والاتِّباع. وقد سبق بيانُ أنّه مهما ثبت عن نبيِّنا خبرٌ بشُروطه الْمُقرَّرة لدى الْمُحدِّثين، وجبَ أخذُه بِمُقتضَى ظاهِرِه اللُّغويّ فورًا وبلا تَوقُّف، ولا يجوزُ انتِظارُ قول قائلٍ فيه. فإذا جاء بعد ذلك مَزيدُ علم فأهلاً وسهلا بِمَزيدِ العلم، أما إخراجُ النصوص عن

[169] جزء من حديث خرجه مسلم وابن ماجة وأحمد عن عبد الله بن عَمْرو.

مُقتضاها لقول عَمرٍو أو زيد فلا ولا كرامة! النهي عن ذلك واضحٌ صريح: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِه!﴾ [الحجرات 1] قال ابن عباس: لا تقولوا خِلافَ الكتاب والسنّة![170] ولقد نهى النبيُّ عن تَعقُّب أقوالِه نهيًا صريحا، فقال رادِعًا وزاجِرا «دَعوني ما تركتُكم؛ إنما هلَك مَن كان قبلَكم بسُؤالِهم واختلافِهم على أنبيائِهم؛ فإذا نَهَيتُكم عن شيء فَاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فَأْتوا منه مَا اسْتطَعتُم![171]».

أما الأخبار التي ساقَها ابن قُدامة الحنبلي وتأوّلها، فقد نَهى إمامُه أحمد بن حنبل عن تأويلها. قال: «سِباب المسلم فُسوق وقتاله كفر» و«مَن قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدُهما» و«كَفرَ بالله مَن تبرّأ مِن نسب» و«إذا التقَى المسلمان بسيفَيهما فالقاتل والمقتول في النار»[172] و«لا تَرجِعوا بعدي كُفّارًا يَضرب بعضُكم رِقابَ بعض»[173] ونحوُ هذه الأحاديث مما قد صحَّ وحُفِظ؛ فإنّا نُسَلِّم له وإن لم نعلم تفسيرَه، ولا نتكلَّم فيه ولا نُجادِل فيه ولا نفسِّر هذه الأحاديث إلا بمثل ما جاءت ولا نردُّها إلا بأحسنَ منها![174] يريد الإمام أحمد الإحالَة على قوله ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث﴾ [الزمر 23] وفيه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُم! فَإِن

[170] خرجه الطبري في تفسيره 272/22.

[171] خرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة.

[172] خرجه البخاري ومسلم عن الأحنف بن قيس، والتي قبلَها قد تم تخريجها فيما قبل.

[173] خرجه البخاري عن ابن عباس وله شواهد عن ابن عمر عند مسلم وغيره.

[174] ابن أبي يعلى نقلا من 'رسالة أصول السنّة' لأحمد بن حنبل في ترجمة عبدوس بن مالك، 'طبقات الحنابلة' 244/1، دار المعرفة.

تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ مع أولي الأمر مِن حُكّامكم أو عُلمائكم[175] ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ، إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾ [النساء 59]. لكنّ ابن قُدامة خالَفه إمامَه وأوَّلها وحادَ بها عن مُراد الرسول، وغفل عن قوله: ﴿رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ، إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا!﴾ [النساء 59] فهذا هو التّأويل الصحيح الحَصيف، وما عداه فعاطلٌ باطل، كما بيّنه حنبليٌّ آخَر وهو ابنُ قيِّم الجَوزيّة بقوله: هذا الموضع مِما يغلِط فيه كثيرٌ من الناس غَلَطًا قَبيحا؛ فإنّ الْمَقصودَ فَهْمُ مُرادِ الْمُتكلِّم بِكلامه. إذا قيل: معنى اللفظِ كذا وكذا؛ كان إخبارًا بالذي عَنَاه الْمُتَكلِّمُ. فإن لم يكن هذا الْخَبَرُ مُطابِقا لما أراده الْمُتكلِّم كان كَذِبًا عليه! فقول القائل: نَحمِلُه على كذا أو نتأوَّله بكذا، إنّما هو مِن باب دَفعِ دَلالَةِ اللّفظِ على ما وُضِعَ له. فإنَّ مُنازِعَه لَمّا اِحتَجَّ عليه بِه ولَم يُمكِنْه دَفعُ وُرودِه، دَفَعَ مَعناهُ وقال: أَحمِلُه على خِلافِ ظاهِرِه![176]. كيف وقد قال النبي «إنّ كذِبا عليَّ ليس ككَذب على أحد؛ فمَن كذَب عليَّ مُتعمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقعدَه مِن النار!»[177].

فالتأويل الباطل كذبٌ على الله ورسوله. ولا يلجأ إلى التأويل إلا مَن عَجز عن دَفع لَفظِ النص لثبوت نَقلِه وتداوُلِه بين الناس، وإلا لكان إخفاؤُه أهونَ عليه مِن تجشُّم التحريف والتَّعرُّض لوَصمة دفع معناه والكشف عن سوء قَصده أو قلّة فهمه لكلام أفصح العرب قاطبةً، صلى الله عليه وسلّم، خاصَّةً وأن هذا لا يفوت مَن سلِم من

[175] قل الطبري: قل بعضهم: هم الأمراء. وقل آخرون: هم أهل العلم والفقه.8/497-499.

[176] 'الصواعق المُرسَلة' ص31-32، المكتبة العصريّة، بيروت.

[177] خرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن المغيرة بن شعبة.

آفة التقليد. تحريفُ النص عن ظاهره حرامٌ قطعًا وتشبُّه ببني إسرائيل ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ "سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا" وَ "اِسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ" وَ "رَاعِنَا"، لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" وَ "اِسْمَعْ" وَ "انظُرْنَا"، لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ. وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ؛ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلا!﴾ [النساء 42] فإنهم لا يؤمنون بجميع ما بَلغهم من الله بل ببعضِه فقط ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟! فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا! وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون!﴾ [البقرة 85].

ولمّا كان الجزاءُ من جنس العمل، اِنطبق الوعيدُ على كلِّ مَن فعل ذلك، سواءً كان يهوديًّا أو نصْرانيًّا أو مسلما ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرا!﴾ [النساء 123]، وسواءً كانوا عُلماء أو مُقلِّدين، فكلُّهم آثِمون لكونهم ﴿اِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ... وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدا، لا إِلَهَ إِلاَّ هُو، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُون! يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِم، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُون!﴾ [التوبة 31-32].

إذا فهِمتَ هذا، فاعلم أنّ قَول النبي «كفرٌ بالله؛ تَبرُّؤٌ مِن نَسَبٍ وإن دَقَّ» جِدّ واضحٌ لا يحتاج إلى زيادةِ بيان، وهو مِن القرآن الذي نُسِخَت قراءتُه وبقِيَ حُكمُه. فقد بلغنا عن عمر بن الخطاب أنه قال أواخرَ حياته في إحدى خُطب الجمعة: كُنا نقرأ فيما نقرأ مِن كتاب الله أن ﴿لاَ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُم؛ فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِكُمْ أَن تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُم﴾ أو ﴿إِنّ

كُفْرًا بِكُمْ أَن تَرْغَبُوا عَنْ آبائِكُم!﴾[178] قالها في جَمٍّ غَفير من الصحابة و لم يُعترَض عليه. ذلك لأن للرَّحم حقًّا أوجبه الله على نفسه كما أخبر به النبيُّ، قال «خَلَقَ الله الْخَلْقَ، فلمَّا فَرَغَ منه قامَت الرَّحِمُ فأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحمن، قالَت "هذا مَقامُ العائِذِ بكَ مِن القَطيعَة!" قال "ألا تَرضَينَ أن أَصِلَ مَن وَصَلَكِ وأَقطَعَ مَن قَطَعَك؟" قالَت "بَلى يا ربّ" قال: فَهُو لَكِ!»[179] ومَن قطعه الرحمنُ فويَحه، قد انصرَمت حِبالُه وذهبت رِيحُه؛ ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِه، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَل، وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْض؛ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون!﴾ [البقرة 27] إلاّ أن يتوبوا إلى الله ويُجدّدوا إسلامَهم ويصِلوا ما أمِروا به ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَح؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْه!﴾ [المائدة 39]. وأمّا حديثُ «مَن قال لأخيه "يا كافرُ!" فقد باءَ بها أحدُهما» فإنّ الأُخوّة الواردة هنا تقضي بأنهما في الظاهر مسلمان؛ فإمّا أن يكون الْمَقول فيه مُنافِقًا في واقع الأمر، فلا شيءَ على القائل لأنه أصاب الحقَّ، وإمّا أن يكون الْمَقول فيه مُسلِمًا حقّا، فيكون القائل معارِضًا لله الذي هدى صاحبَه للإسلام، وقد بيَّن هذا رسولُ الله بقوله «لا يرمي رجلٌ رجلا بالفُسوق، ولا يرميه بالكفر إلا ارتدَّت عليه إن لم يكن صاحبُه كذلك!»[180] لأنّ مُعارضة الله كفرٌ بلا خِلاف، وقد أخبرنا النبي أنّ «رجلا قال: والله لا يغفر اللهُ لفُلان! وإن الله تعالى قال: مَن ذا الذي يتألّى علَيّ أن لا أغفِر لفلان؟!

[178] من حديث طويل خرجه البخاري وابن حبان وأحمد عن ابن عباس عن عمر.

[179] خرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة.

[180] خرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي ذرٍّ الغِفاري.

فإنّي قد غفرتُ لفلان وأحبطتُ عملَك!»[181] والتألّي مَأخوذٌ مِن 'ألاّ' وهو هنا قسَمٌ على إقصاءِ أحدِ عباد الله من رحمته تعالى، وهذا تعدٍّ سافرٌ يستَوجب إحباطَ عمل صاحبه، أي كُفرَه هو. وعلى مَن فعلَ هذا أن يتوب ويُجدّدَ إيمانَه.

أمّا حديث «سِبابُ الْمُسلِمِ فُسوق، وقِتالُه كُفر» فرواه البخاريُّ في الإيمان، تحت باب: 'خَوفُ الْمُؤمِن مِن أن يَحبط عملُه وهو لا يَشعُر. وقال إبراهيمُ التَّيْمي: ما عرَضتُ قَولِي على عَملي إلاّ خَشِيتُ أن أكون مُكذِّبا! وقال ابنُ أبي مُلَيْكَةَ: أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، كلُّهم يَخافُ النِّفاقَ على نفسه؛ ما منهم أحدٌ يقول أنّه على إيمان جبريلَ وميكائيلَ! وعن الْحَسن أنه قال: ما خافَه إلاّ مُؤمِنٌ، ولا أمِنَه إلا منافقٌ! وما يُحذَرُ مِن الإصرار على النِّفاق والعِصيان مِن غير تَوبة، لقول الله تعالى ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون﴾ [آل عمران 135] حدَّثنا مُحمدُ بنُ عَرعَرَةَ قال: حدّثنا شُعْبَةُ عن زُبَيد قال: سألتُ أبا وائِلٍ عن الْمُرجِئَةِ، فقال: حدَّثني عَبدُ الله أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلّم قال «سِبابُ الْمُسلِمِ فُسوقٌ، وقِتالُه كُفْر!»' انتهى. وما عقد البخاريُّ هذا البابَ إلاّ للردِّ على الْمُرجِئَة، كما بيَّنه ابن حَجَر، قال: هذا البابُ مَعقُودٌ للرَّدِّ على الْمُرجِئة خاصَّة![182] وهذا ظاهر، فلمّا سئل شَقيقُ بن سلَمةَ صاحبُ ابنِ مسعود عن الْمُرجئة روى هذا الخبر. فأراد البخاري أن يُبيّن أنّهم، بالإضافة إلى فصلِهم الأعمالَ عن الإيمانِ، يُرجِّحون الرجاءَ في الله على خَوفِه تعالى، فجاء بما يخالفُ قولَهم مِن آثار السلف الصالِح، ثم ساق الحديث دليلاً على انحراف المرجئة عن سواء السبيل.

---

[181] خرجه مسلم عن ندب بن عبد الله البَجلي.

[182] 'فتح الباري' 110/1، دار المعرفة، بيروت.

لا يعني الرجاءُ شيئًا إن لَم يُرافقه الخوفُ والحذَر؛ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانتٌ آناءَ اللَّيْلِ سَاجدًا وَقَائِما، يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّه! قُلْ: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُون؟! قُل: يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُم!﴾ [الزمر 9–10] ذلك لأن العلم بالله يقتضي خشيَتَه تعالى وتَقواه كما هو واضح في قوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ!﴾ [فاطر 28] والأدلّة على هذا كثيرةٌ جدّا، منها قوله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ: ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه!﴾ [البينة 8] وقال جلَّ وعلا ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتان!﴾ [الرحمن 46] لذا قال النبيّ «والله ما أدري، وأنا رسولُ الله، ما يُفعل بي ولا بكم!»[183] وقال صلى الله عليه وسلّم «يا أُمّةَ محمد، والله لو تعلمون ما أعلمُ لَضحِكتم قليلا ولَبكَيتم كثيرا!»[184] وقال «أمَا والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له!»[185] فلا يكون الرجاء إلا إذا سبقَه الخَوف، ولا يصحُّ الخوف بلا رَجاء، وحاصلُهما: تَقوى الله تعالى حقَّ التَّقوى.

ليس يرجو اللهَ إلا خائِـــفٌ مَن رجا خافَ ومَن خاف رجَا!

قلَّما يَنجو امرُؤٌ مِن فِـــتنَةٍ عَجَـــبًا مِمَّن نَجا كَيفَ نَـــجَا؟!

وأراد البُخاريّ أيضًا أن يبيِّن بحديث «سِباب الْمُسلِم» أن العملَ من الإيمان. فالسبُّ من أعمال اللسان وهو مع ذلك فُسوق، والقتالُ من أعمال الجوارح وهو كُفر؛ وهكذا حملَ الحديثَ على حقيقته بدون تأويل، وإلا لَما استقام له دليلاً للردِّ على

---

[183] خرجه البخاري والنسائي في 'السنن الكبرى' عن أم العلاء.

[184] خرجه البخاري عن عائشة وخرجه عن أبي هريرة وأنس وكذا مسلم وغيرُهما.

[185] خرجه مسلم ومالك وأحمد عن عمر بن أبي سَلَمةَ.

المرجئة. وعليه فمَن سَبَّ مُسلِما ظُلما فقد فَسقَ ومَن قتلَ مُسلِما ظُلما فقد كَفَر حَقيقةً وحبِطَ كلّ ما أسلَفه مِن عمل صالِح. والإحباطُ نتيجةٌ وسببُه الرِّدّة أو الكفر أو الشِّرك أو النفاق أو الفسوق.

ثبتَ عن أُسامةَ بنِ زيد أنه قال: بعثَنا رسول الله إلى الحُرَقَة مِن جُهَينة فصبَّحنا القومَ فهزَمناهم ولَحِقتُ أنا ورَجلٌ من الأنصار رجُلا منهم، فلما غَشَيناه قال "لا إلهَ إلا الله!" فكفَّ عنه الأنصاريُّ، وطعنتُه برُمْحي حتى قتلتُه. فلما قدِمنا، بلَغ ذلك النبيَّ فقال لي «يا أسامةُ، أَقتلتَه بعد ما قال 'لا إله إلا الله'؟!» قلتُ "يا رسولَ الله، إنما كان مُتعَوِّذا!" قال «أقتَلته بعد ما قال 'لا إله إلا الله'؟!» قال أسامة: فما زال يُكرِّرها عليّ حتى تَمنَّيت أنّي لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم![186]. يرجعُ حَيرةُ أسامةَ وحُزنُ النبي إلى قول الله تعالى ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدا، فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ، خَالِدًا فِيهَا، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَعَنَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيما!﴾ [النساء 93] واعلَم أوّلاً أنّه لم يأتِ في القرآن وعيدٌ بمثل هذه الشِّدَّة، والمؤمن هنا مَن أظهر الإسلام كما قال النبيُّ «لَزَوالُ الدنيا أَهوَنُ عِند الله مِن قَتلِ رَجُلٍ مُسلم!»[187] فهذا لا يَدَع شُبهَةً في كُفرِ قاتِلِ الْمُسلِمِ ظُلمًا، وقد أكّده النبي بقوله «كلُّ ذنب عسى الله أن يغفِره إلا مَن مات مُشركا، أو مؤمنٌ قَتل مؤمنًا مُتعمِّدا!»[188] أمّا توبةُ الْمُشرك فمَرْجوَّة جدًّا ويكفيه أن يَدخُل في الإسلام بجميع شروطه الظاهرة والباطنة، وأما توبةُ القاتل ظُلمًا فإني لا أَرى لها وجها وإن أفتى فيها الْمُفتون!

---

[186] خرجه البخاري ومسلم، وقولُه: مُتعوِّذًا أي عائذًا ومُحتميًا بها من القتل، ليس إلاّ.

[187] صحيح خرجه النسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

[188] خرجه أبو داود وابن حبان عن أبي الدَّرداء، والنسائيُّ وأحمد عن معاوية.

سُئل عبد الله بنُ عبّاس عن "رَجل، قَتل مؤمِنًا مُتعمِّدا، ثم تابَ وآمَن وعمِل صالِحًا ثمَّ اهتَدَى" قال "وَيحَكَ، وأنَّى له الْهُدَى؟! سَمِعتُ نَبيَّكُم يَقول «يَجيءُ المَقتولُ مُتَعَلِّقاً بالقاتِل فيقول "يا ربِّ، سَلْ هذا: فِيمَ قَتَلَني؟!"» واللهِ، لقد أَنزَلَها الله على نَبيِّكم وما نَسخَها بعدَ إذْ أنزلها!" وَيحك، وأنّى له الهُدى؟!"[189] ويعضُده ما بلغنا عن أنس قال: قَدِمَ على النبي نَفَرٌ مِن عُكَلٍ فأَسلَموا. فَاجتَوَوا الْمَدينَةَ، فأَمَرَهُم أن يَأتوا إبلَ الصَّدقةِ فَيَشرَبوا مِن أبوالِها وألْبانِها، فَفعلوا فَصَحُّوا. فارتَدُّوا وقَتَلوا رُعاتَها واستاقُوا الإبلَ. فبَعَثَ في آثارِهم فأُتِيَ بِهم، فَقَطَع أَيدِيَهم وأَرجُلَهم وسَمَل أَعيُنَهم، ثُمّ لم يَحسِمْهُم حتى ماتُوا![190]. فلَم يستَتِبْهم النبيُّ، بل حكمَ فيهم بأشنع القتل عملا بقول الله ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادا: أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ؛ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيم!﴾ [المائدة 33] فبيّن تعالى أنّ قتلهم ليس حدًّا ولا زكاةً لهم، وأنّ تعدّيَهم على المسلمين ارتدادٌ وكفر. ولو كان قتلُهم حدًّا لَم ينَلْهم في الآخرة عذابٌ لقول رسول الله في وَصف الحدود الشرعية «مَن أصابَ مِن ذلك شيئًا فعُوقِب به؛ فَهو كفّارتُه!»[191] أي أنّه لا تلحَقُه في الآخرَة تَبعة.

وعليه فقول الله ﴿الَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُون، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا: يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ

[189] خرجه أحمد والنسائي والترمذي عن سالِم بن أبي الجَعْد عنه وصححه الأرناؤوط.

[190] خرجه البخاري ، ومسلم وغيره. قوله اجتَوَوا المدينة أي لم يوافقهموُّها.

[191] جزء من حديث خرجه البخاري ومسلم.

مُهَانا، إِلاَّ مَن تَاب...﴾ [الفرقان 68-70] فهذا الاستِثناءُ ثابت لِمن أشرك ولِمن زنَى، أما من قتل مسلمًا مُتعمِّدًا فاستِثناؤه منسوخٌ بقوله ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدا؛ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيها، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْه، ولَعَنَه...﴾ [النساء 93] وسورة النساء نزلت بعد الفرقان فهي ناسخة لها. وكذا قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾ [النساء 48] فإنّها مُقيَّدة بالآية 93 من نفس السورة، فإنّها نزلت بعدها، لذا قال عبد الله بن مسعود عنها "إنها لَمُحكَمَة، وما تَزدادُ إلاّ شِدَّةً!"[192] ثم لا حَجْرَ على الله بعد ذلك، فإنّه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء! وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِير!﴾ [المائدة 18] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيد!﴾ [المائدة 1] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء!﴾ [الحج 18] فإن شاء عاقبَ وإن شاء رحم.

فإن قيل: أليس في ديننا أن الله يغفِر الذنوبَ جميعا؟ وأهلُ السنّة والجماعة، ويبدو أنّك منهم، لا يجعلون الكبيرةَ كُفرا! قلتُ: هنا مسألتان: إحداهما أنّ الله يغفر الذنوب حقًّا، لكنه لا يُعدِمها. فما قضاه الله كائنٌ أبدًا ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ "كُنْ!" فَيَكُون!﴾ [مريم 35] لا ينعدِمُ. والأفعالُ التي قضاها على أيدي عباده مُخلوقةٌ بدليل ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُون﴾ [الصافات 96]؛ فكل ما تحقّق وجودُه من أعمال فإنّه يبقَى أبدا. وحسناتُ العباد وسيِّئاتُهم أعمالٌ، فلا تَنعدم بعد حُدوثِها وذلك قولُه ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ؛ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ "يَا وَيْلَتَنَا، مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا؟!" وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدا!﴾ [الكهف 49].

---

[192] خرجه الطبري في تفسيره بسنده عن الشعبي عن مسروق عن ابن مسعود 68/9.

ولكن قد يقع على الحسنات الإحباطُ، كما سبق قريبًا، فمَن كان مسلِمًا ثم ارتدَّ ومات على الكُفر، أحبَط الله عملَه لقوله ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ: فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ!﴾ [البقرة 217] أي أبطِلَ أثرُها وجزاؤها. ومعنى هذا أن أعيانَ أعمالِهم باقيةٌ والذي انعدم إنما هو وزنُها. ويوضِّحه قوله ﴿قُلْ: هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعا؟! أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُم، فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنا!﴾ [الكهف 103–105] وإقامةُ الوزن مَنحُ قيمة، ولَم يُقم الله لأعمالهم وزنًا، فلا قيمَةَ لَها. وكذلك قولُه ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ، فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورا!﴾ [الفرقان 23] الهَباءُ هو الغُبار والأَجرام الصغيرة التي يُظهِرُها شُعاعُ الشمس عبرَ الكُوّة في البيت المظلم، فهي مَوجودة ولكنّها لا تزن شيئًا ولا قيمةَ لها. ويزيدنا بيانًا قولُه ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ: أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اِشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ!﴾ [إبراهيم 18] فالأعيان كائنة موجودةٌ ولكنّ أقدارها وقيمَها وأوزانَها مَعدومة.

فما أحبَطه الله من الحسنات لا ينعدم بل يذهب أثرُه فلا تبقى له قيمة. وكذلك السيئاتُ لا تنعدِم، ولكن يذهب أثرُها وإن بقيت أعيانُها موجودة، ويدلّ عليه قولُ رسول الله «اِتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأَتبِع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالِق الناسَ بِخُلُق حَسن!»[193] فالحسنة تَمحو السيِّئة أي تُخفيها ولكن لا تُعدِمها. ومَحْوُ الشيء في

---

[193] خرجه الترمذي وحسّنه والدارمي وأحمد عن أبي ذر.

اللغة هو إخفاءُ عينِه حتى لا يُرَى، كما في قوله ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء 12] آية النهار هي الشَّمس وهي ظاهِرة بمعنى مُظهِرة كما في قوله ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل 13] أي مُبيِّنةً مُوضحة. فالليل والنهار لا يغيِّران في وجود الأشياء شيئا، لكن في ضوء النهار يُرى كل شيء وفي الليل لا تُرى الأشياء بل تنمَحي، وكذا الشمس فهي ظاهرة طِوالَ الشهر، إمّا عَينًا وإما أثرًا مِن وراء الغَيم، بينما القمر يختفي في آخره فلا يُرى له أثر، ويُسمَّى ذلك الْمُحاق من الْمَحق كما في قوله ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ!﴾ [البقرة 276] يتَّضح من هذا أن أعيان الأعمالِ باقية، لكنّها قد لا تُرى وقد تتغيَّر قيمَتُها.

لا أشُكّ أنَّه سيتجلَّى لكلِّ واحد منّا يومَ القيامة جميعُ ما كان مِن أعمالِه بكل وُضوح، كما بيَّنه النبيّ بقولِه «يُدْنَى الْمؤمنُ يومَ القِيامة مِن ربِّه، حتّى يَضَع عليه كَنَفَه، فيُقرِّرُه بذُنوبه فَيقول "هَل تَعرِف؟" فيقول "أَي رَبِّ، أَعرِف!" قال "فإنِّي قَد سَتَرتُها عليك في الدُّنيا وإنِّي أَغفِرُها لك اليَوم!" فيُعطَى صَحيفَةَ حَسَناتِه. وأما الكُفّارُ والْمُنافِقون فيُنادَى بِهم على رُؤوسِ الخَلائِقِ "هَؤلاء الَّذين كَذَبُوا على الله!"»[194] اُنظُر كيف كرَّر النبيُّ ذِكرَ المَغفِرة بثلاث عبارات، وهي: وَضْع الكَنَفِ والسَّتر والغُفران، وكلُّها تعود إلى عدَم الظُّهور مع بقاء العَين. فالذنوب إذاً لا تنعدِم ولكن غاية ما هنالك أنَّها تُصيبُها المغفِرة فتغيب عن الشُّهود، أو تفقِد قيمتَها فلا يؤاخَذ صاحبُها عليها. ذلك بأنَّ ما سبق لَه أن كان ودخل في الوجود فإنّه لا ينعدِم بل كلُّ الأمور متصلةٌ بعضُها ببعض، بحيث

---

[194] خرجه مسلم وأحمد وابن ماجة عن عبد الله بن عمر.

لا يكون ما سيكون إلا لكَون ما سبَقَه قد كان، ولا يزال كائنًا ولكن بصورة غير الأولى، وهكذا على الدوام. وهذا مِن باب الأسباب والمسبَّبات، فما كانَ سببا لشيء لا يمكن أن ينعَدم وإلاَّ لانعدَم الناتِج عن ذلك السبب هو كذلك، وحينَها لا يثبُت شيء في الوُجود، بل ينعدم لحينه، أي لا يظهر أبدا.

إذا فهمتَ ما تقدَّم علِمتَ أنّ الأعمال، حسنَها وسيِّئها، باقيَةٌ لا تنعدِم. ثم اعلَم أنَّها على صِنفين؛ منها ما لا يطَّلِع عليه إلاّ الله الذي لا تخفى عليه خافيةٌ، ومنها ما يطَّلِع عليه الخلقُ أيضا. فما لم يعلمُه إلا الله فذاك الذي قد تنالُه المغفِرة كما في حديث الكَنَف وفي قول النبي «ومَن أصابَ مِن ذلك شيئًا فستَرَه اللهُ عليه» أي مِن الناس فلَم يرَوه «إن شاءَ غَفَرَ له وإن شاء عذَّبَه»[195] وأما ما اطّلع عليه الناسُ فلا يُغتَفَر لأنّهم يشهَدون عليه في الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَاد!﴾ [غافر 51] حين يختصمون ويفضح بعضُهم بعضًا كما في قوله ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا: أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم؟ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمين! وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَار، إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادا!﴾ [سبأ 32-33].

ثم اعلَم أن الله يَكرَه إعلانَ المعصية وإفشاءَها ﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيما! إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرا!﴾ [النساء 148-149] فإنه تعالى يُحبُّ مِن عبدِه إبداءَ الخير لا الشَّر، وإن كان مَظلوما، فبالأحرى أن يَكرَه تعالى المَعصيةَ المُجاهَرَ بها. لذا حذّرَ النبي

---

[195] خرجه البخاري ومسلم عن عُبادة بن الصامت.

من هَتْكِ الأستار فقال «كلُّ أمَّتي مُعافًى إلا الْمُجاهِرين! وإنّ مِن الْمُجاهَرة أن يَعمَل الرجلُ بالَّليلِ عَمَلا ثم يُصبِح وقَد سَتَرَه اللهُ عليه فيقول "يا فلانُ، عَمِلتُ البارِحَةَ كذا وكذا!" وقَد باتَ يَستُرُه ربُّه ويُصبِحُ يَكشِفُ سِترَ اللهِ عنه!»[196] فالجهر بالمعصية استخفافٌ بحق الله وظُلمٌ للناس بِنشر الشرّ بينهم، لذا كان سِترُ الله عبدَه مُلازمًا لستر العبدِ نفسَه. هذا في حق النفس، ومع الغير أيضا، قال النبي «مَن سَتَر مُسلِما؛ سَتَرَه الله يومَ القيامة!»[197] فالسِّترُ مَطلوبٌ مُرغَّبٌ فيه أبدا.

إن أذنبَ أحدٌ ذنبًا و لم يطَّلع عليه غيرُ الله، غفرَه تعالى له إن صحَّت التوبةُ بشروطها: الإقلاعُ عن الذنب وردّ الحقوق إلى أصحابها أو تعويضُهم أو طلب السَّماح منهم والعزْم على عدَم الإعادة والندَم والتضرُّع إلى الله والاستِقامة. فمَن ظلم أحدا من خلق الله فذاك تفتَقرُ توبتُه إلى شرطٍ زائد، وهو ردُّ الحقّ إليه أو تَمكينُه من أن يقتصَّ حقَّه. لذا كانَ مَن أكثرَ ظُلمَ غيره مُفلِسًا حقّا، قال النبي «أتدرون ما الْمُفلِس؟» قالوا "المفلس فينا مَن لا دِرهمَ له ولا متاع" قال «إن المفلس مِن أُمّتي يأتي يومَ القيامة بصلاةٍ وصيام وزكاة؛ ويأتي وقد شَتمَ هذا وقَذف هذا وأكلَ مالَ هذا وسفَك دمَ هذا وضرب هذا. فيُعطَى هذا مِن حَسناتِه وهذا من حسناته، فإن فَنِيَت حسناتُه قبلَ أن يُقضَى ما عليه، أُخِذ مِن خطاياهم فطُرِحَت عليه ثمّ طُرِح في النار!»[198] فلا يُغتَفر ظُلم أحدٍ مهما بَلغ. روى مالك بسند عن أبي قتادة أنّ رجُلاً جاء إلى رسول فقال: يا رسولَ الله، إن قُتِلتُ

---

[196] خرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

[197] خرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر.

[198] خرجه مسلم والترمذي وأحمد وابن حبان عن أبي هريرة.

في سبيل الله صابرًا مُحتَسِبا، مُقبِلاً غيرَ مُدبِر؛ أيُكفِّر اللهُ عنّي خَطاياي؟ فقال رسول الله «نعم» فلما أَدبَر الرجلُ، ناداه رسول الله فقال «كيف قُلت؟» فأعادَ عليه قولَه فقال له النبي «نعم، إلا الدين: كذلك قال لي جبريل!» وفي رواية: جاءَ رجلٌ النبيَّ وهو يَخطُب على الْمِنبر فقال "أرأيتَ إن قُتِلتُ في سبيل الله صابِرًا مُحتسِبًا غيرَ مُدْبِر، أيُكَفِّرُ الله عنِّي سيِّئَاتي؟" قال «نعم، إلاّ الدَّيْن، سارَّني جبريلُ به آنِفا!»[199] أي أخبرني بذلك سِرّا قبل قليل. ومن فوائد الحديث أنّ النبيَّ كان يتلقَّى الوَحي فيما سوى القرآن، فيرجع عما قالَه اتِّباعًا لهُدى الله، صلى الله عليه وسلَّم كُلَّما ذكرَه ذاكرٌ وغفل عن ذِكره غافل.

قال رسول الله «لَتُؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يومَ القيامة؛ حتى يُقادَ لِلشّاة الجَلْحاءِ مِن الشاةِ القَرناء!»[200] فما نطحَ كبشٌ أقرَن آخرَ لا قَرنَ له، إلا مُكِّن المَظلوم في الآخرة. وذلك لأن لا يَضيع حقُّ أحد من خَلق الله ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ: أَتَيْنَا بِهَا؛ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِين!﴾ [الأنبياء 47] وقاتِلُ النفس وقاطِع الرَّحم والداعي بالكُفر، ظُلمُهم مُتعدٍّ إلى الغير في أمور ثلاثة قد عظَّمها الله، وهي النفس والرحم والدِّين، ليست ذنوبُهم من جنس المستورة فتُغتفَر. وخاصَّة قاتل النَّفس، فقد قال عنه النبيّ «يَجيءُ الْمَقتولُ مُتَعَلِّقًا بالقاتِل فيقول: يا ربّ، سَلْ هذا فِيمَ قَتَلَني!»[201].

قال الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي: اُنظر يا وليِّي في أغراضك النفسيَّة إذا عَرضت لك: ما حكمُها في الشرع؟ فإذا حكمَ عليك الشرعُ بالفِعل: فافعله، أو بالترك: فاتركه!

---

[199] خرجه النسائي وابن حِبّان وأحمد عن أبي هريرة وصححه الأرنؤوط.

[200] خرجه مسلم والترمذي وابن حبان وأحمد عن أبي هريرة.

[201] خرجه أحمد والنسائي والترمذي عن ابن عباس وصحّحه الأرناؤوط.

فإن غلب عليك بعدَ السؤال ومعرفتِك بحكم الشرع فيه بالترك و لم تترُكه واعتقدتَ أنك مُخطئٌ في ذلك، فأنت مأجور مِن وجوه: من بَحثِك وسؤالِك عن حكم الشرع فيه قبلَ إمضائه، ومن اعتقادك أوّلا في الشرع حتى سألتَ عن حكمه في ذلك الأمر، ومن اعتقادك بعدَ العلم بأنه حرامٌ يجب تركُه، ومِن اِستنادك إلى أن الله غفورٌ رحيم، يعفو ويصفَح، بطريق حُسن الظَّنّ بالله، ومِن كونِك لَم تقصد انتهاكَ حُرمَة الله، ومِن كونك مُعتقِدًا لِسابق القضاء والقدر فيك، بإمضاء هذا الأمر -كمسألة موسى مع آدم عليه السلام. فهذه وجوهٌ كثيرة أنت مَأجور مِن جِهَتها في عين مَعصيتك، وأنت مأثومٌ فيها من وجهٍ واحد: وهو عينُ إمضاءِ ذلك الأمر الذي هو هوَى نَفسك. وإن زاد إلى تلك الوجوه أنّك يسوؤُك ذلك الأمرُ كما قال رسول الله «المؤمن مَن سَرَّته حَسَنَتُه وساءَتْه سَيِّئته»[202] فَبَخٍ على بَخ! وهذا كله إنما جَعله الله للمؤمن إرغامًا للشيطان الذي يزيِّن للإنسان سوءَ عمله؛ فإن الشيطان يأمر بالفحشاء. فوَعدَ الله بالْمَغفرة، وهي السِّترُ الذي يجعله الله بين المؤمن العاصي وبين الكُفر الذي يُرْديه عند وُقوعِ المعصية: فيعتقد أنّها معصية ولا يُبيح ما حرَّم الله! وذلك من بَركة ذلك السِّتر ثَمَّ. ثُمّ مغفرة أخرَى وهي سِتر خَلف سِترَين: سترٌ عليه في الدنيا لَم يَمضِ فيه حدُّ الله المشروع في تلك المعصية، وأن سَتَر عليه في الآخرة فلم يُعاقِبْه عليها. فالستر الأوَّل مُحقَّق في الوقت قال ﴿اللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلا﴾ [البقرة 268] فهذه المغفرةُ لأمره بالفحشاء، والفضلُ لما وعدَ به الشيطان من الفقر في قوله تعالى ﴿الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ﴾

[202] آخرزء من حديث صحيح خرجه الترمذي والحاكم وابن حبان وأحمد عن ابن عمر عن أبيه بلفظ «مَن سرَّته حسنتُه وساءَتْه سيئتُه فذلكم المؤمن».

[البقرة 268] فأراح اللهُ المؤمنَ حيث ناب عنه سُبحانَه في مُدافعة ما أراد الشيطان إمضاءَه في المؤمن. فدَفع اللهُ عن عبده المؤمن وَعدًا إلَهياً دفعَ به وَعْدا شيطانيّا، واللهُ لا يُقاوَم ولا يُغالَب. فالمغفرة متحقِّقة والفضل مُتحقق، وباءَ الشيطانُ بالخُسران الْمُبين. ولهذه الحقيقة أمرَنا الله أن نَتَّخذه وَكيلا في أمورنا؛ فيكون الحقُّ هو الذي يتولَّى بنفسه دَفعَ مَضارِّ هذه الأمور عن المؤمنين، وما غرضُ الشيطانِ المعصيةُ لعينها وإنما غرَضُه أن يَعتادَ العبدُ طاعتَه، فيَستَدْرِجَه حتى يَأمُرَه بالشِّرك الذي فيه شَقاوَةُ الأبَد. وذلك لا يَكون إلا برَفعِ السِّتر الاعتِصامي الحائلِ بين العبد والشِّرك. والله تعالى يَقولُ الْحقَّ وهو يَهدي السّبيل[203]. الحاصل أن الذّنب من الأمور التي تُصيب كلّ إنسان مهما حاولَ الابتعادَ عن مَعصية الله، وهذا يُغتفَر. الذي لا يُغتَفر هو نُكرانُه؛ وذلك حين يدّعي الْمُذنبُ أنّه لَم يُذنب، وهو إبطال للشرع وخروج عن الدين رأسًا ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء، وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّه فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيما!﴾ [النساء 48].

المسألة الأخرى: قولُك أن الكبيرةَ ليست كُفرًا عند أهل السنّة والجماعة. فهذا قولُك، أما هم فيقولون: لا نُكفِّرُ مسلِمًا بكبيرة! والفارق بين العبارتين عظيم. فأهلُ السنّة والجماعة إنما هم أصحابُ الحديث، اتّخَذوا هذه التسمية أواخرَ القرن الثاني ليتَميَّزوا بها عن الْمُبتَدعة الذين ظَهروا في القرن الأوَّل كالخوارج والشيعة والنَّواصِب -وهم غُلاةٌ أدّاهم بغضُهم للشيعة إلى نصبِ العَداء لعليٍّ وابنَيه والحسن والحسين، وغيرهم من الصحابة الذين يُحبُّهم الشيعة، كأبي ذر وحُذيفة وغيرهم، وهذا من حماقتِهم- وما انبَثق

---

[203] 'الفتوحات الكيّة' 104/5، الكتب العلمية، بيروت.

عنهم من فِرَق ضالّة كالمُرجئة والمُعتَزِلة وغيرهِم. فأراد أهلُ السنّة والجماعة أن يتميّزوا عن تلك الفِرَق الضالّة حِرصًا منهم على اتِّباع سنّة النبي المصطفى والخلفاء الأربعة وجُمهور الصحابة الحُنفاء، وأن يجتنبوا التأويل والتعطيل، مع لُزومِهم الجماعةَ، التي أوَّلُها آدمُ وآخرُها آخرُ مسلِم قبلَ قيام الساعة، والتي هي متمثّلة في المُحافظين على الصلاة في مواقيتها حيث يُنادَى بها، كما بيّنه رسول الله بقوله «ما مِن ثلاثة في قَرية فلا يُؤَذَّنُ ولا تُقام فيهم الصلواتُ إلاّ استحوَذ عليهم الشيطانُ! فعليك بالجماعة؛ فإنَّما يأكلُ الذئبُ القاصِيَةَ!» قال ابنُ مهدي: قال السائب: يعني الجماعةَ في الصلاة![204] هؤلاء هم أهلُ السنة والجماعة وهم الفرقة الناجية إن شاء الله، وأنا أرجو أن أكونَ منهم بِفَضل الله ومَنِّه تبارك وتعالى. والذي عليه هؤلاء السَّلَف الصالِح، الذين جعلَهم الله سببًا لفلاح الناس من بعدهم إلى يوم الدين، اعتقادُ أنّ الكبيرةَ كُفر، لأنّ النبي سماها كُفرا، ولكنّ صاحبَها لا يُسمَّى كافرًا ما لَم يستحِلَّها ويَستدِمْها، فإن فعلَ سُمِّيَ كافرا. لأن مَن لا يستحلُّ الكبيرةَ تُرجَى توبتُه لِدوام اعتِرافِه بحُدود الله وإن انتَهَكها لضَعفِه عند شَهوة أو لجهله عند شُبهة ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيما﴾ فتظُنّوا أنكم كَفرتُم ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ فيغفِر لكم إذا استَغفرتموه ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفا!﴾ [النساء 27-28] لا يتماسَك عزمُه ولا يتمالَك نفسَه دائما.

ثم مَن اقتَرف إثماً مرّةً فإنه لا يصحُّ أن يوصَف به لِمُجرَّد فِعله، كَمَن كذَب مرَّة فلا يصحُّ أن يسمَّى كاذبا، وإنّما نقول أنّه كذَبَ وكفَى. وهذه قاعدة عند أهل اللغة وهي

---

[204] خرجه أحمد وأبو داود والنسائي عن أبي الدرداء، وحسّنه الأرناؤوط. والسائب هو ابن حُبيشٍ الكَلاَعِي، أحدُ رُواةِ الحديث.

عريقة في الشرع أيضا: أنّ اسمَ الفاعل لا يُطلَق إلا على مَن استدام الفعلَ أو تبنّاه واطمأنّ له. فلَو سُمِّيَ كلٌّ مَن ارتكبَ مخالَفةً كافرًا لَعاقَه هذا عن التوبة، إمّا بأن تُضرَب رقبَتُه أو بأن يقنُطَ فيتمادى في كُفره. أمّا مَن أغرَق في الكبيرة ولَم يبالِ ولَم ينـــزَجِر عند التّذكير و لم ينتَه فهذا كافر. بل ومَن أدمَن على صغيرة واستهانَ بها فقد بان استِهزاؤه بحدود الله وأعلَن كُفرَه، قال رسول الله «إيّاكم ومُحقَّراتِ الذنوب، فإنّهن يجتمِعنَ على الرجل حتى يُهلِكْنَه! كمَثَل قومٍ نزَلوا أرضَ فَلاةٍ، فحضَر صنيعُ القوم، فجعل الرَّجلُ ينطَلِق فيَجيءُ بالعُود، والرجُلُ يجيءُ بالعود، حتى جَمعوا سَوادًا فأجَّجُوا نارًا وأَنضَجوا ما قَذَفوا فيها»[205]. وهذا تمثيل في غاية الواقعيّة، فإنّما يجمَع صاحب الصغير ما يؤجِّج به نارَه في الآخرة، والعياذ بالله. وإن كان هؤلاء متمسِّكون ببعض الشعائر، فإنّ ذلك لا يمنع مِن تسميتهم كُفّارا. والواقع الذي نشاهدُه في كل المناسبات أن أكثَرَ الذين يُظهرون التزامًا بشعائر الله، من صلاة وصوم وغير ذلك لا يتحاشَون مُوبقاتٍ من جنس الرِّبا والاحتيال في الميزان والمُقارضَة وغير ذلك من أمور التجارة والمعاملات مع أن القرآن واضح: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُؤْمِنِين! فَإِن لَمْ تَفْعَلُوا، فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّه!﴾ [البقرة 278-279] الله لا يُحاربُ إلا الكافرين المُتعدِّين حدودَه المُفسدين في الأرض. ومِنه ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِين: الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُون!﴾ [المطفّفين 1-5] الويل وعيدٌ للكفار، والتطفيفُ تقليلٌ للمعصية، لكنّ تكرارَها جعلها كُفرًا.

---

[205] خرجه أحمد عن عبد الله بن مسعود وابن حبّان عن عائشة وصححهما الأرنؤوط.

يقترفُ الناسُ كبائرَ كثيرة، فلَو أطلِق الكُفرُ على كل مَن لأتى كبيرةً لَخرَج الناس جميعًا من دين الله. ودليل هذا قولُ النبي في حَجّة الوداع لأصحابه، وكانوا أكثرَ من مائة ألف «لا ترجعوا بعدي كُفّارا، يَضرب بَعضُكم رِقابَ بَعض!»[206] فحذّرهم مِن أن يعودوا في الكُفر، وبيَّن أنّ ذلك القتالُ بينهم، ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا، فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما!﴾ فسمّاهم مُؤمنين في ابتداءِ القتال بينهم، فإن تَمادَوا وجب الفصلُ بينهم بالعَدل بمُساندة المُحقّين ضدَّ المُبطلين وهو قولُه بعدها ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى، فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي، حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّه!﴾ [الحجرات 9] أي ترجِع إلى الحقّ وتنتهيَ عن ظُلمها. لأنّها طَغت وأَبَت الصُّلحَ الذي أمر الله به على يد رسوله، فكان ذلك منها إصرارًا على الكُفر الخَفّي الذي جرَّ إلى المُقاتلة ابتداء، وإعلانًا له تمثّل بمُحادَّة لله ورسوله، فلزِم على المسلمين التَّحالُفُ لقتَالِها. لذا سَمَّى النبيُّ مَن فعلوا ذلك كُفّارا، مُحّذرا إيّاهم من الوقوع في الفتنة رأسا، وإن هم وقعوا فيها، وقد وَقَعوا فيها، فلا ينبغي لهم التمادي فيها والإغراق في التقاتُل. فإنّ ذلك كفرٌ بَواح. هذا وقد بلغنا عن النبي من وجوه لا تدَع أدنَى ريبة أنّ مَن أتى كبيرةً فقد كفرَ فيما بينه وبين الله، بمُجرَّد ارتِكابها، وأنه لو مات على ذلك لَمات على كُفر. لكنّنا مع ذلك لا نُسمّيه كافرًا ما دام يُظهِر لنا شعائرَ الإسلام. سئل جابر بن عبد الله: هل كنتم تدْعون أحدًا مِن أهل القِبلة –أي الْمُصَلِّين– مُشرِكا؟ قال: مَعاذَ الله! ففزِع السائلُ وقال: هل كنتم تدْعون أحدا منكم كافرا؟ قال: لا![207] وإن كانوا قد حصل بينهم الاقتِتالُ ووقعوا فيما حذّرهم النبيُّ منه.

---

[206] خرجه البخاري عن جرير وله شواهد صحيحة عن أبي هريرة وابن عباس وابن عمَر.

[207] رواه أبو يعلى عن أبي سفيان وصححه حسين أسد، دار المأمون، دمشق.

قال النبيُّ «اِجتَنبوا السَّبعَ الْمُوبِقات!» قالوا: وما هُنّ؟ قال «الشِّركُ بالله، والسِّحر، وقتلُ النفس التي حرّم الله، إلاّ بالحق، وأَكْلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليتيم، والتَّولِّي يومَ الزَّحْف، وقَذْف الْمُحصَنات المؤمنات الغافِلات!»[208] الْمُوبقَة الذنب المُهلِك كما في قوله «كلُّ الناس يَغدو فبايعٌ نفسَه؛ فمُعتِقُها أو مُوبِقُها!»[209]. من الكبائر مثلاً الرِّبا، وهو أن يُسلفَ أحدٌ شيئًا ويرجو منه ربحا دُنيويّا: هذا الربا. وأكثرُ الناس قد وقعوا فيه حتى كاد يكون التعامل بالنقود ربًا كلَّه لِما صار إليه العالَم مِن تأليه المال وهيمنة رؤوس الأموال. ثم ليس الربا في النقود والأطعمة فقط وليست علَّته 'النّقْدية والطَّعمِيّة' كما يقال، بل كلُّ سلَف يَجلِبُ فائدةً دُنيويّة، أياًّ كان نوعُها، فهو ربا. وإلى مثل هذا يشير ما بلغنا عن أَنس بن مالك، فإنه قال لأهل القرن الثاني: إنكم لتعملون أعمالا هي أدقُّ في أعيُنكم من الشَّعر؛ وإنْ كُنا لَنعدُّها على عَهد النبيّ مِن الْمُوبِقات![210]. وعن فُضالة بن عُبيد أنه قال: كلُّ قَرْض جرَّ مَنفَعَةً فهو وَجهٌ مِن وُجوه الربا! وجاء في معناه عن عمر وأُبيِّ بنِ كعب وعبد الله بن مسعود وابن عباس وعبد الله بن سلام وغيرِهم، وعن نافع أنه سمع عبد الله بن عمر يقول: مَن أسلَف سَلَفًا فلا يشترط إلا قضاءَه![211] أي أنّه لا يجوز لَه أن يطلُبَ فائدةً زائدة، فما زاد على ما أسلَف فهو ربا. وقد فشا هذا وأفسد العالَمَ برمّته، والناسُ لا يُلقون إليه بالا.

---

[208] خرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة.

[209] من حديثٍ خرجه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة، عن أبي مالك الأشعري.

[210] خرجه البخاري والدارمي وأحمد.

[211] خرَّج ذلك البيهقي في 'السنن الصغير' ورواه مالك في الموطّأ والدارقُطني.

العاقلُ هو مَن إذا أصابَ ذنبًا فزِع إلى التوبة والإكثار من الطاعات، عسى أن تغلِبَ حسناتُه سيِّئاتِه، فقد جاء في القرآن ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات!﴾ [هود 114] وليس هذا على إطلاقِه، فقد قيَّدتهُ السنّةُ وذلك قول النبيّ «الصلاة الخمسُ، والجمُعة إلى الجمعة كفّارة لِما بينهُنّ، ما لم تُغْشَ الكَبائر»[212] فكبائر الذنوب لا تُذْهبها الحسنات، بل لا بدَّ لها من توبة نَصوح بشروطها الشرعيّة. وكما قال عبد القادر الجيلاني: التوبة قَلبُ دَولة! يعني إسقاطَ سُلطان الهوى وإعلاء سلطان الهُدى. وقد ذكر النبيُّ مرّةً أخرَى الكبائرَ فقال «الإشراكُ بالله وعقوقُ الوالدين وقتلُ النفس» وكان مُتَّكِئًا فجلس وقال «ألا وقَولُ الزُّورِ، وشهادةُ الزُّور! ألا وقولُ الزور، وشهادة الزور!» فما زال يقولها حتى قالوا "لا يسكُت!"[213] فالمشرك كافرٌ بلا خِلاف، وكذا قاتلُ النفس والعاقّ، كما مرَّ بيانُه آنفا، وكذلك شاهِد الزور، وخاصّة مَن يتلفّظ بالشهادتين مع تركِه لشعائر الدين وعلى رأسها الصلاة.

فالكبيرة كُفرٌ، وهو ما نصَّ عليه البخاري في الباب الذي عقده أواخر كتاب الإيمان خاصًّا بالمُرجئة كما مرّ بيانُه حيث قال: خوف المؤمن مِن أن يَحبِطَ عملُه وهو لا يشعر. وقال إبراهيم التَّيمي "ما عَرضتُ قولي على عَملي إلا خَشِيتُ أن أكونَ مُكذِّبا" وقال ابن أبي مُلَيكةَ "أدركتُ ثلاثين مِن أصحاب النبي؛ كلُّهم يخاف النِّفاقَ على نفسِه" ويُذكر عن الحسن "ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق". وما يُحذَر مِن

---

[212] خرجه مسلم والترمذي عن أبي بكرَة والنسائي عن أنس.

[212] خرجه أبو داود والنسائي وابن ماجة والترمذي عن أبي هريرة.

[213] خرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي بكرَة.

الإصرار على النفاق والعِصيان من غير توبة. ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيم! يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَة، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون، وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون، وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِين: الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاء، وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظ، وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاس -وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين-، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّه، فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِم -وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّه؟!- وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون؛ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا. وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِين!﴾ [آل عمران 129-136] انتهى.

هذا لعِلمهم اليقيني بأن الإسلامَ تسليم لله ولِرسوله مع كلِّ نَفَس، وأنه مقامٌ لا بدّ فيه من الإذعان والسَّمْع والطاعة وأنّه بَيعَةٌ تتجدَّدُ في كل حين. ذلك لأنّها مُعرَّضة للانتِقاض بغتةً لأدنى غفلَة. فدينُ الْمَرء قد يذهب في أيّة لَحظة لِمُجرَّد مُخالَفة كفِعل كبيرة أو ترك شَعيرة، يظُنُّها المرءُ صغيرة وهي في الحقيقة قد أوبقته في الشَّر الدُّنيوي والبوار الأُخرَوي. ولا ينفعُ الادِّعاء مع الله ﴿قَالُوا: لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَة! قُل: أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُون؟! بَلَى، مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُه، فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون!﴾ [البقرة 80-81] وليس أحدٌ بأمنَعَ من غيره عند الله؛ ﴿ذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُم؛ أَرْدَاكُم، فَأَصْبَحْتُم مِنَ الْخَاسِرِين!﴾ [فصلت 23]. وفي الحقيقة، كل مَعصية كُفرٌ حينَ تُقتَرَف عَمدًا ﴿تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيم!﴾ [النور 15]. ودنيا الناس مليئة

بالَمخاطر، والعاقل من يأخُذ حِذرَه فيها. قالت أمُّ سلَمة: ما خرجَ النبيُّ مِن بيتي قَطُّ إلا رَفعَ طَرْفَه إلى السماء فقال «بسم الله، رَبِّ أَعوذُ بك أَن أَضِلَّ أو أُضِلّ أو أَزِلَّ أو أُزِلَّ أو أَظلِمَ أو أُظلَم أو أَجهَلَ أو يُجْهَلَ عَلَيَّ!»[214] وليس أحدٌ بِمَنأًى عن الخطأ وما من أحد إلا وهو مُعرَّضٌ لسوء الفَهم. فالُمسلِم الحقُّ مَن لا يأمَن على نفسْه أن يتعرَّض لِما قد يسبِّب هلاكَه، لعلمه أن أعداءً كُثْرٌ مُحدقين به يتربَّصون منه أدنى غفلَة لُيردوه، وقد أحكَموا مُحاصَرتَه إذ نصبوا له كمائنَ لا تُحصى. وعلى أسهم إبليس، وذلك منذ أن خلق الله آدَم، فقد أقسم بالله أن يُهلكَ بني آدمَ كلَّهم ﴿قَالَ: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص 82-83] فقد استَثنى الْمُخْلَصين بفتح اللام، أي الذين اختصَّهم الله كالأنبياء، كما قال تعالى لموسى ﴿اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه 41] وهؤلاء هم الخاصَّة من عباد الله الذين قال للشيطان فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا﴾ [الإسراء 65] وأمّا عامّة الناس فكلُّهم مُعرَّضون لوساوس إبليس الذي قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ، وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين!﴾ [الأعراف 16-17] ثمّ تلي النفسُ الشيطان، وقد دفعت بقابيل ابنِ آدم إلى قتل أخيه هابيل كما في قوله: ﴿طَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيه، فَقَتَلَه؛ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِين﴾ [المائدة 30] وقال يوسفُ، وهو نبيُّ الله ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسُّوء!﴾ [يوسف 53] ثمّ تلي النفسَ الدنيا، كما يدلُّ عليه: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا؛ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا

---

[214] خرجه وأبو داود وباقي الأربعة وأحمد وهو حسن وضعّفه الأرناؤوط.

لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذا!﴾ [الأعراف 51] ثمّ يلي النفسَ الخَلقُ: ﴿إِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام 116] ثمّ يلي الخَلقَ الهوى ﴿إِن لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ؟!﴾ [القصص 50].

إنّي بُلِيتُ بأَربَع، ما سُلِّطــوا … إلاّ لأَجْل شَــقاوَتي وعَــنائي:

إبليسُ والدُّنيا والخَلقُ والْهوَى؛ … كيف الخَلاصُ وكلُّهم أعدائي؟!

أيهنأ بالدنيا مَن علِم أنّها تنتهي بموتِه وأنَّ مصيرَه إمّا إلى نَعيم مُقيم أو عذاب أليم؟ قيل: طريقُ الجنة حَزَنٌ برَبْوَة، وطريقُ النار سَهْلٌ بسَهْوة! فالجنَّة خَفيَّة، كما يدلُّ عليها اسمُها، وهي عالية وطريقُها وَعرَةٌ ضيِّقة وعليها عقباتٌ لا تُحصَى ولا تُقطع إلا بتوفيق الله تعالى. بينما النار ظاهرة، كما يدلّ عليها اسمُها، والطريقُ إليها سهلةٌ رَحْبة تَنحدِر بِمَن اتَّبع هواه فيهوي فيها. قال الحسن البصري: ليسَ العَجبُ مِمّن عَطب كَيْفَ عطَب، إنما العجبُ ممن نَجا كَيْفَ نجا؟! فالأحمق مَن عمِل للدُّنيا وأمِن أهلَها، والكيِّسُ مَن اغتَنم دُنياه لِعمارة آخرتِه واجتَهد في خلاص نفسه فخاف اللهَ ورَجا.

كيف يَلــتَذُّ بالْحياة لَــبيبٌ … فَــوَّقَتْ نَحوَه الْمَنــيَّةُ أَسْهُمْ؟!

ليس يَدري متى يُــفاجيه منها … صائبٌ يَقصِفُ الظُّهورَ ويَقْصِمْ

فإذا ما انقَضت سِنوكَ ووَلَّت … فَصَلَ الحاكِمُ القضاءَ فأَبْــرَمْ

ما لِغُصْني ذَوَى وكان نَــظيرًا … ولِظَهري انْحَنَى وكان مُــقوَّمْ

ولِدَهري أدالَ شَــرْخَ شَــبابي … بمَشيبٍ عند الحِسان مُــذَمَّم

فأنا اليومَ عن هَــواهُنَّ سالٍ … وقَديما بِــهِنَّ كُــنتُ مُتَــيَّمْ

نَحن في مَنزل الــفَناء ولكن … هو بابٌ إلى البَــقاء وسُــلَّم

ورحَى الْمَـــوْتِ تَستَديرُ علينا	أبدًا تَطحَن الْجَميعَ وتَـــهْشِم
وأنا مُـــوقِنٌ بـــذاك عَـــليم	وفَـــعالي فَعالُ مَن ليس يَعلَمْ
وكذا أَمْـــتَطي الْهُـــوَيْنا إلى أن	أُتَـــوَفَّى فـــعندَ ذلك أَنـــدَم
فَـــعسى مَن له أُعَـــفِّرُ وَجهي	سَـــيَرى فاقَتي إليه فَـــيَرحَمْ
وإلَـــيه ضَراعَـــتي وابْـــتِهالي	في مُـــعافاة شَيبَتي مِن جَهنَّم
فـــشَفيعي إليه حُسْنُ ظُنوني	ورَجائي له وأنِّـــي مُـــسْلِمْ

ما دام لا أحدَ يسلَم من الخطأ والخطيئة، فلا بدَّ للعبد من أن يزِلّ ويَكبو وأن تتقلَّب حالُه في اليوم الواحد مرّات عديدة. هذه الحقيقة، ولا يُنكِرُها إلا مُنافِق كما أشار إلى ذلك أبو القاسم الجُنَيد بقوله "الصادقُ يتقلَّب في اليوم أربعين مرّة، والْمُرائي يثْبت على حالة واحدة أربعين سنة!"[215] ومِصداقُه قولُ رسول الله «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثرَ من سبعين مرة!»[216] فكان صلى الله عليه وسلم يُجدِّد إسلامَ وجهه لله في اليوم الواحد سبعين مرّة لقوله تعالى ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ: أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ، إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ! وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ!﴾ [هود 1-3] أي كرِّروا الرُّجوعَ إليه والاستغفارَ بين يدَيه دَوما، ولا تَملُّوا فتقعوا في الكُفر ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِم، لا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّه، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعا!﴾ [الزمر 53]. ﴿...بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِنَ الْقَانِطِينَ قَال: وَمَن يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّون!﴾ [الحجر 55-56].

[215] خرجه القُشيري بسنَده 'الرسالة القشيريّة' ص246، الكتب العلمية.

[216] خرجه البخاري وأحمد والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة.

قال أبو الفضل أحمد بن عطاء الله السَّكَندَري في مُراسلة لبعض إخوانه: عليك بتجديد التَّوبة ولو عُدتَ في اليوم سبعين مرَّة. فالتَّوبة عينُ كلِّ رُتبَة ومَقام، أوّلِه وآخرِه، باطنِه وظاهرِه. لا مزيَّة لِمن فقَدها، ولا فقْدَ لِمَن وجدَها؛ مِفتاحُ كل خَير ظاهرٍ وباطِنٍ، روحُ الْمقامات وسببُ الوَلايات. ولو اسْتوَت توبَةُ القُطب والصّالِح لاسْتِواء مَقامهِما لم يرتَفِع عنه رفيعُ المقام لِرفعة شأنِه ولعَظيم إيقانه. لَم يَجعَل الحقُّ سبحانَه وتعالى رُتبةً دونَها، إلاّ الظُّلمَ فقال سُبحانه وتعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَتُب، فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ!﴾ [الحجرات 11] فالتوبة مَطلوبَة مِن كُلّ رسولٍ ونبيّ وصِدّيقٍ ووَلِيّ وبارٍّ تَقِيّ وفاجرٍ غَوِيّ وكافِرٍ شَقِيّ. وتَجدُ ذلك في كتابِ اللهِ تعالى، قال الله سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء 1] فتَقواه بالتَّوبةِ إليْه والندَم بين يدَيه. فأهلُ الشُّرورِ تَوبتُهم بالخُروجِ من شرورِهم، وأهلُ الخُيورِ توبتُهم بعدَم الوُقوف مع خُيورِهم، وِرداً كانتْ أو وارِدا، كِلاهُما مع عَدم الوُقوف معهُما واحِد ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج 78] وإنّ مِن مِلّة إبراهيمَ عَدَمَ الوُقوفِ مع الفانيات والانقِطاعَ عن نظَرِ الكائِنات؛ قالَ الله سُبحانَه وتعالى مُخبِراً عنه ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِين!﴾ [الأنعام76][217].

فالتَّوبة مطلوبةٌ أبدًا لأنَّها في الحقيقة رجوع إلى الله وإلى الإسلام من جديد، وهذا هو معنى قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اِتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُون!﴾ [آل عمران 102] احذَروا أن يبغَتَكم الموتُ وأنتم مُقيمون على مَعصية الله ومُصرّون عليها ولَم تتوبوا، فتُقبَض أرواحُكم على الكفر. ثم بعدما أمرنا بالاعتصام بحبله تعالى

[217] مُلحَق بالحكم العطائيَّة، ص91، طبعة الكيالي، دار الكتب العلمية.

وبالدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر، بيَّن ما يوجب الكُفرَ قال ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَات؛ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم، يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوه! فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُم: أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُم؟! فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُون!﴾ [آل عمران 105-106] واضحٌ أن التَّفرُّق والاختلافَ هما الكُفر بعينِه هنا وإن ظَنَّ بعضُ العلماء أنّهما رحمة.

مَن ظَنَّ بعد هذا أن غاية ما فيه أنَّه فسوق وأنَّ وأنّ الفسوق ليس بكُفر ولكنّه نقصٌ في الإيمان، كما عليه جمهور أهل السنّة. قيل له: أصبتَ في الشطر الأول لكنّك أخطأت في الثاني، وذلك أنّك أسأتَ فَهمَ معنى 'الفسوق'، وأصلُه لغةً الخُروج. وذاك معناه شَرْعا، كما هو في قولِه ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَة: اُسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا، إِلاَّ إِبْلِيس، كَانَ مِنَ الْجِنّ، فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه!﴾ [الكهف 50] فخرج عما أمره به الله من سجود. وبفُسوقه ذاك خرجَ إبليس من الإسلام إلى الكفر في تلك اللَّحظة ﴿سَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُون، إِلاَّ إِبْلِيسَ، اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِين﴾ [ص 73-74]. هذا هو الفُسوق: الخروج من الطاعة إلى المعصية ومن الإسلام إلى الكُفر؛ ﴿مَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِك؛ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون﴾ [النور 55]، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَات، وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُون﴾ [البقرة 99]، ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُون﴾ [التوبة 84] فمَن عصى الله مُتعمِّدًا فقد خرجَ عن طاعتِه ووقع في الضلال والكُفر ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِينا!﴾ [الأحزاب 36] أي بيِّنا ظاهرًا لا غُموض فيه ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِين!﴾ [النساء 14] والعذاب المهين في القرآن خاصٌّ بالكفار بدليل تخليده في النار هنا، ويؤكِّده قولُه ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّم، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدا!﴾ [الجن 23] فمَن قضَى عمرَه في معصية الله قصاه كافرًا، وذلك قول النبي «يُبعَث كلُّ عبدٍ على ما ماتَ عليه!»[218].

فالتَّوبة مطلوبةٌ أبدا، وفي كل لحظة، كما بيّنه ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون!﴾ [النور 31] فلَم يستَثنِ رسولاً ولا نبيّا ولا صدِّيقًا ولا وليًّا ولا صالِحا ولا برًّا ولا فاجرًا ولا عاصيًا ولا فاسقًا ولا مُشركا، فكلُّ أولئك يشمَلُهم اسمُ الإيمان لعموم الآية كما يدلُّ عليه ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُون﴾ [يوسف 106] فما دام قد شهد القرآنُ بأنّ أكثر الناس يَمزُجون الإيمانَ بالشِّرك وأنّ المُشركين يؤمنون بالله، فليس لأحدٍ أن يعتَرض على هذا. فالأمر كلُّه للّه ﴿قُلْ: أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً؟ قُلْ: اللَّه!﴾ [الأنعام 19] ما دام الله قد شهد للمشركين بالإيمان، فما لنا لا نقبَل ذلك منه تعالى، أوليس كلُّنا عبادُه؟! ﴿قُلْ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُم، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرا!﴾ [الإسراء 96] فالحاصل أن الخَلقَ كلّهم مُطالَبون بالتَّوبة، كلاًّ على حسب مقامِه وقُربه من الله تعالى. فليحذَر العبد المعصيةَ، وإن وقع فيها، ولا بدَّ أن يقع فيها، فليُسارع إلى التوبة لتَوِّه. وذلك قوله لآكِلي الرِّبا وللناس جميعًا ﴿الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُم، ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِم -وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّه؟! وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون. أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار، خَالِدِينَ فِيها، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِين!﴾ [آل عمران 135-136] وجاء في الشِّرْك وقَتْلِ النفس التي حرَّم الله والزّنا ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاما، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

---

[218] خرجه مسلم وابن حبان والحاكم عنابر بن عبد الله.

وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانا! إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيما! وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابا!﴾ [الفرقان 68-71]. فالتوبة إقلاع وندم وعمل صالح يأتي به العبدُ بدلَ سيئاته، وكما يبدِّل الله تعالى سيِّئات عباده في الدنيا حسناتٍ، بتوفيقِهم إلى التوبة والعمل الصلح، فكذلك يوم القيامة يبدِّل سيِّئاتهم حسنات. وذلك ما بلغنا عن أبي ذرٍّ الغِفاري قال: قال رسولُ الله «إنّي لأعلم آخِرَ أهلِ الجنة دُخولاً الجَنَّةَ وآخرَ أهلِ النار خروجًا منها: رَجلٌ يُؤتَى به يومَ القيامة فيقال "اِعرِضُوا عليه صِغارَ ذنوبِه وارفَعوا عنه كِبارَها!" فيُعْرضُ عليه صغارُها فيقال له "عمِلْتَ يومَ كذا وكذا، كذا وكذا! وعملَت يومَ كذا وكذا، كذا وكذا!" فيقول "نعم" لا يستطيعُ أن يُنكِر، وهو مُشفِقٌ مِن كِبار ذنوبه أن تُعرضَ عليه، فيقال له "فإنَّ لك مَكانَ كلِّ سيئة حسنة!" فيقول "ربِّ، قد عَمِلتُ أشياءَ لا أراها هاهُنا!"» قال أبو ذرّ: فلقد رأيتُ رسولَ الله ضَحِكَ حتى بدَت نَواجذُه.[219] فارجُ، يا أخي هذه الرَّحمة، واحرِصْ على التَّوبة ولا تموتنَّ إلا وأنت مسلم.

مَن فهِم هذا علمَ أنّ المعصيةَ الكبيرة كُفرٌ فيما بين العبد وبين ربِّه، ثم يرجع أمرُ صاحبها في كل الأحوال إلى الله ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْب، شَدِيدِ الْعِقَاب، ذِي الطَّوْل؛ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِير!﴾ [غافر 3] ورحمة الله أوسَع من ذنوب عباده ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير!﴾ [البقرة 284]، وصدق مَن قال:

وكلُّ ذنبٍ بِجنبِ العَفو مُحتقَـرٌ عَفوُ الإله لا يُخصِّص به أحدا

---

[219] خرجه مسلم والترمذي وابن حبّان وأحمد وأبو عوانة.

ورحمةُ اللهِ حقٌّ وهيَ قدْ وسعتْ مَن أوجد اللهُ مِن خَلقٍ وإن جَحَدا
قدْ أخبرَ اللهُ عَن سلطانِ رحْمتهِ بأنه مِـــثلُ عِلمِ اللهِ فاعتـــقِدا

***

النفاق

اعلَم أنّ العبد ما يتقلَّبُ بين الإسلام والكُفر إلاّ لانطِواءِ قلبِه على شيءٍ من النِّفاق. وأصلُه في اللغة النَّفَق، وهو الغار في الأرض الذي له مَدخَل ومَخرج. ومنه اشتُقَّ النِّفاق، لأن صاحبَه يدخل في الإسلام ويَخرُج منه في خفاء دونَ أن يرى الناس منه ذلك. فحقيقتُه إظهارُ الإسلام وإبطان الكُفر -ولا نقول الإيمان لأنّ الإسلامَ زائدٌ على الإيمان كما بينّاه سابقا- وذلك بأن يكون أحد الناس كافرًا فيتظاهَر بالإسلام تَمويها عليهم. فمَن لم تُوافِق سَريرتُه عَلانيّتَه؛ فهو كاذبٌ في دَعواه، ومَن كانت تلك حالُه فمات عليها، فلا مطمع له في قَبول أعماله في الدنيا ولا في نجاتِه في الآخرة إلا أن يشاء الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِه، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء، وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدا!﴾ [النساء 116] قال النبيُّ «قال الله: أنا أغْنَى الشُّركاء عن الشِّرك. مَن عَمِل عَمَلا أَشرَكَ فيه مَعي غيري تركتهُ وشِركَهُ» وفي رواية «إذا جَمعَ اللّهُ الناسَ لِيومٍ لا رَيبَ فيه، نادى مُنادٍ: مَن كانَ يُشْرِكُ في عملٍ عمِله للّه أحَدا؛ فَلَيَطلُب ثَوابَه مِنه، فإنّ اللّه أَغنى الشُّركاءِ عَن الشِّرْك!»[220]. وصدق مَن قال:

---

[220] خرج الأوّل مسلم عن أبي هريرة، والثاني الترمذي عن ابن أبي فَضالة.

لا يَطمعَنَّ في حُسنِ عَفْوِك طامِعٌ حتَّى يُماثِل سِرُّه إعْـــلانَه!

ليس من شرط النفاق أن يعلَم المنافقُ أنَّه منافق، كما أنّه ليس من شرط الكفر أن يعلَم الكافر أنّه كافر. فقد يكون المرء كافرًا ولكنَّه لا يعلَم ذلك أو لا يعتَرف به ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرِ﴾ إلى قوله ﴿وَقَالُوا: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ!﴾ [الملك 6-10] فالقوم يقرُّون يومَ القيامة بأنَّهم لا علمَ لهم بحقيقة ما بعث الله به أنبياءَه، فكفروا وتصرَّفوا في دنياهم كيفما شاؤوا، فاستَوجبوا مقتَ الله وهم لا خبرَ عندهم بذلك كلِّه. وإلاّ فمَن صدَّق بما جاء به محمَّد، وعلِم يقينًا أنَّ بعض ما يقوم به من أعمال يُغضب اللهَ وأنّ ذلك سيُفضي به إلى جهنَّم، لانتَهى عن مَعاصيه وفسوقِه وكُفرِه ولتاب إلى الله ولاستقام على الشريعة والحقيقة.

وقد جاء وصفُ مَن هذه حالُه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُول، لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا: آمَنَّا! بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُم، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا؛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِب، سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوك! يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُون: إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا، فَخُذُوه! وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ، فَاحْذَرُوا! وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَه، فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئا. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ؛ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيم!﴾ [المائدة 41] فالْمنافِق مَن يقول بلسانه ما ليس في قلبه، إمَّا بدافعِ الخوف أو الحياء من الناس أو مُخادعةً لَهم. وليس هذا بِخاصّ بصَدر الإسلام كما يُظنُّ، بل المنافقون كثيرون لا يخلو منهم مُجتمَعٌ منذ أن أرسل الله أوَّل رسول وإلى آخر الدّهر. بل ما مِن شك أنهم أكثرُ عددا في هذا الزمان منهم في أي زمن مضَى، إذ أنّه قلَّما يسلَم أحدٌ منّا مِن خصال أربع مُجتَمعةً، وهي التي بيّنها النبيُّ بقوله «أربعٌ مَن كُنّ فيه كان مُنافِقًا

خالِصا، ومَن كانت فيه خَصلَةٌ منهنّ كانت فيه خصلةٌ مِن النِّفاق، حتى يَدَعَها: إذا اؤتُمِنَ خانَ وإذا حَدَّثَ كَذَب وإذا عاهَدَ غَدرَ وإذا خاصَمَ فَجَر!»[221].

أضِفْ إليه ما بيّنه القرآن من حال المنافقين ابتداءً وانتهاء: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيما! الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِين! أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ؟! فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعا! وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا، فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِه؛ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُم! إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعا! الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ؛ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا: أَلَمْ نَكُن مَّعَكُم؟! وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا: أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِنَ الْمُؤْمِنِين؟! فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة، وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا! إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى، يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلا! مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ: لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاء! وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلا!﴾ ثم حذّر فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِين! أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينا؟! إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّار، وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرا! إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّه، فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِين! وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيما! مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُم؟! وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيما!﴾ [النساء 138-147] لا تحتاج هذه الآيات إلى تعقيب. قِف، يرحمك الله، واعتَبرها مَلياً!

---

[221] خرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو.

ثم مَن أظهَر الإسلامَ وهو مُعرِضٌ عن القرآن والسنّة فهو مُنافق، علِمَ ذلك أم لم يعلَمه. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ؟﴾ ثم هم ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوت، وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِه! وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّه﴾ إلى القرآن ﴿وَإِلَى الرَّسُول﴾ إلى سنّته ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودا!﴾ فمَن تحاكَم إلى غير القرآن والسنّة فهو منافق، ﴿فَلاَ، وَرَبِّك؛ لاَ يُؤْمِنُون! حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيما!﴾ [التوبة 60-65] نفَى الإيمانَ عمّن تردّدَ في الحُكم بالقرآن والسنّة، ﴿لاَ يَجِدُوا﴾ نَهيٌ للمسلِم أن يكون في قلبه شيءٌ من التردُّد عن اتّباع ما قاله النبيُّ. فمثلُ هذا مُخرجٌ من الدين وإن أُظهِر الإسلام، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُون!﴾ [المائدة 44] قال السُّدِّي "من لم يُحكِّم القرآن وتركه، وهو يعلم؛ فهو من الكافرين!" وقال ابن مسعود "ذاك الكُفر!"[222].

للمُنافق علاماتٌ لا تُخطئ، وقد جاءت في قوله ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ، جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِم، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِير! يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ!... وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ: لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِين! فَلَمَّا آتَاهُمْ مِن فَضْلِه، بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُعْرِضُون! فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُون! أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوب؟!﴾ [التوبة 73-77] فهذه

---

[222] خرجهما الطبري بسنده في تفسيره 357/10.

خِصالٌ ثلاث مَن ظَهرت عليه فهو منافقٌ: الكَذب، إخلاف الوَعد، الغَدر بالعَهد. وقد بيَّنها رسولُ الله في مواضع، قال «آيةُ المنافق ثلاث، وإن صام وصلَّى وزعم أنّه مسلم: إذا حَدَّثَ كذَب، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا عاهد غَدَر»[223]، فلا الصلاةُ ولا الصّوم بقاطعَين على إسلام أحَد، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ، وَهُوَ خَادِعُهُم! وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى، يُرَاءُونَ النَّاسَ، وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلا!﴾ [النساء 142] وما سمِّيَ المنافق منافقًا إلا لإظهاره لشعائر الإسلام، وإلا لقيلَ له كافر. وقال النبيّ «أَربعٌ مَن كُنّ فيه كان مُنافقا خالصًا، ومَن كانت فيه خَصْلَةٌ منهنّ كانت فيه خَصلةٌ مِن النِّفاق، حتى يَدَعَها: إذا ائتُمِن خان، وإذا حَدَّث كَذَب، وإذا عَاهَدَ غَدَر، وإذا خَاصَم فَجَر»[224]. وقال صلى الله عليه وسلم «ثلاثٌ مَن كُنّ فيه فهو مُنافق: إذا حدَّثَ كَذَب، وإذا ائْتُمِنَ خان، وإذا وَعَدَ أخْلَف. فمَن كانت فيه واحدةٌ منهن، لم تَزَل فيه خَصْلةٌ منَ النِّفاق حتى يترُكها»[225]. مَن وجد في نفسه إحدَى هذه القبائح فليتُب إلى الله منها، وإن لَم يعلَم أنّه منافق، وليس شرطًا أن يكون المنافق على دراية بنفاقه، كلاّ ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ!﴾ [المنافقون 8] الله أسأل أن يريَنا الحقَّ حقًّا والباطلَ باطلا وأن يهدينا السبيل.

هذا الفَهمُ لِمَعنى الكبيرة وحُكمِ صاحبها هو الفهمُ السليم الحَصيف لما جاءنا به النبيُّ وتناقلَه الربانيّون مِن علمائنا، الذين وفّقهم الله فاستجابوا لأمره: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ!﴾ [آل عمران 79]، وليس من قول الخوارج

[223] خرَّجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، وهذه رواية مسلم. قوله: آية المنافق أي علامتُه التي يعرف بها.

[224] خرجه البخاري، ومسلم وباقي الجماعة عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

[225] خرجه النسائي عن عبد الله بن مسعود.

ولا من قول المُعتَزلة؛ فلا هو منزلة بين المنزلتين ولا هو كفرٌ دونَ كفر. فكل كبيرةٍ مُتعمَّدة فهي كُفْر، وصاحبُها فيما بينه وبين الله كافر ما دام متلبِّسًا بها، بل وما دام لَم يتُب إلى الله منها. وكذا مَن أعرضَ عن طاعة الله ورسوله وإن كان في أمرٍ يسير، فذاك خروجٌ عن الإيمان وإن ادّعى صاحبُه أنّه مسلم ووافقناه على ذلك ﴿يَقُولُونَ: آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا! ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ؛ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ!﴾ [النور 47] فدعوَى الإيمان والطاعة لا تستقيم لِمَن يُعرض ويَعصي. لا يتحقَّق الإسلامُ الذي هو إيمانٌ وطاعة إلا إذا حقَّق صاحبُه الإيمانَ والطاعة. هذا هو الحقّ ولكنّ الناس لا يقبَلون هذا الحُكمَ ويردُّونَه ويستبشعونَه ويمقتونَ قائلَه. ما أُتوا إلا من قِبَل سوءِ فَهمِهم للنفاق، وأنّ الْمُنافِقين لا يعلَمون ضرورةً أنّهم مُنافِقون. ويكفي ذكرُهم أوائلَ سورة البقرة: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء، وَلَكِن لا يَعْلَمُونَ!﴾ [البقرة 13] لا يعلمون أنّهم سُفهاء لا يعقِلون، وذلك الجَهل الْمُركَّب، وهو أن يجهَل الجاهل أنّه يجهَل، فلا يُرجى لَه دواء إلا إذا علمَ أنَّه جاهلٌ أوَّلا بجَهلِه، ثمّ بعدئذ يُشرَع في تعليمه ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْض؛ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا! وَمَن لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا؛ فَمَا لَهُ مِن نُور!﴾ [النور 40] ذلك شأنهم ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ!﴾ [المنافقون 7] ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ!﴾ [المنافقون 8].

أمّا المسلم الصادِق الكيِّس الفَطِن فيتجنّب ذَرائعِ الْمَعاصِي رأسًا ولا يُخاطِر بنَفسه فيقَع في كبيرة فيُصيبه الْموتُ وهو فيها من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّار، فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ؛ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِين!﴾ [آل عمران 91] فليس الإسلام وِراثةً ولا تقليدا ولا دعوى بغير بُرهان،

ولكنَّه امتثال لأمر الله الشَّرعي ومُسارعة وخضوع لرب السماوات والأرض العزيز الغنيّ عن عباده ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا "آمَنَّا" وَهُمْ لاَ يُفْتَنُون، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم؟! فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين!﴾ [العنكبوت 2-3].
بلغنا عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقول: أيها الناسُ، مَن أَلَمَّ بذنب فَلْيسْتغفِر الله ولْيَتُبْ، فإن عاد فليستغْفر اللهَ وَليتُبْ، فإن عاد فليستغفر الله وليتب؛ فإنّما هي خطايا مُطَوَّقة في أعناق الرجال، وإنّ الهَلاك كلَّ الهلاك الإصرارُ عليها! وعن أبي إدريس الخَولاني أنه قال: ما على ظهرِ الأرض مِن بشر لا يَخاف على إيمانه أن يذهبَ إلا ذهب! وعن مجاهد بن جبر قال: مَن لَم يتُب إذا أصبح وإذا أمسى فهو من الظالِمين![226]. فما مِن أحد يدخُل في دين الله بصِدقٍ إلا وهو معرَّضٌ في كلّ لَحظة للخروج منه وإن لم يشعُر وإن لَم يُرِد. فالإسلام حالةٌ لا تستقرُّ، بل هو تجديدٌ مُستمِرّ لِميثاق الله وعَهدِه، وتَوبة بعد كَبوَة وأَوبة بعد حَوبَة. لذا كان النبي صلى الله عليه مسلَّم يستعيذ بالله من الرجوع من الخير إلى الشرّ ومن الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية، كما بلغنا عن عبد الله بن سرجس قال: كان رسولُ الله إذا سافر يَتعوَّذُ مِن وَعْثاءِ السفَر وكَآبةِ الْمُنقَلَب ومن الحَوَرِ بعد الكَوَر، ومن دَعوَةِ المَظلوم ومن سُوء الْمَنظَر في الأهل والمال.[227] لذا أشفقَ الأنبياءُ والصِّديقون مِن أن يعودوا في الكفر بعد الإيمان ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيه، وَيَعْقُوبُ: يَا بَنِيَّ، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ

---

[226] 'حلية الأولياء' 296/5، 125/5، 294/3.

[227] خرّجه مسلم والنسائي والترمذي وغيرُهم. قولُه: الكَوَر التمام، والحوَر النُّقصان، ووَعْثاء السفر أي تعبُه ومشقته، والمنقلَب هو الرُّجوع إلى الأهل من السّفَر.

الدِّينَ؛ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُون!﴾ [البقرة 132] وقال يوسف ﴿رَبِّ، قَدْ آتَيْتَني مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيث! فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض، أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنيَا وَالآخِرَة؛ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِين!﴾ [يوسف 101] ولَمّا لَم يكن أحدٌ في مَأمَن مِن أن يَموت على الكُفر أنزَل الله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم!﴾ [النور 63] فليزَم العبد أوامر ربِّه ليسلَم من الْمَعاطب والمصائب. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

التصوُّف

ابتدأنا هذا الكتاب بذكر أهميَّة الفكر في حياة الإنسان، سواءً كان مؤمنا بالله أو جاحدا. فَمن كان جاحدًا اِستعمل عقلَه فيما يفيد دُنياه فقط. ومن كان مؤمنا استعملَه فيما يعود عليه بالخير دنيا وآخرةً عمَلاً بتعليم الله تعالى كما جاء في قوله ﴿...كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ؛ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ...﴾ [البقرة 219-220]. فالتّفكُّر من حقِّه أن يَشمَل كلاًّ من الدُّنيا والآخرة وأن لا يُهمِل إحداهما مُقابلَ الأخرى؛ لأنّ الله ربُّ الدُّنيا والآخرة كِلتَيهما. لذا وَعدَ الصالِحين بقولِه ﴿فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [النور 14] وأَوعد الفُجّار بقوله ﴿إِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [التوبة 74]. إنّ هذا واضح جدًّا عند بيانه، ولكنّ قلّةً قليلة من قُرّاءِ القرآن يقفون على هذا الكلام حقّ الوُقوف؛ لأنهم لَمّا غرّهم الوَقْف في رسم المصحف، لم يربطوا بين قوله ﴿...كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ [البقرة 219] وقوله بعدها ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ...﴾ [البقرة 220].

ينبغي لقارئ القُرآن، إذا أراد الانتفاع به، أن يقرَأه بقلب حيٍّ وعقل واعٍ وخاطر حاضر ونظر ثاقب وبتمعُّن وتدبُّر. فلا يليق به أن يقطِّعه بل يلزَمه ربط أوَّل السورة بآخرها وبالتي تليها، ويلزمُه ربط الآية بالتي قبلَها والتي بعدها؛ كأنَّه سيلٌ جرّار لا يذرُ معنىً إلا استَخرَجه ولا علمًا إلا وأخرَجه. الربط بين الآيات والسُّور ضروري لفهم القرآن كما دلّ عليه البِقاعي في تفسيره 'نظم الدرر في تناسب الآي والسور'. فالقُرآن بحر مليءٌ بالدُّرر ولا يمكن الحصول على شيء منها إلا لِمن أقدح بعين رأسه وقدح

عينَ بصيرته وحذِق خَوضَ لُجَجِ هذا اليَمّ بإرهاق النَّفْس وغاص أعماقه بقَطع النَّفَس. فمَن قرأ القرآن بحضور وجد فيه عجائبَ لا تخطُر على بال أحذق الخَلق فضلاً عن الساهي اللاَّهي الغافل. فمن فعل هذا وجد فيه ما يزيد على حاجته من توجيهات وهَّاجة تنبُض بالحياة في حين يقرؤها، فتحرك هِمَّته وتشدُّ عزيمتَه للسلوك في طريق الحقّ نحو خيرَي الدنيا والآخرة. وكمثال على هذا سياقُ الآيتين ﴿...كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ؛ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ...﴾ [البقرة 219–220]. ما من شك لدى مَن عنده أدنى علم بلغة العَرب أن الآيتين جملَةٌ واحدة وأن الذي فصَل بينهما إنما هو تقسيم الآيات الذي وقع عند جمع القرآن.

جاءت الآيتان ضمن سياق أوّلُه ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة 212]، وآخرُه ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً؛ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة 245]. تلك إذاً ثلاثٌ وثلاثون آية وَردت بين قوله ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِن آيَةٍ بَيِّنَةٍ...﴾ [البقرة 211] وقوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى...﴾ [البقرة 246]. جاء فيها مسائل كثيرة ذات صلة بالدنيا والآخرة على السواء. من ذلك اختلاف الناس في الدين والمِحَن التي تصيب أتباعَه ثم وجوه الإنفاق والجهاد والفِتَن والهجرة ثم مضارّ الخمر والميسر الكثيرة في مقابل منافعهما القليلة، ثم اليتامى ثم الزواج ثم الحيض ثم عِشرة النساء والطلاق والرَّضاع والنفَقات والعِدَد، ثم أدرَج ذكرَ صلاة الخَوف، ثم رجع إلى شؤون النساء من ترمُّل وطلاق، ثم خُتم السياقُ بقوله ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا

حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً!﴾ [البقرة 245] وحاشا لله من أن يكون فقيرا يحتاج إلى قُروض الناس؛ ليس الأمر كذلك فــ﴿اللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الفُقَرَاءُ!﴾ [محمد 38] بل الآية تَحفيزٌ للناس لأن يتصدّق غنيُّهم على فقيرهم لينفَع الله بعضَهم ببعض. وهنا لطيفة بيانيّة، فقولُه ﴿مَن ذَا الَّذِي...﴾، ولم يقل: مَن يُقرض... وإن كانت مفيدة، ولكنّه قال ذلك لمعنى زائد مَفادُه: مَن هو هذا الكريم السَّخيّ الذي لا يخشى الفَقر فيُعطي لوَجه الله، أي أين هو فريدُ نَوعِه هذا الذي قلَّ مَثيلُه؟! علمًا بأن أكثر الناس لا يستطيعون الإعطاء في أبواب الخير وأن أكثرَهم لا يُحسنون غيرَ الأخذ؛ فأَوحَدُ القَوم مَن غلب نفسَه وآثَر غيرَه عليها لوجه الله تعالى. أما عامّة الناس فقلّما يخلو أحدُهم من البُخل والشُّح فقد ﴿أُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء 128] فهو حاضر في طبيعة النفوس لا يغيب عنها ألبتّة ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِه، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون!﴾ [الحشر 9].

هذا تذكيرًا بأهميّة الفكر في حياة الإنسان. وقد أتينا على آخر علمٍ عزَمنا على الحديث عنه في كتابنا هذا، بما أمكننا من وُضوح واقتضاب. الذي جعلَنا نذكُره آخِرًا، كونُه آخرَ ما ظهَر من أمّهات العلوم الشّرعية التي تولَّدت عن فهم العلماء للدين بُغيةَ تقريبه للناس. فليس ذلك بسبَب تأخُّره عنها، كلاّ؛ بل يرجَع ذلك إلى جلالَته وكونه جَوهَر الدين. والجَوهَر لا يظهر لأوّل وَهلة للعِيان ولكن بعد تطهيره من الطين والأدران. وكذلك جوهر القُرآن لا ينكَشِف إلا بالبُرهان لذوي القلوب والأذهان. وكذلك الشأن في سائر الْمَحسوسات؛ فآخرُها ظُهورًا في الحِسّ أوَّلُها مُرادًا بالقَصد. مَثَل ذلك الْمُهَندس الذي يريد بناءً؛ أوَّلُ ما يَخطُر ببالِه ويتصوَّره في مُخيِّلَته هيئةُ البِناء، لكنّ البناء لا يظهَر في الواقع إلا آخِرًا وأخيرا. فأوَّلُ مَقصودٍ آخِرُ

ظاهر، وما من فِعل إلا ويسبقه قصد. ومن ذلك قولُ النبيّ «نحن الآخِرون الأوَّلون»[228] وذلك منطقي جدًّا بل بديهي عند التفكُّر، لأنّ السابقين مِن حيثُ الزَّمان مُمهِّدون لِمَن يأتي بعدَهم، وأن الآخِرين هم الْمَقصودون بالأوّليّة. لذلك لَما جاء جبريل في آخر حياة النبي ليراجع معه أمورَ الدين سأله أوّلا عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم قال له أخيرا «أخبرني عن الإحسان» فأجابه الرسول «الإحسان أن تعبُد اللهَ كأنّك تراه. فإن لم تكن تراه؛ فإنّه يراك!»[229] والإحسان هو التَّصوُّف. فلَمّا كان التَّصوُّف أوَّلَ بالقَصد، جاءَ آخِرًا بالوَضع. وذلك من حيث التاريخ أيضا، فما وُضعت كتُب التصوُّف إلا بعد القرن الثالث الهجري.

اختلفَ العلماء في أصل لفظَة 'تصوُّف'، يقول القُشَيري: هذه التسمية غلبت علي هذه الطائفة؛ فيقال: رجل 'صوفي' وللجماعة 'صوفية' ومن يتوصَّل إلى ذلك يقال له 'متصوِّف' وللجماعة 'متصوفة'. وليس يشهد لهذا الاسم من حيثُ العربية قياسٌ ولا اشتِقاق، والأظهر فيه أنه كاللقَب. فأما قول مَن قال أنه من الصوف، ولهذا يقال

---

[228] أخرج مسلم عن أبي هريرة قل: قل رسول الله «نحن الآخرون الأوَّلون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينه من بعدهم فاختلفوا فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله له قل يوم الجمعة فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى» وخرجه البخاري بلفظ «نحن الآخِرون السابِقون» وعند أحمد وابن ماجة مثلُه عن ابن عباس، وله شواهد أخرى.

[229] جزء من 'حديث جبريل' الذي خرجه البخاري عن أبي هريرة ومسلم عن مسلم عن عمَر والنسائي عن أبي ذر.

’تصوف‘ إذا لبس الصوف كما يقال ’تقمَّص‘ إذا لبس القميص، فذلك وجه ولكنّ القوم لم يختصُّوا بلبس الصوف. ومن قال أنه مشتقٌّ من الصَّفاء، فاشتقاقُ الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللُّغة. وقول من قال أنه مشتق من الصَّفّ، وكأنهم في الصف الأول بقلوبهم، فالمعنى صحيح ولكنّ اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف. ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق. انتهى كلام القُشَيري. والصواب عندي أنّ اللَّفظة يونانيَّة الأصل، وهي مأخوذة من ’صوفيا‘ (sophia) أي الحكمة. ومن المحتمَل جدًّا أن يكون لدخول بعض فلاسفة الإسكندرية في الإسلام أثر في هذه التسمية. وإذا لَجأنا إلى حساب الجُمَّل فإننا نجد القيمةَ العددية للفظة ’صوفي‘ تعادل ’الحكيم الإلَهي‘ فكِلا المجموعَين يساوي 186. وما من شك أن الصوفي حكيم إلَهي أي أنَّه يستَعمل العقل لفهم الوحي ويسخِّرُه كلِّــيَّةً لذلك، فلا همَّ له ألبتّة سوى الفهم عن الله سواءً فيما جاء في القرآن أو السنّة أو ما يخطر بالبال أو ما يطرأ من أحوال. يقول الشيخ الأكبر ابن العربي في أوَّلَ باب معرفة مقام التصوف من كتاب الفتوحات المكية: مِن شرْط المنعوت بالتصوُّف أن يكون حكيمًا ذا حكمة، وإن لم يكن فلا حظَّ له في هذا اللقب؛ فإنه حكمة كلُّه. وإنه أخلاق وهي تحتاج إلى معرفة تامَّة وعقلٍ راجِح وحضور، وتَمكُّن قويٍّ من نفسه حتى لا تحكُم عليه الأغراضُ النفسيّة. وليجعلْ القرآنَ إمامَه، صاحِبُ هذا المقام، فينظر إلى ما وصف الحقُّ به نفسَه، وفي أي حالة وصف نفسه بذلك الذي وصف نفسه، ومع مَن صرف ذلك الوصف الذي وصف به نفسَه؛ فليَقُم الصوفي بهذا الوصف بتلك الحال مع ذلك الصِّنف. فأمرُ التصوُّف أمرٌ سَهل لِمَن أخذه بهذا الطريق، ولا يستنبطْ لنفسه أحكاماً

فيخرجَ عن ميزان الحق في ذلك. ويقول أبو الحسن الشاذِلي: الصوفي مُركَّب مِن حروف أربعة: الصاد والواو والفاء والياء. فالصاد صبرٌ وصدق وصَفاء، والواو وَجْدٌ ووُدّ ووَفاء، والفاء فَقدٌ وفَقرٌ وفَناء، والياء ياءُ النِّسبَة؛ إذا تكمَّل فيه ذلك أُضيف إلى حضرة مولاه. يقول سهل التُّسترَي: أصولُ مذهبنا ثلاث: أكلُ الحلال، والاقتداء بالرسول في الأخلاق والأفعال، وإخلاص النيَّة في جميع الأعمال. وهذا جِماعُ الدين، لذا كان التصوُّف لُبَّ كلِّ العلوم الشرعية وخُلاصتُها. إنَّه التَّطبيق العَملي لَها، جُملَةً وتفصيلا، وترجمَتُها إلى واقِع يشمَل الروحَ والنَّفس والجَسد، وكلاًّ من الدّنيا والآخرة. ثم ليس هذا في حقّ الفَرد فقط بل وفي حق الإنسانيّة جَمعاء، مِن أوّل أفرادها إلى آخرِهم. ذاك جَوهَر ما جاء به محمَّدٌ ومَن سبقَه مِن الأنبياء؛ لا مَعنى لبِعثة الرُّسل غيرَ هذا في الحقيقة. ودليل هذا كلِّه قولُه ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ!؟ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِين! إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: أَسْلِمْ! قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِين! وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ، وَيَعْقُوبُ: يَا بَنِيَّ، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّين؛ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُون!﴾ [البقرة 130-132] وقولُه ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ احتقرَها واستهانَ واستخفَّ بها، فلَم يَعرفْها ولا أعطاها حقَّها.

فالسفيه إذاً هو مَن كانت رغبَتُه في دين غير التي جاء به إبراهيم فأعرضَ عن اتِّباعه، وإنّه لناقصُ عَقل بل هو غَبيٌّ مُتهوِّر لا رَوِيّة له. فملَّة إبراهيم إنما هي حقيقة الإسلام ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا، وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين﴾ [المائدة 67]. ذاك هو الدين عند الله من أوَّل الأمر ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلام!﴾ [آل عمران 19] وهو الذي يرضاه الله لعباده ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾

[المائدة 3] ولا يُرضي اللهَ غيرُه ﴿مَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْه!﴾ [آل عمران 85] أي هذا الإسلام التّامّ الذي يشمَل الدّنيا والآخرة، ويعمُّ الروحَ والنَّفس والجَسد، والبَشريّة جَمعاء: ﴿قُلْ: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون!﴾ [آل عمران 84].

فلا بدّ أن يشمَل الدينُ كلَّ شيء، ولا يكون ذلك إلا بتَعلُّمه من نُصوصه، ومِن إعمال العَقل في التَّعرُّف على النَّفس. ذلك لأنّها مَوضع الخِطاب في الحقيقة، فإنّه لا يكفي قولي بأنّي مُسلِم، بل لا بدّ من أن أكون مُسلِمًا حقيقةً، أي عالِمًا بكلّ ما يقتضيه الإسلام: ممّا هو من الوَحي وما هو مِنّي وما هو من العالَم الْمُحيط بي، ظاهراً وباطنا. ولن تَحصل هذه الْمَعرفة إلا بتطبيق كل ما أُدركُه من تعاليمه على الفَور ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُم: اِنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّه! اِثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْض. أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَة؟! فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاّ قَلِيل!﴾ [التوبة 38]. يقول الشعراني: حقيقة الصوفي أنّه عالِم عمِل بعلمه، أي على وجه الإخلاص لا غير. فليس علمُ التصوُّف إلا معرفة طريق الوصول إلى العمل بالإخلاص لا غير. فلو عمل العالِم بعلمه على وجه الإخلاص كان هو الصوفي حقًّا. وأقول: خير سبيل لحِفظ العلم: العَمَلُ به كما يبيُّنه قولُه ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُم؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِك!﴾ [محمد 17-19] أي أن الذين سارعوا إلى العمَل بمُقتضى ما جاءهم من علم ازدادوا علمًا بعد علم إلى أن يبلغوا حقيقة التوحيد حيث تصير كل غفلة عن الله ذنبا، فيتوالى الاستغفار لأنّ التوحيد لا حدّ له. الحاصل من هذا أنّه لا عمل إلا بعلم ولا علم

إلاّ بعَمل، ثم يزيد العملُ بالعلم والعلمُ بالعمل: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة 11]. فهو ارتفاع في درجات العِلم وارتقاءٌ في أطوار الكَون، كما بلغنا عن النبي أنه قال «مَن عمِل بما علِم ورَّثه الله علمَ ما لم يعلم»[230] وبلغنا عن بعض الصالحين أنّه قال: يَهتِفُ العِلمُ بالعَمَل، فإنْ أجابَه وإلاَّ ارتَحَل! أي أن العلم مِن شأنه أن يدعوَ إلى العمل، إن أجابه صاحبُه حصَّل كلاًّ من العلمَ والعملَ وإن لم يعمل بما علمَ ذهب عنه العلم جُملَةً. وفي مُقابل ذلك، كل مَن عملَ بما علم حتى صار عملُه ذاك عادةً، وإن كان قليلا كَمًّا، فإنَّه يتشرَّبه حتى يتسرَّب في كيانه كلِّه، فينقلِب كيانُه مِن حامِل علمٍ إلى مَحموله. فيثبُتُ هو في ذلك العلم ويتغلغل كالنَّبتة فتنزل عروقه وترتفع فروعه ويرسخ حتى يصير كالجبل في ميدانه. وذلك معنى قوله ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُون: آمَنَّا بِهِ، كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا! وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُو الأَلْبَاب﴾ [آل عمران 7] ووراء سياق هذه الآيات عمومٌ يفوق ما اقتصر عليه المفسِّرون من محكَم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وغير ذلك من علوم القرآن، بل قولُ الراسخين في العلم ﴿آمَنَّا بِهِ، كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ يشمَل القرآن والإنسان والأكوان وأمور الدنيا والآخرة. فكل ذلك من عند الله وحدَه، لذا خُتمت الآية بقوله ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُو الأَلْبَاب﴾ وهم العقلاء أصحاب الحصافة الذي يُحكمون الأمور كما ينبغي.

أولَى مراحِل ذلك الارتقاء النَّظرُ في الكون: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقّ!﴾ [فصلت 53] أَي أنّ هذا الدينَ حقّ وأنّ رُسُل الله صادقون،

[230] خرجه أبو نُعيم في 'الحلية' عن أنس بسند ضعيف.

﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُون!﴾ [يس 52]. ومِعراجُه التَّوافُقُ التامّ الذي يين الوَحي والحياة، وهما لفظتان قريبتان: إحداهما إحياء والأخرى إيحاء، وكلاهما إعلام من الله تعالى. ﴿اللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُون﴾ [النحل 65] يسمعون حقَّ السَّمْع حتى يُحيِيَ هذا القرآنُ قلوبَهم الغافلة، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُز، فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ؛ أَفَلا يُبْصِرُون؟!﴾ [السجدة 27] يُبصرون حقَّ البصَر ليرَوا أن مُرسلَ الماء ومُرسل الرُّسل واحدٌ، فيربطون بين: من جهة نزولَ الماء ﴿جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ﴾ [الأنبياء 30] ومن جهة نزولَ الوحي الذي تحيى به الناس الحياةَ الحقَّة التي تليق بكرامة الإنسان، أي في محبَّة وخير وأمان وحريَّة، بشرط أن ﴿اِسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُم﴾ [الأنفال 24]. هؤلاء قوم أعمَلوا أسماعَهم وأبصارَهم وعقولَهم وبَصائرَهم للاستِدلال والاعتبار فارتقَوا ورسَخوا في العِلم، بالظَّواهر الطبيعية وبالقرآن.

فكما أن الطبيعة حقٌّ فكذلك الوَحي حقّ، وكلاهما من عند الله: ﴿اللَّهُ، لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ﴾ [آل عمران 1-2] و﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقّ﴾ [الأنعام 73] فما هو هذا الحق؟ أو بعبارة أخرى: لأي سبب يُطلق الله هذه الطاقات الهائلة التي تتمثَّل في الأكوان والحركات اللاَّ مُتناهية والأحياء التي تُولد ضعيفة ثم وتأمَن وتترعرع فتفرح وتمرح وتحزن وتخاف ثم في آخر المَطاف تموت وانتهى الأمر بغير معنى؟ ما سر هذه الظواهر الذي لا نرى من ورائها طائل سوى الظهور والاختفاء، ما سر الوجود غيرَ مُجرّد الكون والفساد؟ إن لم يكن وراءَ هذا كلّه قصدٌ فوجودنا لا معنى له وهو ضربٌ من اللَّهو. وإن كان الأمر

كذلك فقد صدق الذين ﴿قَالُوا: مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا؛ نَمُوتُ وَنَحْيَا، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ!﴾ [الجاثية 24]. والقرآن يصف الدنيا بأنّها تافهةٌ فعلاً، لا خيرَ فيها إن أُخذَت على حدها: ﴿اِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ؛ كَمَثَلِ غَيْث﴾ وهو المَطر النافع ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّار﴾ أي الزُّرّاعَ ﴿نَبَاتُه، ثُمَّ يَهِيجُ، فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا، ثُمَّ يَكُونُ حُطَاما. وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ؛ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ مَتَاعُ الْغُرُور!﴾ [الحديد 20] ﴿مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاّ لَعِبٌ وَلَهْو، وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ؛ أَفَلا تَعْقِلُون؟!﴾ [الأنعام 32].

لكنَّ الناس لا همَّ لهم سوى هذه الحياة الدنيا التي هم فيها إلى حين، فلا يُلقون بالاً إلى ما جاءت به الرسلُ، وإن كانوا يدّعون الإيمانَ بالله وأنّه تعالى خالقُ الكَون ومرسلُ الأنبياء ليُنذروهم: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُون؟! إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَام، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا!﴾ [الفرقان 44] وذلك لأنّ الحيوانات ليسوا مُخاطَبين بالوحي، فوجودهم في الأرض قاصر على ما خُلقوا من أجله من أكل وتناسل، ليس إلاّ. بخلاف الناس الذين طَغت عليهم الطبيعة حتى تصرَّفوا كالحيوانات، لذا ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا، فَسَوْفَ يَعْلَمُون!﴾ [الحجر 3]. سوف يعلمون ويعقلون أن الأمر ليس لعبًا ولا لَهوا بل هو جِدٌّ: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ؛ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَتَّخِذَ لَهْوًا لاَتَّخَذْنَاهُ مِن لَدُنَّا إن كُنَّا فَاعِلِين! بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ، فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ؛ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُون!﴾ [الأنبياء 16-18].

الْمَغزى مِن هذا الوجود والقصد مما نحن فيه أن الله خلق الخَلقَ لِيُعرَف، يقول سبحانه ﴿مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات 56] أي: ليعرفوني، قاله ابن جُريج وهو

الصواب. ويعضدُه الأثر السائر بين أهل التصوف منذ أقدم الدهور أن الله قال «كنتُ كنزًا لم أُعرَف، فأحبَبتُ أن أُعرَف؛ فخَلقتُ الخَلقَ وتعرَّفتُ إليهم: فعَرَفوني!»[231] فأخبر أن الحبَّ سببُ إيجاد العالَم. فلما أحبَّ الله أن يُعرَف خلق كلّ شيء ثم استوى على العرش باسمه 'الرحمن' ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ؛ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ، يَطْلُبُهُ حَثِيثًا، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ. أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ؛ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف 54]. نعلم من هذه الآية أن هناك الخلق ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ والأمر ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ وأن الله مليكُهما ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾. فالوجود لا يقتصر على الخلق، بحيث أن يكون ثنائيًّا: الله والخلق. بل الوجود ثلاثي: الله والخلق والأمر، ولا ينبغي المزج بين شيء من ذلك. الخلق معلوم، وهو نحن وما يحيط بنا من الداخل والخارج إلى أقصى حدود المادّة. وأما الأمر فهو نظام الوجود وإليه تنتمي الملائكةُ، فهم ليسوا من عالَم الخلق بل من عالَم الأمر ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُل: الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء 85] ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء 193-194] ﴿ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر 15] ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ 38] ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر 4]؛ فعالَم الأمر هو عالَم الملائكة.

ومن ذلك هذه الآية التي دقَّ وخفيَ فهمُها على جملة المفسرين فيما أعلَم، وهي قولُه ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد 11] يعود الضمير

[231] قل الطرابلسي في 'اللؤلؤ المرصوع' قل ابن تيمية: هذا ليس من كلام النبي ولا أَعرِف له سندًا صحيحا ولا ضعيفا.اه وتبِعه الزَّركشي وابن حجر، ولكن معناه صحيح ظاهر وهو بين الصوفيّة دائر.

في 'لَه' على الإنسان. أمّا ﴿مُعَقِّبَات﴾ -وأصلُها مُعتَقِبات، فأدغِمت التاء في القاف كما في قوله ﴿جَاءَ الْمُعَذِّرُون﴾ [التوبة 90] أي 'الْمُعْتَذِرون'، قاله الزَّمخشري- وهي هنا الملائكة التي تتعاقب على الإنسان، فملائكة الليل تأتي عَقِبَ ملائكة النهار وملائكةُ النهار تعقُب ملائكةَ الليل، وهكذا دَوالَيك. وقوله ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني أمام العبد ومن ورائه إن من حيثُ المكان أو الزمان، وأما ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّه﴾ فليس كما يظنُّ المفسِّرون الذين قالوا: يَفظونه من قَدَرِ الله. بل في الآية تقديم وتأخير -كما في قوله ﴿لَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمّى﴾ [طه 129] وترتيبُه المنطقي: لولا كلمةٌ سبقت من ربك وأجلٌ مسمّى، لكان لزاما. وهذا كثير في القرآن- ونَظمُ آية [الرعد 11] المنطقي يكون: لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ أَمْرِ اللَّه يَحْفَظُونَهُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ. الحاصل أن عالَم الأمر هو عالَم الملائكة ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِين﴾ [الأعراف 54] أي رب عالَم الخلق وعالَم الأمر وغيرهم من عوالِم لا يبلُغها علمُنا. فالملائكة هم المُرسَلون من لَدُن الله، وهذه اللفظة أي 'مَلَك' فمعناها 'رسول' سواءً باللسان العربي أو العبراني أو السرياني. فهم الحَفَظَة الذين يحموننا في كل آن وحين؛ لهم طريقٌ إلينا نحن الخلق، ولا سبيلَ لنا إليهم، لأنّ عالَم الأمر ممنوع علينا إلا مَن شاء الله من نبي أو رسول أو من اصطفاه الله تعالى لذلك، فلا حِجرَ على الله ﴿ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه!﴾ [غافر 15].

أحبَّ الله أن يُعرَف فخلقَنا، فسببُ إيجاد الله لنا إنّما هو الحبُّ. وذلك لتظهر أوصافُه تعالى وليُعلَم أنّه: حيٌّ عليم مريد قدير بصير سميع متكلم، وما إلى ذلك من محبّة ورحمة وجلال وجمال، وقهر وعَفو وغيرها من صفاته التي لا حصرَ لها والتي يشهد

لها الكون بالتسبيح ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ. وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ؛ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ. إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورا﴾ [الإسراء 44] وبالسجود ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؟ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ؛ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُكْرِمٍ. إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ!﴾ [الحج 18] وبالعبادة ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدا!﴾ [مريم 93]. هذا هو سر الوجود والقصد من خَلق الله للكون وسكّانه: فما من حركة ولا سكون ولا لفظة ولا صمت ولا خَطرة ولا سَهوة إلا وهي تعظيمٌ وتسبيح وتهليل وتحميد وتكبير لله، وشهادة له تعالى بأنّه الواحد الذي لا شريك له ﴿لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. وَمَن عِندَه﴾ أي الملائكة المقرَّبون ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَن عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ؛ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُون! ... لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ في السماء أو الأرض ﴿آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا؛ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُون!﴾ [الأنبياء 19-22].

الله ذو ذاتٍ وأسماء وصفات وأفعال. أما ذاته تعالى فإنها غيبٌ صِرف لا تصل إليها أفهامُنا، وأما أسماؤه وصفاتُه وأفعالُه فقد ظهرت لمّا خلقَ الخلق، فنحن نعلم بعضَ أسمائه وصفاته، ونحن أفعالٌ من أفعالِه تعالى، ما دام الخلق فعلٌ من الله ونحن خلق، فنحن في الحقيقة أفعال الله تعالى ﴿بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَق!﴾ [المائدة 18]. فما ثمّة إلا الله ذاتًا وأسماءً وصفاتٍ وأفعالا، فكل مَخلوق فعلٌ من أفعال الله ومرآة لتجلي الرحمن ومُجلًّى يتجلّى فيه الله بوجه خاصّ وهذا الوجه هو حقيقة المَخلوق. فالتوحيد في الحقيقة لا يشوبه شيءٌ ألبتّة لأنّ الله هو عين الوجود، وكل مَوجود إنّما هو مَفعول وثمرة المحبّة والجود.

هذه المعرفة التوحيديَّة الدّالّة على ربوبية الله إنّما هي العُبوديّة، وهي مَغروزةٌ في البشر منذ عهد آدم ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى! شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ!﴾ [الأعراف 172] والشهود هنا إنما هم الملائكة المقرَّبون. ثم بعث الله الأنبياء وأرسل الرسل إلى بني جنسِهم لِيُذكِّروا الناسَ بهذه الحقيقة التي يشهد عليها القرآن ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي ليتذكَّروا [الإسراء 41] ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي لستَ غير ذلك [الغاشية 21] بماذا يذكِّر، بأيّة وسيلة؟ ﴿ذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ!﴾ [ق 45] ﴿مَا أَرْسَلْنَا﴾ يا محمد ﴿مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ -فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ- بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ. وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل 43-44] فالقرآن هو ذلك القبَس من نور الله الذي يُشعل ذاكرةَ بني آدم ليتذكَّروا أن الله هو ربُّهم منذ الأزل، في موطن الميثاق، حيث قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى!﴾ وبحقيقة وجودهم في هذه الدنيا وما المطلوب منهم، مع العلم بأنّ مصيرَهم بأيديهم ﴿قُلِ: الْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ؛ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ! إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارا...﴾ [الكهف 29] وأنهم مسؤولون لأنهم أحرار مُختارون لا أحد يفرض عليهم شيئًا ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ! قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة 256].

تلقي الإنسانِ التَّحذيرَ يولِّد لديه انزعاجًا ينتُج عن الشعور بالخطر المُحدق بمصيره، فيجعَله يبحث عن المسلك من هذا المَهلَك الذي لا طاقةَ له به، والمخرج من هذا المأزق إنما هو القرآن وهو سفينة النجاة التي مَن ركبها سلِم ومن لا فلا. يجد الإنسان في القرآن كل التعاليم التي من شأنها أن تنير طريقَه إلى سعادته دنيا وآخرة: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا، اِتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون! إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا، وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ. وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم!﴾ [المائدة 35-36]. ﴿جَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ أي اجتَهِدوا وأجهِدوا أنفسَكم على تعلُّم الخير والعمل به لسلوك سبيل السعادة في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ!﴾ فذلك لأنّه لا وسيلَةَ ولا طاقة للبشر ولا حيلةَ لديهم للنجاة من أهوال الدنيا والآخرة إلا بتقوى الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم!﴾ [النساء 1]، والذين يدركون هذه الضرورة إنما هم أولئك الذين نَظروا في الكون وفي أنفسهم بتأمُّل وعمق، فرأوا مُعجزات الله وآياتِه في كل كبير أو صغير وفي كل جليل أو حقير، فما كان لهم إلا أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً، سُبْحَانَكَ، فَقِنَا عَذَابَ النَّار!﴾ [آل عمران 191] ما سألوا الوقايةَ من النار إلا بعدَ ما تأكّدوا من صدْق الرسول الذي حذّرهم من أهوالها وعذابها، فلما صدَّقوا الرسولَ صدَقوا الله فدَعَوه فاستجابَ لهم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورا﴾ [الإنسان 11].

مَن تقبَّل هذا القرآن وتذكّر حقيقةَ أمره الخاصّ به والقَصدَ من خلق الله له وللأكوان، اتَّقى ربَّه الذي أوجده والذي إليه مَردُّه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اِتَّقُوا اللَّهَ!﴾ اتَّخذوه واقيًا والْجؤوا إليه ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ أي كلّ نفس ﴿مَا قَدَّمَتْ لِغَد وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وعلامةُ مَن نَظَرَ لِغدِه أن يُحسنَ مُراعاةَ يومِه، ولا يكونُ ذلك إلاَّ لِمَن فَكَّرَ فيما عَمِلَه في أمْسه! ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون!﴾ لا يخفى عليه منكم شيءٌ، مهما بَطَن أو ظهرَ أو قلَّ أو كثُر ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُم!﴾ [الحشر 18-19] وهنا بيتُ القَصيد: الإنسانُ مُستأنس بأمثاله، مُتناسٍ لحقيقة حاله ولسرّ وُجوده ومآلِه،

ناسٍ لربِّه الذي يعلم أنّه ربُّه أزلاً. والحقُّ أنّ نسْيانَ الإنسانِ ربَّه نسيانٌ لنَفسه هو، وأكثر الناس عن هذه الحقيقة غافلون. فليكن أوَّلَ اهتمامِ العاقل اللّبيب وأكبَرَ همِّه اشتِغالُه بنَفسه، فإنّ كل إنسان مسؤول عن نفسه لا عما فعلَه غيرُه ﴿لا تَكْسبُ كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام 164]، ﴿لا تُكَلَّفُ إلاَّ نَفْسَك﴾ [النساء 84]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَة﴾ [المدّثر 38]، ﴿كُلَّ إنسَانٍ... وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورا: اِقْرَأْ كِتَابَكَ؛ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبا!﴾ [الإسراء 13-14].

كانت هذه لُمحة مُختصرة وتقريب لِمَنهَج الصوفي في مُمارسة الفكر فيما يعمُّ الدين والدُّنيا. ولْنُعرّجْ الآن على فَنِّ التَّصوُّف كظاهرة تاريخية وثقافيّة. يقول ابن خلدون في علم التصوُّف: هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الْمِلّة. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلَف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومَن بعدهم، طريقة الحقِّ والهِداية. وأصلُها العكوفُ على العبادة والانقطاعُ إلى الله تعالى، والإعراضُ عن زُخرُف الدنيا وزينتها، والزُّهدُ فيما يُقبل عليه الجمهورُ مِن لَذَّةٍ ومالٍ وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلْوة للعِبادة. وكان ذلك عامًّا في الصحابة والسَّلَف، فلمّا فَشا الإقبالُ على الدنيا في القَرن الثاني وما بعدَه وجَنحَ الناسُ إلى مُخالطة الدنيا، اختصَّ الْمُقبلون على العبادة باسم الصوفية. فظهر أن أصل طريقتهم كلها مُحاسبة النفس على الأفعال والتُّروك، والكلام في هذه الأذواق والْمَواجِد التي تحصُل عن الْمُجاهدات، ثم تستقر للمريد مَقامًا ويترقى منها إلى غيرها. ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم؛ ليس لواحد من أهل الشريعة الكلامُ فيه. وصار علم الشريعة على صِنفين: صِنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفُتيا، وهي الأحكام العامة

في العبادات والعادات والمعاملات. وصنف مخصوص بالقوم -أي الصوفية- في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجد العارِضة في طريقها وكيفيَّة الترقِّي منها مِن ذَوق إلى ذوق، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك. فلمَّا كُتِبت العلوم ودُوِّنت، وألَّف الفُقهاءُ في الفِقه وأصوله والكَلام والتفسير وغير ذلك، كَتَبَ رجالٌ من أهل هذه الطريقة في طريقتهم. فمنهم مَن كتب في الورَع ومُحاسبَة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك، كما فعله الْمُحاسِبي في 'الرعاية' له، ومنهم مَن كتب في آداب الطريقة وأَذواق أهلِها ومَواجِدهم في الأحوال كما فعله القُشَيري في 'الرسالة'، والسُّهْرَوَرْدي في 'عَوارِف الْمَعارف' وأمثالُهم. وجَمع الغزالي رحمه الله بين الأمرَين في 'الإحياء'، فدوَّن فيه أحكامَ الورَع والاقتِداء، ثم بيَّن آدابَ القوْم وسُنَنَهم وشرَح اصطِلاحاتِهم في عباراتهم. وصار علمُ التصوُّف في الْمِلّة علما مُدوَّنًا، بعد أن كانت الطريقةُ عبادةً فقط وكانت أحكامُها إنَّما تُتَلقَّى مِن صدور الرجال. كما وَقعَ في سائِر العُلوم التي دُوِّنَت بالكتابَة من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك. انتهى من الْمُقدِّمة، الفصل السابع عشر.

هذا لَعمري تعريفٌ دقيق عميق وجامع مانع مع غاية الاختصار وحلاوة العبارة. ولا غَروَ، فابن خَلدون من أحسن كُتَّاب العربية من حيث الجزالة والبلاغة ودقَّة النظَر. وقد تصوَّف، رحمه الله، في آخر عمره من بعدما هلك أهلُه جميعا في السفينة التي غرقت وهي تحملهم إلى الحج. قضى بعده ما بقي من عمره في خانقاه بالقاهرة. وكان، رحمه الله، ذا دراية بالتصوُّف فقد ألَّف فيه كتاب 'شفاء السائل وتهذيب المسائل' وهو جواب على سؤال أورَده أبو إسحاق الشاطبي صاحب 'الموافَقات في أصول الشريعة'

و'الاعتصام' وهما من أهمّ الكتب في الأصول قديما وحديثا. يقول ابن خلدون: وقّفني بعض الإخوان على تقييد وصل من الأندلس، وطن الرباط والجهاد ومأوى الصالحين والزُّهّاد والفقهاء العُبّاد... طالبًا كشفَ الغِطاء في طريق الصوفيّة أهل التحقُّق في التوحيد الذوقي والمعرفة الوجدانيّة، هل يصح سلوكه والوصول به إلى المعرفة الذّوقيّة ورَفع الحجاب عن العالَم الروحاني، تعلُّمًا من الكتُب الموضوعة لأهله واقتداءً بأقوالهم الشارحةِ لكيفيّته، فيكفي في ذلك الاعتماد على الكُتب أم لا بدَّ من شيخٍ يبيِّنُ دلائلَه ويُحذِّر غوائله، ويميِّز للمُريد عند اشتباه الواردات والأحوال مسائلَه؛ فيتَنَـــزَّل منزلةَ الطبيب للمرضى؟[232] فكان حاصل جواب ابن خلدون أنَّ: مُجاهدة التقوى فرض عين وأن الكتبَ فيها كافية وأن وجود الشيخ فيها شرطُ كمال، في حين تحتاج مجاهدة الاستِقامة إلى المعلم المرشد لصعوبة الاطِّلاع على نفاسَة النَّفس وتقلُّبات القلب.

وكان ابن خلدون قبلَ ذلك كله صديقا مقرَّبًا للأديب الفيلسوف المؤرّخ الصوفي لِسنان الدين ابن الخطيب صاحب كتاب 'روضة التعريف بالحب الشريف' التي جمع فيه بين الفلاسفة القدماء، كسقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من حكماء اليونان والهند وفارس الخ، وبين الأنبياء الذين أرسلهم الله، جمعهم كافَّةً في الحب. يقول في كتابه ذاك: الفيلسوف مُحبُّ الحكمة، فهو داخلٌ فيها، والحكمة واحدة كما أن الحب واحد... كان رحمه الله وزيرا لِملوك غرناطة ذا جاه وعلم ومال، ثم دفعت النِّقمة بقاضي قُضاتها إلى أن وجّه ضدّه تُهمةَ الإلحاد والزَّندقة والطَّعن في الشريعة والوقوع في

---

[232] 'شفاء السائل وتهذيب المسائل' ص34، دار الفكر، دمشق.

حُرمة الرسول محمد، فأصدر فَتوى بإحراق كُتبه، فأُحرقت بمشهد من الناس بغرناطة، وصودرت أملاكه كلُّها، واستحثّ سلطانُ المغرب على تسليمه إليه ونَقله إلى فاس لإجراء العقوبة عليه، فأثبتت التُّهمُ عليه وسُجن بفاس، وبعد أشهر قُتلَ خنقًا في سجنه. كان ذلك عام 776 / 1374. يقول عبد الرحمن ابن خلدون: هَلك ابنُ الخطيب شهيدًا بسعاية أعدائه![233] هذه إحدى ضحايا التصوُّف الكثيرة الذين منهم الحلاّج والسُّهروَردي المقتول وعَينُ القُضاةِ الهَمَداني وغيرُهم كثير، علمناهم أو لم نعلمهم. ولَولا حِفظُ الله له للشيخ الأكبر ابن العربي لقُتلَ في مِصر بتُهمة الزَّندقة، فقد سعى بعضُ أعيان الشام عند المَلك الأيوبي ليُعفا عنه، ولا يزال إلى الآن هدفًا للجُهّال المترمِّتين المتعصِّبين الذين لا تفوتُهم فُرصة ليرموه بالكُفر هو وكلّ مَن لَم يكفِّره فضلا عمّن اتَّبع سبيلَه واعتبرَه خاتَم النبوّة المحمَّديّة كما يفعلُ كاتبُ هذه السطور. يقول شيخنا، قدّس الله روحَه وأدام علينا من بركاته:

خُصِصتُ بعلم لم يَخصَّ بِمِثله ... سوايَ مِن الرحمن ذي العرشِ والكُرسي

وأُشهدتُ من علمِ الغيوبِ عجائبًا ... تُصانُ عن التِّذكارِ في عالَمِ الحِسِّ

فيا عجَـــبًا، إني أروحُ وأغتدي ... غريبًا وحيدا في الوجود بلا جِنسِ

لقد أنكرَ الأقوامُ قولي وشنَّعوا ... عليَّ بعلمٍ لا ألومُ به نفسي

فلا هم مع الأحياءِ في نورِ ما أرى ... ولا هم مع الأموات في ظُلمة الرَّمسِ

فسبحانَ مَن أحيى الفؤادَ بنورِهِ ... وأفقدهُمْ نورَ الهِدايةِ بالطَّمْسِ

---

[233] تاريخ ابن خلدون، 565/1، موقع اليعسوب.

علومٌ لنا في عالمِ الكونِ قدْ سَرَت من المغربِ الأقصَى إلى مطلَعِ الشمسِ
تَحلَّى هِا مَن كان عقلاً مُجرَّدًا عن الفكرِ والتَّخمينِ والوَهمِ والحَدْسِ
وأصبحتُ في بيضاءَ مثلي نقيَّـــةٍ إمامًا وإنّ الناسَ منها لفي لَـــبْسِ!

التصوُّف ظاهرة وعلم على السواء. فهو ظاهرة من جهة أنّه ردَّة فعل ذات بُعد إصلاحي عميق في جسم الأمّة التي وقعت بأيدي حكّام لا همّ لهم إلا الدنيا بحيث انتقلت عَدوَى حبِّها إلى عامَّة الناس فعمَّ الفساد وطمَّ. وهو من جهة أخر علم نشأ من تعاليم الوحي واستنار بمشكاة النبوَّة وتغذَّى من سَنَن الصحابة الذين كانوا يعلِّمون الناس الخير. كان تعليم الصحابة مُقتضَبًا يسير العبارات واضحَ الْمَقاصد، لا يخرج عن نطاق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على التوكُّل والتوبة والزهد وحُسن الخُلُق بما يحقق للمسلم الاستقامة في الحياة ويجعله، كما أراد له الإسلام، رجل الدنيا والآخرة. فلَم يخصّ الصحابة كما أسلفنا شيئا من أمور الدين عن غيره، بل كانوا يراقبون خواطرَهم ويقومون بواجباهم الدينيّة والدنيويّة ببساطة دون تعقيد. فمثلاً يقول الإمام علي بن أبي طالب: لا شرف أعلى من الإسلام، ولا عز أعز من التقوى، ولا معقل أحصن من الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا كتز أغنى من القناعة، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت. فإنّه يشير إلى ما سيُعرف فيما بعد في الاصطلاح الصوفي بالمقامات، وهي هنا التقوى الورع التوبة والقناعة والرضا.

لكن، كما سبق بيانُه في أوّل الكلام، غلب حبُّ الدنيا الناسَ وطغى الطَّمَع والأنانيّة على القلوب، فقامت مدرسة التصوُّف في وجه هذا الشرّ، كما بيَّنه إبراهيم الدسوقي المصري، قال: لو أن العالَم أتى إلى الصوفية خالصًا من العِلل والأمراض لأَوصلوه إلى

حَضرة الله في لحظة! ولكنه أتاهم بأمراض وعلل ظاهرة وباطنة مِن دَعْوَى العلم ومَحبَّة الدنيا وشهواتها، وباطنه مَملوء بالحسد والمَكر والخِداع والحقد والغِشّ وغير ذلك. فلذلك أمروه بعلاج ذلك ليتطهَّر منه؛ فإنها أخلاق الشياطين! ويقول ابن عَجيبة في إيقاظ الهمم: قد ذكر أهلُ الفنِّ اصطلاحات وألفاظًا تداولوها بينهم تقريبًا لفهم المعاني. فمنها السَّير والرحيل والمنازل والمناهل، ومنها الرجوع والوقوف؛ وكل ذلك كنايةٌ عن مُجاهدة النفوس ومُحاربتها وقطعِ العوائق عنها أو الوقوف مع شيء منها، وكما قيل: لولا ميادينُ النفوس ما تحقَّق سيرُ السائرين! ومنها الوصولُ والتمكين والسكون والطمأنينة، ومنها المشاهدة والْمُكالَمة والْمُجالَسَة والْمُسامَرة وغيرُ ذلك؛ وكلٌّ ذلك كنايةٌ عمّا أدركته أرواحُهم وذاقَته أسرارُهم مِن عَظَمَة الحقِّ وجلالِه. ومعنى 'الوصول' عندهم: تحقيقُ العلمِ بوُجودِه -الله- وحدَه؛ فوُصولُك إليه هو شُعورُك بعَدَمِك حتى يكونَ عَدمُك عِندَك ضَروريًّا، وعلمُك بوُجودِه كذلك. وهذا الأمرُ كان حاصلاً لك في نفسِك لكن لم تشعُر. ومن اصطلاحاتهم: القربُ والْمُراقبة. ومعنى القرب، أي قربك منه، أن تكون مشاهدًا لقُربه هو منك، وإلا فمِن أين أنت ووجودك قربه؟! إذا حقَّقتَ أن الأكوان ثابتة بإثباته، مَمحُوَة بأَحَديَّةِ ذاتِه، عندئذ تعلمُ علمَ يقين أن الأكوان والمكان والزمان لا وجودَ لها، وأن الحق كما كان: وجودٌ وحدَه! ولا أين ولا متى. مَحا نور أَحديَّتِه وجودَ الأكوان، فانتفى بوجوده كل شيء وثبت بجوده كل شيء، وليس ثمّة غير الواحد الْمَنّان: كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

فإذًا قد اختصَّ الصوفية بِمُصطَلَحات عديدة، ما فتئت تزداد غموضا عبر الزمان. وهي ألفاظٌ وتراكيب استنبطوها من تجاربهم الْمُقيَّدة بالشَّرع الإلَهي الوارد في القرآن

والسنّة. وأظهروها في إشاراتهم الشفويّة أو في كتُبهم لذوي البصائر والاعتبار، لذا خَفيَت أكثَرُ عباراتهم على أفهام عامَّة الناس لدقّتها ولَطافتها. فزيادةً على ما ذكره ابن عجيبة في الفقرة أعلاه هناك من جملة مسائلهم: المقامات كالتَّوبة والإرادة والمُجاهدة والمرابطة والحياء والحُرمة والرعاية والأدب والمراقبة والزهد والصمت والخَلوة والحُزن والخوف والرجاء والصدق والإخلاص والصبر والشكر والتوكل والرضا والاستقامة والْمحبَّة الخ، والأحوال كالقبض والبسط والهيبة والأنس والجمع والفرق والفناء والبقاء فناء والفناء والسَّحْق والْمَحق والاِصْطِلام والصحو والسُّكْر والوجد والذّوق والتلوين والتمكين والمحو والإثبات الخ، والمنازل والمعارف والحقائق، والعوارض والعوائق والعلائق، والحجب والأنوار، والأزل والوقت، والجَمع وجَمع الجَمع والتجريد والتفريد والتوحيد، والخواطر والواردات، والهِمّة والخيال، وحقيقة الحقائق والتخلّي والتحلي والتجلي، والأحديّة والواحديّة، والألوهية والأُلوهة، والهُوَ والأنا، والعبادة والعبودية والعبودة، والنفَس الرحماني والحقيقة المحمّديّة والإنسان الكامل إلى ما تحت هذه العبارات وغيرها من معانٍ تدلُّ على علومهم بأغوار النفس البشريّة وما وراءِ الطبيعة. فالصوفية مُختصون بحل هذه العقَد والوقوف على المشكل منها لِمُمارستهم لها مُنازلةً ومُباشرة حتى ذاقوا طَعمَها الذي يخرج عن نطاق العقل والمَنطق. فأخبروا عنها بما أمكنهم من عبارات لَم تكن موجودةً، صقلوها للضرورة. فمَن لا علمَ له باصطلاحات الصوفية يعجَز عن فهم كلامهم، والذي هو في الحقيقة فهم عميق للقرآن والسنة.

***

نصوص صوفية

ذكرُ التصوُّف ضمن علوم الدين تَجوُّزٌ منّا يُسهِّل بيانَ تفاصيل الإسلام، والحقيقةُ أنّه الروح الذي به يحيَى الدين ويستقرُّ على اليقين، وهو النّفَس الذي يسري في موادّه لُينعشَها. فلا جرَم أن عمَّ التصوُّف كلَّ العلوم كسريان الماء في الأحياء، فهو حكمةٌ يهبُها الله ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ، وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرا﴾ [البقرة 269]، وسبق أنّ كلمة تصوُّف يونانيّة الأصل، وأنّه لا ضَير في استعمالها وقد استعملَ القرآنُ عبارات أجنبيّة كقوله ﴿أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِين﴾ [الحجرات 9] وقِسط لاتينيّة (iustas) ومعناها العَدل. الصوفي هو الحكيم الإلَهي الذي تجرَّد لطلب المَعرفة كي يكون عارفًا بالله. فلا غَروَ أن كان لَه كلامٌ في شتَّى مجالات الدين والحياة، ولنورد فيما يلي أقوال بعض مشايخ التصوُّف في العلوم المذكورة في هذا الكتاب، والله الموفق.

اللغة

بين التصوُّف واللغة علاقة عُضويّة، وألانَ الله للصوفيّة اللغة العربية كما ألان لداود الحديد. فأظهروا عبقرية لغتنا من حيث مبانيها ومعانيها لِفقَههم الوَحيَ بعُمق وتعبيرًا عن تجاربهم الذّوقيّة بدقَّة مفقودة لدى سائر الأدباء والعلماء. تظهر براعتُهم في رُموزهم وإشارتِهم الْمُعبِّرة عن مشاهدات ومُكاشَفات وُهبَت لهم من وراء أستار المادّة وعقال العقلِ يعجز الفكر عن توهُّمها، خُصّوا بأنوارها، فلا يذوقُها غيرُهم:

وزارَني في ظَـــلام الليل مُستَـــتِرًا   يَستَعجِل الخُطوَ مِن خوفٍ ومِن حَذرِ

ولاحَ ضَوءُ هِلالٍ كادَ يَــفضَحُه مِثلَ القُلامَــة قَد قُصَّتْ مِن الظُّــفُرِ
فقُمتُ أفرُش خَدّي في الطَّريق له ذُلاًّ وأَســحَبُ أَذيَــالي على الأَثَــرِ
فَــكان ما كان مِمَّا لَستُ أَذكُرُه، فَــظُنَّ خيرًا ولا تَسأَل عنِ الْخَــبَرِ!

لَمّا لَم يكن في وُسع السامِع العادي إدراكُ هذه المعاني نصحَه الشاعرُ الصوفي بالتَّسليم وإحسان الظَّن. وإلاّ فهذه أمورٌ لا تُنال إلا بالوَهْب الإلَهي الذي يعقُبُ الْمُجاهدات في الخَلوات لصقل مرآة القَلب وإرهاف الذوق وترقيق الطبع وتلطيف الفكر للعبارة.

رَقَّ الزُّجاجُ وراقَتِ الْخَمْرُ فتَشابَــها وتَشاكَلَ الأمْرُ
فَكأَنَّما خَمْرٌ ولا قَــدَحٌ وكأنّــما قَدَحٌ ولا خَمْرُ

يقول ابن عَجيبة: إذا دخل القلبُ حَضرةَ القُدُس ومَحَلَّة الأُنس، فَهِم دَقائقَ الأسْرار ومُلِئَ بمَواهِب الأنوار. وإلاّ، أنّى يرجو فَهمَ رقائق الأسرار مَن لَم يَتُب عن الإصرار؟ دقائقُ الأسرار غَوامِضُ التَّوحيد. فمَن لم يتُبْ بالرجوع عن كلِّ وَصفٍ ذَميم دَنِيٍّ إلى كل وصْف حَميد سَنِيّ فَيَخُض بحر التجريد ويغُص مقامات التوحيد بقلب فريد، فلا يطمع في فهم غوامض التوحيد ولا يذوق أسرار أهل التَّفريد. قال أبو سليمان الداراني: إذا اعتادت النفوس تركَ الآثام جالت في الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطَرائف الحِكمَة، مِن غير أن يُؤدِّيَ إليها عالِمٌ علمًا. وقيل للجُنيد: كيف الطريق إلى التحقيق؟ قال: بتوبةٍ تُزيل الإصرار وخوفٍ يقطع التَّسويفَ ورجاءٍ يَبعَث على مَسالك العمل وإنباء النَّفس بقُربِها من الآجال لإبعادِها من الآمال. فقيل له: بماذا يوصَل إلى هذا؟ قال: بقلب مُفرَّدٍ به تَوحيدٌ مُجرَّد! إذا انفرَد القلبُ بالله وتَخلَّص مما سواه فَهِمَ دَقائقَ التَّوحيد وغَوامِضَه التي

لا يُمكِن التعبيرُ عَنها، وإنّما هي رُموزٌ وإشاراتٌ لا يَفهَمُها إلا أَهلُها ولا تُفشَى إلا لَهم. ومَن أفشَى شيئًا مِن أسرار التوحيد لغير أهلِه فقد أباحَ عِرضَه وعرَّض نفسَه للقتل[234].

إني لأَكـــتُمُ مِن عِلمي جَواهِرَه كَي لا يرَى العلمَ ذو جَهل فيَفتَتِنَا
وقد تَـــقدَّم في هذا أبو حَسَنٍ إلى الحُسَين وأَوصَى قَبلَـــهُ الْحَسَنا
يا رُبَّ جَوهَرِ عِلم لَو أبوحُ به، لقيل: أنتَ مِـــمَّن يَـــعبُد الوَثَـــنا
ولاَستَحَلَّ رِجالٌ مُسلِمون دَمي، يَرَون أَقْـــبَحَ ما يأْتونَـــه حَسَـــنا

أَلَّف أبو القاسم القُشَيري كتابًا سَمَّاه 'نَحو القلوب' بيَّن فيه مَنحا اللُّغة في الحقيقة رَبطًا لها بالأصل الوُجودي، يقول في أوّله: الحمد لله الذي أَودَعَ الحِكمةَ أهلَها وعَلَّم آدَمَ الأسماءَ كلَّها، وأَوقَفَه على الْمَقصودِ مِن دائرَة الوَجود، فحَلَّ شَكلَها وبيَّن لِبَنيه حُروفَها ووَسَمَ اسْمَها ورَسَم فِعلَها. فمنهم مَن شَمَّر لِوابل القِسمة وما قَبِلَ طَلَّها، ومنهم من رَضيَ بالهَزيمة فلما عَقدَ عُقدَةَ العَزيمة حَلَّها. فزُمرَةٌ أَقبَلَت على إصْلاح الشَّأن ليَظهَر فَضلُها وزمرة تَجاوَزت جُنَّةَ الجنان ذوات أغصان العصيان، إلى شَجَر الطغيان، فقَطعت أصلَها، ثم نَحَتْ نَحوَ مَن أَعلَّها، لعلّها تَظفَر بشِفائها من عِلّتِها... وبعد: فأنّ النَّحْو عِبارة عن القَصْد. والناسُ مُختَلِفون في الْمَقاصِد ومُفْترِقون في الْمَصادر والمَوارِد، فواحِدٌ تَقويمُ لِسانِه مَبْلَغُ عِلمِه، وواحِد تَقويمُ جَنانه أَكثَرُ هَمِّه. فالأوَّلُ صاحِب عِبارَة، والثاني صاحبُ إشارة، فنقول وبالله التوفيق ولرسوله التصديق: قال أهل العبارة: أقسام الكلام ثلاثة: اِسمٌ وفِعل وحَرف. وقال أهل الإشارة: الأصولُ ثلاثة: أقوالٌ وأفعال

[234] إيقاظ الهمم بشرح الحكم، ص29.

وأحوال، فالأقوال قَبول العلوم وهي مقدَّمة على العَمَل، ثم المبادرة إلى صالح الأعمال، ثم تأتي الأحوال مواهب من الله تعالى. باب الأسماء واشتقاقها: قال أهل العبارة: الاِسم مُشتَقٌّ مِن السُّمُوّ أو من السِّمة. وقال أهل الإشارة: اسمُ العبد ما وَسَمه اللهُ به في سابق مَشيئته من شقاوة أو سعادة، فمَن قرَّبه بالسابقة فقد سَما قدرُه. ولما دخل العباد إلى مكتب التعليم طالع آدمُ لوح الوُجود وطالع محمد لوح الشهود، فقيل له بلسان الحال: نحن نطلعك على كل موجود، يا محمدُ قد عرَفتَنا بالأسماء والصِّفات فتعرَّفْ إلينا بالذات! فلما غاب عن الاسم وجد المسمَّى، ولما أعرض عن الفعل حلَّ الحَرفَ الْمُعمّى والمعنى الذي لا يسمى. فصل: الاسمُ صحيحٌ ومعتلٌّ. قال أهلُ العبارة: الصحيح ما سَلِم مِن حروف العِلّة وهي الألف والواو والياء. وقال أهل الإشارة: مَن سلم مِن ألف الإبلاس وواو الوسواس وياء اليأس، فقد صحَّ اسمُه وحقَّ له الإعرابُ والبيان للكشف والعيان، فعلِم عِلمَ اليَقين فعَينَ اليقين فحَقَّ اليقين[235]. فهم القشيري هذا يدلُّ على أنّ اللّغة، وفي أخصّ خصائصها كقواعد النَّحو، قابلَة للإبداع الأدَبي لقوّتها الوُجوديَّة وقابليَّتها لتعدّد المعاني بتعدُّد الأواني كما قيل: كل إناء بما فيه ينضح.

الإسلام

قال النِّفَرِي في موقف الإسلام: أوقفني في الإسلام وقال لي: هو ديني فلا تبتَغِ سِواه، فإني لا أقبَله. هو أن تُسلِّم لي ما أَحكُمُ لك وما أحكم عليك. قلتُ: كيف أسلم لك؟ قال: لا تُعارضني برأيك ولا تَطلُب على حَقّي عليك دليلاً مِن قِبَل نَفسِك، فإنّ

[235] 'نحو القلوب' ص1–41، الكتب العلمية، بيروت.

نفسَك لا تدُلُّك على حَقي أبدًا ولا تَلتزِمُ حقّي طَوعا. قلتُ: كيف لا أعارض؟ قال: تتَّبِع ولا تَبتَدِع. قلت: كيف لا أطلب على حقك دليلاً مِن قِبَل نفسي؟ قال: إذا قلتُ لك: إنّ هذا لك، تقول: هذا لي، وإذا قلت لك: هذا لي، تقول: إن هذا لك، فيكون أمري لك هو مُخاطِبُك، وهو المُستحِقُّ عليك، وهو دليلُك، فَتستَدِلُّ به عليه وتَصلُ به إليه. قلت: فكيف أتَّبِع؟ قال: تَسمعُ قولي وتسلُك طريقي. قلت: كيف لا أبتدع؟ قال: لا تسمعُ قولَك ولا تَسلُك طريقك. قلت: ما قولك؟ قال؟ كلامي. قلت: أين طريقك؟ قال: أحكامي. قلت: ما قولي؟ قال: تَحيُّرُك. قلت: ما طريقي؟ قال: تحكُّمُك. قلت: ما تَحَكُّمي؟ قال: قياسُك. قلت: ما قياسي؟ قال: عَجزُك في عِلمِك. قلت: كيف أعجُز في علمي؟ قال: إنّي ابْتَليتُك في كلِّ شيءٍ مِنّي إليك بشيءٍ منكَ إليّ، فابتليتُك في عِلمي بعِلمِك لأنظُر أَتتَّبع عِلمَك أو عِلمِي، وَابتَليتُك في حُكمي بِحُكمك لأَنظرَ أَتحكُم بِحُكمِك أو بِحُكمي. قلت: كيف أتبع علمي وكيف أعمل بحكمي؟ قال: تَنصرِفُ عَن الحُكمِ بِعِلمي إلى الحُكم بعِلمك. قلت: كيف أَنصرِف عن الحكم بعلمك إلى الحكم بعلمي؟ قال: تُحِلّ بكلامك ما حرَّمتُه بِكلامي وتُحرِّمُ بكلامِك ما أحلَلتُه بكلامي، وتدَّعي أنّ ذلك بإذْني وتَدعي أن ذلك عن أمري. قلت: كيف أدّعي عليك؟ قال: تأتي فِعلاً لَم آمُرْك به فتَحكُم لَه بحُكمي في فعلٍ أمرتُك به، وتأتي بقَولٍ لَم آمرْك به فتَحكُم له بحُكمي في قول أمرتك به. قلتُ: لا آتي بفعلٍ لَم تأمُرني به ولا آتي بقولٍ لم تأمرني به. قال: إن أَتيتَ به كما أَمَرتُك فقَولي وفِعلي، وبقَولي وفعْلي يَقَع حُكمي، وإن أتيتَ به كما لَم آمُرْك به فقولُك وفِعلُك، وبقولِك وفعلك لا يَقع حُكمي ولا يكون ديني وحُدودي. وقال: لي إن سوَّيتَ بينَ قَولي وقولِك أو سوَّيتَ بين حُكمي

وحكمِك فقد عَدَلْتَ في نَفسِك. قلت: لا حُكْمَ إلاَّ لقَولِك وفِعلِك. قال: فَقُهتَ. قلتُ: فَقُهْتُ. قال: لا تَمِل. قلت: لا أَميل. قال: مَن فَقُه أمري فقد فَقُه، ومَن رأَى نفسَه فَقُهَ فما فقُه!

التفسير

يقول السُّلَمي في 'حقائق التفسير': خَصّ الله أهل الحقائق لِخواصِّ إفرادِه وجعلهم أهلَ الفهم لِخِطابه العالِمين بلَطائِف وَدائعه في كتابه المترل الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت 42] فأخبروا عن معاني خطابه بمقدار ما فتح الله على كل واحد منهم من لَطائف أسراره ومعانيه ونطقوا عن فهم كتابه بحسَب ما سَنَح لهم من بدائعه. بل قَصُرَت الأفهامُ عن إدراك فرائده واستيعاب فَوائده، إلاّ على مُعاني الْمُكاشَفات والْمُنازَلات بإشارات تدُقُّ على غير أهلِها. ودانَ الْمُترسِّمون بعُلوم الظَّواهر، فصنّفوا في أنواع القرآن فوائد ومسائلَ وأحكامَ فقه وإعرابَ لغة وغير ذلك مما يشغلوا به أعمارَهم... قال أبو جُحيفة: سألت عَلِيًّا: هل عندَكم من رسول الله شيءٌ من الوحي سوي القرآن؟ قال: لاَ، والّذي فَلَق الحَبَّة وبَرَأَ النَّسَمة، إلا أن يُعطيَ الله عَبدًا فَهمَ كِتابه. وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله قال «إنّ القرآنَ أُنزِل على سَبعَةِ أَحرُف، لكلّ آيةٍ منه ظَهرٌ وبَطْن ولِكلّ حَرفٍ حَدٌّ ومُطَّلَع» وقال على بن أبي طالب: ما من آية إلا ولها أربعة معان: ظاهر وباطن وحَدّ ومطلع، فالظاهرُ التِّلاوة، والباطِن الفَهم، والحَدُّ عِبارةٌ وإشارَة وحلالٌ وحرام، والْمُطَّلَع مُرادُه مِن العِباد بها.حُكي عن الجُنَيد أنه قال: إن أهل المعرفة نفَوا عن قلوبهم كل شيء سوى الله وصَفَّوا قُلوبهم له تعالى، فكان أوّلَ ما وَهب لَهم فَناءَهم عن كل شيء

سواه، فقولوا: بسم الله إلينا! فانتسَبوا إليه وتركوا انتساهم إلى آدم عليه السلام. قال أبو سعيد الخرّاز في 'درجات المريدين': منهم مَن جاوز نسيان حُظوظ نفسه، إلى أن وقع في نسيان حظِّه من الله ونسيان حاجته إليه تعالى، فهو يقول: ما أنا ومن أين أنا؟ ضاع اسمي فلا اسمَ لي، وجَهِلتُ فلا علمَ لي، وضَلَلت فلا جهل لي! وإذا قيل لأحدهم: ما تريد؟ قال: الله! وما تقول؟ قال: الله! وما تَعلَم؟ قال: الله! فلو نطقت جوارحُه لقالت: الله! كلُّ ذاته وأعضائه ومَفاصله مُمتَلِئة مِن نور الله الْمَخزون عنده. ثم يصيرون في القُرب إلى غاية لا يقدِر أحدٌ منهم أن يقول: الله! لأنه وَرَدَ في الحقيقة على الحقيقة، ومن الله على الله، ولا حَيرة، لا حيرةَ فيما فيه الحيرة! وسُئل الحسين بن منصور! هل يذكُرُه أحدٌ على الحقيقة؟ فقال: كيف يُذكَر على الحقيقة مَن لا أَمَدَ لِكَونه ولا عِلَّةَ لفِعلِه، ليس له كَدُّك ولا لِغَيبه هَدُّك؛ له مِن الأسماء مَعناها ومن الحُروف مَجراها، إذ الحروفُ مَبدوعَة والأنفاسُ مَصنوعَة. الحروف قول القائل ومن أحوال الخلق، عدا قدرَه الظنُّ ثم عاد، ورجع الوصف على واصفه وعقلَ العَقلُ صاحِبَه، واتُّهِمَ الفهم، واغتمَّ الفِكر حيثُ لا درك، واستحال الاستنباط، وادّكر المَملوكُ حال الانبساط، وغاب المُلكُ في نور مَلِكه، وانتهى المخلوق إلى عدَمه![236].

يقول عبد الرزاق القاشاني في تفسير قوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين، الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، مَالِكِ يَوْمِ الدِّين، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّين﴾ [الفاتحة]: اسمُ

236 'تفسير السلمي' 1/1-29، الكتب العلمية، بيروت.

الشيء ما يعرف به، فأسماءُ الله هي الصُّوَر النَّوعيّة التي تدلّ بخصائصها وهوياتها على صفاته وذاته تعالى وبوجودها على وجهه وبتعيُّنِها على وَحدته، إذ هي ظواهره التي بها يعرف. الله اسمٌ للذات الإلَهيَّة مِن حيثُ هي هي على الإطلاق، لا باعتبار اتِّصافِها بالصفات ولا باعتبار لا اتِّصافِها. الرحمن هو الْمُفيضُ للوُجود والكمالِ على الكلِّ بحَسَب ما تقتَضي الحِكمَةُ وتَحتَمِل القَوابِلُ على وَجه البِداية. و الرحيم هو الْمُفيضُ للكَمال الْمَعنَويّ الْمَخصوص بالنوعِ الإنساني بحسَب النِّهايَة. فمعناه: بالصورة الإنسانية الكاملة الجامعةِ للرحمة العامّة والخاصة، التي هي مظهر الذات الإلَهي والحق الأعظمي مع جميع الصفات: أَبدأُ وأقرأ، وهي الاسم الأعظم، إذِ الكلمات حقائقُ الْمَوجودات وأعيانُها. كما سُمِّي عيسى كلمةَ من الله. ولهذا قيل: ظهرت المَوجودات من باء بسم الله إذ هي الحرف الذي يلي الألف الموضوعة بإزاء ذات الله. فهي إشارة إلى العقل الأوَّل الذي هو أوّل ما خلق الله المخاطَب بقول الله «ما خلقتُ خلقًا أحبَّ إليّ ولا أكرمَ عليَّ منك؛ بك أُعطي وبك آخُذ، وبك أُثيب وبك أعاقب...». والحروف الْمَلفوظة لهذه الكلمة ثمانيةَ عشر والمكتوبة تسعة عشر. وإذا انفَصلت الكلماتُ انفصلتِ الحروف إلى اثنين وعشرين، فالثمانية عشر إشارةٌ إلى العوالِم الْمُعبَّر عنها بثمانية عشر ألف عالَم، إذ الألف هو العدد التام المشتمل على باقي مراتب الأعداد، فهو أمّ المراتب الذي لا عدد فوقَه، فعبَّر بها عن أمَّهات العوالِم التي هي: عالَم الجَبَروت وعالَم الملكوت والعرش والكرسي والسموات السبع والعناصر الأربعة والْمَواليد الثلاثة التي ينفصل كل واحد منها إلى جزئياتِه، والتسعة عشر إشارة إليها مع العالَم الإنساني، فإنّه، وإن كان داخلاً في عالم الحيوان إلا أنه باعتبار شرَفه وجامِعيَّته

للكُلّ وحَصره لِلوُجود، عالَم آخَر له شَأنٌ وجِنسٌ برأسِه له بُرهان؛ كجبريل مِن بين الملائكة في قوله ﴿الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ [المعارج 4]! والألفات الثلاثة المحتجبة التي هي تتمَّة الاِثنين والعشرين عند الانفصال إشارةً إلى العالَم الإلَهيّ الحقّ، باعتبار الذات والصفات والأفعال. فهي ثلاثة عوالِم عند التفصيل، وعالَمٌ واحد عند التحقيق، والثلاثة المكتوبة إشارةٌ إلى ظهور تلك العوالم على الْمَظهَر الأعظميّ الإنسانيّ ولاِحتِجابِ العالَم الإلَهي. حين سُئل رسول الله عن ألف الباء أين ذهبت؟ قال صلى الله عليه وسلم «سرَقها الشيطان»، وأمر بتطويل باء بسم الله تعويضًا عن أَلِفِها إشارةً إلى احتِجاب أُلوهيّة الإلَهية في صورة الرحمة الانتشاريّة وظهورِها في الصورة الإنسانية، بحيث لا يعرِفها إلا أهلُها، ولهذا نُكِّرَت في الوَضع. وقد ورد في الحديث «إن الله تعالى خلق آدم على صورته»، فالذات مَحجوبَة بالصفات والصفات بالأفعال والأفعال بالأكوان والآثار. فمَن تجلّت عليه الأفعال بارتِفاع حُجُبِ الأَكوان تَوَكَّل، ومَن تَجلّت عليه الصفات بارتفاع حجَب الأفعال رَضِيَ وسَلَّم، ومَن تجلّت عليه الذاتُ بانكِشاف حجبِ الصفات فَنِيَ في الوَحدة وصارَ مُوحِّدًا مُطلقًا، فاعلاً ما فعل وقارئًا ما قرأ بسم الله الرحمن الرحيم. فتوحيد الأفعال مقدَّم على توحيد الصفات وهو على توحيد الذات، وإلى الثلاثة أشار النبيّ بقوله «أعوذُ بعَفوِك مِن عِقابك، وأعوذ برِضاك من سَخَطِك، وأعوذ بك منك!». ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الحمد بالفِعل ولسان الحال هو إظهار الكَمالات وحُصول الغايات من الأشياء، إذ هي أَثْنِيَة فاتِحة ومِدَحٌ رائِعة لْمُوَلِّيها بما يَستحِقُّه. فالمَوجودات كلُّها بِخُصوصيّاتِها وخَواصِّها وتَوَجُّهها إلى غاياتها وإخراجِ كَمالاتها مِن حَيِّز القُوَّة إلى الفِعل، مُسبِّحَةٌ حامِدة، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ

بِحَمْدَهِ﴾ [الإسراء 44]، فتسبيحُها إيّاه تنزيهُه عنِ الشَّريك وعن صفات النقص والعجزِ باستِنادها إليه وحدَه، ودلالَتُها على وَحدانيَّتِه وقُدرَتِه وتَحميدُها إظهارُ كَمالاتها الْمُتَرتِّبة، ومَظهَريَّتُها لتلك الصفات الجَلاليَّة والجَماليّة. وخُصَّ بذاته بحسَب مَبدئِيَّته للكُلّ وحافِظِيَّته ومُدبِّريَّته للكل التي هي معنَى الرُّبوبيَّة للعالَمين، أي لكلٍّ ما هو عِلْمٌ لِلَّه يُعلَم به كالخاتَمِ لِما يُختَم به والقالَب لما يُقلَبُ فيه، وجُمْع جمعِ السّلامة لاشتِماله على معنى العِلم، أو للتَّغليب، وبإزاء إفاضَة الخير العامِّ والخاصّ، أي النِّعمة الظاهرةِ، كالصِّحّة والرِّزق، والباطنة كالْمَعرِفة والعلم. ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّين، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين﴾ باعتبار مُنتَهائيَّتِه وهي معنى مالِكيَّة الأشياء في يوم الدين، إذ لا يجزي في الحقيقة إلا المعبود الذي ينتهي إليه المُلك وقتَ الجزاء بإثابة النعمة الباقية عن الفانية للمُتجرِّد عنها بالزُّهد وبتجليّات الأفعال عند انسلاخ العبدِ عن أفعاله، وبتعويض صفاته عند المَحْو عن صفاته وإبقائه بذاته، وهبته له الوجودَ الحقّاني عند فنائه. فله تعالى مُطلقُ الحمدِ وماهيَّته أزلاً وأبدًا، على حسَب استحقاقِه إيّاه بذاتِه باعتِبار البدايَة والنهايةِ وما بينهما، في مقام الجَمع على ألسِنَة التفاصيل. فهو الحامِد والْمَحمود تَفصيلاً وجمعًا والعابدُ والمعبود مَبدأً ومُنتَهى. ولَمّا تجلَّى في كَلامِه لِعباده بِصفاته شاهَدوه بعَظَمتِه وبَهائِه وكمالِ قُدرَتِه وجَلاله، فَخاطَبوه قَولاً وفِعلاً بِتَخصيص العِبادة به وطَلَب المَعونَة منه، إذ ما رَأَوا مَعبودًا غيرَه ولا حَولَ ولا قُوَّة لأَحدٍ إلاَّ به. فلَو حَضَروا لَكانَت حَركاتُهم وسَكَناتُهم كلُّها عِبادَةً لَه وبِه، فكانوا على صَلاتِهم دائِمين داعينَ بلِسان المحَبَّة لمُشاهدَتهم جمَالَه مِن كلِّ وَجهٍ على كلِّ وَجه. ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّين﴾ ثبِّتنا على الهداية ومكِّنا بالاستقامة في طريق الوَحدة،

التي هي طريقُ الْمُنعَم عليهم بالنِّعمة الخاصَّة الرَّحيميَّة التي هي المَعرِفَةُ والمحبَّة والهِداية الحقّانيّة الذاتيَّة مِن النَّبِيِّين والشُّهداء والصِّدِّيقين والأَولياء، الذين شاهَدوه أوّلاً وآخرًا وظاهرًا وباطنا، فغابوا في شُهودهِم طَلعَةَ وَجهِه الباقي عَن وُجود الظِّلِّ الفاني.

الحديث

قال أبو بكر الكلاباذي: حدثنا محمد بن أحمد البغدادي، قال: أخبرني أبو يعقوب إسحاق بن الحسن، قال: حدثني الهيثم بن خارجة، قال: حدثني الحسن بن يحيى الخشني، عن صدقة الدمشقي، عن هشام الكناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن الله عزَّ وجلّ، قال «مَن آذَى لِي وَلِيًّا فقَد بارزَني في الْمُحارَبة! ما تَردَّدتُ في شيءٍ أنا فاعِلُه، ما تَردَّدتُ في مَساءَةِ الْمُؤمن؛ يَكرَه الْموتَ ولا بُدَّ منه. ما تقرَّب إلي عبدٌ بمثل ما افترَضتُ عليه، ولا يزال العبد يتقرَّب إليّ بالنَّوافِل حتّى أُحِبّه. فإذا أَحبَبتُه كنتُ له سَمعًا وبَصَرًا ويَدًا ومُؤيِّدا، يَدعوني فأَستجيبُ له، ويَستَنصَحُني فأَنصَحُ له. إنّ مِن عِبادي الْمُؤمنين لَمَن يُريد البابَ مِن العِبادة فأَصرِفُه عنه كراهَةَ أن يَدخُلَه عُجْبٌ فيُفسِدُه ذلك، إنّ مِن عبادي المؤمنين مَن لا يُصلِحُ إيمانَه إلاّ الغِنى، لو أفقرته لأَفسدَه ذلك. وإن مِن عبادي المؤمنين مَن لا يُصلِح إيمانه إلا الفَقرُ، لو أَغنَيتُه لأفْسَدَه ذلك. وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الصحَّة، لو أسْقَمتُه لأفسده ذلك. وإن من عبادي المؤمنين مَن لا يصلح إيمانَه إلا السَّقَمُ، لو أَصحَحْتُه لأفسَده ذلك. وذلك أنّي أُدبِّرُ أمرَ عِبادي بعِلمي بِقلوبِهم، إني عليم خبير!» قال الشيخ الإمام الزاهد رحمه الله: أولياءُ الله خَصائصُه الذين اصَطفاهم في أَزَلِه قَبلَ أن يُوجِدَهم، وأَنتَجهم قبلَ أن يَخلُقَهم. اِستَخلَصَهم وَاصْطَنَعَهم لِنَفسِه قَبلَ أن يُحْدِثَهم، حينَ

أَوجَدَهم عن الأشياء، وصَرَفَ الأَغيارَ عنهم ضَناً بهم وغِيرَةً عليهم. زَيَّنَهم بأوصافه، وحلاّهم بنُعوتِهم، فهم عُلَماءُ صُلَحاءُ كِرامٌ صادِقون، رُحَماءُ حُكَماءُ عُدولٌ مُؤمِنون؛ فهم بكَثيرٍ من أَوصافِه مَوصوفون، وبأسمائه ونعوته مَوسومون. قَلَبَ بصفاتِه أحوالَهم، وأضافَ إلى نَفسه أفعالَهم، فقال ﴿لَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُم! وَمَا رَمَيْتَ، إِذْ رَمَيْتَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى!﴾ [الأنفال 17] قاتل بهم أعداءَه وانتصر بهم ممن عاداه، فهم أنصارُه، قال الله ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَه﴾ [الحشر 8]، ﴿قَال: مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّه؟ قَالَ الْحَوَارِيُّون: نَحْنُ أَنصَارُ اللَّه﴾ [آل عمران 52] لمّا كانوا أنصارَه يقاتلون مَن ألحَدَ في أسمائه، ويُناصِبون مَن أَشرَكَ ويذبّون عن دينه ويقاتلون مع رُسُلِه، جعل أذاهُم مُبارزتَه وإهانَتَهم مُناصبَتَه، فقال ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّه وَرَسُولَ:...﴾ [المائدة 33] سَمَّاهم مُحَاربين له لمَّا آذوا أولياءَه بسَلْب أموالِهم وسَفكِ دِمائِهم وَإخافَة سُبُلِهم. فلماّ كانوا خصائصَه، مَن آذاهم فقد بارَزَ الله وأظهر مُخالفتَه؛ لأنه فعل بهم نَقيضَ ما أراد الله بهم. أَكرَمَهم الله وأهانَهم الْمُؤذي، والاهم الله وعاداهم الْمُهين، فصارَ لله مُحارِبًا وله بالعدواة مُبارِزًا ولِحُكمه فيهم مُناقِضا. قولُه «ما ترَدَّدتُ في شيء أنا فاعله» أي ما رَدَدتُ، شَيئًا بعد شيء، فيما فعلتُه بخَلْقي، كما رَددتُ مختلف الأحوال على عبدي المُؤمِن في إزالَة كَراهَة الَموت عنه بلَطائِفَ أُحدِثُها له وأُظهِرُها عليه، حتّى يُحبَّ الَموْت ويَسأَمَ الحياة. كما فَعل بإبراهيم حين جاءَه مَلَكُ الْمَوت ليَقبضَ روحَه، فبكى، صلوات الله عليه. فذهب ملكُ الموت، ثم عاد إليه في صورَة شَيخٍ كَبير، فجَعَلَ يأكُل عِنَباً وماءُ العنَب يَسيل على لحيَته، فجعل إبراهيم ينظُر إليه، قال: يا عبدَ الله، كم أتى لَك؟ فذَكر مِثلَ سِنِّ إبراهيم. فَاشتَهَى إبراهيمُ الموتَ، فقَبَضَ روحَه. ذكَرَ ذلك حمّاد عن أبي عمران الجوني عن عبد الله بن

رباح عن كعب الأحبار. فهذه لطيفة أحدثها الله لخَلِيلْه في إزالَة كَراهَة المَوت عنه. وقوله: «ولا بُدّ له منه» ذلك أن الله خلق المؤمن وخلق سائرَ الأشياء له، فقال ﴿سَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْه﴾ [الجاثية 13]، فأراد تعلى أن يحُلَّ المؤمن في جواره ويُنزِلَه دارَ كَرامَتِه ويَهَب له مِن مُلكِه ويَجعَلَه باقيًا ببَقائه مَلِكًا لا يفنَى مُلكُه، حيًّا لا يَموتُ أبَدًا ولا يزول؛ يُحِلُّ عليه كَرامتَه ويُلَذِّذُه برُؤيَتِه ويُكرِمُه بالنَّظَر إليه. لقد حكم الله بهذه الكَرامة في الدار الآخرة، بعدَ الموت، وهو عزّ وجل لا يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيه ولا يَجوزُ البِداءُ عَليه. لذلك لم يكن للوَلِيِّ بُدٌّ مِن المَوت لِيَصِلَ إلى هذه الكَرامة الجليلة والرُّتبَة السَّنيّة والدَّرجَة الرَّفيعة. ومع ذلك كَرِهَ اللهُ مَساءَتَه في ذلك، فأزالَها عنه بلطائِفَ يُحْدِثها له وفيه، فسبحانَ الله اللطيفِ بأوليائه! قولُه «ما تقرَّب إليَّ عبدٌ بمِثْل ما افترَضتُ عليه» ليس مِن قَدْرِ العَبد أن يَتقرَّب إلى الله وسِمَةُ العُبوديَّة عليه ظاهِرةٌ ونَقْصُ الحَدَثِ فيه بَيِّنٌ وحَقارَةُ البُنْيَة له لازِمة، بأيِّ صِفَة يَصلُ إلى مَن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء﴾ [الشورى 11]؟ بل لا يُقرَب مَلِكٌ من ملوك الدنيا إلا بإذنه! فليس لأحدٍ أن يتقرب إلى الله بنفسه ولا من حيث هو. إنما الله هو الذي يقربه منه، يقرِّبهُ بلطفه إليه؛ يأمره بأداء ما افترض عليه، يجعلها علامتَه لِمَن له في سابق علمه تَهيُّئُ القُرب منه. مَن أقام أوامره وأدى فرائضَه هو مَن أحبَّه الله منذُ الأزَل، لَمّا أخرجه ربُّه إلى الوجود بخالص الجود صارت حياتُه مسارًا فأدّى فَرائضه تقرُّبا منه وأقام أوامِره تَوسُّلا إليه. وأخرَى: فالعبدُ، وإن تَوقَّى، لا يَخلُو مِن أن يَتدنَّس بالخَطايا ويَتلطَّخ بالمَعاصي، والله قُدُّوسٌ طاهِر، فأمر تعالى عبادَه المؤمنين بأداء ما افترض عليهم لِيُطهَّروا بها من أدناس الذنوب ويُنظَّفوا من أرجاس العيوب، فقال لهم ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات﴾ [هود 114]، وقال ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ

وَتُزَكِّيهِمْ بِها﴾ [التوبة 103]، و﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِين﴾ [البقرة 222]. فإذا أَتَوا بهذه الفَرائضِ تَطهَّروا، فصَلَحوا لِدارِ الطَّهارَة ولقُربَةِ القُدوس سبحانَه وتعالى. قوله «لا يزال يتقرَّب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه» لَمّا علم الوليُّ الوَجهَ الذي جَعله الله سببا لطهارته والعمَلَ الذي هو عَلامَةٌ مِن قُربَة الله تعالى له، وهو طاعتُه، أدّى فَرائضَه باذلاً فيها مَجهودَه. والفرائض مَحدودةٌ في أوقات معدودة، تسارع بعد الفراغ منها إلى أمثالها وأشباهها من الأعمال الأفعال والأقوال، طلبًا الازديادَ مِن الطُّرُق الْمُقرِّبة إليه والأسباب الدالة عليه، فزاده الله مَحبَّةً إلى تقرُّبه منه كما ازداد العبد تَحبُّبًا وتعبُّدا بحال الحرية من رِقِّ العُبوديَّة في أداء ما لَزِمَه. الفُروض مَعدودة مُقيَّدة ومحدودة مُؤقَّتة، فإذا أدّاها العبد خرج من رِقِّها. فهو إلى أن يأتيَه وقتُ فرضٍ آخرَ عَتيقٌ حرٌّ طليق في فعل ما يشاء من شؤون دنياه، ما لَم يقترف ذنبا. هو إلى أن يستقبله فرضٌ آخَر حرٌّ مُخيَّر. +ومَن تعبد في حال الحرية شوقا إلى مولاه استحق المحبة، كما أن من تعبد في حال الرق استوجب القربة. وقوله: «فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا» إذا أحب الله عبدا أحدث فيه حبا لله، فيحب الله كما أحبه الله، قال الله تعالى ﴿يحبونهم كحب الله﴾ [البقرة 165]، وقال تعالى ﴿يحبهم ويحبونه﴾ [المائدة 54] فالمحبوب محب، والمحب منخلع من جميع شهواته، خارج من جميع صفاته؛ لأن المحبة إذا استولت على المحب أفنته عنه، وسلبته عن صفاته، واصطفته من نعوته فأصمه وأعماه، وعن جميع الأشياء به أبلاه، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من حبك الشيء ما يعمي، وما يصم» حدثناه حاتم بن عقيل، قال: ح يحيى بن إسماعيل قال: ح الحماني، قال: ح ابن المبارك، عن ابن أبي مريم، عن خالد بن محمد الثقفي، عن بلال بن أبي الدرداء، عن أبي الدرداء، رضي الله

عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فالمحب يصم عن الأغيار، ويعمي عما سوى المحبوب الأبصار، وقال في ذلك بعض الكبار:

أَصَمَّني الحُبُّ إلاَّ عن تَساوُدِه، فمَن رأَى حُبَّ حُبٍّ يُورِثُ الصَّمَمَا؟

وكُــفَّ طَرْفِي إلاّ عَن وِعايَــته والحُب يُعمي وَفيه القَتلُ إن كُتِما

وقيل لقيس المجنون: أتحب ليلى؟ فقال: لا، قيل: لم؟ قال: إن المحبة ذريعة الوصلة، فإذا وقعت الوصلة سقطت الذريعة، فأنا ليلى، وليلى أنا. قال الشيخ، رحمه الله: وأنا أحكي لك عني عجبا في رؤيا رأيتها، رأيت فيما يرى النائم امرأة رقيقة ممشوقة، عليها ملاحة، ولها شعر ما رأيت على امرأة مثله طولا وغلظا وسوادا، فخيل لي أنها ليلى، وهي تنشد أشعارا، فكنت حفظت منها أبياتا ثم أنسيتها، فقلت لها وعزمت عليها: أخبريني عن قيس، فقالت: كان عنوان حبي وكنت معناه الذي قام به، فلم تكن له حال يوصف، ولا كانت له صفة تعرف، في كلام كثير حفظت منه هذا. فإذا كانت هذه أحوال المحب، فمن أحبه الله تعالى صرفه عن الأشياء إليه، وأقبل به عليه، فأحب الله تعالى كما أحبه الله، قال الله تعالى ﴿يحبهم ويحبونه﴾ [المائدة 54] والمحدث لا يطيق تحمل أعباء المحبة؛ لأنها تفنيه، فإذا أفنته محبة الله عن نفسه أنشأه الله لمحبته له خلقا جديدا، فأفاده سمعا بدل سمعه، وبصرا بدل بصره، ويدا بدل يده، وأيادي أقوى من أيده، فلا يبصر إلا ربه، ولا يسمع إلا منه، ولا يبطش إلا له، ولا يقوى إلا فيه، ألا تراه يقول «يدعوني فأستجيب له، ويستنصحني فأنصح له» لأنه لا يعرف له مولى، ولا وليا إلا إياه، ولا يرى في الدارين له غيره، فمن يدعو سواه ومن يجيبه إلا هو، إذ ليس عنده مجيبا له إلا ربه، ولا مدعوا إلا محبوبه. وقوله «يستنصحني فأنصح له» لأنه سقطت عنه اختياراته، وماتت

فيه شهواته، وبطلت منه إرادته، قد ذهل عن أوصافه، وشغل في محبة محبوبه عن نعوته، فهو لا يهتدي إلى مصالح نفسه، ولا يتخير في أحكام مولاه، فوض أمره إليه، وألقى نفسه بين يديه، وأقبل بكليته عليه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «اكلأني كلاءة الوليد» فهذا استنصاحه له، فهو تعالى يصرفه في مشيئته، ويجعله في قبضته، ويحوطه بعصمته، ويصرفه في محابه، فهذا نصحه له. وقوله عز وجل «إن من عبادي لمن يريد الباب من العبادة فأصرفه عنه كراهة أن يدخله عجب فيفسده ذلك» هذا من نصحت له، وذلك أنه لا يتصرف في شهوات نفسه، ولا يشتغل بحظوظها، وإنما شغله بمولاه، وتصرفه فيما يرضاه، فهو يريد الباب من العبادة تقربا إليه عند غلبة الاشتياق عليه، وهو حبيب الله ومحبوبه، والله تعالى محبه، والمحب يغار على محبوبه أن ينظر إلى غيره، ويضن به أن يرده إلى سواه، فالعبد لغلبة الاشتياق عليه يقصد الباب من العبادة باختياره وإرادته، فيصرفه الله تعالى عما اختاره إلى ما اختاره له، لئلا يكون راجعا إلى غيره، ولا ناظرا إلى نفسه، أو يرجع إلى اختياره، وإن كان ذلك في طلب مرضاته، واجتهادا في عبادته له؛ لأن العجب هو النظر إلى نفسه بعين الاستحسان، ومن استحسن شيئا شغل به وسكن إليه، فهو تعالى يصرفه عما يسكن إليه، ويشغله عنه، ليكون شغله به، وسكونه إليه. وقوله «إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، لو أفقرته لأفسده ذلك» هذا أيضا من نصيحته له، وذلك أن الله تعالى إنما أحب المؤمن لإيمانه، لأنه لما أحبه كتب في قلبه الإيمان، وحببه إليه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، فهو عز وجل يصرفه عما يخل بإيمانه، لئلا يخرج في حبه إياه شيء، وقد خلق الله عباده على طبائع مختلفة وأوصاف متفاوتة، فمنهم القوي، ومنهم الضعيف، ومنهم الرفيق،

ومنهم الكثيف، ومنهم الوضيع، ومنهم الشريف. فمن علم الله تعالى من قلبه ضعفا لا يحتمل الفقر أغناه، إذ لو أفقره إياه فهو عز وجل يغنيه، فيقر به بذلك منه ويدنيه، فيصونه بغناه من أن ينصرف بحاجته إلى سواه، قال النبي صلى الله عليه وسلم « بادروا بالأعمال خمسا: غنى مطغيا، وفقرا منسيا، وهرما مفندا، ومرضا مفسدا، وموتا مجهزا»، فإذا كان الفقر لبعض الناس منسيا، صرف الحق عمن عرف ذلك منه الفقر؛ لأنه لا يحب أن ينساه حبيبه، كما يكره أن ينظر إلى غيره قريبه، وكذلك من علم أن لا يصلح إيمانه إلا الفقر أفقره؛ لأنه تعالى يعلم أن الغنى يطغيه، وأن الفقر لا ينسيه بل يشغل لسانه بذكره، والثناء عليه، وقلبه بالتوكل عليه، والالتجاء إليه، قال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا أحب الله عبدا صب عليه البلاء صبا، وسحه عليه سحا، فإذا دعاه قالت الملائكة: صوت معروف، وقال جبريل عليه السلام: يا رب عبدك فلان، اقض له حاجته، فيقول: دعوا عبدي فإني أحب أن أسمع صوته، فإذا قال يا رب، قال الله تعالى: لبيك عبدي وسعديك، لا تدعوني بشيء إلا استجيب لك، ولا تسألني شيئا إلا أعطيتك، إما أن أعجل لك ما سألت، وإما أن أدخر لك عندي أفضل منه، وإما أن أدفع عنك من البلاء ما هو أعظم من ذلك»، والفقر أشد البلاء، وأعظم المحن، فإنما يفعل الله ذلك بعبده الذي أحبه ليدعوه فيسمع صوته داعيا له، ويسأله ويراه مفتقرا إليه، وكذلك السقم هو من البلايا والمحن، فيسقم الله تعالى حبيبه ليدعوه في الدنيا فيجيبه، ويسأله فيعطيه، ويشغله به عما يشغله عنه، ويصب عليه في الآخرة صبا كما سح عليه في الدنيا البلاء سحا قال النبي صلى الله عليه وسلم «تنصب الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء، ولا ينصب لهم ميزان، وينشر

لهم ديوان فيصب عليهم الأجر صبا بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية أنه كانت تقرض بالمقاريض أجسادهم مما فيه أهل البلاء من الفضل» حدثنا عبد الله بن محمد الفقيه قال: ح عبد الرحيم بن عبد الله قال: ح إسماعيل بن توبة قال: ح عفيف بن سالم، عن بكر بن خنيس، عن ضرار بن عمرو، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهو تعالى إنما يسقم عبده الذي يحبه لذلك، وكذلك الصحة، من علم الله منه ضعفا لا يحتمل السقم صححه ليكون له عابدا، وبين يديه راكعا وساجدا ويفضل قوته جاهدا، فيكون ماثلا بين يديه ومقبلا بكليته عليه لأن الله تعالى أحبه فجعله نصب عينيه في جميع أحواله إن كان فقيرا سأله وإن كان غنيا أقرضه وأسقمه تضرع إليه، وإن صححه مثل بين يديه يصلح إيمانه ليصلح له، يدبره بعلمه إنه عليم خبير، وعلى ما يشاء قدير، فهو تعالى يحبه له يفعله به ما يصرف بوجهه إليه، ويقبل بقلبه عليه وليكون في كل حال بين يديه ماثلا عن جميع الأشياء إليه مائلا، وفي كل الأحوال كلها إليه ناظرا، وفي كل وقت له ذاكرا، وذلك أنه تعالى محب، وعليه مقبل، وله مؤثر، وإليه ناظر، وله ذاكر، فيحب أن يكون حبيبه له كما هو لحبيبه، والعبد لا يطيق ذلك، ولا يهتدي إليه، فهو تعالى يفعل به ما يريد منه أن يفعله تعالى. الله أكبر الكريم اللطيف العليم[237].

الفقه

---

[237]. 'بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار' 1/377-384، دار الكتب العلمية.

يقول الحكيم الترمذي في حَقِيقَة الفِقه وفضيلته: عَن ابن عبّاس قالَ قالَ رَسُول الله «أفضل العِبادَة الفِقه وأفضل الدّين الوَرع» وَعَن ابن عمر عَن رَسُول الله أنه قالَ «ما عبد الله بِشَيء أفضل من فقه فِي دين» وَرُوِيَ عَن أبي هُرَيرَة عَن رَسُول الله أنه قالَ «ما عبد الله بِشَيء أفضل من فقه فِي دين ولفقيه واحِد أشد على الشَّيطان من ألف عابِد، وَلكُل شَيء عماد وعماد هَذا الدّين الفِقه». والفِقه هُوَ انكشاف الغطاء عَن الأُمُور فإذا عبد الله بما أمر وَنهى بعد أن فهمه وعقله وانكشف لَهُ الغطاء عَن تَدبيره فِيما أمر وَنهى فَهِيَ العِبادَة الخالِصَة المَحضَة وَذَلِكَ أن الَّذِي يُؤمر بالشَّيء فَلا يرى زين ذَلِك الأمر وَينهى عَن الشَّيء فَلا يرى شينه هُوَ فِي عمى من أمره فإذا رأى زين ما أمر بِهِ وشين ما نهى عَنهُ عمل على بصيره وَكانَ قلبه عَلَيهِ أقوى وَنَفسه بِهِ أسخى وَحمد على ذَلِك وشكر والَّذِي يعمى عَن ذَلِك فَهُوَ جامد القلب كسلان الجَوارِح ثقيل النَّفس بطيء التَّصَرُّف والفِقه مُشتَقّ من تفقؤ الشَّيء يُقال فِي اللُّغَة فَقا الشَّيء إذا انفَتح وفقأ الجرح إذا انفرج عَمّا اندمل والاسم فقيء والهاء والهمزة تبدلان تجزي إحداهما عَن الأُخرَى فَقيل فقيء وفقيه والفهم هُوَ العارِض الَّذِي يعرض فِي القلب من النُّور فإذا عرض انفَتح بصر القلب فَرأى صُورَة ذَلِك الشَّيء فالانفتاح هُوَ الفِقه والعارِض هُوَ الفَهم وَقد ذكر الله فِي تَنزِيله الفِقه فَقالَ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بها﴾ [الأعراف 179] فاعلَم أن الفِقه من عمل القلب وَقالَ رَسُول الله للإعرابي حِين قَرأ عَلَيهِ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ [الزلزلة 7-8] فولّى وَقالَ حسبي حسبي فَقالَ «فَقُهَ الرجل». وَقالَ أَبُو الدَّرداء: إنَّك لن تفقه حَتَّى ترى لِلقُرآنِ وُجُوهًا كَثِيرَة! وإن الله كلف العباد أن يعرفوه ثمَّ اقتضاهم بعد المعرفَة أن يدينوا لَهُ فشرع لَهُم شَرِيعَة الحَلال

والحرام والدّين هُوَ الخضوع والدون مُشتَقّ من ذَلِك وكل شَيْء اتضع فَهُوَ دون فامرت بِأُمُور لتَضَع نَفسك لمن اعترفت بِهِ رَبًّا فَسُمي ذَلِك الفِعل وَتلك الأُمُور دينا فَمن فقه أسباب هَذِه الأُمُور الَّتِي أمر وَنهى بِماِذا أمر وَنهى وَراى زين ما أمر وبهاءه وشين ما نهى تعاظم ذَلِك عِنده وَكبر فِي صَدره شانه فَكانَ أشد تسارعا فِيما أمر واشد هربا وامتناعا مِمّا نهى فالفقه فِي الدّين جند عَظِيم يُؤَيّد الله بِهِ أهل اليَقِين الَّذِي عاينوا محاسِن الأُمُور ومشاينها وَمِقدار الأشياء وَحسن تَدبِير الله لَهُم فِي ذَلِك بنور يقينهم ليعبدوه على يسر وَمن حرم ذَلِك عَبده على مكابدة وعسر لأن القلب وان أطاع وانقاد لأمر الله فالنَّفس إِنَّما تخف وتنقاد إذا رأى نفع شَيْء أو ضَرَر شَيْء والنَّفس جندها الشَّهَوات وصاحبها مُحتاج إِلَى أضدادها من الجُنُود حَتَّى يقهرها وَهِي الفِقه قالَ لَهُ قائِل صف لنا واحِدَة من هَذِه الأُمُور نفهم بها غَيرها قالَ نعم أحل الله النِّكاح وَحرم الزِّنا وانَّما هُوَ إتيان واحِد لامراة واحِدَة إلا أن هَذا بِنِكاح وَذاكَ بزنى فإذا كانَ من نِكاح فَمن شانه العِفَّة والتحصين لِلفَرج فإذا جاءَت بولد ثَبت النّسَب وَجاء العَطف من الوالِد بِالنَّفَقَةِ والتربية والمِيراث وإذا كانَ من زنا ضاعَ الوَلَد لأَنَّهُ لا يدرِي أحد من الواطئين لمن هَذا الوَلَد فَهَذا يحيله على ذَلِك وَذاكَ يحيله على هَذا وَحرم الله الدِّماء وامر بِالقصاصِ ليتحاجزوا وليحيوا وَقالَ فِي تَنزِيله ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة 179] إِلَى غير ذَلِك عَن عمر بن الخطاب قالَ قالَ رَسُول الله «إذا أرادَ الله بِعَبد خيرا يفقهه» وَعَن ابن عَبّاس عَن رَسُول الله أنه قالَ «من يرد الله بِهِ خيرا يفقهه فِي الدّين» عَن يُوسُف بن ماهك قالَ كانَ مُعاوِيَة قَلِيل الحَدِيث عَن رَسُول الله وَقل ما قامَ

خَطِيًا إلا قالَ سَمِعت رَسُول الله يَقُول «من يرد الله بِهِ خيرا يفقهه فِي الدّين» يا أيها النّاس تفقهوا![238].

الكلام

239

التصوّف

240

يقول الحسين بن منصور الحلاّج، قدّس الله روحَه، في وصف التصوّف:

سُكوتٌ ثُمَّ صَمتٌ ثُمَّ خَرْسُ	وعِلْمٌ ثُمَّ وَجْـــدٌ ثُمَّ رَمْسُ
وطينٌ ثُمّ نارٌ ثُمَّ نـــورٌ	وَبَرْدٌ ثُمَّ ظِلٌّ ثُـــم شَمسُ
وحَـــزْنٌ ثُمَّ سَهلٌ ثُمَّ قَـــفرٌ	ونَـــهرٌ ثُمَّ بَحرٌ ثُمَّ يَبْسُ
وسُكرٌ ثُمَّ صَحوٌ ثُمَّ شَـــوقٌ	وقُربٌ ثُمَّ وَصلٌ ثُمَّ أُنسُ
وقَبْضٌ ثُمَّ بَسطٌ ثُمَّ مَـــحوٌ	وفَرقٌ ثُمَّ جَمعٌ ثُمَّ طَمْسُ:
عِباراتٌ لأِقوامٍ تَساوت	لَـــدَيهم هذه الدُّنيا وفلْسُ

---

238. نوادر الأصول في أحاديث الرسول، 135/1، دار الجيل، بيروت.

239.

240.

وأصواتٌ وراءَ البابِ، لَكنْ عِباراتُ الورى في القُربِ هَمْسُ
وآخِرُ ما يَــؤولُ إليهِ عبدٌ إذا بلغَ الْمَدَى، حَظٌّ ونفْسُ
لأنَّ الْخَلْقَ خُــدَّامُ الأماني وحقُّ الحقِّ في التَّقديسِ قُدسُ

وقيل: التصوُّف تركُ التَّصرُّف. وقيل: الصوفي ابنُ وقتِه. فالصوفي لا يتصرَّف فيما لا يَعنيه ولا يهتمُّ بما مضَى ولا ما سيأتيه، بل يقصُرَ لَحظَه على لَحظته ويقتصِر على السَّمع والطاعة لله ورسولِه بغير تأويل، ويَعتني بحالتِه التي حلَّت به ويدَع غيرَها من اكتراث لأمور الدُّنيا إلا لضرورة شرعيّة. قال ابن عطاء الله السكندري: مَن لَم يُدبِّر، دُبِّرَ له. إن كان لا بُدّ من التدبير، فدبِّر أن لا تُدبر، لا تَختَر لنَفسك شيئا، واختَر أن لا تختار، ثم فِرّ من اختيارك أن لا تختار، ثم مِن فِرارك إلى الواحد القهّار! ﴿رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص 68]. كيف تختار وتُشارك الله فيما مَشيئته ثم تدَّعي التوحيد؟ بل ذاك شِركٌ منك! ولا يكون الإيمان حقًّا إلا لمن سلَّم لله قولاً وفعلا، وأخذاً وتركا، وحُبًّا وبغضا. يسلّم له التكليف فيأتمر لأوامره وينتهي عن نواهيه، ويسلِّم له التصريف ﴿قُلْ: إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي... وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام 57-61]! فلا تحصُل لك حقيقة الإيمان إلا بامتثال أمره والاستسلام لقهره. وإذ قد تبين هذا، فاعلم أن مقامات اليقين تسعة: التوبة والزُّهد والصبر والشكر والخوف والرِّضا والرجاء والتوكُّل والْمَحبّة، وأنه لا يصحُّ واحدٌ منها إلا بإسقاط التدبير والاختيار مع الله. التائب حقًّا مَن تاب من ذنبه وتَرك التدبير مع ربه، فاختيار ما لَم يُرده القهار ذَنبٌ يستفحل مع الإسرار، والتوبة هي الرجوع إلى الله من كل ما لا يرضاه مِن شرك بالربوبية وكفر لنعمة العقل. وكيف

تصح توبة عبد هَمُّه تدبيرُ دنياه وهو غافل عن حُسن رعاية مولاه؟ ولا يصح زهدٌ إلا بالخروج عن تدبير الزُّهد فضلا عن ترك الدُّنيا. فالزُّهْدُ زُهدان: ظاهرٌ جَليٌّ وباطِنٌ خَفِي. فالظاهر تركُ فُضول الحلال من مأكل وملبس ومسكن، والخفي ترك الترؤُّس والاشتغال بما لا يعني، ومنه الزهد في التدبير مع الله. ولا يصح صبر إلا بإسقاط التدبير، فالصابر مَن صبر عما لا يحبه الله، والله لا يحبُّ التدبير معه لأنّه شِرك. والصبر أقسام: صبر عن حرام وصبر على واجب وصبر في النوائب وصبر لله. فاصبر لله عن حظوظ بشريَّتك على لوازم عبوديَّتك، ومن لوازمها ترك التدبير لله العلي القدير. ولا يصح الشكر إلا لِمن ترك التدبير مع الله، فالشكر أن لا تعصي الله بنعمه. والعقل الذي ميزك الله به على أشكالك وجعله سببا لكمالك أكبر نعمةٍ، فلا تصرِفه إلا فيما يُرضي ربَّك شُكرًا له تعالى. والتدبير يُناقض أيضا مقام الخوف، والخوف حقًّا يسطو على القلب فيمنعه من كل خاطر سوى جلال الله. والرجاء إذا ملأَ قلب العبد بجمال مَولاه. ويناقض التدبير مقامَ التوكل، والمتوكل على الله من ألقى قيادَه إليه واعتمد في كل أموره عليه، فأنّى لِمن التزَم ذلك التَّفكير في التدبير؟! إنّما شأنُ مَن هذه حالُه الاستسلام لجَريان المقادير. ونَقض التدبير لِمَقام الرضا أبيَن من تعلقه بسائر المقامات، فالراضي مَن اكتفى بسابق عِناية الله به، فأنّى يكون مُدبِّرا وقد رضي بتدبيره؟ نورُ الرضا يغسل من القلوب غُثاء التدبير فيدَع الراضي في بَسط نور رضاه يتنعَّم في حُسن اختيار مَولاه. ويناقض التَّدبير مقام المحبة، إذ الْمُحبُّ مُستغرِقٌ في حُبِّ مَحابِّ مَحبوبِه وترك إرادته له عينُ مَطلوبه؛ فليس يتَّسِع وَقتُ مُحبٍّ للاشتغال بغير مَحبوبه، ومَن ذاقَ مِن خالِص مَحبَّة الله، ألْهاه عمّا سواه! إن كنتَ تريد مقامات اليقين، فدَع

عنك التدبير، لله وقد كان لك قبل أن تكون لنفسك. قد كنت لا شيء فدبّر لك وُجودَك ثم أحاطك بجوده. فكن الآن له كما كنتَ له آنذاك، كما قال الحسين الحلاج: كُن لي كما كُنتَ لي، في حينِ لَم أكن! فدعا الله أن يَحفظَ من التدبير بعد إيجاده كما كان قبل وجوده، ليتفرَّغ لعبادته. انتهى من التنوير في إسقاط التدبير. قال أبو طالِب المكي: التوكُّل تركُ التدبير. وأصلُ كلِّ تدبير من الرغبة، وأصل الرغبة من طول الأمل، وطول الأمل من حبّ البقاء. وهذا هو الشرك؛ يعني أنَّك شاركت الربوبيَّة في وَصْف البَقاء. واللّه خلق الخلق و لم يحجُبهم عن نفسه، إنما جُعِلَ حِجابُهم تدبيرهم. وليس ترك التدبير تركَ التّصرُّف فيما وُجِّه العبد فيه وأبيح له، بل مَن طَعَن في التَّكسُّب فقد طعَن على السُّنة ومَن طعن في تركِه فقد طعن على التوحيد. إنما ترك التدبير بتَرك الأماني فيما بقي وما يأتي بعدُ. فلا يشتغِل الصوفي بالفكر فيه بعقله وعِلمه فيقطعه عن حالِه والوقت الذي هو ألزم له وأوجب عليه، حتى قطَعه عما يأتي من أحكام الدين. الحكمة في ترك التدبير والتقدير بالزيادة والنقصان، والنقل من وقت إلى غيره بالتقديم والتأخير، أو من عبد إلى آخر. يكون في ذلك كما كان فيما قد مضى. ألا ترى أن الإنسان لا يدبّر ما قد مضى؟ فينبغي له أن يكون فيما يستقبِله كذلك تاركا للتدبير، تاركا للأماني فيه كتركه ما مَضى. فيستوي عنده الحالان، لأن اللّه حكيم عليم، والصوفي مسلِّمٌ لأحكامِ ربّه وعِلمه، راضٍ عن مولاه فيما يُقدِّر، جاهلٌ

بعواقب ما يدبّر هو لنفسه. فتركُ التدبير بهذه المعاني هو التسليم والتوكُّل واليقين، وتلك هي المعرفة بالله تعالى[241].

قال سهل التُّستَري: أصولُنا ستة أشياء: التمسُّكِ بكتاب الله، والاقتِداءِ بسنة نبيِّه، وأكلِ الحلال، وكفِّ الأَذَى، واجتنابِ الآثام، والتوبةِ، وأداءِ الحقوق. ومن كان اقتداؤه بالنبي لم يكن في قلبه اختيارٌ لشيء من الأشياء ولا يجول به غير ما أحبَّ اللهُ ورسولُه. أيُّما عبدٍ قام بشيء مما أمرَه الله به، من أمر دينه، فعمِل به وتَمسّك به فاجتنب ما نَهَى اللهُ عنه عِند فَسادِ الأمور وتشويشِ الزمان وتبايُنِ الناس في الرأي والتفرُّقِ إلا جعله الله إماما يُقتدَى به هاديًا مَهديًّا، قد أقام الدينَ في زمانه وأقام الأمر بالمَعروف والنَّهي عن المنكر. وهو الغريب في زمانه الذي قال عنه النبيُّ «بَدَأَ الإسلامُ غَريبًا وسيَعودُ غريبا كما بدأ، فطُوبَى للغرباء!»[242] وما مِن عبدٍ دخلَ في شيء من السنَّة، فكانت نِيَّته مُقدَّمةً في دخوله لله، إلا خرج الجهلُ مِن سرِّه، شاء أم أبى. وذاك بتقديمه النيَّةَ، ولا يعرف الجهلَ إلا عالِمٌ فقيهٌ زاهدٌ عابدٌ حكيم! واعلَموا، إخواني، أن العباد عبَدوا الله على ثلاثة وجوه: الخوفِ والرجاءِ والقُرب، وكلُّ علامةٍ يُعرف بها وتَشهد بما لَه وما عليه. فعلامةُ الخائفِ الاشتغالُ بالتَّخلُّص مما يخاف، فلا يزال خائفا حتى يتخلَّص، فإذا تخلص مما يخاف اطمأن وسكَن؛ هذه علامة الخائفين. أما الراجي، فإنه رجا الجَنَّةَ وطلَب نَعيمَها ومُلكَها، فأعطَى القليلَ في طَلَبِ الكثير، فبذل نفسَه خَوفَ أن يسبقه أحدٌ إليها وجدَّ في البذل وتحرَّز من الدنيا ألاَّ يَقِف غَدًا في الحِساب فيُسبَق؛ هذه علامة الراجي. وأما

---

[241] 'قوت القلوب في معاملة المحبوب'، 9/2، الكتب العلمية، بيروت.

[242] خرَّجه مسلم وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة.

العارفُ فالذي طلبَ مَعرفةَ الله وقُربَه. إنه بذل مالَه فأخرجه ثم نفسَه فباعها ثم روحَه فأباحَها، ولو لم تكن لا جَنةٌ ولا نار لَما مال ولا زال ولا فتر؛ هذه علامة العارف. فانظروا أيها العُقلاء، أمَوتَى أنتم لا حياةَ فيكم أم لا موتى ولا أحياءُ أم أَحياء حَيُوا بحياةِ الخُلد؟ ويحَك، إنّ الخائف حيٌّ بحياةٍ واحِدة وللراجي حَياتان وللعارف ثلاث حياوات، وهي الحياة التي لا موتَ فيها. فحياةُ الخائفِ إذا أمِن مِن النار فقد حَيِيَ بِحياةٍ ثم يُتِمّ بحياةٍ ثانية ويدخل الجنة، والراجي أَمِن من العذاب فمرَّ إلى الجنة مع السابقين بغير حساب فصار له أمانان. أما العارف فله أمانا الراجي وزاد عليه بأن صار إلى الرحمن فسبقه ﴿السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُون!﴾ [الواقعة 10-11]، فانظُروا من أي القوم أنتم؟ فاسلُكوا طريق العارِفين ولا ترضَوا لربِّكم بِهَديَّة الدُّون! فبِقَدر ما تُهدُون تُكرَّمون وتُقرَّبون، وبقدْرِ ما تُقرِّبون تُنعَّمون. أول ما ينبغي لطالِب المعرفة أن يتخلَّق به ثلاثة أخلاق، وفيها اكتسابُ العقل: احتمال الْمَؤُونة والرِّفْق في كلِّ شيءٍ والحذَر من الْميل إلى الهوى أو معه أو فيه. ثم لابُد له من ثلاث أحوال أخر، وفيها اكتساب العلم العالي: الإنصافُ والحِلم والتواضع. ثم لابدّ له من ثلاثة أخَر، وبها تكتسب المعرفة وأخلاق أهلها: السَّكينة والوَقار والصِّيانة. ومن أخلاق الإسلام: الحياءُ وكَفُّ الأذَى وبَذْل الَمعروف والنصيحة. وأركانُ دين العارف الصِّدق واليَقين والرِّضا والحبّ: فعلامَةُ الصدْقِ الصَّبرُ، والصبر يشهد للصدق، وعلامة اليقين النصيحة، وعلامة الرضا ترك المِراء، وعلامة الحب الإيثار[243].

---

[243] خرَّجه أبو نعيم الأصبهاني في 'حلية الأولياء' 10/1، الكتاب العربي، بيروت.

قال أبو حامد الغزالي: حُكم الصوفي أن يكون الفَقرُ زينتَه والصبرُ حِلْيَتَه والرِّضا مَطِيَّتَه والتَّوكُّلَ شأنه، واللّهَ وحدَه حَسْبَه. يستعمل جوارحَه في الطاعات وقَطْع الشهَوات والزّهدِ في الدنيا والتَّورُّعِ عن جميع حظوظ النفس، وأن لا يكون له رغبةٌ في الدنيا ألبتّة، إن كان ولا بدّ فلا تُجاوزْ رغبتُه كفايتَه. ويكون صافِيَ القَلبِ من الدَّنَس، فارًّا إلى اللّه بسره لا يأوي إلى شيء ولا يركَن إلى شيء ولا يأنس بشيء سوى معبودِه، آخذا بالأَولَى والأهَمّ والأحْوَطِ في دينه، مؤْثِرًا اللّهَ على كل شيء. التصوُّف طَرحُ النَّفس بالكليَّة في ميدان العُبوديّة وتعلُّق القلب بسماء الربوبية، وتَصفيَةُ القلبِ عن مُرافقة البَريَّة، ومفارقةُ الأخلاق الطبيعية وإخمادُ صفاتِ البشرية ومجانَبة الدَّواعي النفسانية ومُنازلة الصِّفات الروحانية والتَّعلُّق بالعلوم الحقّانيّة. فلا يكون الصوفي إلاّ دائمَ التصفية، لا يزال يُصفّي الأوقات عن شَوب الأكدار بتخلية القلب عن اِتّهام الأقدار وتخليصه من النفس. ومعينُه في هذا دوامُ افتقاره إلى مولاه، فبدوام افتقاره يتفطَّن كلَّما تحرّكت نفْسُه لتُظهِر صفةً مِن صفاتها، فيدركها ببَصيرته النافِذة ويَفِرُّ منها إلى ربه. فبدَوام تصفيتِه جَمعيَّتُه، وبحركةِ نفسه تَفرقَتُه وكَدَرُه. فهو قائِمٌ بربِّه على قلبه وبقلبه على نفسه ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة 8]. وهذا هو التحقُّق بالتصوف. أصولُ التصوُّف: أكلُ الحَلال، والاقتداءِ برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسُنَّتِه. وكلّ مَن لَم يَحفَظ القرآنَ ويَكتُب الحديثَ لا يُقتَدَى به في هذا الأمر، لأن عِلمَنا مَضبوطٌ بالكِتاب والسنة. التصوُّف أوَّلُه عِلْمٌ وأَوسَطُه عَمَلٌ وآخِرُه مَوهِبة. فالعلم يكشِف عن الْمُراد، والعمل يُعين على الطلب، والموهبة يُبلِّغ بها الله عبدَه غاية الأمل. وأهله على ثلاث طبقات: مُريدٌ طالب

ومُتوسِّطٌ سائر ومُنتَهٍ واصِل، فالمريدُ صاحِب وَقتِه والْمُتوسِّط صاحب حالٍ والمنتهي صاحب يقين. وأفضل الأشياء عندهم عد الأنفاس. فمقامُ المريد مُجانَبة الحُظوظ والْمُجاهداتُ وتَجَرُّع المَرارات وما على النفس فيه تَبِعَة. ومقام المتوسِّط رُكوبُ الأهْوال في طَلَبُ المراد ومُراعاة الصدقِ والأدبِ في المقامات، وهو مُطالَب بآداب المنازل، وهو صاحِب تَلوينٍ لأنه ينتقل من حال إلى حال في الزيادة. ومقام المنتهي الصَّحْوُ والثَّبات وإجابَةُ الحقِّ مِن حيثُ دَعاه، قد تجاوز المقامات، فهو في محل التَّمْكين لا يلحقُه التَّلوين، فلا تُغيِّرُه الأحوال ولا تؤثِّر فيه الأهوال، سواءٌ عنده الشدّةُ والرّخاءُ والمَنعُ والعَطاءُ والجَفاءُ والوَفاء؛ أَكلُه كجوعِه ونَومه كسهره. قد فَنِيَتْ حُظوظه وبقيت حقوقُه ظاهرةً مع الخلق، وباطنُه مع الحقّ. وكل ذلك من بركة اتّباع النّبي صلى اللّه عليه وسلم[244].

قال سفيان الثوري: يا أخي، لا تَغبطْ أهلَ الشَّهَوات بشهواتهم ولا ما يتقلَّبون فيه من النِّعمة، فإنّ أمامَهم يومًا تَزِلُّ فيه الأقدامُ وتَرعَد فيه الأجسامُ وتتغيَّر فيه الألوان ويَطول فيه القيام ويشتدُّ فيه الحِساب، وتَتطايَر فيه القُلوب حتى تبلُغَ الحَناجر. فيا لَها مِن نَدامة على ما أصابوا مِن هذه الشهوات! فاجعَلْ كَسْبَك فيما يَكون لك ولا تَجعله فيما يكون عليك؛ فإنّ الذي يُقدِّم مالَه ويُعطي حَقَّ اللهِ مِنه، فمالُه لَه وأَفضَلُ منه! والذي يُخلِّفُ مالَه ويُضيِّع حقَّ الله فيه، فمالُه وَبالٌ عليه يوم القيامة. اِكسَبْ حَلالا وَاجلِس مَع مَن كَسبُه مِن حلال وكُلْ طعامَ مَن كَسبُه مِن حلال، وليَكُن أهْلَ

---

[244] 'روضة الطالبين' ضمن مجموعة رسائل الغزالي، 103/1–104، دار الفكر، بيروت.

مَشورَتِك مَن كَسبُه مِن حلال. فإنَّ الوَرَعَ مِلاكُ الدين وَاستِكْمالُ أمرِ الآخرة. وَاعلم أنّه، يا أخي، لا يَمتَنِع أحدٌ عن الحَرام إلاّ مَن هو مُشفِقٌ على لَحمِه ودَمه، فإنّما دينُك لحمُك ودَمُك، فاجتنِبِ الحرامَ ولا تجلِس مع مَن يَكسب الحرام، ولا تأكل مع مَن كسبُه مِن حرام. ولا تَدُلَّ أحدًا على الحَرام ولا تُشيرَنَّ به إلى أحَد فيَأخُذَه، ولا تُوَرِّثْه إلى أَحَد، وَانصَحْ لِكُلّ بَرٍّ وفاجر أن لا يأخذه، فإن فعلتَ مِن ذلك شيئًا فأنت عَونٌ له، والعَونُ شَريك! وإيّاك والظُّلمَ وأن تَكون عَونًا لظالِم، أو أن تَصحبَه أو تُؤاكِلَه أو تَبتَسِمَ في وَجهِه أو تَنال منه شيئًا، فتكون له عونًا، والعَونُ شَريك! لا تُخالِفَنّ أهلَ التَّقوَى ولا تُخادِنْ أهلَ الخَطايا ولا تُجالِس أهلَ المَعاصي، واجتنب المحارِمَ كلَّها وأَلْقِ أهلَها. وإياكَ والأهواءَ فإنّ أوَّلَها وآخرَها باطِل! وإن أذنبتَ فلِكلِّ ذَنب تَوبَة، واترْكُ الذَّنبَ واطلُب التَّوبة أبدًا، واللهُ غفورٌ رحيم لَمن عصاه ثم تاب، حليمٌ وَدود لِمَن جارَ ثمّ أناب. وإياك أن تزداد بحِلمه جَهلاً وبمَغفرتِه جُرأةً على مَعصيَتِه، فإنّ الله تعالى لَم يَرضَ لأَنبيائِه الْمَعصيَةَ والحَرامَ والظُّلم، فقال ﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُل، كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم﴾ [المؤمنون 51] ثم قال للمؤمنين ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُم﴾ [البقرة 267]، ثم أَجْمَلَها فقال ﴿يَاأَيُّهَا النَّاس، كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيطَان، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِين﴾ [البقرة 168]. وَاعلَم، يا أخي أن الله لَم يرض لأنبيائه ولا للمؤمنين ولا للمشركين حرامًا. ولا تَتهاوَن بالذَّنبِ الصَّغير ولكن اُنظُرَ مَن عَصَيتَ! عَصيتَ ربًّا عَظيمًا، يُعاقِبُ على الصَّغير الْمُتعمَّد ويَتجاوز عن الكبير الْمَتوب عنه. وإنّ أَكيَسَ الكَيْسِ مَن يدخُل الجنةَ بِذنبٍ عَمِلَه فنَصبَه بَين عَينَيه، ثم لَم يَزَل حَذِرًا على نَفسِه مِن

تلك الخَطيئَة حَتى فارَق الدُّنيا ودَخَل الجنّة. وإنّ أحمَق الحُمْق مَن دَخل النارَ بِحَسنَةٍ واحِدة نَصبَها بين عينَيه ولَم يَزل يُذكرُها ويَرجو ثَوابَها ويَتهاوَن بالذُّنوب حتى فارَق الدنيا ودخل النار! فكن كيِّسًا حَذِراً على ما زَلَّ منك ومَضى. لا تدري ماذا يفعَل بك ربُّك فيما تبقّى مِن عُمرِك، لا تدري ماذا يَحدُث لك فيه، فإبراهيمُ خليلُ الرحمن خافَ على نفسه فقال ﴿اُجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَعْبُدَ الأَصْنَامِ﴾ [إبراهيم 35] ودعاه يوسفُ فقال ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِين﴾ [يوسف 101] وموسى ﴿قَال: رَبِّ، بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ، فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِين﴾ [القصص 17] وقال شُعَيب ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف 89]. فهؤلاء أنبياؤه خافوا على أنفسهم![245].

يقول عبد القادر الجيلاني: إنما هو اللهُ ونفسُك. وأنت الْمخاطَب، والنّفسُ ضِدُّ الله وعَدُوُّه. والأشياء كلُّها تابعة لله، والنفسُ له خَلقًا ومُلْكا. وللنفس اِدِّعاءٌ وتَمَنٍّ وشَهوةٌ ولَذّة بِمُلاَبَستها. فإذا وافقتَ الحقَّ عزَّ وجلّ في مخالفة النفس وعُدوانها، كنتَ لله خَصمًا على نفسك. العُبوديَّةُ أن تكون خَصمًا على نفسك! فحَقِّقْ مُوالاتَك وعُبوديتك لله. حينئذ تَأتِك الأقسامُ هَنيئًا مُطَيَّبا وأنت عَزيزٌ ومُكرَّم، وخَدمَتك الأشياءُ وعَظَّمتك وفخَّمتك، لأنها بأجمعها تابعةٌ لربِّها مُوافِقة له إذْ هو خالِقُها ومُنشِئُها، وهي مُقرَّة له بالعُبودية! قال الله ﴿إِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم﴾ [الإسراء44] ﴿قَالَ لَهَا وَلِلأَرْض: اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْها! قَالَتَا: أَتَيْنَا طَائِعِين!﴾

---

[245] 'حلية الأولياء وطبقات الأصفياء' 24/7.

[فصلت11] فالعبادةُ، كلُّ العبادةِ في مُخالَفة نفسك! قال الله ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّه!﴾ [ص26] والحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي لما رأى ربَّ العزة في المنام فقال له: كيف الطريق إليك؟، قال «أُتْرُك نفسَك وتعالَ!» قال: فانسلَختُ كما تَنسلِخ الحيَّةُ مِن جلدها! فإذًا الخيرُ كلُّه في مُعاداتِها جملةً وفي الأحوال كلِّها. فإن كنتَ في حالِ التَّقوى، فخالِف النفسَ بأن تخرُج مِن حَرام الخَلق وشُبَهِهم ومِنَنِهم والاتِّكالِ عليهم والثِّقةِ بهم والخوفِ منهم والرَّجاء لَهم والطَّمَع فيما عِندَهم مِن أَحكام الدنيا، فلا تَرجُ عَطاياهم على طَريق الهَديّة والزَّكاة والصدَقة أو النَّذر. اِقطَع همَّك مِنهم مِن سائرِ الوُجوه والأسباب، فإن كان لك نسَبٌ ذو مالٍ فلا تتمَنَّ مَوتَه لترِثَ مالَه. فَاخرُج مِن الخَلق جادًّا واجعَلْهم كالباب، يُرَدُّ ويُفتَح، وكالشَّجرَة توجَدُ فيها ثَمَر تارةً وتَخلُ أُخرَى. كلُّ ذلك بفِعل فاعِلٍ وتَدبير مُدبِّر، وهو الله جلَّ وعلا. حينئذٍ تكون مُوَحِّدًا للربّ. لكن لا تَنسَ مع ذلك كَسبَهم عالِمًا أن أفعالَهم لا تتم من دون الله، حتى لا تعبدَهم وتنسَى الله. الأفعال لله خَلقًا وللعباد كسبًا، لبيان موضع الجزاء ثوابًا وعقابا. وامتثِل أمر الله فيهم، فحُكمُ اللهِ قائمٌ عليك وعليهم، فلا تكن أنت الحاكم. كونك معهم قدَرٌ، والقَدَر ظُلمَة، فادخُل الظُّلمةَ بالمصباح وهو كتاب الله وسنة رسوله، ولا تخرج عنهما. فإن خطَر لك خاطِرٌ أو وُجِد إلْهامٌ، فَاعرِضْه على الكِتاب والسُّنة، فإن وجدتَ فيهما تحريم ذلك فادفَعْه عنك واهجُره ولا تقبَله ولا تعمل به، فإنّه من الشيطان، واستَعِذْ بالله منه. وإن وجدتَ فيهما إباحةً كالشهَوات المباحة من أكل وشرب ولباس ونكاح فاهجره أيضًا ولا تقبَله، فإنّه من إلهامِ النفس وشهواتها، وقد أُمِرتَ بِمُخالفتها لعداوتها. وما لم تجِد في الكتاب والسنة تحريمَه أو إباحتَه، كأمر لا

تعقِلُه، كأن يخطُر لك: اِئْتِ مَوضِع كذا وكذا، أو اِلْقَ فُلانًا الصالح، ولا حاجةَ لك في ذلك الموضع ولا بذلك الصالح، لاستغنائك عنه بما أولاك الله من نعمته من العلم والمعرفة، فتوقَّف ولا تُبادِر إليه فتقول: هذا إلْهامٌ من الحقّ تعالى، فأَعمَلُ به! بل اِنتَظِر أن يتكرَّر ذلك الإلهام وتؤمَر بالسَّعي، أو علامةً تظهر لأهل العلم بالله يعقلها العُقلاء مِن الأولياء والمؤيَّدون مِن الأَبدال. وإنما لا تُبادِر إلى ذلك لأنك لا تعلم عاقبتَه. وما كُنتَ فيه من فتنة وبلاءٍ فإنّما هو امتحان من الله، فاصبِر حتى يكون هو تعالى الفاعلَ فيك، وحينئذ تكون مَفعولاً لا فاعل، محمولاً لا حاملا، وتكون محفوظًا فيها، لأن الله لا يعاقِبُك على فعله وإنما تتطرق العقوبةُ نحوك لكونك مُريدًا في الشيء، وإن كنت في حالة الحقيقة وهي حالة الولاية فخالف هواك واتبع الأمر في جملة. واتّباع الأمر على قسمين: أحدهما أن تأخُذَ من الدنيا القوتَ الذي هو حقُّ النفس وتترك حظَّها، وتؤدِّي الفَرضَ وتَشتَغِل بتَرْك الْمُخالَفة، ما ظهَر منها وما بَطَن. والقِسم الثاني هو ما جاءَ بأمر باطن، وهو أمرُ الحق تعالى، يأمر عبده وينهاه. وإنما يُتحقَّق بهذا الأمر في الْمُباح الذي ليسَ له حُكمٌ في الشَّرع، أي لا مِن قَبيل النَّهْي ولا مِن قبيل الواجِب. بل هو أمرٌ مُهمَل تُرِكَ للعَبد التُّصرُّفُ فيه باختياره، فسُمِّيَ مُباحًا. فلا يُحْدِثُ العبدُ فيه شيئًا مِن عند نفسه بل ينتظر بيانَ الأمر فيه، فإذا جاءه البيان اِمتثَل، فتَصير حركاته وسكناته بالله تعالى. حاصلُه أن ما في الشرع حُكمُه فبالشَّرع، وما ليس له حكمٌ في الشرع فبالأمر الباطن؛ فحينئذ يصير مُحَقِّقًا مِن أهلِ الحَقيقة. وإن كنتَ في حالة حقِّ الحقّ، وهي حالة الْمَحْو والفَناء، وهي حالة الأَبدال الْمُنكسرَةِ قلوبُهم لأجل الله، الْمُوحِّدين العارِفين، أربابِ العُلوم والعَقلِ، السادةِ الأَمَراءِ الخُبَراء، خُفَراءِ الخَلقِ، خُلَفاءِ الرَّحمن في أرضه،

وأخِلاَّئِه وأعيانه وأحِبَّائه، عليهم السلام؛ فإتباعُ الأمرِ فيها بالتبَرِّي مِن الحَولِ والقُوّة، وأن لا يكون لك إرادةٌ ولا هِمّة في شيءٍ ألبَتَّة لا دنيا ولا عقبى، فتكون عبدَ الْمَلِك لا عبدَ الْمُلْك، وعبدَ الأمْرِ لا عبد الخَلق[246].

وقال ابن الحاج العبدَري الفاسي: اِعلم يا أخي، علمًا يَقينا لا شكّ فيه، أن الصادِق لا يَكذِبُ أهلَه ولا يَألوهُم نُصحًا في ارتيادِه لهم؛ فإن أخاك مَن صَدَقَك ونَصحَك، وإن خالَف صِدقُه ونُصحُه هواك، وإنّ عَدوَّك مَن كَذَبَك وغَشَّك، وإن وافَقَ ذلك هواك. واعلم، يا أخي، أنّي لَمّا أطَلتُ الفِكرَة وصَحَّحتُ في ذلك النظرَ، علِمتُ أنّ الله، جَلَّ ثناؤه بارئُ النَّسَم ووَلِيُّ النِّعَم ومالِكُ الأُمَم، لَم يَخلقْني وإيّاك عَبَثًا ولا هو تاركي وإياك سُدًى، وأنَّ لي ولكَ مَعادًا نَقِفُ فيه بين يدَي الْمَلِك الجبّار للحُكم بينَنا وللفَصلِ فينا، وأنّه لم يخلقْني وإياك حينَ خلقَنا لِهَزلٍ ولا لِلَعب ولا لِفناءٍ دائِم، وإنما خَلقنا لبَقاءِ الأَبَدِ ودَوامِ النِّعَم في جِواره وجِوار مَلائكتِه وأَنبيائِه، أو في الشَّقاء الدائمِ للأَبَد. فالعاقِلُ مُتيَقِّظٌ لِمَا خُلِقَ له، مُستَعِدٌّ لِما هو صائرٌ إليه. فانتَبَهَ مِن رَقدَتِه وأفاقَ مِن سَكرَتِه؛ فعمِلَ وجَدَّ وأَبصَر. فزَجَرَ النفسَ عن دارِ الغُرورِ الخاذِلَةِ الخادِعة الزائِلةِ التي قد ولّتْ بخِدعَتِها وفتَنت بغُرورِها وشَوَّقَت بحُطامِها. فلمّا عَرَفَها العاقِل الكَيِّس حقَّ مَعرفَتِها، زَهِدَ فيها ورَغِبَ في دار البَقاءِ والسُّرور، وتَقرَّبَ إلى مالِك الدارِ بجميعِ ما يُحِبُّ مِمّا يُطيقُ التَّقرُّبَ به إليه، ورَتَّبَ ببابه. وأما الْمُغتَرُّ بالدنيا الْمُؤثِر لِهَواه فيها، فهو مُعتَنِقُها. أَيُّها الْمَيِّتُ عن قَريبٍ والْمَبعوثُ بَعد مَوتِه إلى دارِ الْمُقامَة، الْمَسؤولُ عن إقْبالِه وإدْبارِه في دار الدُّنيا،

---

246 ’فُتوحُ الغَيب‘ المقالة العاشرة.

الْمَوقوفُ عن قَليلٍ بين يَدَي المَلِك الجَبّار الذي لا يَجور؛ هَل أَعدَدتَ لذلك الْمَوقِف حُجَّةً تُدافِعُ عَنك؟ أو أَعدَدتَ للسُّؤال جَوابا؟ فإنّ الله يقول ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَر حِكْمَةٌ بَالِغَة، فَمَا تُغْنِ النُّذُر؟﴾ [القمر 4-5] فإياك، يا أخي، والنُّزولَ بمَحَلَّةِ الْمَخْدوعين واعلَمْ أنّ السيِّدَ الكريم نعَمُه كثيرةٌ لا تُحصَى، وأنّ عَطاياه كَثيرةٌ لا تُجازَى، وأنّ مَواهِبَه كثيرةٌ لا تُكافَأُ. واعلَم، يا أخي، أنّي لَم أَرَ نعمَةً مُتقدِّمةً مِن الله عَزَّ وجَلّ لِخَلقِه أَفضَلَ مِن نعمةِ العَقْل، التي جعَلها اللهُ دِلالَةً لِخَلقِه على مَعرِفتِه والوُصول بِها إلى مَحْضِ الإيمان به، والذي أَطلَعَهم اللهُ به على مَكْنونِ عِلمِه حتى وَرِثوا البَصائِرَ، ونَفَوا به خاطِرَ الشَّكّ وكابَدوا وَساوِسَ الشيطان ومَعاريضَ فَتنِتِه، واستَضاؤوا بنُور العُقول في طَريق حَيرَتِهم فتَجنَّبوها وخَرجوا مِن ظُلَم الشَّكّ وَاعتَقَدوا بِها مَعرِفَةَ الله والإيمانَ به والإخلاصَ والتَّوحيدَ، وأَفرَدوا الله، جلَّ جَلالُه وتَقدَّسَت أَسماؤُه، بالرُّبوبيَّة والعَظَمَة والكِبرياء. وَاعلمْ أنّ أَهلَ اللُّبِّ استَدَلُّوا به على خَلْقِ أَنفُسِهم وعلى خَلق الخَلقِ كُلِّهم، وأَنَّهم مَوسومُون بِسِمَةِ الفِطْرَة وآثارِ الصَّنعَة والنَّقْصِ والزِّيادَة مع تَغيير الأَحوال؛ فأوَّلَ اِبْتِداءِ الله لَهم أن وَهَبَ لَهم العُقولَ التي بِها وَصَلوا إلى الإيمان، وبالإيمان وَصلوا إلى نُور اليَقين، وبنور اليقِين وَصلوا إلى خالِص التَّفكُّر، وبِخالصِ التفكُّر وَصلوا إلى اِستِقامَةِ القُلوب، وباستقامَة القلوب وَصلوا إلى الصِّدق في الأعمال وإخلاصِها لِلَّهِ تعالى؛ فورَّثَهم ذلك البَصائرَ في قُلوبِهم، فوَضُحَت الحِكمَةُ في صُدورِهم وجرَت يُنابيعُها على أَلْسَنتِهم؛ فهَجَموا بِفِطَنِ قُلوبِهم على غَوامِضِ الغُيوبِ والإرادَةِ والإخلاصِ الذي رُكِّبَ فيهم، وأَدرَكوا بصَفاء يَقينِهم غائِصَ الفَهْمِ، وأَدرَكوا بغائِصِ فَهْمِهِم العِلمَ الْمَحْجوب؛ فعَرَفوا الله حَقَّ مَعرِفَتِه وتَوكَّلوا عليه حَقَّ تَوكُّلِه وسَلَّموا إليه

الخَلْقَ والأَمْر؛ فصارَت قُلوبُهم مَعادِنَ لِصَفاءِ اليَقينِ وبُيوتًا لِلْحِكمَةِ وتَوابيتَ لِلعَظَمَة وخَزائِنَ لِلْقُدرَة ويَنابيعَ للحِكمَة؛ فهم بَين الخَلائِقِ مُقبِلون ومُدْبِرون، وقُلوبُهم تَجُولُ في الْمَلَكوتِ وتَتَلذَّذُ في حُجُبِ الغَيوب وتَخطُرُ في طُرُقاتِ الجَنّات. فالحَمدُ لله الذي لا إلَهَ إلاّ هوَ، العَظيمُ الذي مَن وَالاهُ نعَمَه أَغناه. وَاعلمْ، يا أخي، أنَّ مَن صَدَقَ اللهَ أَوصَلَه إلى الجَوَلانِ في مَلَكوتِ السَّموات بِقَلبه، ثم يَرجِعُ إليه بِطُرَفِ ما قَد أفادَه السيِّدُ الكَريم؛ فصار قلبُه وِعاءً لِخيرٍ لا يَنفَدُ وعَجائبَ فِكرٍ لا تَنقَضي ومَعادنَ جَواهِرٍ لا تَفنَى وبُحورِ حِكمَة لا تَترَح أبدا؛ ومع ذلك مَلَكوا الجَوارِحَ والأَبدان. واعلم، يا أخي، أنّ في ابن آدم «مُضغةً إن صَلَحت صلحَ سائرُ جسدِه وإن فَسدت فسَد سائر جسده؛ وهي القلب»[247]. واعلم أنه لا يستقيم إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُه ولِسانُه، ومِن أجل ذلك صار القلبُ واللسانُ مَلِكَي البَدَن والجَوارِح. والقلبُ هو الْمُسلَّط على استِخدامِهم، وذلك أنّه مَعدِنُ العَقْل والعِلم والعِنايَة؛ فجميعُ الخيرِ والشَّرّ مُستَودَعُ القَلب. واعلَم، يا أخي، أنّي وَجدتُ اللسانَ مُترجمًا عن القلب. واعلم أنّ الأمرَ عظيمٌ على قَدر ما نرَى مِن غَلَبة الهوَى علينا وَاستِمكانِ الدنيا مِن قُلوب عُلمائِنا وجُهَّالِنا. فلمّا كان ذلك مِنّا كذلك، عَزَّ وُجودُ الصِّدق على كَثرَة وُجود مَعرفَتِه ووَصفِه وقلَّ العملُ به والقيامُ

247 حديث صحيح يقول فيه رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم «إنّ الحلال بَـيِّنٌ وإن الحرام بيِّن، وبينها أمور مُشتبِهات لا يعلمُهن كثيرٌ من الناس. فمَن اِتَّقى الشُّبُهات فقد اِستَبرَأَ لِدينه وعِرضِه، ومَن وَقع في الشبهات وقع في الحرام؛ كالراعي يَرعَى حَولَ الحِمَى يَوشِك أن يَرتَعَ فيه! ألاَ ولكلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا وإنّ حِمَى اللهِ مَحارِمُه. ألا وإنّ في الجَسَد مُضغَةً، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كلُّه وإذا فَسَدَت فَسدَ الجسَدُ كلُّه؛ ألا وَهِي القلبُ!». خرجه البخاري وباقي الجماعة عن النعمان بن بشير.

بِحَقِّه؛ وقد فَشَا الكَذِبُ وكَثُرَ الرِّياءُ والتَّزَيُّنُ للدُّنيا وسُلوكُ أَودِيَةِ الهوَى ونُزولُ أوْدِيَة الغَفلَة. ولا يُؤمَنُ السُّبِيلُ أن يُركَبَ على تلك الغَفلة؛ فتَتلَفَ النفسُ. وإنّ الهوى قد قام مَقامَ الحق؛ يُعمَلُ به ويُقضَى بقَضائه ويُحكَمُ بحُكمه. وقامَ سوءُ الأدَب والْمَكرُ والخَديعةُ مَقامَ العُقول وقامَت الْمُداهَنَة مقامَ الْمُدارَاة وقام الغِشُّ مَقام النُّصْح وقام الكَذِبُ مقامَ الصِّدْق وقام الرِّياءُ مقام الإخْلاص وقام الشَّكُّ مَقام اليَقين وقامت التُّهْمَةُ مقام الثِّقَة وقام الأمِنُ مَقام الخَوف وقام الجَزَعُ مَقام الصَّبْر وقام السُّخْطُ مقام الرِّضا وقام الجَهلُ مقام العِلم وقامَت الخِيانَة مقام الأَمانَة؛ فصار مِن قِلَّة الأَكياسِ لا تُعرَفُ الحَمْقَى ومِن قلّة أَهلِ الصِّدق لا يُعرف أهلُ الكَذِب، إلاّ عند أهلِ الفَهمِ والعَقل والبَصيرة. فاعتَدلَ الناسُ في قُبْح السَّريرة وقلة الإستِقامَة في أمور الآخِرة، إلاّ مَن عَصَم الله؛ فأَصبَحْنا وقد حِيلَ بيننا وبينَ النَّقْص الذي نَكرَهُه مِن أنفُسنا، وحِيلَ بيَنَنا وبين أن نَدخُل في الزِّيادَة التي نُحبُّها لأَنفُسنا، عُقوبَةً لِقُبحِ أَسْرارِنا. فجَرَينا في مَيدان الجَهل وغَلَبَ علينا سُكْرُ حُبِّ الدُّنيا؛ فنحن نَستَبِق في هاذَين السَّبِيلَين ونَتنافَسُ في الإستِكثارِ منهما. فصَحَّ عِندي، أنّ مِن الجَهل بِأمرِ الله والإغتِرار به، القيامُ على هذه الحالَة والسَّلامَةِ منها أَيسَرُ وأقْرَب رُشْدًا وهو أن يكونَ الْمَرءُ في البَلَد الذي لا يُعرَفُ فيه مع التَّخلُّص إلى خُمولِ الذِّكْر، أينما كان، وطولِ الصَّمْت وقِلّة الْمُخالَطة للناس، والاعتِصام بالله، والعَضِّ على الكِسَرِ اليابِسَة وما دُنُوَ مِن اللِّباس، ما لَم يَكن مَشهورا، والتَّمَسُّكِ بالقُرآن، والصبْر على الشَّدائدِ وانتِظارِ الفَرَج[248].

---

[248] كتاب 'المدخل إلى تنمية الأعمل بتحسين النيات، والتنبيه على بعض البِدَع والعَوائد التي انتُحِلت وبيانُ شَناعتها وقُبحها' 61/3-64، دار الفكر.

بلَغ الصوفيّة من حُبِّ الله ما لَم يبلُغه غيرُهم. كيف لا ومَحبَّتُه تعالى عندهم أعلى الْمَقامات؟ ﴿قُل: إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ، فَاتَّبِعُونِي؛ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم. وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيم. قُل: أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُول! فَإِن تَوَلَّوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِين!﴾ [آل عمران 31-32]. نظرت رابعة العَدويّة إلى رياحٍ وهو يقبل صبياً من أهله ويضمه إليه، فقالت: أتحبه؟ قال: نعم، قالت: ما كنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه، قال: فصرخ رياح وخر مغشياً عليه، ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه وهو يقول: رحمة منه تعالى ذكره ألقاها في قلوب العباد للأطفال

يقول سلطان العاشقين عمر ابن الفارض:

هُوَ الحُبّ فاسلَمْ بالحَشا، مَا الهوَى سَهْلُ ... فما اختارَهُ مُضْنىً به، وله عَقْلُ!

وعِشْ خالِــيًا، فالْحُبُّ راحتُهُ عَنًى ... وأوَّلُـــهُ سُقْمٌ، وآخِرهُ قَـــتْلُ

ولكن لَديَّ الْمَوْتُ فيهِ صَبابَـــةً، ... حَياةٌ لِمَن أهوَى، عليَّ بها الفَضْلُ

نَصَحتُكَ عِلمًا بالهوَى، والَّذي أرَى ... مُخالَفتي؛ فاختَرْ لنَفسكَ ما يَحْلو

فإن شِئتَ أن تحيَى سَعيداً، فَمُتْ بهِ ... شهيدًا، وإلاَّ فالغَرامُ لهُ أهْلُ

فمَن لَم يَمُتْ في حُبِّهِ لَم يَعِشْ بهِ، ... ودونَ اجتِناءِ النَّحلِ ما جنتِ النَّحلُ

تَمَسّكْ بأذيالِ الهوَى، واخلَعِ الحيَا، ... وخَلِّ سَبيلَ النَّاسكينَ، وإن جَلُّوا

وقُلْ لقَتيلِ الْحُبِّ: وَفَّــيتَ حَقَّهُ، ... وللمُدَّعي: هَيهاتَ ما الكَحَلُ الكَحْلُ!

تعرَّضَ قومٌ للغَـــرامِ، وأعرَضوا ... بجانِبهم، عَن صِحّتي فيهِ، واعتَلُّوا

رَضُوا بالأماني، وابتُلوا بحُظوظِهم، ... وخاضُوا بحارَ الحبِّ، دعوَى فما ابتلّوا!

فهمْ في السُّرى لمْ يَبرَحوا مِن مكانهمْ ... وما ظَعَنوا في السَّير عنه، وقدْ كَلُّوا

وعن مَذهَبي، لَمَّا استحبُّوا الْعَمى على الــهُدى، حَسَدًا مِن عِندِ أنفُسِهم، ضلُّوا!

وقال قدّس الله روحَه:

شَرِبْنا، على ذِكرِ الحَبيبِ، مُدامَةً — سَكِرْنا بها، مِن قبلِ أن يُخْلَقَ الكَرْمُ

لَها البَدرُ كأسٌ، وهيَ شمسٌ، يُديرُها — هِلالٌ، وكَم يَبدو إذا مُزِجَتْ نَجمُ

ولولا شَــذَاها ما اهتَدَيتُ لِحَانها، — ولولا سَناها ما تَصَوَّرَها الوَهْمُ

ولَمْ يُبْقِ مِنها الدَّهرُ غيرَ حُشاشَةٍ، — كأنَّ خَفاها، في صُدورِ النُّهَى كَتْمُ

فإن ذُكِرَتْ في الحَيِّ أصبَحَ أهْلُهُ — نَشاوَى، ولا عَارٌ عليهِمْ ولا إثْمُ

يَقولونَ لي: صِفْها، فأنتَ بوَصْفها — خَبيرٌ! أَجَلْ، عِندي بأوصافِها عِلمُ

صَفاءٌ ولا ماءٌ، ولُطْفٌ ولا هَــوًا، — ونُــورٌ ولا نارٌ، وروحٌ ولا جِسْمُ

تَقَدَّمَ كُلَّ الكائِــناتِ حَديثُها، — قَديمًا، ولا شَكلٌ هناكَ ولا رَسْمُ

وقامَتْ بها الأشياءُ ثَمَّ، لحكمَةٍ — بها، احتَجَبَتْ عَن كلِّ مَن لا لهُ فَهمُ

وهامَتْ بها روحي، بحيثُ تَمازَجا، اتِّـــــحاداً، ولا جِــرْمٌ تَخلَّــلهُ جِــرْمُ

فخَمْرٌ ولا كَــرْمٌ، وآدَمُ لي أبٌ — وكَرْمٌ ولا خَمْرٌ، ولي أُمُّها أمُّ

ولُطْفُ الأواني، في الحقيقةِ، تابِــعٌ — لِلُطْفِ المَعاني، والمَعاني بها تَنْمُو

وقدْ وَقَعَ التَّــفريقُ، والكلُّ واحدٌ، — فأرواحُنا خَمْرٌ، وأشباحُنا كَرْمُ

فقالوا: شربتَ الإثمَ! كلاَّ، وإنَّما — شَرِبتُ الَّتي في تَركِها عِنديَ الإثْمُ

هَنيئًا لأهلِ الدَّيرِ! كَمْ سَكِرُوا بها، — وما شربوا منها، ولكِنَّهمْ هَمُّوا

وعِندِيَ مِنها نَشوَةٌ، قبلَ نَــشأتي، — معي أبداً تَبقَى، وإن بَلِيَ العَظْمُ

فلا عيشَ في الدُّنيا، لِمَن عاشَ صاحيًا — ومَن لَم يَمُتْ سُكرًا بها فاتَهُ الحَزْمُ

على نفسِهِ، فَلَيَبكِ مَن ضَاعَ عُمرُهُ ... وليسَ لهُ فيها نصيبٌ، ولا سَهمُ

ويقول الحلاَّج:

أَدنو فَــيُبعِدني خَوفِي ويُتلِفني ... شوقٌ تَمكَّنَ في مَكنون أحشائي

فكيفَ أصنعُ في حبٍّ كَلِفتُ به؟ ... مَولايَ، قد ملَّ مِن سُقمي أطبائي!

قالوا: تَداوَ بهِ منهُ! فقلتُ لَهم: ... يا قومُ هل يُتداوَى الداءُ بالداءِ؟!

حُبّي لِمولايَ أَضْناني وأسقَمَني ... فكيفَ أَشكو إلى مولايَ مَوْلائي؟!

إنِّــي لأَرْمُقُهُ والقلبُ يَعرفُــهُ ... فَما يُــتَرجِمُ عنهُ غيرُ إيــمائي

يا وَيحَ رؤُحيَ مِن روحي، ويا أسَفي ... عليَّ مني فَــإنّي أصلُ بَلْوائي!

كأنَّــني غَرِقٌ تَــبدُو أناملُــهُ ... تَغوُّثا وهوَ في بَحرٍ مِن الْماءِ

وليسَ يَعلَمُ ما لاقِيتُ مِن أحدٍ ... إلا الذي حلَّ مني في سُوَيدائي

ذاك العليمُ بما لاقيتُ مِن دَنَــفٍ ... وفي مَشيئَــتهِ مَوتِي وإحيائي

أَغايةَ السُّؤْلِ والْمَأمولِ، يا سَــكَني ... يا عَيشَ روحي، يا دِيني ودُنيائي

قُل لي، فَدَيتُك يا سَمْعي ويا بَصَري: ... لِمَ ذي اللَّجاجَة في بُعدي وإقصائي؟

إن كنتَ بالغيبِ عن عَيْنَيَّ مُحتجبًا ... فالقلبُ يَرعاكَ في الإبعادِ والنائي!

فالقوم من شدَّة حرصهم على الفهم عن الله ومن كثرَة تأمُّلهم في آياته، فتح تعالى لهم فُهومًا لا تخطر ببل غيرهم. فمَن تعلّم على أيديهم واجتهد في إدراك أحوالهم وأقوالهم لا غروَ أن يجد الصلة الوثيقة بينها وبين الوَحي المحمَّدي. وهذا مثال مما فتح الله به على كاتب هذه السطور في قوله ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ؛ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكرِ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

تَصْنَعُون!﴾ [العنكبوت 45] فهنا لطيفةٌ شريفة غابت عن المفسِّرين قاطبةً، فيما أعلم، وهي أن الموصوف بالزيادة في الكِبَر إنما هو ذكرُ الله لعبده، فإنّه أكبر من ذكر العبد لربِّه ولا بدّ، لقوله تعالى ﴿اُذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ! يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اِسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ؛ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِين﴾ [البقرة 152–153] فذكر الصلاة في كِلا الموضعَين لأنَّها مَحلٌّ مُناجاةٍ بين العبد وربِّه، كما بيَّنتُه مُطوَّلا في كتاب 'فهم الصلاة'، ولقول النبيِّ فيما يرويه عن ربِّه: «يقول الله تعالى: أَنا عند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني؛ فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في مَلأ ذكرتُه في مَلأ خيرٍ منه، وإن تَقرّبَ إليّ شِبرًا تقَرّبتُ إليه ذِراعا، وإن تقرَّب إليّ ذِراعا تقَرَّبتُ إليه باعا، وإن أَتاني يَمشي أتيتُه هَروَلَة!»[249] وقد وجدتُ هذا الفَهمَ عند إمام العارفين الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي، إذ يقول: ذِكرُ الله لنا أكبَر مِن ذكِرنا له. إلاّ إن ذَكَرناه به لا بِنا، فذِكرُنا به أكبرُ إحاطةً![250]. وهذه فائدة أجلٌّ وبشارة أعظم ولله الحمد. ومن ذلك ما أراني إيّاه المأمونُ القاسمي، شيخ الزاوية الرحمانيّة بالهامِل بدائرة بوسعادة بالجزائر، أقرأني رسالةً من الأمير عبد القادر إلى جدّه الشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي، سأله فيها الدعاءَ متوسِّلاً بما جاء في الأَثر: أُدعوني بألسنةٍ لَم تعصوني بها! وفسَّره الأمير بقوله: معناه أن لا نسألَ الله بألسنتنا ولكن بألسنة إخواننا في الدين، فإننا لَم نعص الله بألسنَة غيرِنا قطّ! وقد أراد الشيخ الالتحاق بجيش الأمير عبد القادر

---

[249] خرجه البخاري وغيره عن أبي هريرة. وله شواهد عن أنس وواثلة بن الأسقع.

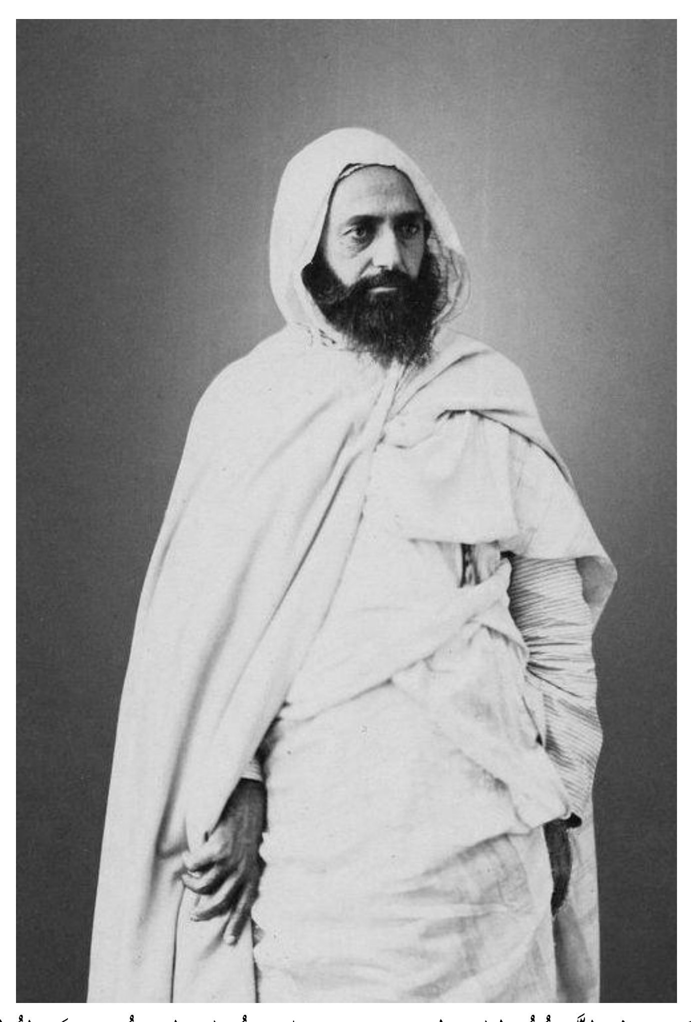
[250] الفتوحات المكية، الباب 72 في الحج وأسراره، وصل في فصل 'هل تجزئ النية عن التلبية'، ج2/ص463، دار الكتب العلمية، بيروت.

عامَ 1844م إلا أن الأمير رفض ورأى أنه من الأفضل له مواصلة تعلُّمه والقيام بمهمة التعليم والتربية والإرشاد. وكذلك فعل، فأنهى دراساته وبنَى زاويتَه وهي قائمةٌ إلى اليوم. وقد ذكر الأمير في الموقف 116 من كتاب 'المواقف' معنًى زائدًا على هذا. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الأمير عبد القادر الجزائري

ليكن مِسكُ ختامنا تبرُّكًا وتذكُّرًا لأحد أئمّتنا، وترحُّمًا عليه. وهو أمير المؤمنين أوحَد الدَّهر منذ أن جاد الله بشخصه على البشريّة. أميرنا الذي جمع خِصالاً قلَّما حَظِيَ بأدناها أحدٌ، إلاّ مَن اختصَّه الله مِن نبيٍّ أرسلَه أو صَفيٍّ بالوَلاية رفعَه وقرّبه. وقد قرَن أميرُنا العلم بالعمَل والسنّة بالحداثة والاجتهاد بالانقياد والشريعة بالحقيقة والظاهر بالباطن والنَّقل بالعَقل والحُسام بالقلَم القِتال بالسِّلم والصبر بالشُّكر والعَدلَ بالحِكمة والعفَّة بالْجِدة والبَطش بالرّحمة والسَّعي بالتسليم والرجاء بالخوف والمَنع بالعَطاء والعزَّة بالتواضُع والحَزْم بالحُنُوّ والشدَّة باللين وحُبَّ الله بحبَّ خلقه فيه تعالى، إلى غيرها مِن خصال لا يفي بذكرها اللسان ولا بسطرها البَنان. كان، رضي الله عنه وأرضاه، جامعا لخصال الأخيار، فاعترَف بقَدره أعداؤُه مع أنصارِه الأبرار. لذا ذاع صيتُه في معمور الأرض فصار مَضرب الأمثال في مكارم الأخلاق ومحاسن الخِلال، عِبرةً للعقلاءُ في الشرق والغرب، وواسطةً تجمع سلَفَ هذه الأمّة بِخلَفها، ونبراسًا يستضاء به في غياهب الدّنيا وظُلمات النفوس، ولله الحمد والمنّة.

قُل للأمير قــــد نالَ ما طَـــلبا — ورُدَّ مِن سالفِ المعروفِ ما وَهَبا
قد نَالَ مِن سُؤدَدٍ زاكٍ ومن حَسَبٍ — ما حَسْبُ واصِفه مِن وَصفهِ حَسْبا!
إِذَا الْمَكارِمُ عُقَّتْ واستُخِفَّ بها، — أَضْحَى النَّدَى والسَّدَى أُمًّا له وأَبا
تَرْضَى السُّيوفُ بهِ في الرَّوعِ مُنتَصِبًا — ويغضبُ الدِّينُ والدُّنيا إذا غضِبا



لإن كان هذا الرَّسمُ يُعطيك ظاهري ... فليس يُريك الرسمُ صورتَنا العُظمَى

فَثَمَّ وراءَ الرسمِ شَخصٌ مُحَجَّبٌ ... له هِمَّةٌ تعلو بأخمُصها النُّــجْما

وما الْمَرءُ بالوَجْه الصَّبيح افتِخارُهُ ... ولكنَّه بالعَقل والْخُلُق الأَسْمَـــى

وإن جُمِعتْ للمَرء هَذه وهذهِ؛ ... فذاكَ الذي لا يُتَغى بَعدَه نُعْمَى!

هو عبد القادر بن محيي الدين الإدريسي الحَسني، نسبةً إلى الحسن سِبط النبي صلى الله عليه وسلّم. كان ثالث أبناء سيدي مُحي الدين، شيخ الطريقة الصوفية القادرية بالغرب الجزائري. وأمه الزّهرا بنت سيدي بودومة شيخ زاوية حمام بوحجَر وكانت قارئة. ولد عام 1807 بالقَيطنة، بسَهل غريس ببادية معسكر بالغرب الجزائري، في عائلة ذات نفوذ تعيش مما تدره من أراضٍ زراعية تملكها ومن عوائد يقدمها أتباع الطريقة. حافظت الأسرة على تقديم الضيافة لعابري السبيل والمساعدة للمُعوِزين، واشتهرت بالكرم إلى جانب شهرتها بالعلم والتقوى، وكان سكان المنطقة يقصدون كبار الأسرة لفض نزاعاتهم وللتحكيم، وقد كان لمحي الدين رئيس الأسرة أربع نساء وهن: وريدة ولدت له محمد السعيد ومصطفى، والزهرة التي أنجبت له عبد القادر وخديجة، وفاطمة ولدت له الحسين وخيرة أنجبت المرتضَى.

سكان منطقة غريس عرب أقحاح، كما تدلّ عليه لهجتهم البدوية القويَّة جاء أسلافُهم من مكَّة مع فاتح المغرب عُقبة بن نافع وبعضُهم مع حسان بن نعمان وبعضهم مع ابن الأشعث، وأكثرُهم مع بني هلال وسليم والله أعلم. لذلك يسمّون القُرشيِّين، وينقسمون إلى: الأجواد والشرفاء. أما الأجواد فإنهم منحدرون من شتّى بطون قريش، وأمّا الشرفاء فإنّهم من نسل عليٍّ بن أبي طالب وفاطمة بنت محمد رسول الله. فلما قدموا إلى سهل غريس الخصب، بعد رحلتهم التي دامت أشهرَ عديدة، تَبدَّوا وسكنوا بيوت الشَّعر في عيش بسيط قريب من الطبيعة. يقول الأمير في إحدى أبدع القصائد في وصف حياة البادية ومحاسنها التي فقدها بغير رَجعة، وهذه بعض أبياتها:

يا عاذِرًا لاِمْرِئٍ قد هامَ في الحضَرِ وعاذِلاً لِمُحبِّ البَدْوِ والقَفَرِ:
لا تَذمُمَنَّ بُيوتًا خَفَّ مَحمَلُها وتَمدَحَنَّ بيوتَ الطين والحَجَرِ
لو كنتَ تعلمُ ما في البَدو تَعذُرُني لكن جَهِلتَ وكَم في الجَهلِ مِن ضَرَرِ
نَستنشقُ نسيما طابَ مُنتشَقًا يَزيدُ في الروح لم يَمرُرْ على قَذَرِ
لا نَحمِلُ الضَّيمَ مِمَّن جارَ، نَترُكُه وأرضَه، وجميعُ العِزِّ في السَّفَرِ
وإن أساءَ علينا الجارُ عِشرَتَه نَبينُ عنه بلا ضُرٍّ ولا ضَرَرِ
تَبيتُ نارُ القِرَى تَبدو لِطارِقِنا فيها الْمُداواةُ مِن جُوعٍ ومِن خَطَرِ
ما في البَداوَةِ مِن عَيبٍ تُذَمُّ به إلا الْمُروءَةُ والإحسانُ بالبَدرِ!
وصِحَّة الجِسْم فيها غَيرُ خافيَةٍ والعَيبُ والداءُ مَقصورٌ على الحَضَرِ
مَن لَم يَمُت عندَنا بالطَّعْنِ عاشَ مَدًى فَنحنُ أطْوَلُ خَلقِ اللهِ في العُمرِ!

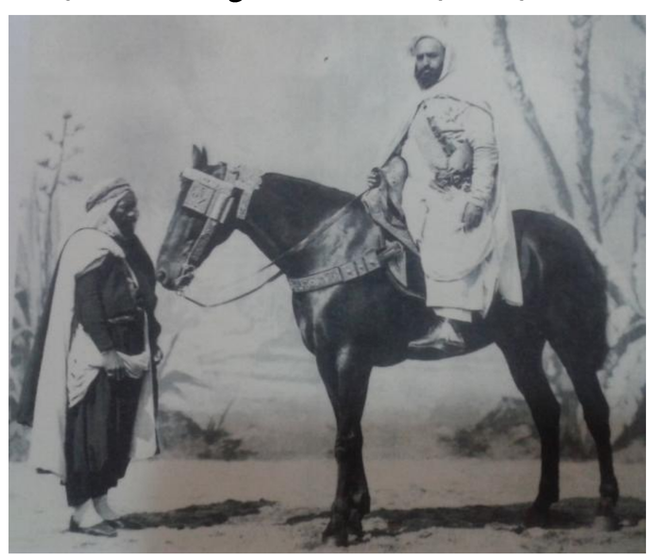
أوردُ هنا صورًا للأمير وأُتبعها أبياتًا من شعره. لا بأسَ بالتصوير لكنّ عبادته مُحرَّمة ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُون؟!﴾ [الصافات 95-96] فالمحرّم إنما هو تعشُّق الصُّوَر وحبُّها إلى حدّ التولُّه بها. وتلك حالة أبناء هذا الزمان مِن تأليه الصُّوَر ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ، وَخَلَقَهُم!﴾ معنى الجن هنا الناس الذين أُخذَت صورُهم فيُنظَر إليها وهم غائبون. ومعنى جنّ أي ستر، جنَّ الليلُ: أظلَم فاختفى كل شيء أي غاب عن الإدراك، منه جَنّة جُنّة جِنان جَنين جُنون ﴿...ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم، لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْء، فَاعْبُدُوه!﴾ [الأنعام 100-102] التصويرُ مُباح وعبادتُه محرَّمة.



نحن الملوكُ فلا تعدِل بنا أحداً ... وأيُّ عيشٍ لِمَن قد بات في خَفرِ

ونحن فوقَ جياد الخيل نُركِضُها ... شَليلُها زينةُ الأكْفال والْخُصرِ

فخَيلُنا دائمًا للحرب مُسرجةٌ ... مَن استغاثَ بنا بشِّرْه بالظَّفرِ



كان تعليم عبد القادر في طفولته دينيًّا صوفيًّا سُنِّياّ، فأجاد القراءة والكتابة وهو في سن الخامسة، كما نال الإجازة في تفسير القرآن والحديث النبوي وهو في الثانية عشرة من عمره فحمل سنتين بعد ذلك لقبَ 'الحافِظ' وبدأ بإلقاء الدروس في الجامع التابع لأسرته في مختلف المواد الفقهية. شجعه والده على الفروسية وركوب الخيل ومقارعة الأنداد والمشاركة في المسابقات التي تقام آنذاك فأظهر تفوُّقا مدهشا. ثم بعثه والده إلى وهران لطلب العلم من علمائها، فحضر دروس الشيخ أحمد بن الخوجة فازداد تعمقا في الفقه كما طالع كتب الفلاسِفة وتعلم الحساب والجغرافيا، على يد الشيخ أحمد بن الطاهر البطيوي قاضي أرزيو وقد دامت هذه الرحلة العملية ما يقرب من السنتين أي إلى عام 1823. وبعد عودته إلى بلدة القيطنة وهو ابن الخامسة عشر بادر والدُه إلى تزويجه بابنة عمه لالّة خيرة، التي كانت تجمع بين محاسن الخلق والنسب الشريف، زوجةً له. كان محي الدين والد عبد القادر شخصيَّةً قويَّة مُتميِّزة، فبالإضافة إلى كونه شيخ الطريقة القادرية ذا مكانة رفيعة بين عامة الناس ومن كبار أعيانهم. وقد دفعت آراؤه بالحاكم العثماني لوهران إلى تحديد إقامته ببيته عام 1825، فاستأذنه محي الدين في الرّحلة لأداءِ فريضة الحج فأذن له. فخرج في جماعة واصطحب معه ابنَه عبدَ القادر وهو ابن السابعة عشر، فكانت الرحلة إلى تونس ثم مصر ثم الحجاز ثم البلاد الشامية ثم بغداد، ثم العودة إلى الحجاز، ثم العودة إلى الجزائر بعد سفر دام ثلاث سنوات، كانت رحلة تعلم ومشاهدة ومعايشة للوطن العربي في هذه الفترة من تاريخه.

وبعد سنتين، في 5 يوليو 1830 تعرَّضت الجزائر العاصمة لاقتحام سُفُن عسكرية فرنسية تمكنت من إسقاط الحاكم العثماني الداي حسين. وبعد سنتين من التوسُّع

الفرنسي ثار وُجهاءِ الجزائر ضدّ المستَعمر، ومِن بينهم الشيخ محيي الدين ومعه ابنُه عبد القادر الذي كان كثيرًا ما يقود الجيش لبراعته في ساحة الوَغى. فاقترَحه والدُه ليقود المُقاومَة وقبلَه الأعيان والعلماء وبويِع الشابُّ عبد القادر بالإمارة وعمرُه خمس وعشرون سنة. فقام بالعِبء فوق كل انتظار وفي شتى المجالات فشرع في إصلاحات عميق للمجتمع الجزائري بجانب تراتيب سياسيّة وإداريّة في غاية الدقّة والإبداع، مع مواجهة المُستَعمِر المُسلَّحة ببسالة وشجاعة؛ فقد دامت مُقاومتُه خمس عشرة سنة أذاق فيها المُحتلَّ أمرَّ الهزائم.

تسألني أمُّ البنينَ، وإنّها ... لأعلَم مَن تحت السماء بأحوالي!

ألم تعلمي يا ربَّةَ الخِدْر أنني ... أُجَلّي هُمومَ القومِ في يوم تِجْوالي

ومِن عادة السادات بالجيش تَحتمي ... وبي يحتمي جيشي وتُحرَس أبطالي

إذا ما اشتكت خيلي جِراحًا تَحَمْحُمًا ... أقول لها: صبرًا، كصبري وإجمالي!

وأبذُل يومَ الرَّوعِ نفسا كريمةً ... على أنها في السِّلْم أغلَى مِن الغالي

وعنّي سَلي جَيشَ الفرنسيس تَعلمي ... بأنّ مناياهم بسيفي وعَسّالي

فلا تَهْزَئي بي وَاعلَمي أنّني الذي ... أُهابُ، ولو أصبحتُ تحت الثَّرَى بالي

ليس قولُه 'أُهابُ، ولو أصبحتُ تحت الثَّرَى بالي'، أي باليًا، حذف التنوين للضرورة الشعريّة. نقول: ليس هذا من قَبيل التصوير البلاغي العَقيم الذي لا حقيقةَ له، بل هو حقيقة لَكم ظهرت بعد وفاة الأمير، فالعُقلاءُ في أرجاء الدنيا يحترمونَه ويهابونَه، وأمّا السُّفهاء والأوغاد فكلٌّ حسَب درجته. وهذه شهادتي: ذاتَ يوم وأنا راجعٍ مع أحَد مَعارِفي مِن صلاة العصر بجامع الغزالي بالجزائر العاصمة، جاء حديثُنا في ذكر الصالحين

من أئمّة التصوُّف، فالتحقَ بنا ثالِثٌ لا أعرفُه إلا أنّي كنتُ أراه أحينًا في المسجد. ولَمَّا جاءَ ذكرُ الأمير وما ترك من علوم جَمَّة في التصوُّف قال ثالثُنا: عمَّن تتحدّثان، أعن ذلك الزّنديق؟ فقلتُ له، وقد جفّ الدم في عُروقي من رَوْع ما قال: اِرجعْ عن هذا واستَغفِرِ الله فقد كفَّرتَ مُسلِما! فما ازداد الْمِسكينُ إلاّ حَنَقًا وسَفاهة، فسكتتُ عنه رحمَةً به وأنا في ذُعْر ممّا قد يحصلُ له من جرّاء ما اجتَرَح. وفيما تلَى من أيّامٍ لَم أكن أراه بالمسجد ولا في الطريق، فسألتُ عنه فقيل لي أنّه فقَد عقلَه. فرأيتُه بعد أسابيع يمشي رافعًا ووجهَه نحوَ السماء، فاقتربتُ منه فإذا به يتلفَّظ بأشياء غير مَفهومة، وكان في قذارة في ذاته وثيابه تبعثُ على الشَّفقة. طال به ذلك الداءُ أشهُرَ كثيرةً ثم تداركَه الله برحمته وزال عنه ما أصابَه، ولكنَّني لَم أكلِّمه أبدًا. فأنا صَخر بن حسين أشهد أمامَ الله على هذا، وأشهد أن الأمير عبد القادر وليٌّ قد بلَغ أعلى درجات القُربَة، وأشهد أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: «قال اللهُ: مَن عادَى لي وَلِياًّ فقد آذنتُه بالْحَرْب!»[251] فنَصْبُ العداوة لأَولياء الله تَعرُّضٌ لبلاء عظيم منه تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا؛ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُور!﴾ [الحج 38] وأصل الوَلاية القُرب ﴿إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي

---

[251] قل رسولُ الله «قل الله تعالى: مَن عادَى لي وَلِيّا، فقد آذَنتُه بحرب! وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مِما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافِل حتى أُحِبَّه. فإذا أَحبَبتُه كُنتُ سَمعَه الذي يسمع به وبَصرَه الذي يُبصر به ويدَه التي يَبطِشُ بها ورِجلَه التي يَمشي بها؛ وإن سَألَني لأُعْطِيَنَّه ولئن اِستَعاذَ بي لأُعيذَنَّه! وما تردَّدتُ عن شيء، أنا فاعلُه، تَردُّدي عن نَفس الْمؤمن؛ يَكرَه الْمَوتَ وأنا أَكرَه مَساءَتَه!» خرجه البخاري وابن حِبان وله شواهد عن عائشة عند أحمد، وعند ابن ماجة والحاكم عن عمر، وعند الطبراني في 'الكبير' عن ابن عباس.

عَنِّي فَإِنِّي قَرِيب﴾ [البقرة 186]، فكلّ مَن شعرَ بقرب الله وهو مؤمنٌ متّقٍ فهو وليٌّ من أولياء الله: ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَة؛ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ!﴾ [يونس 62-64]، وفي الآيات تقديم وتأخير، فمَفهومُها 'ألا إن أولياء الله، الذين آمنوا وكانوا يتّقون، لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون'؛ وعليه، فكل مَن وجدناه ذا إيمان وتَقوى شهدنا له بالوَلاية، خلافًا لِلّذين يمنعون مِن نَعت أحد الناس بأنّه وليٌّ لله، حتى لا يُزكّى أحدٌ بعينِه على الله بزَعمهم، وهذا جهلٌ بروح الدين.

قوله ﴿لا تُزَكُّوا أَنفُسَكُم﴾ [النجم 32] معناه لا تشهدوا لأنفسكم بالبراءة من الذّنوب وقولوا كما قال النبيُّ يوسف ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوء!﴾ [يوسف 53] فأين مَن يتمادَح مِمّن يشهد الناسُ له بالخير؟! صَحّ عن أنس بن مالك أنّه قال: مُرَّ على النبيِّ بجَنازة، فأَثنَوا عليها خيرا، فقال «وَجَبَتْ»، ثم مُرَّ بأخرى فَأَثْنَوا عليها شرّا فقال «وجبت». فقيل: يا رسولَ الله، قلتَ لهذا «وجبت» ولهذا «وجبت»؟ قال «شهادةُ القوم؛ المؤمنون شُهداءُ الله في الأرض!»[252] وقال «إذا رأيتم الرجلَ يَعتادُ المَسجدَ، فاشْهَدُوا له بالإيمان: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ؛ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِين﴾ [التوبة 18]»[253] فشهادتنا لأحدٍ بالولاية عملٌ بالقرآن والسنّة.

نرجع إلى صور الأمير والمغزى منها. جاء تحت أول صورة أبياتٌ رمزيّة، أوّلُها:

---

[252] خرّجه البخاري وغيره. قولُه «وجبت» أي تقبّل الله تزكيَتكم لهذا وقَدحكم في ذاك

[253] خرجه الترمذي وابن خزيمة وابن حِبّان وغيرهم عن أبي سعيد الخدري.

لإن كان هذا الرَّسمُ يُعطيك ظاهري فليس يُريك الرسمُ صورتَنا العُظمَى

الصورة غير الْمُصوَّر ولا هي سواه في نفس الوقت؛ الصورة صورة الأمير لكنَّها غيرُ هو. يريد الأمير أن يضع أمامنا نموذجا للتَّجلّي الإلَهي في الكون. وقد اهتمّ كثيرا باختراع آلَة التَّصوير التي بَدَت في عصره. ولمّا كان كلٌّ ما يظهَر إنّما هو بمشيئة الله ﴿خَالِق كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام 102/ الرعد 16/ الزمر 62/ غافر 62] فلا يُمكِن أن يخرُج عن إرادته وخَلقه شيءٌ ألبتّة. كلٌّ ما يُرى إبداعا فإنما هم من خَلق الله ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُون وَخَلَقْنَا لَهُم مِن مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُون﴾ [يس 41-42]. ولَمّا كان الصوفِيُّ ابنَ وقته، كما يقال، اِستلمَ الأميرُ هذه النِّعمة التي منّ الله بها بحقِّها، فوضعها في إطارها الشَّرعي ووظَّفها للتعبير عن أمور لا تُدرَك بالحسّ بل بالشُّهود. وسنوضِّح إن شاء الله بعضَ ذلك فيما يأتي قدرَ الإمكان.

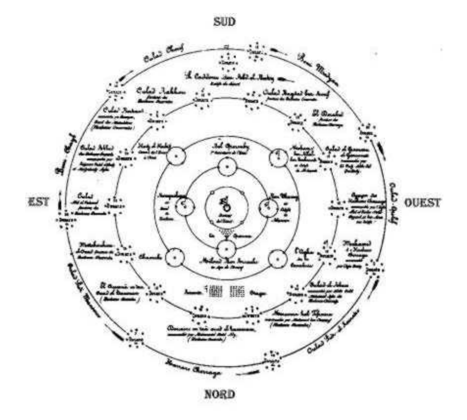


عندي من العِلم لُـــبُّه وجَوهرُه   والناسُ أعينُهم تَرنُو إلى الصَّدَفِ

فلو وجدتُ له أهلاً لبُحتُ به   مُستَخرجًا كنزَه مَحفوفا بالطُّرَفِ

لكنَّ أهلَه قد عَفوا فلا طالِبَ   نَلقاه يَسمُو إلى العَلياءِ والشَّرَف

لنرجع إلى أميرنا، قدّس الله روحَه، فلقد شهِد على شَجاعته وبطولاته وحِذْقِه في فنون القتال القاصي والداني، وجنرالات فرنسا الذين واجهوه في الميدان يشهدون. فقد أنهَك قِواهم لأزيَدَ من خمس عشرة سنة! يرجع ذلك إلى دهاء الأمير وعبقريّته العسكريّة وإستراتيجيَّته التي استلهمَها من بَداوته الأصليّة. وذلك بتأسيسه مدينة متنقِّلة سمّاها 'الزمالَة'، ومعناها باللهجة الْمَغربيّة الجماعة. وهي عبارة عن مُخيَّم ضخم مركَّب من 368 دُوّار، كل دوار يضم بين 15 إلى 20 خيمة. فالزمالة تتشكَّل من دوائرَ ذات مركز واحد، بحيث أنّ الأمير إذا ضربَ خيمتَه في موضع مّا تشكَّلت الزمالة في حينها حسب نظام دقيق بيَّنه الأمير لقوّاده. ومَركَزُ الزمالة خيمةُ الأمير، تُحيطُ بها أَوّلُ دائرة وهي خيامُ أقربِ قُوّادِه، ثم الدائر الثالثة وهكذا إلى آخر دائرة، والتي تضمُّ عامَّة من يلتحقون بالأمير إمّا للجهاد أو لِلُّجوء. كل الخَيام تضمُّ عائلات بما فيها من نساء وأطفال، ومنها ما هو للعَتاد والطب وغير ذلك من مرافق. كان عدد سكان الزمالة يفوق العشرين ألف نسَمة، من بينهم 5000 مُقاتل و1000 فارس. وهذه صورة الزمالة كما رسمها الجنرال دوماس:



اخترع الأمير بهذه الوسيلة ما سمّاه الفرنسيّون (guérilla) وهي لفظة مشتقّة من 'غارة' لأنّها عبارة عن غارات مُفاجئة كان يشنُّها الأمير انطلاقًا من الزمالة ضد أهداف محدَّدة ثم يفر إلى البوادي حيث لا يَتمكّن العَدوُّ من الردّ. كانت تلك المدينة المتنقِّلة تُشنُّ الغارات على الجيوش الفرنسيّة في شتى مناطق الجزائر، غربا وشرقًا وشمالاً وجنوبا، فإذا أحدَق بها الخطر في كل نواحي الجزائر فرَّت وراءَ الحدود إلى المغرب الأقصى. دام ذلك ما يزيد على عشرة سنين ولكنَّ عبد الرحمن ملك المغرب، خضع تحت الضغط الفرنسي، فأغلَق على الأمير حدودَه ومنعه من العُمق الاستراتيجي الذي أتاحَه له بمُقتضى التضامن الوطني والقرابة في النسَب، فكلاًّ من الأمير والملك من نَسل إدريسي. وفي شهر مايو عام 1843 وقعت معركة الزمالة بالقرب من مدينة سطيف بالشرق الجزائري وانهزم جيشُ الأمير أمام الفرنسيين بقياد الدوق دومال (Duc d'Aumal). فنفِد ما كان لدى الأمير من إمكانيات ولم يبق أمامه سوى الاستسلام للعدوّ حَقنًا لدماء من تبقّى من المجاهدين والأهالي، كان ذلك في 23 ديسمبر 1847 تجنيبا لهم من بطش الفرنسيين. اقتيد الأمير إلى فرنسا بدأً بطولون (Toulon) ثم بو (Pau) ثم أمبواز (Amboise) حيث سُجنَ لسنوات عدّة مع عائلات عديدة كانت معه، فماتَ أكثرُهم من كثرة الأسقام. وفي بداية الخمسينات أُفرج عنه شريطة ألا يعود إلى الجزائر، فسافر ومَن معه إلى بروسا بتركيا وأقام بها مدَّة ثم سُمحَ لهم جميعًا بالتوجُّه إلى دمشق.



أقول على صدقٍ لأهلِ النُّهَى طُرًّا ... ولستُ بِمُستَشنٍ لَئيمًا ولا حُرًّا

ألا خَبِّروني: أينَ ضَلَّت عُقولُكم ... وكُلُّكم يَستَهجِنُ الشَّرَّ والضُّرَّا

فَيغفَلُ عنه وهو مُنتَبِهٌ لَه ... ويَطلُبُ هذا الشرَّ؛ أَعْظِمُ به شَرًّا!

وحينَئذ يَقلاهُ كلُّ مُناصِحٍ ... ومَن مَسَّه ذا الضُّرُّ هَيهاتَ أن يَبرَا!

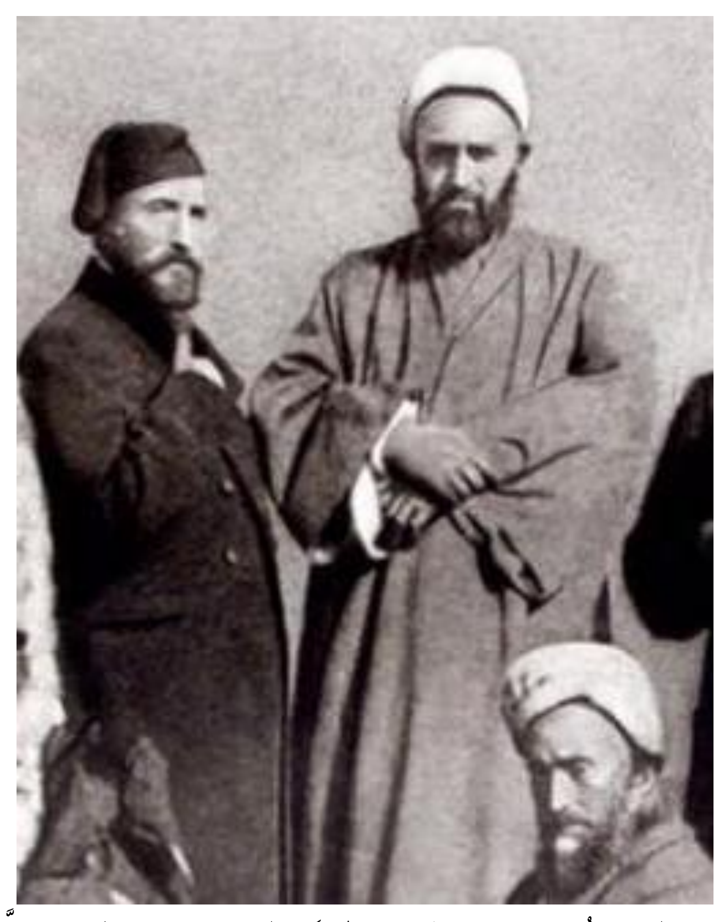
لقد اختار الأميرُ دمشقَ أوَّلَ ما سمعَ من الفرنسيين أنَّه مَنفيٌّ عن وطنِه. وبعد سنين عديدة من الصبر، قَدم على دِمَشق ليقضيَ بها آخرَ ثُلُثٍ من عُمره، رحمةُ الله عليه، فأفاد واستفاد وزار مقامات الأَجواد واجتَهد وأجاد، ودُفنَ آخرَ مَطافِه جَنبَ شيخ الأسياد الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، القائل:

رأى البرْقَ شرقيًّا، فحنّ إلى الشَّرقِ ولو لاحَ غربيًّا لَحنَّ إلى الغربِ

فإنّ غَرامي بالـــبُرَيقِ ولَمْحِـــهِ وليسَ غرَامي بالأماكِنِ والتُّرْبِ!

وبعد ساحات الوغَى ألقَى الأميرُ سيفَه، وبعد ويلات الاعتِقال بدأ الارتِحال، فاختار الشامَ ليكون به نِعمَ الحالّ. وهناك أفاد العلماءَ فنونًا لَم تَخطُر لهم ببال، ولقَّن العالَم دروسا في الخير والأخلاق شمِلَت منه الْمَقالَ والحال فكان القُدوةَ والمِثال. وهذه لُمحةٌ عن مَآثر ذاك الصوفي الذي أَثَّر أَيَّما تأثير ولا يزال:

قضَى الأمير بدمشق سبعة وعشرين عاما، من 1856 إلى وفاتِه سنةَ 1883. أَسس، لدا أوَّل وصوله، ما عُرف برباط المغاربة في منطقة السويقة، وهو أحدُ أحياء دمشق ما يزال موجودا إلى اليوم. وكانت شهرةُ الأمير قد سبقته إلى دمشق، فأخذ مكانته بين العلماء والوُجهاء، وكانت له مشاركة بارزة في الحياة الدينيّة والعلمية والسياسية. قام بالتدريس في الجامع الأموي، وهو أكبر مدرسة بدمشق، فشرَح صحيحَي البخاري ومسلم وغيرهما.



الأمير عبد القادر برُفقة الإمام شامِل قائد المقاوَمة الداغستانية ضد الروس. وفَّق الله بأن اِلتقى هاذان الإمامان العظيمان في مصر سنةَ 1869، حيث توقَّف شامل وهو قاصد الحجَّ، وقد دُعي الأمير لِحضور حَفل افتتاح قناة السويس. وكانت بينهما مُراسلاتٌ قبل ذلك لِما جمعهما من أمور، على رأسها تقوى الله تعالى، وريادة الإصلاح الديني والقيادة الروحيّة والسياسيّة والعسكريّة لقومهما.

بعد أربعة أعوام من استقراره في دمشق، وفي يوليو عام 1860، وقعت المأساة. كان سببها أن إبراهيم باشا المصري طَلبَ من دروز جبل لبنان العونَ ضدَّ سوريا فرفضوا، فجرت بينه وبينهم معارك، انتصر آخرَها عليهم بمعونة النصارى. فجرّد إبراهيم باشا الدروز من أسلحتهم، نِكايةً لهم، وقوّى بها النصارى. مما أدّى إلى خلاف وشقاق بين الطائفتين قاد في آخر المطاف إلى تحالُف دُروز لبنان وحوران ووادي التَّيم فهَجموا على النصارى فقتّلوا ونَهبوا وأحرقوا من مدُنهم زَحلة ودير القمر. ثم انتقلت العَدوى وقام أوغادٌ مُتعصِّبون للبطش بنصارى دمشق. لقد كان أميرُنا على درايةٍ تامّة بما وقع في جبل لبنان وما وراء ذلك من استفزاز لتَنشبَ في المنطقة حربٌ أهليّة، وأنّ فرنسا وبريطانيّة كانتا تنتظران الفُرصة للانقضاض على سوريا والإطاحة بحكم العُثمانيّين هناك. فأعدَّ الأمير العُدّة وجمع مَن كان معه من جزائريِّين بأسلحتهم، وكانوا يزيدون على المائة وأولي تدريب وحِنكة عسكريّة. ففتح الأمير حيَّ المغاربة وبيوتَه بما فيهم بيوتَه الخاص ليلجئ المظلومين. وانتهى الأمر بتراجع الْهَمَج الرَّعاع وأُوقِفت تلك الْمَجزرة التي دامت أربعةَ أيّام وأدمَت حاضرة الشام وراحَ ضحيّتَها حوالي الخمس آلاف من أبرار الأنام. وهذه مأثرة عظيمة هزَّت مَشاعر الناس في مشارق الأرض ومغاربِها، لا تزال تُذكَر له إلى اليوم إلى جانب كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي في بلاده الجزائر. وبالجملة فقد بلغت سُمعةُ الأمير إلى أن أعطيَ اسمُه لمدينة أمريكيّة في ولاية آيُوَا سنةَ 1846، وكان آنذاك في أجيج حَربه ضدّ الفرنسيين، فسمّيت المدينة 'القادر' وهي تحتضن في مَتحفها العُمومي جناحًا خاصًّا بالأمير عبد القادر: (Elkader, Iowa USA).

كان الأمير ذا نشاط لا يفتَر، فمع دراساته الخاصّة وتدريسه كان يحافظ على أوراده وخلواته، وكانت له أسفار عديدة إلى الحج وتركيا وأوروبّا ولبنان ومصر حيث حرِص كثيرا على شقّ قناة السويس فساند وشجَّع فرديناند دي لِسَبس على الْمُضي قُدمًا في مشروعه، وفي أحرج الظُّروف التي مرَّ بها رجل الأعمال الفرنسي. وكانت له مراسلات مع كُبراء العالَم ومع شرفائه كالزعيم الدّاغستاني شميل الذي صمد في وجه الروس للدفاع عن بلاده بالقوقاز. وقد عَرَض عليه الغربيون أن يترأَّس 'المملكة العربيَّة' فرفض. فضَّل التفرَّغ للعبادة والذّكر والخَلوة. تَعَرّض الأمير أواخرَ عمره لأمراض عديدة انتهت بوفاتِه. انتقلَ إلى سعة رحمةِ الله ببيته بدمشق على السابعة من ليلة السبت 19 رجَب 1300 هـــ / 24 مايو 1883 عن 76 عاما شمسيًّا / 78 عاما قمريّا. صُلِّيَ عليه من الغد بالجامع الأموي وشُيّع جُثمانُه إلى حيّ الصالحيّة بجبل قاسيون، ودفن بِمقبَرة بني الزكي بجوار شيخه الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي، بوصيّة منه، رفع الله مقاماهما وقدَّس روحهما بجاه النبي. وأنا في ريب من قصّة نقل رُفات الأمير إلى الجزائر عام 1966، وأرجو الله أن يكون ذلك كذبًا. كُتب على شاهد ضريحه للأديب عبد المجيد الخاني:

لِلَّهِ أُفُــقٌ صارَ مَشرِقَ دارَتـــي: قَمَرين هَلاّ مِن ديار الْمَغرِبِ
الشيخ محيي الدين خَتْم الأوليا قَمَر الفُتوحات الفريد الْمَشرَب
والفَردَ عبد القادر الحسَني الأمير قمر المواقف ذا الوليّ ابن النبي[254]

[254] بتصرُّف من كتاب 'تحفة الزائر' تأليف محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري.



أما والذي تعنو لِهَيبَـــته الورَى — وجَلَّ اعتِـــزازا أن يكون له نِدُّ

لأنتُم وإن شَطَّ الْمَزارُ بشَخصِكم — أَودُّ مِن القُربَى وأَدنَى إذا عُدُّوا

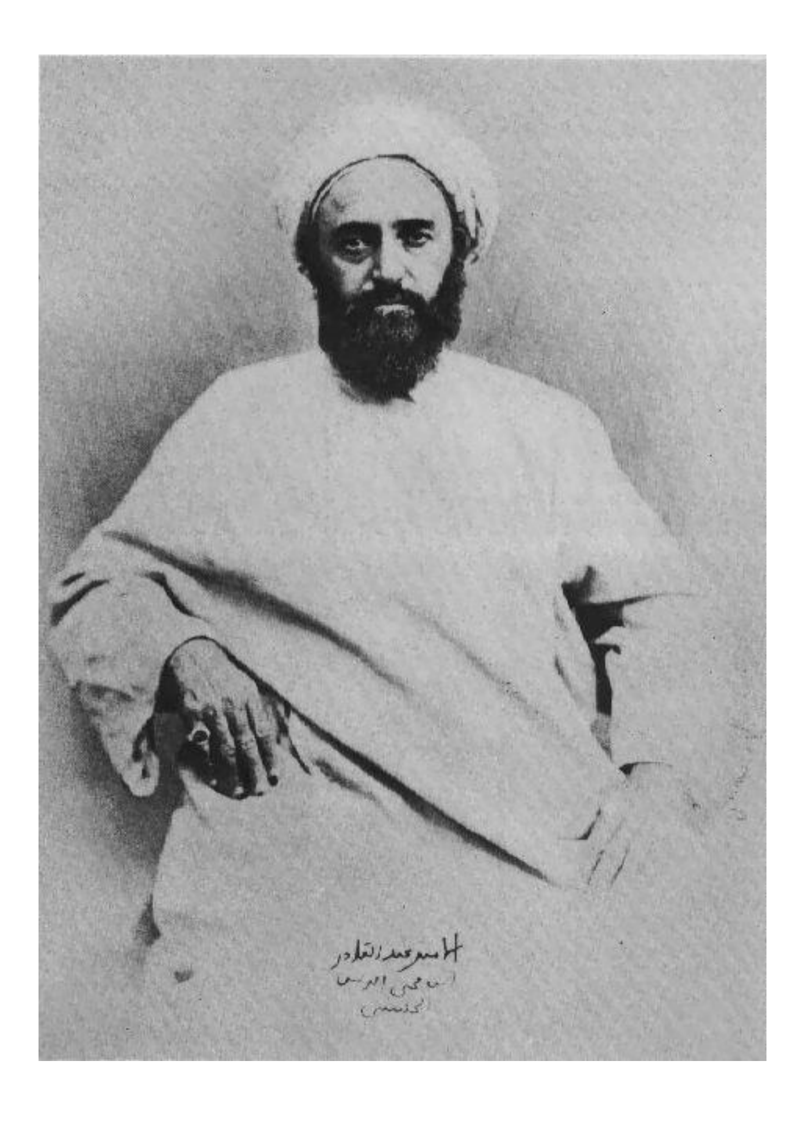
فكَم مِن بَـــعيدِ الدارِ نال مُرادَهُ — وكم مِن داني الجارِ ما ناله وُدُّ!

لم يكن أميرُنا مُجرَّد قائدٍ عسكري، وإن شهد التاريخ ببطولاته، بل كان رجلَ مَواقف؛ كان صوفيًّا بأتم معنى الكلمة. كتب إلى ديبيش (Dupuch) أُسقُف الجزائر، وقد كان بينهما ودٌّ وزاره أثناءَ سجنه بفرنسا مرارا: لَم أولَد لأكون رجُلَ حرب. بل يبدو لي أني لم أَكُنه ولا يومًا واحدا. ومع ذلك فقد حَملتُ السلاحَ طِوالَ عُمري! كان الأمير أوّل مَن طبع أوسع وأعمق وأنفَع موسوعة صوفية وهي 'الفتوحات المكيَّة' للشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي. وذلك أنّه بعث عالِمين من أصحابه إلى قونية بتركيا لتحقيقها ولطبعها على نفقته الخاصّة، وهما الشيخ محمد الطنطاوي الذي أرسله الأمير قبل وفاته باثني عشر سنة برفقة الشيخ محمد الطيب المبارك الجزائري. وكان الأمير يدرِّس كُتبَ الشيخ الأكبر وفي مقدمتها 'الفتوحات' و'فصوص الحكم' في مجالسَ خاصّة يحضُرها جماعة من كبار علماء دمشق من بينهم شيخ دمشق وإمام الجماعة النقشبندية بها العلامة الصوفي محمد الخاني، والشيخ محمد الطنطاوي، والشيخ عبد الرزاق البيطار[255].

ترك الأمير ديوانَ شعر وكتاب 'الْمِقراض الحادّ' و'ذِكرى العاقل وتنبيه الغافل' ورسائل عدّة. ولكن الكتر الذي تركه لنا أميرُنا إنّما هو 'الْمَواقف الروحية والفيوضات السُّبوحيّة'، ومع ما كُتبَ قبلَه وبعده في ميدان التصوّف فإنّه يظلُّ أهمَّ كتاب لفَهم تصوُّف الشيخ الأكبر ابن العربي خاصَّة. ولا غَروَ، فإنّه كان شيخَه بلا واسطة وإن سبقَه زمانًا بستة قُرون. ومَن لَم يَفهَم فتسليمُه له أسلَم!

---

[255] عبد الباقي مفتاح رسالة 'الرد على من أنكر نسبة المواقف للأمير عبد القادر'.



لا كسبَ لي بل ولا شُـــغلٌ ولا عملٌ ... ففي حديـــثِهم تَـــجْرٌ وأرباحُ

هوَى الْمُحِبِّ لدَى الْمحبوبِ حيثُ ثوَى ... وكيفما راح هَـــبَّت منه أرواحُ

أريدُ كَتمَ الْهَوى حيـــنًا فيمنعُنِـــي ... تَهتُّكي، كيفَ لا والحبُّ فضَّاحُ؟

يقول أمير البيان شكيب أرسلان: اِهتمّ الأمير عبد القادر بوقاية المسيحيِّين وأنقذ منهم عددًا وافرا... وقضى بقيّةَ حياته في مُثافنة -أي مجالَسة- العلماء وإسداء الخيرات. وكان كلَّ يوم يَقوم الفجرَ ويصلِّي الصُّبح في مسجدٍ قريب من داره في محلَّة العمارة، لا يتخلَّف عن ذلك إلا لِمرَض. وكان يتهجّد الليلَ ويُمارس الرياضة على طريقة الصوفيّة. وما زال مِثالا للبرّ والتقوى والأخلاق الفاضلة إلى أن تُوُفِّي... كان المرحوم الأمير عبد القادر مُتضلِّعًا في العِلم والأدب، ساميَ الفكر، راسخَ القدم في التصوُّف؛ لا يكتفي به نظرًا حتى يُمارسَه عملا، ولا يَحِنُّ إليه شوقا حتى يعرِفه ذَوقا. وله في التصوُّف كتاب سماه 'المواقف' فهو في هذا المَشرَب من الأفراد الأفذاذ؛ ربما لا يوجد نظيرُه في المتأخرين![256].

ذكرَه ضمنَ الأولياء الصوفي الفقيه قاضي المحكمة الشرعية ببيروت، يوسف النَّبهاني (1849–1931) يقول: الإمام العرف بالله السيد الشريف الحسني الأمير عبد القادر... له كرامات كثيرة، وكان من أكابر العارفين بالله مع الأخلاق المحمدية والكمالات الدينية والدنوية والشُّهرة التي ملأت الخافقين. ولَم يقَع في كونه من أفراد عصره خلافٌ بين اثنين. ومن أجلّ مناقبه وأعظم كراماته التي لا تعد ولا تحصى 'مواقفُه' التي جمع فيها وارداتِه وعبّر عنها بـــ'الْمَواقف'. فقد اشتملت من العلوم والمَعارف والأسرار على ما لا يدخُل تحت الحساب ولا يمكن أن يستفاد من قراءة كتاب وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[257].

---

[256] 'حاضر العالم الإسلامي' 172/2، دار الفكر.

[257] 'جامع كرامات الأولياء' 217/2، مركز أهل السنة، غجرات الهند

كان النَّبهاني مُعاصرًا للأميرَ، وقد تتلمذ كلاهُما على الشيخ محمد بن مسعود الفاسي الدَّرقاوي الشاذلي الذي فتح الله على يديه للأمير حتى ارتقى في معارج الأسرار إلى حَضائر القُدُس والأنوار وجاءه الفتحُ الربّاني وانفجرت الوارداتُ في قلبِه فنطق بالحكمة لسانُه، وقد نظم الأمير قصيدةً تزيد على المائة بيت في مَدح شيخه الفاسي منها:

أمسعودُ جاءِ السعدُ والخير واليُسرُ	وولَّت جيوشُ النَّحس ليس لها ذِكرُ
ليالي صُدودٍ وانقطاعٍ وجَــفْوَةٍ	وهُجرانِ ساداتٍ؛ فلا ذُكِرَ الهَجرُ!
أتاني مُربّـــي العارفـــين بنفسه	ولا عَجب، فالشأن أضحى له أمر
وقال: فإنِّـــي منذُ أعدادِ حَجّةٍ	لَمُنتَظِـــرٌ لُـــقياك أيُّـــها البَدرُ
وأعني به شيخَ الأنام وشيخَ مَن	لَه عِمَّـــةٌ في عَذَبَةٍ وله الصَّدرُ
عِياذي ومَلاذي، عُمدتي ثم عُدَّتي	وكَهفي إذا أبدى نَواذِجَه الدَّهرُ
غياثي مِن أيدي العداة ومُنقِذي	مُنيري مُجيري عندما غمَّني الضَّمر
ومُحيي زماني بعد أن كنتُ رِمّةً	وأكسبني عُمرًا، لَعَمري؛ هو العُمر!
مُحمّـــدٌ الفاسيُّ له من مُحمَّدٍ	صَفيِّ الإلَه الحالُ والشِّيَمُ الغُـــرُّ
فقل للملوك: شأنكم وما رُمتُم	فقِسمتُكم ضِيزَى وقِسمتُنا كُثْرُ
خُذِ الدنيا والأُخرَى أباغيهما معًا	وهاتِ لنا كأسًا، نَعم، ولنا الوفرُ!
جزَى الله عنّا شيخَنا خيرَ ما جَزَى	به هاديًا، فالأجر منه هو الأجرُ
وصلُّوا على خير الورَى خيرِ مُرسَلٍ	ورُوحِ هُداة الْخَلق مُذْ وَهُم ذَرُّ



أُردِّدُ طَرْفي في الرُّسوم فلا أرى   سِوى مَن به كانت رسوما وآثارا
وأسألـُها عنه فكلٌّ أجابَنـي   بأنه ما رآه لَـيلاً ولا نَهـارا
فقلت لَهم: هذا عجيبٌ، فإنّني   ما أبصرتُـه إلاّ بكم ظِـهارا
عَجبتُ له كيف اختفَى بظُهوره   فعينُ حِجابه الظهور لا السِّتارا
ألا فاعْجَبوا من ظاهرٍ في بُطونه   ومِن باطنٍ لا زال باديًا جِهارا!

وهاك عيِّنةً مواقف أميرنا: كنتُ ليلةً بالمسجد الحرام قربَ المَطاف مُتوجِّهًا، وقد نامت العيون وهدأت الأصوات، فجلس بالقُرب مني يمينا وشمالا أناسٌ، وجعلوا يذكرون الله. فخطر في قلبي: أيُّنا أهدى سبيلا؟ فبعد الخاطر بقريب أخذني الحقّ تعالى عن العالم وعن نفسي ثم ألقى إليّ قولَه ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ!﴾ [سبأ 41]. فعلمت أن عبادتهم كانت مشوبة بأغراض نفسيّة وحظوظ شهوانية. وأقول، تبعا للمحققين من أهل الله: إن كل مَن عبد الله خوفا من النار أو طلبا للجنة، أو ذكر الله لتوسعة رزق مثلا أو لطلب الجاه أو لدفع شر ظالم، أو لحديث بلغَه أن مَن فعلَ كذا أعطاه الله كذا؛ فهذه عبادات مَعلولة، ليست عند الله بمقبولة -إلا بالفضل والمِنّة- أو أن تكون تلك النوايا خاطرة تبعا لا بالأوّليّة، وحينها فلا بأس. قال الله ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدا!﴾ [سبأ 41] وهذه الأغراض آحاد؛ فهي شركاء، والحقُّ أغنى الشركاء عن الشرك. الحقُّ أمرَ عبادَه أن يعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف 29] أي العبادة بأن لا يطلبوا جزاءً إلا وجهه، وهو يهبُهم إن شاء الأجر ويقيهم السوءَ. فكل ما سوى الحق إذا قُصد مع الحق فهو شريك، والشريك معدوم لا وجودَ له ﴿رَبّ الْعَالَمِين: لا شَرِيكَ لَه!﴾ [الأنعام 162-163]. الشريك اسمٌ بلا مُسمّى، وإليه يشير قوله ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ!﴾ [سبأ 41] والجنّ من الاجتنان وهو الاستِتار، وكل ما سوى الله فهو مستور بستر العَدَم وإن ظهر للمَحجوبين مَوجودا. والعاقل لا يراعي العدَم ولا يحسبه شيئًا فلا يقصده بشيء. وإني أقول، والله تعالى القائلُ على لساني: إنّ كلّ مَن لَم يسلوك طريق القوم -الصوفيّة- ويتحقَّق بعلومهم حتى يعرفَ نفسه فإنّه لا يصحّ له إخلاص، ولو كان أعبد الناس وأورَعهم وأشدّهم هروبا من

الخلق وأكثرهم بحثا عن دسائس النفوس وخفايا العُيوب. فإذا رحمه الله بمعرفة نفسه؛ صحّ له الإخلاصُ فتصير لديه الجنّة والنار والأجور والدرجات والخلق أجمعون كأن الله ما خلقها. فلا يُعظِّمها ولا يعتبرها، إلا مِن حيثُ أمرَه الحق باعتبارها شَرعًا وحكمةً. لأنّه حينئذ يعرف الفاعل مَن هو حقًّا ﴿اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُون!﴾ [الصافات 96] فالله خالق الخَلق وأفعالِهم، ونسبةُ الفعل إلى العبد شرعا وترتيب الثواب والعقاب على ذلك فمن وجه ذكرناه في بعض هذه المواقف[258].

ويقول: من أعظم الأمثلة للتجليّات الإلَهيّة الأجسامُ الصَّقيلَة، وبالخُصوص الْمَرايا. ومنها الآلة الشمسيَّة المسمّاة 'فوطوغراف' التي حدثت في زماننا؛ جعلها اللهُ مثالاً لتجلّيه في الصوَر الحِسِّية والخياليَّة والمِثاليّة والعقليّة. وإنّ تصوُّر تَجلّيه صعبٌ جدًّا، لذا ما تصوَّرَه الخَلق إلا بالحُلول أو التِّحاد أو السرَيان أو نَحوها من مُستحيلات..، وهذه الطائفة المَرحومة أدركت تجليات الحق تعالى في الصوَر... فما خلق الله الْمَرايا إلا ضَرْبَ مِثالٍ لتجَلِّيه[259]. اِعتَبِر، يا قارئي: ﴿لَمَّا جاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّه، قَال: رَبِّ، أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْك! قَال: لَن تَرَانِي! وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَل، فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي! فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقا!﴾ [الأعراف 143] هذا أوّلُ قدَم على طريق القَوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

[258] الموقف 4، 'المواقف الروحية والفيوضات السُّبوحيّة' 49/1، دار الكتب العلمية.

[259] الموقف 248 'المواقف' 465/1-466.



أرَى الذي أفناني سيَخلُقُني بعدُ　　يقوم بِرسْمنا فيَشمَـــلُه الْحَدُّ

فما بالَهم يدعونه: عبدَ القادِر!　　ولَم يَبقَ إلاّ قادِرٌ ما له عَبدُ!

لقد بادَ مَن قد كان مِن قبلُ بائِدًا　　وزالَ خيالُ الظِّلِّ وارتَفَع السَّدُّ

فلستُ أنا ذاك الذي تَعرفونَه　　ألا فاطلبوا مَن ذا يُكلِّمكم قصدُ